

مجلة تراثية فصلية محكمة

تصدرها دار الشؤون الثقافية العامة / وزارة الثقافة

السنة(٤٠) المجلد الاربعون/ العدد الاول ٢٠١٣م/١٤٣٤هـ

البريد الالكتروني dar_iraqculture@yahoo.com

عنوان المراسلة

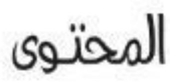
دار الشؤون الثقافية العامة / حي تونس- الأعظمية ص.ب: ٤٠٣٢ بغداد/جمهورية العراق هاتف ٤٤٣٦٠٤٤ فاكس:٤٤٦٧٦٠

المشاركة السنوية

أفراد/١٢٠٠٠ دينار: مؤسسات ٢٢٠٠٠ دينار/ داخل العراق.... أفراد /٨٢ دولار.. مؤسسات /٦٢ دولار/الدول العربية

أفراد٨٧/دولار.... مؤسسات/٧٢ دولار/الدول الاجنبية





المحتوى



دراسات فكريـة

دراسات لغويـة

مـلف العـدد "بغداد عاصمة الثقافة العربية "

نـص ونقـد

عـرض ونقـد

متابعات ثقافية

المورد
العدد الأول
لسنة/٢٠١٣

دور الحوار في إشاعة التسامح ونبذ التعصب
"الجاحظ أنموذجا"



أ.د.ابتسام مرهون الصفار
جامعة الزيتونة/الأردن

الحوار أهم مقوم من مقومات التواصل الفكري والثقافي والاجتماعي في المجتمع الواحد والمجتمعات المختلفة. وهو ضرورة ملحة في العصور التي تشهد متغيرات جذرية وتيارات متنوعة، ليخلق نوعا من التوازن والتعايش، وإشاعة روح التسامح عوض العنف والنفرة.

إن غياب الحوار يؤدي غالبا إلى تعميق الخلافات، ومن ثم إلى النفرة المؤدية بالتدريج الى العداوة، فالنزاع فالحرب في المجتمعات المتحاربة المتنافرة.

ولابدّ إذن من تفعيل روح الحوار في ثقافتنا المعاصرة،وترسيخ مقوماته وأهدافه . وهذا لا يتحقق إلا باتخاذ آليتين في آن واحد:

الأولى: البحث عن آلية الحوار في التراث الثقافي والاسلامي

والآلية الثانية تتعلق بضرورة الاطلاع على آليات التواصل في العصر الحديث[1]

لقد شهد العصر الحديث تزايد الاهتمام بثقافة الحوار من خلال عقد المؤتمرات المحلية[١] والدولية وتنظيم الندوات التي يشترط فيها أن تتوافر أجواء الحوار والمناظرة والتسامح، واتسع الحوار بتطور التقنيات الحديثة،فصرنا نشهدها في التلفزة ومواقع الانترنيت واستقرت ضوابط الحوار وآلياته. واحتدم ما يسمى بحوار الحضارات وجها من وجوه الصراع الديني والأممي في العصر الحديث . من هنا تبدو اهمية البحث عن ثقافة الحوار في التراث العربي الإسلامي ضرورة ملحة تجعلنا واثقين بأن الحوار والتسامح ليسا بدعتين من بدع الثقافة المعاصرة، وإنما هما آليتان عرفتهما الثقافة العربية الإسلامية، فهي ثقافة تواصل وحوار؛ لأن الاسلام توجه الى الناس كافة، إنه اتخذ الإقناع والحوار وسيلتين للتبليغ وتكفي الآيات الكريمة التي تحدد نوعية الحوار والجدال الواجب الالتزام بهما مع المختلفين من أصحاب الأفكار والمذاهب والملل وأصحاب الديانات الأخرى، ويمكن أن تتلخص فيما يأتي:

١- وجوب ان يكون الجدال بالطريقة الحسنة المثلى ومؤديا الى تفاهم وتفهم، فاذا انقطع التواصل وصعب الحوار والجدال، فلا سبيل إلى التحارب، إنما يكفي البقاء على الرأي، وترك الآخر محتفظا برأيه (ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا امنا بالذي ...)

٢ - الأمر بعدم التعصب في الجدال حتى مع وجود العداوة والبغضاء؛ لأن الأصل هو العدل في كل شيء(ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألاّ تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى)

٣ - اتباع الحوار الهادئ مع أصحاب الديانات الأخرى الذين سمّاهم الله أهل الكتاب، اعترافا بكونهم يتبعون الكتب المنزلة (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن..)

وحين اتسعت الرقعة الاسلامية، ودخلت في الاسلام أقوام من أمم وأجناس مختلفة، وتداخلت الثقافات، احتاج المسلمون إلى تفعيل الحوار والمناظرة معهم، ومع أصحاب الفرق والملل المختلفة. وشاع مصطلح المناظرة والمناظرات والجدل وآداب الجدل والحوار، وردت هذه المصطلحات في ثنايا بعض المؤلفات العربية[٢]، وعرّفتها كتب المعاجم والمصطلحات القديمة.

ولا تشكل العودة إلى التراث الرغبة في تأصيل الحوار في الثقافة العربية القديمة فحسب،وإنما لتفعيل هذه الثقافة بعد أن مرت على الأمة قرون من التخلف والجهل

وقد اخترنا الحديث عن آلية الحوار عند أديب مشهور، اتخذ الحوار جسرا للتفاهم مع الدخيل من الثقافات المتنوعة في عصره.

عاش الجاحظ الأديب في عصر كثر فيه التنوع الجنسي والثقافي، واشتدت فيه المواجهات الفكرية بين أصحاب الفرق الدينية وبين الانتماءات القومية المتنوعة، بين العرب والعجم، وبين المسلمين وغيرهم من أصحاب الملل والأديان الاخرى.وكان

عصره عصر تحاور بين الثقافات والأديان.

في هذه الأجواء كان الجاحظ قــامة متميزة خاضت غمار هذه التناقضات بعقلانية ممتعة وتسامح عقلي. وكانت حــواراته مع الآخر معتمدة على قــدرته على التفكير الحر والتحليل والاستنباط، وبكونه بــالدرجة الأولى أديبا متميزا، اتخذ الأدب وســيلة من وســائل الاتصال والإقناع والتفاهم.

لقد أسهم الجاحظ في إرساء مفاهيم عقلية من خلال تطبيقه لها و استوعب ثقــافة عصره، وهي آلية لابــد منها لمن يريد أن يتعايش مع ثقـــافة عصره، ويمكنه الاستيعاب وفهم الرأي الآخر والرد عليه أو قبوله. لقد كثر في كتب الجاحظ ما يدل على استيعابه لثقافة عصره الأصيلة والدخيلة، نجد هذا حتى في معالجاته للقــضايا البلاغية فيقــول: قــيل للرومي: ما البــلاغة ؟ وقــيل للفارســي ماالبــلاغة؟ ويورد لمعاصريه أقــوالا عن مفاهيمهم للبلاغة أو الفصاحة[1]، ومثل هذا شــائع في مؤلفاته .

وكانت الترجمة التي أكثر الجاحظ الحديث عنها وسيلة من وســائل الاتصال عنده لفهم الآخر أو مناقشــته أو الاخذ عنه

لقد صرح الجاحظ في كتاب الحيوان بأن كتابــه يمثل ثقــافة عصره (فهو كتاب تســتوي فيه رغبــة الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربيا أعرابيا وإسلاميا جماعيا، فقد أخذ من طرف الفلسفة)[2] وما هذا الوصف لكتاب الحيوان إلا لأن الجاحظ جمع فيه خبرته وثقافته، وجمع فيه كل ما وصل إليه من ثقــافة العرب وعلومهم وثقافة الأمم الأخرى، وهو السبيل الوحــيد للتفاهم ومعرفة الآخرين.

والجديد عند الجاحظ دعوته الى نبــذ العصبــيات القومية، والى التعاون بــين مختلف الأمم التي مهما اختلفت لغاتها ومزاياها وعاداتها وألوانها ونزعاتها تشترك في رباط يجمعها وتآخ بينها، هي الانتماء الى النوع الانساني[3]

وقــد حــفلت مؤلفاته خاصة الحــيوان والبــيان والتبيين[4] بأقوال وأفكار ينقــلها عن الأمم الأخرى، وهي تنبئ عن فكر العصر وفكر الجاحظ في آن واحد. فكر العصر، لأن كثرة الترجمة عن الفارسية والهندية واليونانية تدل على النضج العقــلي الذي وصلت إليه الثقافة العربية الإسلامية، بحيث أنها انفتحت على ما عند الآخر من علوم وفلســـفة، دون أن تتعصب، أو تغالي بعدّ أصحــاب الأمم الأخرى طارئين أو معادين. وأما ما تدل عليه هذه الترجمات والنقـــول عن الأمم الأخرى عند الجاحظ، فتدلنا فعلا على عقليته المتفتحة ــ الباحثة عن الحقيقة وطلبها أينما تكون، وهو بهذا يطبق مقولة الرســول عليه الصلاة والســلام بــأن الحكمة ضالة المؤمن.

لم يعد الجاحظ أصحاب الأمم الأخرى مســلمين او غيــر مســـلمين معــادين أومخــالفين كليا للفكر الإســـلامي،وإنما أخذ عنهم كثيرا من المعارف،ولم يحــاورهم إلا في القــضايا التي تحــتمل الأخذ والرد والحوار. وإذا كان الجاحظ أول من ناقش الشعوبــية وردّ عليهم، فإنه قبل منهم ما رآه موافقا للحــق الذي

يعتقده، وحاورهم فيما يقبل الحوار والرد.

ومن شواهد استيعابه لثقافة عصره ما وجدناه من سوقــه أمثلة من كلام المولدين والاعاجم الناطقــين بالعربية، ولكن في ألســنتهم عجمة، يوردها في مجال مناقشة تعريف مهم لمدلول البلاغة عند العتّابي مثلا[٨].

فما هي مقومات الحوار عنده؟وما آلياته؟

أما مقومات الحــوار عند الجاحــظ، فتشــكل ثقــافة متكاملة، ومنهجا أدبيا وفكريا قــلّما خلا منها كتاب من كتبه في أي ميدان من ميادين المعرفة التي خاضها[٩].

ونستطيع أن نستخلص مقومات الحوار عنده من خلال تعليقاته المتفرقة في ثنايا كتبه وأقواله منها:

١ – فهم الموضوع الذي يتحاور فيه المتحاورون، فلا يمكن أن يقوم حوار بــين اثنين لا يفهمان ما يتحــدثان عنه، وما يتناظران فيه.وقد عدهذا من مقومات الحوار في العصر الحديث وقــد عد الجاحــظ هذا الضرب من الحوار غير المجدي بأنه الحــوار الذي يثير الضحــك يقول:

وأنا استظرف أمرين اســتظرافا شــديدا: أحــدهما: اســتماع حــديث الأعراب، والأمر الآخر احــتجاج متنازعين في الكلام، وهما لا يحسنان منه شيئا، فإنهما يثيران من غريب الطيب ما يضحك كل ثكلان وإن تشدد، وكل غضبان، وإن أحرقه لهيب الغضب). ويســمي هذا النوع من الحوار والاحتجاج باحــتجاج الأغبــياء[١٠].

ويذكر طرائف من هذا النمط كجلوس رجل ظن أن سمته ولحــيته يبيحــان له التصدر والإجابــة عن الأســئلة والحوار[١١].

٢ – قبــول الآخر واحــترام رأيه، ويظهر في توكيده محاورة الآخر دون اللجوء إلى السباب والشتيمة[١٢]. وهذا توجيه يأخذ الحوار الى الهدوء، ويؤدي حــتما إلى الألفة والتسامح. ويرى أن الدفاع عن موضوع ما يقتضي احترام الجانب المخالف له، وأنه لايجوز ذكر مســاوئ الآخر إذا ارد المحــاور او المجادل ذكر محاسن موضوعه، ذكر هذا في رسالة مناقب الترك، حين بين أن قصده من تأليفه توخي العدل والإنصاف مقررا ما يأتي:

"وأنا أقول، إن كان لا يمكن ذلك في مناقب الأتراك إلاّ بذكر مثالب ســائر الأجناد، فترك ذكر الجميع أصوب، والإضراب عن هذا الكتاب أحزم.."

٢ – الدعوة إلى نبــذ التعصب الذي يعني ألاّ يغلب المرء هواه على القضية التي يريد بحثها أو عرضها يقول :

فأولى الأشياء بك القصد وترك الهوى)[١٣] ويظهر هذا في حواراته جميعا وفي حواراته الأدبية والنقدية فكانت مقولته في عرضه لرأيه في شعر أبــي نواس صالحة لتكون شعارا لثقافة الحوار والتسامح ونبــذ التعصب.

لقد فضل الجاحظ أشعار أبــي نواس في الطرديات على أشعار غيره من الشعراء المحــدثين، ورأى أن إجادته بسبب كونه عالما راوية حافظا لأشعار العرب، فضلا عن ممارسته الفعلية للصيد، ومعايشته للكلاب (وأنا أكتب لك رجزه في هذا البــاب ؛لأنه كان عالما راوية، وكان قد أحب الكلاب زمانا، وعرف منها ما لا

تعرفه الأعراب، وذلك موجود في شعره، وصفات الكلاب مستقصاة في أراجيزه، هذا مع جودة الطبع، وجودة السبك، والحذق بالصنعة). وهنا يتوقع الجاحظ ان يعترض عليه معترض ممن يتعصب للشعر القديم او للشعراء الذين من أصول عربية يفضلونهم على الشعراء المنتسبين إلى أصول فارسية فيضع قاعدة تصلح -كما قلنا لتكون قاعدة لنبذ التعصب فيقول:

(وإن تأملت شعره فضّلته، إلاّ أن تعترض عليك فيه العصبية أو ترى أن أهل البدو أبدا أشعر، وأن المولدين لا يقاربونهم في شيء، فإن اعترض هذا الباب عليك فإنك لا تبصر الحق مادمت مغلوبا).[14]

وحين يذكر بيتا لمهلهل يعلق عليه مفضلا فيه أبا نواس على الشاعر الجاهلي يقول: وأبيات أبي نواس على أنه مولد شاطر أشعر من مهلهل في إطراق الناس في مجلس كليب[15]

إن التعصب في رأي الجاحظ، بأي شكل من أشكاله يجعل صاحبه مستلبا من الموضوعية، مستلبا من النور الذي يريه الحقيقة، فإذا تعصب المرء غلبه هواه، ولم يستطع رؤية الحقيقة.

٤ – التواضع والإنصاف: أنا ازعم ان الناس يحتاجون بدءا الى طبيعة ثم الى معرفة ثم الى انصاف واول ما ينبغي ان يبتدئ به صاحب الانصاف امره الا يعطي نفسه فوق حقها والا يضعها دون مكانها[16]

٥ – دعوته الى التسامح وقد امتدح الحوار واتخاذ اسلوب المحاججة،وذكر أن العرب كانوا يمدحون ظهور الحجة. وحرص على تأكيد شيوع المسامحة والتأني، ففي كتابه الآمل والمأمول عقد بابا سماه (باب إحماد التؤدة والرفق)، ونقل فيه أقوالا للرسول صلى الله عليه وسلم منها قوله عليه الصلاة والسلام للسيدة عائشة :

((عليك بالرفق؛ فإن الرفق لا يخالط شيئا إلاّ زانه، ولا يفارق شيئا إلاّ شانه))[17]

ان الذي يدفع الانسان الى التعصب مبالغته بالتشبث بآرائه، وعدها الأصوب والأحسن. وهنا نجد الجاحظ يخصص بابا يجمع فيه اقوالا تدعو الى التوسط وعدم المبالغة :

ويروي عن النبي صلى الله عليه وسلم خالطوا الناس وزايلوهم .

(وكن من الناس جميعا الوسط ... وليكن كلامك ما بين المقصر والغالي، فإنك تسلم من المحنة[18].) إنها نظرة حصيفة ثاقبة تجد التعصب مؤديا الى المحنة بكل أشكالها محنة فكرية اوواقعية او اجتماعية، بينما يفتح التسامح أبوابا للتعايش والتوافق

وهو يكثر في مقدمات كتبه من الدعاء للقارئ المفترض وفيه تجده يؤكد قضايا مهمة تتعلق بمنهجه الفكري (وهب الله لك حب الاستماع، واشعر قلبك حسن التبين، وجعل أحسن الأمور في عينيك وأحلاها في صدرك...علما تقيّده،وضالا ترشده، وأعاذك من التكلف وعصمك من التلون وبغض اليك اللجاج وكره اليك الاستبداد)[19]

يلاحظ هنا توكيد الجاحظ السلامة من الاستبداد الذي يعني فيما يعنيه أن يستبد المرء برأيه في

مواقف لا يلجأ فيها الى الصواب والاعتدال . وإن غاية الجاحظ هنا العلم وتقييده وتكريه اللجاج الذي هو آفة العلم وحائلا دون الوصول إلى الحقيقة، لأن الذي يلجأ إلى اللجاج وربما يصر على خطإه جهلا وتعصبا.

وذكر خبر عن الجاحظ يمكن أن يضرب مثلا لعدم تعصبه أو إصراره على الخطأ إذا حاوره أحدهم أو ناقشه في رأي من آرائه. روي الخبر عن يحيى بن علي عن أبيه أنه قال (قلت للجاحظ:

إني قرأت في فصل من كتابك المسمّى البيان والتبيين ان مما يستحسن من النساء اللحن في الكلام واستشهدت ببيتي مالك بن أسماء يعني قوله:

وحديث ألذه هو مما

ينعت الناعتون يوزن وزنا

منطق صائب وتلحن أحيا

نا وخير الكلام ما كان لحنا

قال هوكذاك.

قلت: افما سمعت بخبر هند بنت أسماء بن خارجة مع الحجاج حين لحنت في كلامها فعاب ذلك عليها فاحتجت ببيتي أخيها فقال لها: إن أخاك أراد ان المرأة فطنة، فهي تلحن بالكلام الى غير المعنى في الظاهر، لتستر معناه وتوري عنه، ويفهمه من أرادت بالتعريض كما قال تعالى: (ولتعرفنهم في لحن القول) ولم يرد الخطأ في الكلام، والخطأ لا يستحسن من أحد.فوجم الجاحظ ساعةً، ثم قال :

لو سقط الي هذا الخبر لما قلت ما تقدم

فقلت له: فأصلحه.

فقال: الآن وقد سار الكتاب في الآفاق هذا لا يصلح)[٢٠]

إن هذا الحوار يعطي صورة ناصعة لآلية الحوار زمن الجاحظ، فقد أخطأ الجاحظ في تفسير معنى اللحن، والشخص الذي حاوره لم يكتف بتخطئته وإنما أتى بالشاهد الذي يؤيد كلامه، فلما أسقطت الحجة صحة رأي الجاحظ لم يصر على رأيه، ولكنه لا يستطيع تصحيحه، لان ماكتبه في الكتاب قد شاع بين الناس.

٦ـ سماع أراء الغير:

لقد كان الحوار من خلال الرسائل والمؤلفات المكتوبة أسلوبا من أساليب عصر الجاحظ، فضلا عن الحوارات الشفهية والمجالس ؛ ولهذا وجدنا الجاحظ يلتفت إلى هذا الجانب، ولا ينسى ضوابطه، فيدعو إلى الإنصاف في الحوار؛ وذلك بأن يكون أمينا في نقل أخبار الآخر ممن يسميه خصما قبل أن يرد عليه، وألاّ يأخذه التعصب في إهمال رأيه بحجة مخالفته لفكره ورأيه يقول: ولا عذر لمن كتب كتابا، وقد غاب عنه خصمه، وقد تكفل بالإخبار عنه في ترك الحيطة له، والقيام بكل ما احتمله قوله، كما أنه لا عذر له في التقصير عن فساد كلّ قول خالف عليه، وضادّ مذهبه عند من قرأ كتابه، وتفهم إدخاله، لأن أقلّ ما يزيل عذره ويزيل علته، أن قول خصمه قد استهدف لخصمه، وأصحر للسانه، ومكّنه من نفسه وسلّطه على إظهار عورته .)[٢١]

إن عرض آراء الآخرين لمحاورتها تقتضي عند الجاحظ أن يكون العرض أمينا، لأن الخصم غائب،

وغيابه مدعاة لإيفاء حقه، كما أن الأمانة في نقل الآراء تعني عدم تعصب المحاور لمجرد المخالفة. والجاحظ هنا يتحدث عن ضوابط الحوار في المؤلفات.

٧ -اتخاذ الحوار والمناظرة أسلوبين في فهم الآخر والرد عليه: ويدعو الى اتخاذ الحوار طريقا للوصول الى الحقيقة نفهم هذا من خلال حديثه عن جماعة يصفهم بأنهم لا يحكمون عقولهم فيما يجمعون ويروون،وأنهم لو كانوا يروون الأمور مع عللها وبراهينها خفّت المؤونة[22]

ونجد عند الجاحظ التفاتة ذكية في تعليل ما ينوب بعض الناس من تعصب شديد يبعده عن الاعتراف بالخطأ أوقبول رأي الآخر حين يكون الاطلاع على رأي الآخر أو حواره مشافهة ومواجهة وذلك أنه يرى أن المواجهة المباشرة في الحوار تثير في نفوس المتحاورين الاعتداد بالرأي والأنفة من التراجع مما يوصل إلى المغالطة، والابتعاد عن فهم الخصم أوالحوار معه، ويؤدي بعد هذا الى الكراهية والبغضاء ويرى أن قراءة الآراء والأفكار من خلال المؤلفات والرد عليها أكثر ضمانا لموضوعية الحوار. يقول:

(على أن قراءة الكتب أبلغ في إرشادهم من تلاقيهم، إذ كان مع التلاقي يكثر التظالم، وتفرط النصرة وتشتد الحمية وعند المواجهة يفرط حب الغلبة وشهوة المباهاة والرياسة، مع الاستحياء من الرجوع، والأنفة من الخضوع، وعن جميع ذلك تحدث الضغائن،ويظهر التباين . وإذا كانت القلوب على هذه الصفة وهذه الحلية امتنعت من المعرفة وعميت عن الدلالة) [23]

تطبيقاته:

ونستطيع أن نرى دروسا تطبيقية لموقف الجاحظ وتعامله مع الشعراء الذين يختلف معهم في الفكر أو السلوك مثل مواقفه وتعليقاته على أشعار الشاعرين بشار بن برد وأبي نواس . أما بشار بن برد فقد نعى عليه الجاحظ إعلانه تفضيل النار على التراب.

ولكنه لايأخذه التعصب إزاء هذا الشاعر الذي كان من رجال المعتزلة، وانقلب عليهم وهجاهم. إن تغير موقف بآراء المخالف لتفكير الجاحظ الاعتزالي لم يجعله متعصبا ضده، إنما وقف من شعره موقفا يدل على نظرة نقدية بعيدة عن التعصب وتعطينا درسا تطبيقيا عن الموضوعية والتسامح ؛ يظهر هذا في الشواهدالآتية:

ذكر الجاحظ بيتين لبشار يخاطب فيهما فتاة ومتغزلا بعد ذكره لبيت شعري للأعشى وهما (بيتا بشار):

وخذي ملابس زينة ومصبغات فهي أفخر

وإذا دخلت تقنعي بالحمر إن الحسن أحمر

فيقول معلقا:(وهذان أعميان، وقد اهتديا الى حقائق الامور، ولبشار خاصة في هذا الباب ما ليس لأحد[24]). يريد تفضيله لبشار على سائر الشعراء في قدرته على التصوير المعتمد على التلوين.

ويعقد مقارنة بين بشار بن برد وعمرو بن كلثوم في وصف الغبار الذي تثيره سنابك الخيل في المعارك، فيرى أن تصوير بشار أجمل من تصوير عمرو بن كلثوم،وإن كان قد أخذه من الأخير، لان قول بشار هو الذي غلب وشاع[25]

ومع ان الجاحظ من المعتزلة والمفروض أن يقف موقف الغاضب من بشار لخروجه على الاعتزال، نجده يقف موقف المتسامح معه. ذكر له بيتين في مديحه لواصل بن عطاء[26]، ويعقب في موضع آخر متحدثا عن محاربة المعتزلة له، وأنه حين انقلب عليهم (ومقاتله لهم بادية هجوه ونفوه، فما زال غائبا حتّى مات عمرو بن عبيد....)[27]. إن استخدام الجاحظ للفظ الغائب عليهم أي المعتزلة دلالة على تسامحه، ليس بالنسبة لما اتهم به بشار من كفر، ولكنه تسامح في ذكر ما لبشار وما عليه، ويوحي النص بعدم موافقته على نفي بشار أو الترصد لقتله.

ومن أمثلة تسامحه أنه لم يكتف بالشواهد الشعرية التي قالها شعراء يرتضي دينهم، وإنما نقل عن آخرين لم يتحرج من وصفهم بسلوكهم الذي عرفوا به، كأن يروي عن أحد معاصريه ويصفه بأنه كان ماجنا خليعا كثير العبث، متمردا إلاّ أن كلامه، وإن كان في الهزل فإنه يدخل في باب الجد[28]

وحين يذكر المطبوعين من الشعراء المولدين يذكر بشارا العقيلي والسيد الحميري وأبا العتاهية وابن ابي عيينة....[29]

ونجد تطبيقات الجاحظ في تآليفه الأدبية التي يرسخ فيها دعوته الى التسامح، فكتاب البيان والتبيين ليس كتاب ترجمة وسير لأعلام الشعراء، ولكنه عرض يرسخ مبدأ التسامح في ذكره لنماذج من الشعراء مختلفين فكريا وسياسيا، ومع ذلك فهم متعايشون، لم يأخذهم الجهل والتعصب إلى العنف أو سوء التعامل

ذكر صداقة الكميت للطرماح (ولم ير الناس أعجب حالا من الكميت والطرماح ..ويذكر صداقة عبد الله بن يزيد الإباضي وهشام بن الحكم الرافضي، فإنهما صارا إلى المشاركة بعد الخلطة والمصاحبة، وذكر صداقة خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة مع ما بينهما مما يدعو الى المفارقة بعد المنافسة والمحاسدة للذي اجتمع فيهما من اتفاق الصناعة والقرابة والمجاورة .فكان يقال: لولا أنهما أحكم تميم لتباينا تباين الأسد والنمر.[30]

والنص الأخير يعني أن الجاحظ يرى في التسامح والمعايشة حكمة، بل أحسن مراتبها

٢ -حواراته الأدبية والفكرية مع خصومه ممن شهروا بمعاداته والترصد لعيوبه ومؤلفاته. وقد عرض حجج الخصوم ودفاعاتهم قبل إبداء آرائه الشخصية وفيها يبدو منهج الجاحظ واضحا في الحوار، فهو يعمد إلى إيفاء حقوق أصحاب الملل والفرق حقهم في الدفاع عن آرائهم، والاحتجاج لها، بينما يتخذ آخرون منهج الهجوم على الآخر وتسفيه آرائهم.

وقد اتخذ خصوم الجاحظ منهجه الرائد في فهم الآخر وحواره مطعنا لعلمه وتفكيره، ونقل هو نفسه هذه المطاعن وردّ عليها من خلال حوار ذكي في مقدمة كتابه الحيوان، اذ ردّ على من يعيب عليه التأليف في موضوعات يعدّها الطاعن عليه خصوما لا يستحقون الكتابة عنهم أو الدفاع عن أفكارهم. ولعل هذا الذي ينقل رأيه في مقدمة الحيوان هو القارئ

المفترض الذي يفترض الجاحـظ وجوده متوقـعا من خلال مخاطبته طعن معاصريه في تأليفه وتفكيره، وهي تآليف في موضوعات شـتى تخص قـضايا مجتمع الجاحـظ المعاصر، كما تخص الموروث القـديم في الحضارة العربية الاسلامية أو حضارة الشعوب الأخرى من فرس وهند وروم ممن كانت لهم عبـادات وعادات وظواهر حضارية قد لا يقبلها المسلم، ولا يود كثير من المؤلفين الكتابة عنهم. إن العيوب التي سردها الجاحظ على لسان خصمه كثيرة تناولت معظم مؤلفاته التي لم تصل إلينا: (وعبتني بكتاب الأصنام، وبـذكر اعتلالات الهند لها، وسبب عبادة العرب إياها...)[٣٢]

واما ما يتعلق باحـتجاج خصوم الجاحـظ عليه فيما يتعلق بالحياة الفكرية والسياسية فتظهر في قول:

(وعبـتني برسـائل الهاشـميات واحـتجاجي فيها، واستقصائي معانيهاوتصويري لها في أحسـن صورة، وإظهاري لها في أتم جلية . وزعمت أني قـد خرجت بذلك من حدّ المعتزلة إلى حدّ الزيدية ومن حدّ الاعتدال في التشيع والاقتصاد فيه إلى حـدّ السـرف والإفراط فيه)[٣٣]

هذه الرسالة ضمنها الأربلي في كتابه كشـف الغمة في معرفة الأئمة وسمّاها الحاجري (رسالة في علي بن أبي طالب)[٣٤] وتعد من الرسائل التي يعبر فيها الجاحظ عن شخصيته من غير ناحية من نواحيه، وما تجلوه به من صورة الرجل السمح الواسـع الأفق، البـعيد عن التزمت، القريب من النهج الاوسـط في رؤيته للأمور، وتناوله لها، ووضعها في أقدارها (والرأي كل الرأي ألاّ دعوك حب الصحابة الى بحـث عترة رسـول الـله صلى الـله عليه وسلّم حقوقهم وحظوظهم)[٣٥]

ويشير الجاحظ الى موضوع آخر من الموضوعات التي ألف فيها واسـتثارت غضب مناوئيه، فيذكر الكتاب الذي ألّفه في العثمانية قائلا: (وعبتني بحكاية قول العثمانية وانت تسمعني اقول اول كتابي: وقـالت العثمانية والضرارية، كما سـمعتني أقـول قـالت الرافضة والزيدية؛ فحكما علي بالنصب لحكايتي قول العثمانية ...)[٣٦]

وبعد أن يسرد الجاحـظ اسـماء مؤلفاته وما عيب عليه يرد على القارئ المفترض بما يبـين منهجه في التأليف والحوار فهو يؤلف في موضوعات قد تبـدو مرفوضة من قبل الآخرين ويحـاور فيها الآراء دون أن يأخذه التعصب فيقـف موقـف المعارض المناوئ للآخر، إنما يقف متأنيا شارحا لكل الآراء المخالفة له، واضعا نصب عينيه ألا يرد على أصحـاب الملل المختلفة إلا بعد ذكر إحتجاجاتهم وآرائهم بموضوعية تخيل للآخر المتعصب أن الجاحظ يدافع عن الخصوم ولذلك نهج الجاحظ في مؤلفاته الى الحوار الهادئ من خلال الحديث عن لسان أصحاب الملل والنحل ببسـط آرائهم واحـتجاجاتهم، مما يدل على ذهن متفتح، وعقلية تحـاول فهم الآخر. ويأتي رد الجاحـظ على ماذكر من عيوب تأليفه: (فهلاّ حكمت علي بالتشـيع لحكايتي قـول الرافضة، وهلاّ كنت عندك من الغالية لحكايتي الحجج الغالية، كما كنت عندك من الناصبـة لحكايتي قول الناصبة)[٣٧].

إن تقصد الجاحظ سوق الحجج والبـراهين والأدلة على لسان من قد يكونون مناوئين للفكر السـائد يمثل منهجه الموضوعي، فالأدلة والبـراهين تعد بمثابـة ضوابط نظامية للفكرة أو الرأي[٣٨]، بينما يؤدي تقـصد إخفاء الحقيقة أو جزء منها الى التعمية وتقصد الإساءة أو التشويه

ومن أمثلة حـواره مع الآخر الذي لا يذكره ولكنه يذكر رأيه في قـضية الوضع والانتحـال ،ومناقشـته لصحةنسبة بيت للأفوه الأودي:

كشـهاب القذف يرميكم بـه

فارس فـي كفه للحرب نـار

فهو يخاطب الرواة الذين رووا البـيت ونسبـوه للأفوه،بان يوافقـهم الرأي بـأن الافوه جاهلي ولكنه ماوجد أحدا من الرواة يشك في ان القـصيدة مصنوعة ،ومع هذا لا يكتفي الجاحظ بهذا القول انما يأتي بالحجة قائلا: وبعد فمن اين علم الافوه ان الشـهب التي يراها انما هي قذف ورجم وهو جاهلي ولم يدع هذا أحد قط الا المسلمون فهذا دليل اخر على ان القصيدة مصنوعة[٣٩]

٣ – حـواراته مع أولي الأمر في المواقـف الفكرية والثقـافية التي لم يرتضها، ولكنه آثر التصدي لها بأسلوب الحوار الأدبي الجميل، مثل قـضية الدفاع عن اللغة العربـية، ووجوب تعليمها لغير العرب من الجند الأتراك خاصة. وخير ما يمثل موقفه هذا الرسالة التي كتبها بعنوان رسالة في صناعات القوّاد. وهي رسـالة قصيرة اتخذت شكل حكاية قصيرة يحدث فيها الجاحـظ حضوره مجلس الخليفة المعتصم، ويبدو أن الجاحـظ كان يحـمل هموم اللغة العربـية، خائفا عليها من العجمة أو الاندثار، فآثر أن يحـضر مجلس الخليفة ليحدثه عن فضل البـيان، موردا أخبـارا عن بـلغاء العرب وأقوالهم في فضل البيان والبلاغة والفصاحـة ولكنه يوجه الخطاب مباشـرة إلى الخليفة، ويتوقـع القارئ أنه سيطلب من الخليفة تعليم أبنائه البـلاغة والبيان، ولكننا نفاجأ بطلبـه تعليمهم (من كل الأدب، لأنك إن أفردتهم بشيء واحد ثم سـئلوا عن غيره لم يحسنوه)[٤٠]. والحكاية التي يصوغها الجاحـظ يذكر فيها رمزا دالا يبلغ الرسالة أكثر من تبليغ الحـوار أو النقاش، ولكننا نورده هنا لأنه يقوم مقام الحوار بـين من يهمل العربـية، وبـين من يرى وجوب تعليمها وإتقانها .

يدعي الجاحظ في الحكاية أنه لقـي عددا من جنود المعتصم بعد عودتهم من حرب مع الروم وسـأل كل واحد عما لقيه في تلك الحرب، فكانت إجاباتهم مثيرة للضحك، لأنهم لم يستطيعوا وصف الموقـف، لأنهم غير مؤهلين للتعبير عن وصف المعركة وعن المكان الذي وقـعت فيه،وما دار فيها، لأنهم لم يؤهلوا لها، وإنما عبروا بـلغة سقـيمة ومفردات لا تدل على أن صاحبها يمتهن العسـكرية، وإنما دارت مفردات كل واحد منهم حـول المهنة الوضيعة التي كان يمتهنها قبـل انخراطه للجند، ففيهم صاحـب الاصطبـل، والفراش والخياط، والزرّاع والشرابي (بائع الشراب) والطبـاخ فمفردات من كانت مهنته رعاية الخيل في الاصطبـل تتعلق بـالخيل والاصطبـل والممرغة

وفضلات الحيوان، وذنب الدابة، ثم يختم إجابته بأبيات من النظم يقول ان صاحب الاصطبل قالها متغزلا، فتدور فيها ألفاظ كثيرة دالة على مهنته، ولا علاقة لها بكونه جنديا من جند الخلافة، ويسأل جنديا كانت مهنته بيع الخلقان عن المعركة فقال:

لقيناهم في مقدار سوق الخلقان، فما كان بقدر ما يخيط الرجل درزا حتى قتلناهم وتركناهم في أضيق من جربان، فلوطرحت إبرة ما سقطت إلاّ على رأس رجل، وعمل أبياتا في الغزل فكانت:

فتقت بالهجر دروز الهوى
إذ وخزتني إبرة الصد
فالقلب من ضيق سراويله
يعثر في بايكة الجهد
جشمتني يا طيلسان النوى
منك على شوزكتي وجدي
أزرار عيني فيك موصولة
بعروة الدمع على خدي
يا كستبان القلب يا زيقه
عذّبني التذكار بالوعد
قد قصّ ما يعهد من وصله
قراض بين مرهف الحد[٤١]

وهكذا يستمر في روايته لأجوبة الجند الأتراك التي وضعها هو على ألسنتهم ليبلغ الخليفة وجوب تعليمه العربية، وألاّ يكتفي بتدريبهم فنون القتال والحرب. وهذا ذكاء وحسن تخلص وتواصل بينه وبين الخليفة الذي لو فاتحه مباشرة بسوء لغة جنده وعجزهم عن التعبير عن الحرب التي انصرفوا إليها، ومن ثم لو دعاه إلى وجوب تعليم أبنائه العربية إلى جانب الفنون الأخرى، لو حدّث الجاحظ الخليفة مباشرة لرده أو ربما طرده من المجلس، ولما استطاع الجاحظ أن يبلغه فكرته ودعوته، لكن الذي حدث أن حكاية الجاحظ عن لسان الجند أثارت ضحك الخليفة وفهم الرسالة؛لأن الجاحظ يقول بعد انتهائه من أوصاف الجند:

(فضحك المعتصم حتى استلقى، ثم دعا مؤدب ولده فأمره أن يأخذهم بتعليم جميع العلوم[٤٢])

٤ – حواره مع أصحاب الملل والديانات الأخرى . وقد اتسمت بالحوار الهادئ البنّاء، وابتعد الجاحظ عن التعصب –كما دعا إليه– ويرسخ فيه وجوب احترامهم، وتصديق ما ورد عن أنبيائهم، وأكثر من هذا أنه يرسخ دعوة الإسلام إلى التعايش مع أصحاب الديانات

إن الجاحظ يطبق في حواره مع النصارى أهم آلية من آليات الحوار الناجح وأدبياته ، ألا وهي البحث عن نقطة مشتركة تجمع بين المتحاورين ، وتوافق في قضية تجمعهما لينطلق بعدها النقاش. وكانت نقطة التوافق هي الاعتراف بنبوة عيسى عليه السلام، والإقرار بالمساواة بين الرسل في الاعتقاد والاحترام وهذا مبدأ توافقي مهم بدأ به رسالته: يقول :

(الحمد لله الذي منّ علينا بتوحيده، وجعلنا ممن ينفي شبهة خلقه وسياسة عبادته، وجعلنا لا نفرق بين أحد من رسله، ولا نجحد كتابا أوجب علينا الإقرار

به، ولا نضيف إليه ما ليس منه)[٤٣]

ويشير الى مسألة مهمة تقوي موقفه الهادئ في الحوار، وهي ذكره أن العوام تربطهم بالنصارى مودة، ونصه على العوام دون الخاصة دليل على عدم تقصده إثارة الانفعالات والحماس ضدهم، ويشرح الأسباب التي جعلت النصارى (أحبّ إلى العوام من المجوس، وأسلم صدورا عندهم من اليهود، وأقرب مودة وأقلّ غائلة، وأصغر كفرا، وأهون عذابا). إن مثل هذا الشرح والتفصيل فيه يجعل الآخر الذي يزمع النقاش على يقين من أن الحوار غير مدفوع بحقد وكراهية او تعصب.[٤٤]

وحين يعرض آراء النصارى ومعتقداتهم فيما يخص السيدة مريم عليها السلام أو قوله إن عيسى عليه السلام ابن الله، أوالاعتقاد بربوبيته، فإنه يعرضها بموضوعية ويعرض حججهم فيها وكأنه معتقد بصحتها، ثم يناقشهم فيها ويحاورهم بإيراد الأدلة التي تعضد رأيه . وقد أثارت طريقة الجاحظ هذه بإيراد حجج النصارى التي يدافعون فيها عن معتقداتهم، أثارت حفيظة عدد من المسلمين المتشددين ممن ردّوا على الجاحظ، ورأوا أنه يورد الحجج التي لم تخطر ببال النصارى، وأنه يدلهم عليها، ويعينهم على محاججة المسلمين . يقول ابن قتيبة

(ويعمل كتابا يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين، فإذا صار إلى الرد عليهم تجوّز في الحجة، كأنه إنما أراد تنبيههم على ما لا يعرفون، وتشكيك الضعفة من المسلمين)[٤٥]

هذا الرأي، وهذه التهمة ردّ عليهما الجاحظ من قبل، لأنه على قناعة بصحة طريقته ومنهجه؛ فهو لا يريد أخذهم على غفلة من أمرهم، كما لا يريد أن يفتعل النقاش، أو يموه الحقائق، انما يذكر آراءهم ويرد عليها، ليتبين من يريد أن يتبين الحق والمعرفة. يقول:

قد جعلنا في جواباتهم، وقدّمنا مسائلهم، بما لم يكونوا ليبلغوه بأنفسهم، ليكون الدليل تاما، والجواب جامعا، وليعلم من قرأ هذا الكتاب،...، أنا لم نغتنم عجزهم، ولم ننتهز غرّتهم، وأن الإدلال بالحجة، والثقة بالفلج[٤٦]، والنصرة هو الذي دعانا إلى أن نخبر عنهما ليس عندهم، وألاّ نقول في مسألتهم بمعنى لم ينتبه له منتبه، أو يشير إليه مشير).[٤٧]

وقد اتخذ الغزالي فيما بعد نهج الجاحظ هذا في بيان حجج الخصوم قبل الرد عليهم، وطعن عليه معاصروه وقالوا (هذا سعي لهم ،فإنهم كانوا يعجزون عن نصرة مذهبهم بمثل هذه الشبهات، لولا تحقيقك لها وترتيبك إياها).[٤٨]

يبدأ الجاحظ بإيراد أقوال النصارى في النبي عيسى عليه السلام واعتقاداتهم به، وتهمهم للرسول محمد صلى الله عليه وسلّم، ويشرع في حوار هادئ، يأتي بالحجة بعد الحجة .[٤٩]

ونجد في كتاب الحيوان مناقشة مع الزرادشتية، ومعتقداتهم خاصة ما يتعلق بتخويف زرادشت لهم بالعذاب بالثلج. في هذه الوقفة نجد الجاحظ يبسط آراء المجوس ثم يبدأ بمناقشتها مناقشة هادئة تعتمد الحوار وإيراد الحجج، وتتعجب لسعة أفق الجاحظ

وصبره على أقوال المجوس، ولو عرض هذا الموضوع للمناقشة في عصرنا هذا لما سمعنا إلاّ التسفيه والشتيمة دون الرد العلمي المقنع الذي وجدناه عند الجاحظ.

نقل الجاحظ رأيا لأصحاب الكلام يقولون فيه: إن زرادشت جاء من بلخ وادّعى أن الوحي نزل عليه على جبال سيلان، وأنه حين دعا سكان تلك الناحية الباردة الذين لا يعرفون إلاّ الأذى بالبرد ولا يضربون المثل الاّ به حتى يقول الرجل لعبده: لئن عدت إلى هذا لأنزعنّ ثيابك، ولأوقفنّك في الثلج، فلما رأى موقع البرد منهم هذا الموقع، جعل الوعيد بتضاعفه وظن ذلك أزجر لهم.

عند هذه النقطة ينطلق الجاحظ في حواره الذي هو في الأساس نقاش يخص النبوة ورسالة الأنبياء، لأن النار هي ما يخوف الله بها الناس المجرمين والمخالفين لأوامره:

إذاكان زرادشت نبيا، فدعوته غير شاملة، فيفترض لو أن زرادشت سئل : أنت رسول إلى من ؟ قال:لأهل البلاد الباردة، الذين لابد لهم من وعيد ولا وعيد لهم إلا بالثلج[٢٠]. وبهذا اسقط حجتهم بنبوة زرادشت، لأن دعوته قاصرة على إقليم البرد فقط .

ولم يكتف بهذا الحوار العام بل وقف مرة أخرى على التخويف بالثلج، ليعدد بعض صفاته التي تسقط عنه رهبة التخويف والوعيد منها:

(إن الثلج يؤكل ويشرب (إذا ذوّب)، وإنه يتبرد به حين اشتداد البرد، وقد يداوى به المرضى في بعض الحالات.)

وينقل لنا الجاحظ قولا عارضه به أحد المجوسية، ينطلق من رده السابق على أصحاب زرادشت، ولا يتحرج من إيراده قائلا:

(وقد عارضني بعض المجوس وقال: فلعل صاحبكم أيضا إنما توعّد أصحابه بالنار؛ لأن بلادهم ليست ببلاد ثلج ولا دمق، وإنما هي ناحية الحرور والوهج وذلك المكروه أزجر لهم .)

يجيب الجاحظ عن هذا القول ا بالدليل القاطع، مستفيدا من بعض معرفته بالفارسية قائلا:

(فقلت إن أكثر بلاد العرب موصوفة بشدة الحر في الصيف، وشدة البرد في الشتاء ؛لأنها بلاد صخور وجبال، والصخر يقبل الحر والبرد..ولذلك سمّت الفرس بالفارسية العرب والأعراب بكهيان، والكه بالفارسية هو الجبل .)

وبعد أن يورد أشعارا يذكر فيها الشعراء شدة البرد أو شدة الحر ،ينقل ما بلغه من معايشة بعضهم لشدة البرد في بعض ديار العرب، واصفا إياه بالثقة فيما يروي(وقد خبّرني من لا أرتاب بخبره...)[٢١]

وبعد أن يسقط هذه الحجة يورد حجة أخرى على صدق دعوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بأنه (لوكان قال: لم أبعث إلاّ إلى أهل مكة، لكان له متعلق من جهة هذه المعارضة، فأما وأصل نبوته والذي عليه مخرج أمره وابتداء مبعثه الى وفاته أنه المبعوث الى الأحمر والأسود، والى الناس كافة وقد قال الله تعالى:(قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم كافة) فلم يبق أن يكون مع ذلك قولهم معارضة

وأن يعد في باب الموازنة.)

والملاحظ هنا أن الجاحظ سمى ما ابتدر به المجوسي القول معارضة، وبعد أن ناقشه أثر وصفه بالموازنة، وكأنه يريد أن يقول أن حجة المجوسي في نقاشه معه قد سقطت، وإن آراءه إذا وردت، فإنما تورد على سبيل الموازنة بين ما يخوف به زرادشت أصحابه وبين الرسالة الإسلامية والتخويف بنارجهنم

٥- حواره مع الشعوبية والرد عليهم بعقلانية ونضج فكري، متخذا الأدب وسيلة من وسائل التواصل والحوار.

وقد أشار إلى أن هناك من ذم العرب لأنهم يعافون الشيء، ويهجون به غيرهم، فإن ابتلوا بذلك فخروا به. ويرى أن الذين يهجون العرب بهذا يغلطون على العرب، ويزعمون أنهم يمدحون الشيء الذي قد يهجون به، وهذا باطل. وتبدو حجة الجاحظ في الدفاع عن العرب في هذا الشأن، قوية تحمل روح التسامح، وسعة الأفق والتعليل النفسي مقررا حقيقة لطيفة:

(وأن ليس شيء إلا له وجهان، وطرفان وطريقان، فإذا مدحوا ذكروا أحسن الوجهين، وإذا ذموا ذكروا أقبح الوجهين.)

لقد ردّ الجاحظ على الشعوبية، في الجزء الثالث من كتاب البيان والتبيين بما أسماه بباب العصا، منطلقا من عيب الشعوبية على العرب اتخاذهم العصا في الخطب والمحافل. ويعدّ الجاحظ من أوائل من ردّ على الشعوبية، ولكنه لم يقابل طعنهم بمطاعن، ولم يذكر عيوب العجم، كما عابوا هم على العرب، إنما كان رده علميا ونظرته واسعة، لم يأخذه التعصب، وإنما استعرض ما عرفت به بعض الأمم المعاصرة والقديمة من تميز في التفكير والإبداع، وكأنه ينبه القارئ إلى أن الشعوب جميعا متساوية في إنسانيتها مطبقا الآية الكريمة (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا..)، أما لماذا يردّ هو على الشعوبية، فلأنهم بدأوا الطعن على العرب، وشكلوا تيارا سياسيا مناهضا. أما هو فكان موقفه منهم موقف المحاور الهادئ المعتمد على الحجة والبرهان، متمثلا لتعزيز رأيه بشواهد التاريخ والأدب ويصدق هذا أيضا في نقله لآراء الشعوبية وادعاءاتهم، حيث يورد أقوالا وأخبارا كثيرة عن الفرس والهنود واليونانيين.

وقد عرف عصر الجاحظ بأنه عصر تداخلت فيه الشعوب الاسلامية، ولم يعد فيه العنصر العربي هو المسيطر على مقاليد الحكم والإدارة والجند، مما أثار نقاشا بين أصحاب الانتماءات الجنسية المختلفة .

لقد تناول الجاحظ مسألة جند الخلافة في رسالته المسماة بمناقب الترك، وذكر أنهم كانوا على خمسة أقسام: خراساني وتركي ومولى وعربي وبنوي. وأن هناك من كان يثير الخلافات من خلال المفاخرة والمفاضلة بينهم. ومع أنه كتب الرسالة ليذكر مآثر الأتراك ومناقبهم، إلاّ أنه أبدى رأيه في تقرير جملة أصول وقواعد قبل المضي بذكر المآثر، وهي تتمثل بما يأتي:

(إن الذين يفخرون بالعربية، يجب ان يتذكروا أن الرسول صلى الله عليه وسلّم قرر أن مولى القوم

منهم، وأن الجند قــــد انضووا مع العرب في الخلافة، فصارت لهم من المكانة ماهو للعرب.) وهنا ايضا يمهد الجاحــظ للحــوار بتقــديم نقــطة الاتفاق التي تجعل المتحاورين يقبلون بالحوار، ألا وهي ترسيخ الحقيقــة الانسانية المعروفة بالعيان والتجربــة، وأن الأمم مهما اختلفوا باللسان والجنس والشكل إلا أن اللـــه قد وزع عليهم القــدرات والمهارات، ومن ثم فالنقــــاش في المفاضلة بــين الأجناس غير مجد، ومخالف لطبــيعة الخلق الرباني الذي وهب كل أمة نعمة تتميز بــهادون غيرها، ويبدأ معددا الأمم القديمة مبينا ماعرفت بــه كل أمة من خيرات وفضائل، وهنا تأتي أهمية الاطلاع على ثقــافات الأمم المختلفة، لأنك واجد عند أمة ما لا تجده عند أخرى، فالأمم جميعا ينتمون الى الكيان الإنساني، ومن ثم فلا مفاضلة بين الاجناس، وأن لكل أمة نصيبــا من التميز والشهرة في التفنن بأمر دون غيره وفق ما هيأه اللــه لها:

(ثم اعلم بــعد هذا كله أن كل أمة وقــرن، وكل جيل وبني أب وجدتهم قــد بــرعوا في الصناعات، وفضلوا الناس في البيان ، أو فاقوهم في الآداب ، وفي تأسيس الملك، وفي البــصر في الحــرب.... كأهل الصين في الصناعات ، واليونانيين في الحــكم والآداب ، والعرب فيما نحن فيه ذاكروه في موضعه.ألا ترى أن اليونانيين الذين نظروا في العلل لم يكونــوا تجــارا ولا صناعــا بأكفّهم ، ولا أصحاب زرع ولا فلاحــة وبــناء غرس. وكانت الملوك تفرغهم، وتجري عليهم كفايتهم.فأمــا سكان الصين فهم أصحاب السبــك والصياغة والإفراغ والإذابة، والأصباغ العجيبة، وأصحاب الخرط والنحت والتصاوير والنسخ والخط .... وكذلك الترك أصحاب عمد وسـكّان فيافٍ، وأربـــاب مواش، وهم أعراب العجم، فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات والطب والفلاحــة ولا غرس ولا بــنيان)[٣٢] كل هذا الوصف يورده الجاحــظ ليعلل سبــب قــوة الأتراك وتميّزهم بالقتال والحروب، وهو تفسير مقنع يوصل القارئ إلى قناعة برأي الجاحظ دون الاحســاس بــالتعصب لهذا الجنس أو غيره، ودون أن يتهم الجاحظ بــالتملق أو الرغبــــة في تكريم الوزير التركي له؛ لأنه عرض كفاياتهم بالحجة المقنعة، وبذا عرض لقضية الأتراك الذين شكلوا ظاهرة في جند الدولة في زمانه، وما أثار هذا من نزوع بعضهم إلى المفاخرة وربما المنافســة فالتشاتم.

حين ذكر الجاحظ احتجاج كل فرقــة من أجناس الجيش بفضلها ومكانتها نبه إلى أنه إذا شرع بــذكر مناقب الأتراك من خلال الموازنة بينهم وبــين أجناس الجند الأخرى فســيكون كتابــه ضمن أصحــــاب الخصومات والأهــواء بينما يبــين هدفه مــن تأليفه الكتاب بقوله:(وكتابــنا هذا إنما تكلّفناه لنؤلف بــين قلوبــهم إن كانت مختلفة ، ولنزيد في الألفة إن كانت مؤتلفة، ولنخبر عن اتفاق أسبابــهم لتجتمع كلمتهم). وبذا يميز الجاحظ بين الحوار الهادف والجدل والعناد الموصل الى تعميق الخلاف والفرقة.

وهناك ضرب من التأليف عرف بـــ (التأليف في الشيء وضده).وفي رأينا أن التأليف وفق هذا المنهج

ليس من باب إظهار قدرة الجاحظ على إيراد المعلومات في كل الأبـــواب التي يكتب فيها ، وإنما يمثل ثقـــافة الجاحظ وفكره الداعي من خلال التطبـــيق الى توصيل فكرة راسخة للقارئ تؤكد أن لكل حقيقـــة وجهين، وأن ما تعتقد به قد يكون له وجه عند آخرين، فيأتي بالوجوه والأدلة، ويترك للقارئ حـــرية الاختيار. على ان هناك ضربا من التأليف قد يبدو غريبا في بابه إلاّ أن للجاحظ هدفا ســـاميا فيه، وذلك تأليفه في موضوع ما يمكن أن يســـمّى بـــذوي العاهات، حـــين ألّف كتاب البـــرصان والعرجان والعميان والحولان[٤٣]

وهذا الكتاب ينفرد فيه الجاحظ في مقصديته وغايته، فهو لم يؤلفه ليعيب على أرباب العاهات بل قصد بـــذلك أن يجلو صورة ناصعة مشرقـــــة لهم من الذين لم تكن عاهاتهم لتحول بينهم وبين تسنم الذرى، كما أن قصده لم يكن التشهير بهم[٤٤]، بخلاف الهيثم بـــن عدي الذي ألف في المثالب، قصدا منه لذكر معايب العرب ومثالبهم وهو يقـــصد من الأخبـــار التي يوردها إحـــــلال روح التســـامح والمعايشـــة بـــين الناس بـــغض النظر عن جمالهم، أوما يبـــدو عليهم من عيوب خلقـــية، وكأنه يحـــاور أصحـــاب الأفكار او التصرفات الموجودة في مجتمعه ممن ينظرون الى هؤلاء نظرة تقلل من شأنهم أو تحط من مكانتهم، فألف كتابه هذا ردا تطبيقيا عليهم، وليصحـــح النظرة الخاطئة عليهم، فذكر مثلا أســـماء أشراف الناس المشهورين من العرجان أو البـــرصان، ولم يتحـــرج من ذكر عدد من رجال المعتزلة ممن كانوا عرجانا، وآخرين ممن كانوا يعدون من الخوارج، كـــل هذا ليرسخ في العقول روح التسامح الإنساني[٤٥] إنّ آليات الحوار الأدبي عند الجاحظ مبنية على أســـس رصينة مستمدة من الفكر الإسلامي الذي يمثل ثقافة الحوار والتواصل، ومن آيات القـــرآن الكريم، إلا أنه نجح في تفعيلها وتطبيقها وجعلها ثقافة ومنهجا أدبيا بشكل يكاد فيه يكون سابقـــا لعصره؛ لأنها تدل على تفتح ذهني، ووعي لثقافة عصره ومجتمعه.

كل هذا بأســـلوب أدبـــي جعله متميزا عن مفكري عصره ومثقـــــفيهم؛ لأنه اتخذ الأدب وثقـــــافة الحوار سمة من سمات تأليفه ورسائله.

لقد كان للجاحظ إسهام كبـــير في ترسيـــخ أصول الحوار والجدال المؤدبين إلى إشاعة روح التســـامح وترك العنف والعصبية في شتى الموضوعات الأدبية والفكرية في عصره . فأسهم في بناء ثقافة الحوار، وأرسى مقوماتها بلغته الأدبـــية وأسلوبـــه الرائق، ولولا ما حـــدث لفكر الاعتزال من نكســـات بسبـــب تعصب أولي الأمر له من خلال تبـــنيهم له، وإجبـــار الناس عليه لكتب لمنهج الجاحـــظ البقـــاء في تفعيل آليات الحوار.

وقد وجدنا في آليات الجاحظ وصنوف حواراته ما تصدق عليه شروط الحوار الجاد البناء الهادئ الذي يصدر عن ثقافة موسوعية، تتجلى بدرجة عالية من الأخلاق الســـامية[٤٦]، تلك التي نجدها فيما كتب عن الحـــوار في العصر الحـــديث وشـــــروطه وصفات المحاور الناجح.

الهوامش

١ – كتبت دراسات كثيرة في هذا الشأن لعل أشـــهرها كتاب حوار الحضارات في القرن الواحد والعشرين /عبـــد الله علي العليان،بيروت ٢٠٠٤ ، حوار الثقافات مسألة حاسـمة في مجتمعاتنا الحديثة /الأخضر النصيري، مجلة الحياة الثقافية العدد ١٦٦سنة ٢٠٠٥، من مبادئ الحوار وضوابطه، مجلة المسار، اتحاد الكتاب التونسـيين، العدد ٥٨ سـنة ٢٠٠٢، الفكر العربـي المعاصر ورهان الحـوارات /عبـــد الملك منصور المصعبي: موقـــع جمعية الترجمة العربـية وحـوار الحضارات

٢ – نذكر على سبيل المثال لا الحـصر المؤتمرات والندوات الآتية: مؤتمر الحوار بين الثقافات والحضارات ،لندن ومؤتمر ١٩٩٦ – صراع الحضارات أم حـوار الثقـافات؟ تحـرير: الدكتور فخري لبيب، أوراق ومداخلات المؤتمر الدولي حـول "صراع الحضارات أم حـوار الثقـافات"، القـاهرة ١٠-١٢ مارس ١٩٩٧، مطبـــوعات التضامن (١٧٣)، حـــوار الحضارات: بين أنشودة المثاقفة وصرخة الهامش مؤتمر: حـوار الحـضارات، نظمته اليونسـكو في ليتوانيا ٢٠٠١" الحضارات والثقافات الإنسانية من الحوار إلى التحالف، الندوة الدولية التي عقـدتها المنظمة الإسـلامية للتربـية والعلوم والثقافة بتونس ٢٠٠٦، ومؤتمر الحوار بـين الحـضارات والثقـافات/ سـلطنة عمان ٢٠٠٦ ومؤتمر حـوار المذاهب الإسلامية. قطر ٢٠٠٧، وثلاث ندوت عقدتها وحدة الحـوار في كلية العلوم الإنسـانية :الأولى التراث العربـي والحـوار الثقافي ٢٠٠٥ والثانية عن صورة الآخر في الثقافة العربـية ثم: ندوة الذات في مرآة الآخر، وندوة مكتبة الاسـكندرية في دعم ثقـــافة الحـــوار والتســـامح/ منتدى حوار الحضارات،مجموعة محاضرات، دار الثقافة ،القـاهرة ٢٠٠٢، الندوة الإسـلامية المسيحـية (معا من أجل مجتمع أفضل: الحوار الإسلامي المسيحي ودوره في تعميق الوعي الشعبي بالمواطنة، قرطاكية ٢٠١٠

٣ – ينظر كتاب نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر البابان: الجدل والمجادلة، وآداب الجدل ص ١٣٤-١٤٤، وكتـاب التعريفات ٧٨،٢٥٠

٤ – البيان والتبيين ١/ ٨٨

٥ – الحيوان ١ /١١

٦ – ينظر في هذا: المناحي الفلسفية عند الجاحظ ١٣

٧ – ينظر الحيوان١/ ٢٠٦، ٧٨،٣/ ٢٧٥ ٦/ ٢٨٠.

٨ – البيان والتبيين ١ /١٦٦

٩ – البيان ١ /٢٥

١٠ – الحيوان ٣ /٦

١١ – نفسه ١/٨

١٢ – الحيوان ١/ ١٢

١٣ – مجموع رسائل الجاحظ ٥١

١٤ – الحيوان ٢ /٢٧، وانظر محاضرات في تاريخ النقـد ١٦٣ /ابتســام مرهون، ناصر حـلاوي زعمان، دار جهينة ٢٠٠٦

١٥ – نفسه٣ /١٢٩

١٦ – الحيوان ٣ /٢٧

١٧ – الآمل والمأمول ٢٥

١٨ – البيان ١/ ٢٥٥

١٩ – البرصان ٢٧

٢٠ – تاريخ بغداد ١٤ /١٢٦-١٢٧

٢١ – رسالة إلى ابي عبد الله أحمد بن ابـي دؤاد؛ رسـائل

الجاحظ ١/ ٣١٤

٢٢ – راجع الجاحظ /طه الحاجري ١٠٠ فما بعدها

٢٣ – رسالة الفتيا، مجموع رسائل الجاحظ١ / ٣١٥

٢٤ – البيان والتبيين ١٢٥، ووصفه بأنه صاحب منثور ومزدوج، وأنه كان شاعرا راجزا وسجّاعا خطيبا ١/ ٤٩، وأنه لم يكن في المولدين أبدع من بشار وابن هرمة ١ /٥٠

٢٥ – الحيوان ٣ /١٢٧ وانظرمحاضرات في تاريخ النقد ١٦٢وفضّل بيت شعر لأبي نواس على شعر مهلهل، وعدّه أشعر منه في وصف إطراق الناس في مجلس كليب :الحيوان٣ /١٢٩

٢٦ – البيان ١/ ٢٤، وانظر هجاء بشار لواصل ١ /١٦

٢٧ – البيان ١ /٢٥

٢٨ – البيان والتبيين ١ /٩٣

٢٩ – البيان والتبيين ١/ ٧١ تحقيق السندوبي، وانظر ١ /٧٤

٣٠ – نفسه ١ /٤٦

٣١ – البيان والتبيين ١ /١٧٦

٣٢ – البيان والتبيين ١ /٥

٣٣ – الحيوان ١ /٧

٣٤ – مجموع رسائل الجاحظ / تحقيق طه الحاجري. دار النهضة العربية ١٩٨٢

٣٥ – رسالة في علي بن أبي طالب: مجموع رسائل الجاحظ ٥٠

٣٦ – نفسه ١٣

٣٧ – الحيوان ١ /١٣

٣٨ – ينظر في هذا: أخلاقيات الحوار ٤٤

٣٩ – الحيوان ٦/ ٢٨٠

٤٠ – رسالة في صناعات القواد ؛رسائل الجاحظ١ /٣٨١

٤١ – صناعات القواد، رسائل الجاحظ ٢ /٣٨٥

٤٢ – صناعات القواد ٣٩٢

٤٣ – الرد على النصارى ؛ رسائل الجاحظ ٣ /٣٠٣

٤٤ – وقد أثارت هذه المسألة عوام المسلمين، ولهذا عدّها بعضهم مما يحتاج الى توضيح ومناقشة .انظر :مع الجاحظ في الرد على النصارى ١٢١

٤٥ – تأويل مشكل الحديث ١٤٢

٤٦ – في الأصل الفلج والصواب الفلح من الفلاح

٤٧ – الرد على النصارى ٣٥٠

٤٨ – المنقذ من الضلال ٢٧ و يوضح الغزالي رده على ما أنكر عليه من خلال عرض تجربة أخرى في الحوار بين الإمام أحمد بن حنبل والحارث المحاسبي، اذ اعترض الامام أحمد طريقة المحاسبي في الرد على المعتزلة فقال الحارث: الرد على المبتدعة فرض، فقال أحمد: ولكن حكيت شبههمأولا، ثم أجبت عنها، فبم تأمن أن يطالع في الجواب أو ينظر في الجواب، ولا يفهم كنهه .٢٨

٤٩ – ينظر مع الجاحظ في الرد على النصارى١١٦، وتأييد المؤلف لكل ما رد به الجاحظ على النصارى

٥٠ – الحيوان ٥ /٦٧

٥١ – نفسه ٧٠

٥٢ – مناقب الترك ٧١

٥٣ – حققه عبد السلام محمد هارون. بيروت، دار الجيل١٩٩٠/ ١٤١٠هـ

٥٤ – مقدمة عبد السلام هارون ١٥

٥٥ – البرصان والعرجان ٣٠٥

٥٦ – ينظر في هذا شروط الحوار البناء وسمات الحوار المتشنج في كتاب أخلاقيات الحوار/ عبد القادر الشيخلي .عمان، دار الشروق ١٩٩٣ ص ١٦، وانظر الحوار لغة الضعفاء أم الأقوياء موسوعة العلوم الادارية، إعداد محمد علي جعلوك .دار الراتب الجامعية ١٩٩٩

قائمة المصادر والمرجع

- أخلاقيات الحوار /عبد القادر الشيخلي .عمان، دار الشروق ١٩٩٣
- البرصان والعرجان والعميان والحولان/ الجاحظ، أبو عثمان، (٢٥٥هـ)
تحقيق عبد السلام محمد هارون، بيروت، دار الجيل ١٩٩٠
- تأويل مختلف الحديث /ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (٢٧٦هـ)
تحقيق أبي أسامة سليم بن عيد الهلالي السلفي. دار ابن القيم،دار ابن عفان، ٢٠٠٩م/ ١٤٣٠هـ
- التعريفات/ الشريف الجرجاني. بيروت ١٩٨٥
- الحوار لغة الضعفاء أم الأقوياء/ موسوعة العلوم الإدارية. إعدادمحمد علي جملوك. بيروت، دار الراتب الجامعية١٩٩٩
- الحيوان/ الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر(٢٥٥هـ)
تحقيق عبد السلام محمد هارون. القاهرة، ط ١٩٦٥/ ١٣٨٤هـ
- دور مكتبة الاسكندرية في دعم ثقافة الحوار والتسامح/ منتدى حوار الحضارات، مجموعة محاضرات، دار الثقافة، القاهرة ٢٠٠٢
- رسائل الجاحظ، /الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥هـ)
تحقيق عبد السلام محمد هارون. القاهرة، مكتبة الخانجي ١٩٧٩م ١٣٩٩هـ
- رسالة في علي بن أبي طالب/ أبو عثمان عمرو ابن بحر (٢٥٥هـ)، مجموع رسائل الجاحظ تحقيق طه الحاجري. القاهرة، مصر دار النهضة العربية ١٩٨٢
- في صناعات القواد /الجاحظ، أبو عثمان عمرو ابن بحر(٢٥٥هـ)
تحقيق عبد السلام هارون.رسائل الجاحظ ج٢القاهرة مكتبة الخانجي ١٩٧٩/١٣٩٩هـ
- مجموع رسائل الجاحظ/ الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ)
تحقيق طه الحاجري. مصر دار النهضة العربية ١٩٨٢
- محاضرات في تاريخ النقد عند العرب/ ابتسام مرهون، ناصر حلاوي. عمان، دار جهينة ٢٠٠٦
- مع الجاحظ في رسالة الرد على النصارى/ ابراهيم عوض. القاهرة، مكتبة زهراء الشرق١٩٩٩
المناحي الفلسفية عند الجاحظ/علي بو ملحم
بيروت، دار الطليعة ١٩٨٠
مناقب الترك/أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
- تحقيق عبد السلام هارون، رسائل الجاحظ. القاهرة، مكتبة الخانجي١٩٧٩/١٣٩٩هـ
- المنقذ من الضلال/ الغزالي، أبوحامد(٥٠٥) .
- تحقيق سعد كريم الفقي، الاسكندرية، دار ابن خلدون.
- نقد النثر/ قدامة بن جعفر .
تحقيق طه حسين،عبد الحميد العبادي ،القاهرة، مطبعة بولاق ١٩٤١

آفاق الدلالة في "كلمة الله" و"كلماته"



أ. د. صاحب ابو جناح
الجامعة المستنصرية/ كلية الاداب

بقدر ما كانت العربية طيعة للاستجابة لمطالب الفن الشعري منذ نشأته والتحليق في آفاق الابداع وتشكيل الصور الشعرية الرفيعة الثرية بالدلالات المبتكرة، على مستوى المفردة أو على مستوى التراكيب، كانت أكثر طواعية وأوسع استجابة لمتطلبات التعبير القرآني في توسيع الدلالة واثراء المعنى في المفردات والتراكيب معا. وهذه ظاهرة تمثل الركن الأوثق في هيكل الاعجاز القرآني عند المتلقين لنص الوحي من مسلمين وغير مسلمين .

واذا كان الرعيل الأول من جمهور المتلقين قد عاش تجربة الابداع الدلالي بآفاقها الشاسعة، على مستوى التذوق والانبهار بالمنجز النصي، فان الأجيال التي تلته عكفت على تأمل هذا النص، وفحصه بالدراسة والتحليل والاستنتاج، مستعينة على انجاز مهمتها بروافد علمية وفيرة، منها ما هو وليد البيئة المحلية، وجله اتجه صوب البحث اللغوي، ومنها ماكان ثمرة التعامل مع حضارات وذهنيات مجاورة، غالبها دخل في حوزة الاسلام، وبعضها تعايش معه مسالما، ودخل في ذمة المسلمين، وكان يمثل نافذة مشرعة على الثقافات المتقدمة، مما اصطلح عليه المسلمون بـ "علوم الأوائل" .

فاذا تجاوزنا جهود المفسرين والمؤولين من جيل الصحابة والتابعين وفيهم الامام علي(ع) وابن عباس وابن مسعود وأبي بن كعب،والتابعين وفيهم الحسن البصري وسعيد بن جبير ومجاهد بن جبر وقتادة وعكرمة وسواهم ممن رويت جهودهم مشافهة غير مدونة بين دفتي كتاب،نجد الصفحة الرائدة في مباحث الدلالة القرآنية لدى أصحاب كتب "الوجوه والنظائر"ممن صنفوا عند منتصف القرن الثاني للهجرة، وفي مقدمتهم مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠هـ) وهارون بن موسى الأعور(ت ١٧٠هـ) الذي احتذى حذو مقاتل، وروى مضمون كتابه، ولم يزد عليه شيئا ذا بال،الا ماكان من اختلاف في تقديم بعض المواد وتأخير بعضها.

ومع ادراك بساطة الانجاز الذي حققاه في كتابيهما،اذ اقتصرا على سرد قوائم المفردات المتضمنة وجوها متباينة في الدلالة ،دون الخوض في تحليل هذه الدلالات ووجوه تصنيفها دلاليا من حيث الحقيقة والمجاز أو المعنى المعجمي والمعنى الاصطلاحي أو الاجتماعي، وما يؤطر ذلك من مقام أوسياق، شأنهم في ذلك شأن من يعمل في المباحث الرائدة في حقول العلم من بساطة، سواء أكانت قد دونت في وثائق نصية، أم رويت مشافهة على مدى عقود من السنين، مع كل ذلك، ومع تجاوزهما الظروف التي نزلت فيها الآيات المتضمنة لهذه المفردات من حيث أسباب نزولها، فان جهدهما فتح الباب واسعا للخوض في التأليف في مجال التفسير والتأويل الذي اتسع بابه لتأسيس مكتبة ثرية لاتزال حية نامية حتى يومنا هذا.

ومع استمرار هذا التصنيف في هذا الحقل الدلالي القرآني حتى قرون متأخرة، فان تقاليد البحث فيه ظلت تسير على الوتيرة نفسها التي سنها المصنفون الرواد. ولعلهم كانوا متأثرين خطى أصحاب الرسائل اللغوية والمعجمات في تعاملهم مع المادة اللغوية جمعا وتصنيفا،بعيدا عن التحليل والتفسير والتأصيل، الا في النادر الذي وجدناه عند الزمخشري في"أساس البلاغة" لكن هؤلاء الرواد حققوا فضيلة التنبيه الى هذا الجانب الحيوي من لغة القرآن، وما يمثله من مظهر اعجازي يتجلى في تنمية دلالات الألفاظ والتحليق بها في آفاق الابداع على مستوى المفردات والتراكيب وما يتناسل عنها من صور بلاغية ساحرة.

وردت مادة "كلم" وتصريفاتها ومشتقاتها الاسمية من نحو: كلام وكلمة وكلمات وكلم وتكليم ثلاثا وسبعين (٧٣) مرة.

وتناوبت صيغها الاسمية من نحو"كلمة" مفردة ومضافة ثمانيا وعشرين(٢٨) مرة و"كلمات" مفردة ومضافة تسع (٩) مرات،و"كلام" مفردة ومضافة أربع (٤) مرات و"الكلم" أربع (٤) مرات و"تكليم" مرة واحدة.

وقد وردت هذه المادة بمعناها المعجمي الذي يعني "القول" سواء أكان صادرا عن ذات الله تعالى،أم عن مخلوقاته في أغلب المواضع التي وردت فيها. لكن الاستعمال ورد بها في معناها الاصطلاحي"

الوحي" أو المجازي المعدول به الى غير معنى القول الملفوظ أو المسموع في مواضع عدة تزيد عن الثلث من مجموع مواضعها، لاسيما اذا جاءت بصيغة الاضافة الى اسم "الله" تعالى أو صفته "رب" ظاهرا أو مضمرا في صيغة الافراد "كلمة" أو في صيغة الجمع "كلمات" وسواء كانت الاضافة مباشرة نحو "كلمة الله" و"كلمة ربك" و"كلمتنا" و"كلمته" أو غير مباشرة، نحو: "كلمة من الله" أو "كلمة منه" أو "كلمة من ربك".

وقد وردت في أحيان قليلة بمعناها العدولي الكنائي، مضافة الى غير الله تعالى، نحو "كلمة الكفر" و"كلمة الذين كفروا" و"كلمة العذاب" و"كلمة الفصل" و"كلمة التقوى" أو نكرة موصوفة "كلمة سواء" و"كلمة طيبة" و"كلمة خبيثة" و"كلمة هو قائلها".

في هذا المبحث نحاول أن نتتبع الدلالات المتنوعة التي شغلتها هذه المفردة، مستعينين بكتب "الوجوه والنظائر" وكتب "معاني القرآن" وكتب "التفسير" التي تمثل تنوعا في الرؤية والفهم بين نمط أثري وآخر أصولي وآخر اعتزالي، ممن عني بالكشف عن الدلالات المباشرة والدلالات التأويلية.

يقرر مقاتل بن سليمان البلخي (ت ١٥٠هـ) في "الوجوه والنظائر" وهو من أقدم ما وصل الينا من مصنفات هذا الفن أن "الكلام" في القرآن الكريم ينصرف الى خمسة أوجه[1].

الوجه الأول: ماكلم الله به موسى (ع) من غير واسطة، وذلك قوله تعالى: {كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً}. النساء: ١٦٤ وهو معناها المعجمي.

الوجه الثاني: الوحي، وهو القرآن، وهو ما تضمنته الآية {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ}[2] التوبة: ٦ ومايماثله وهذا معناها الاصطلاحي.

الوجه الثالث: علم الله عز وجل وعجائب قدرته، وهو ماثل في قوله تعالى: {قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً (١٠٩)} الكهف: ١٠٩.

الوجه الرابع: كلام المخلوقين المعبر عنه بـ"القول" عند الموت، لايسمعه الأحياء، نحو ما جاء على لسان فرعون حين أدركه الغرق ونزل به الموت {فَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ} يونس: ٩٠.

الوجه الخامس: كلام الكفار باعلان الايمان عند معاينتهم العذاب النازل بهم في الدنيا، المعبر عنه "بالقول"، وهو ما صورته الآية الكريمة: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ} غافر: ٨٤

والواضح أن الوجهين الأخيرين يخصان كلام المخلوقين في مواجهة المصير الفردي أو الجماعي، وهو "قول" يدخل عند "مقاتل" في مفهوم "الكلام" لكنه في هذا المبحث لايدخل في لفظه ومشتقاته التي أفرد لها.

وفي كتاب هارون بن موسى (ت حوالي ١٧٠هـ) صورة مكررة لما عند مقاتل، اذ كتاب هارون رواية أخرى لكتاب مقاتل تختلف عنه في ترتيب المواد وفي يسير من العبارات[3].

لكن ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) في كتابه "نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر" يسوق، بعد مقدمة لغوية في معنى الكلمات والكلم والكلام في اللغة والاصطلاح، وجوها سبعة لمعنى "الكلمات" و"الكلمة" اثنين نص عليهما مقاتل، وهما "الوحي" و"علم الله وعجائب قدرته" وخمسة تجاوزها مقاتل، وتأولها المفسرون قبل ابن الجوزي[٣]، وسيأتي بيانها في ما يرد من تفريعات البحث وتفصيلاته.

ولا يغيب عن البال أن كل هذه التقسيمات التي أوردوها لتأويل معنى "كلمة وكلام وكلم وكلمات" داخلة في مفهوم "الوحي" عند المسلمين الذي نزل به جبريل (ع) ودون بين دفتي المصحف، سواء كان خطابا من الله تعالى أو حكاية على ألسنة مخلوقاته.

ومع أن مادة "كلمة" وتصريفاتها ليست من الغريب اللغوي تجد الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ) في "المفردات في غريب القرآن" يعرض لتفسيرها وبيان وجوه تأويلها بعد تمهيد في بيان معناها المعجمي ومعناها الاصطلاحي عند النحويين والمتكلمين.فيورد ما نقله رواة الآثار والمفسرون في دلالة المادة بجميع تصريفاتها التي وردت في المصحف الشريف على نحو ما ورد عند غيره، مما سنبسط القول فيه، وعلق على مجمل ما نقله بقوله: ومكالمة الله تعالى العبد على ضربين، أحدهما في الدنيا، والثاني: في الآخرة. فما في الدنيا نبه عليه بقوله : {وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ} الشورى: ٥١ وما في الآخرة: ثواب للمؤمنين وكرامة لهم، تخفى علينا كيفيته[٤].

وتفصيل القول في هذا الحقل الدلالي على ماورد عند أهل المعاني والمفسرين يندرج في وجوه عدة.

أولها: الوحي

وهذه الدلالة أقرب الوجوه في مادة "كلمة" وتصاريفها الى معناها المعجمي. فالوحي هو كلام الله تعالى المبلغ الى رسله من الملاك جبريل عليه السلام وذلك فحوى طائفة من الآيات الكريمة وردت فيها "كلمات وكلم" منها: ١- قوله تعالى:

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} الاعراف١٥٨ .

تبدأ سورة الأعراف، وهي مكية، بالحديث عن نزول الوحي وتكليف الرسول(ص) بالرسالة وحثه على اشهار الدعوة وتجنب الحرج من مواجهة المشركين بها، وفي السورة سرد لما جرى للرسل من مواجهة أهل الشرك من أقوامهم، مما حدث لنوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى(ع) .

وفي هذا السياق الذي عرض لتفاصيل خلق آدم وهبوطه من الجنة، ومتاعب موسى مع قوم فرعون ومع قومه من بني اسرائيل تفصيلا جاء حث مشركي مكة وما جاورها على الايمان بالله والرسول الذى يؤمن بالله وكلماته.

ومذهب الجمهور أن معنى "كلماته" ما أنزل عليه (ص) وعلى من تقدمه من الرسل من كتب الله ووحيه

كالتوراة والانجيل[٥].

وذهب الرازي الى أن "الكلمات" اشارة الى المعجزات التي ظهرت في ذات الرسول(ص) مثل العلم الذي لم يكن تلقاه عن شيوخ، أو خارج ذاته كانشقاق القمر ،وسميت كلمات كما سمي عيسى(ع) كلمة الله، لأن حدوثه أمر غريب مخالف للمعتاد[٦] .ولعل في هذا التأويل بعدا عما يتبادر الى الذهن من سياق الحديث عن الرسل ورسالاتهم الموحى بها لهم.

وفي قراءة مجاهد وعيسى بن عمر(ت ١٤٩هـ) في الشواذ: وكلمته، على الافراد، أي القرآن. وقيل: الافراد الذي يراد به الجمع، أي جنس ما كلم به الرسل .وعن مجاهد والسدي أن المراد بكلمته :عيسى (ع) أو الكلمة التي تكون منها عيسى وجميع خلقه، وهي قوله تعالى :كن، قالوا: وانما قيل لعيسى "كلمة الله " فخص بهذا الاسم: لأنه لم يكن لوجوده وكونه سبب غير الكلمة، ولم يكن من نطفة تمنى[٧].

وتوقف الزمخشري عند العدول عن المضمر الى الظاهر في قوله تعالى على لسان الرسول (ص) "فآمنوا بالله ورسوله" ولم يقل: وبي، قال: عدل عن المضمر الى الاسم الظاهر لتجري عليه (أي النبي ص)الصفات التي أجريت عليه، أي النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته، ولما في طريقة الالتفات من مزية البلاغة[٨].

والمزية التي استوقفت نظر الزمخشري ولفتت انتباهه هي مظهر من مظاهر انسجام الخطاب وتماسكه النصي تمثلت في اتصال الصفات بالموصوف الظاهر اتصالا مباشرا، اذ لو قال: بي، وأردفه بالصفات الواردة في النص لقطعت هذه الصفات ونصبت على تقدير :أعني، أو أمدح، وفيه مافيه من مظاهر القطع والاستئناف الداعي الى خلخلة التماسك والترابط بين مكونات النص.

٢ – وفي المعنى نفسه جاء قوله تعالى: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ} الأنفال: ٧.

فسرت "كلماته" بأنها آياته المنزلة في محاربة (ذات الشوكة) وهي جموع المشركين التي احتشدت يوم بدر لحرب المسلمين وانقاذ قافلة أبي سفيان التجارية المكنى عنها بـ(غير ذات الشوكة) من تعرض المسلمين لها. وبما كان من هبوط الملائكة لنصرة المسلمين، وما تم من هزيمة المشركين وقتلهم وطرحهم في قليب بدر وأسر أعداد منهم. وهو ما تضمنته الآية من احقاق الحق وقطع دابر الكافرين[٩].

والمتأمل للآية يجد أن فيها عددا من الكنايات التي وفرت الشروط الملائمة لانجاز مزية الحبكة والتماسك الاسلوبي، منها الكناية ب"الطائفة" عن القافلة التجارية التي كانت برعاية أبي سفيان من جهة، وحشود المشركين التي جاءت لحرب المسلمين وردعهم عن التعرض للمصالح التجارية لقريش وحلفائهان، من جهة أخرى. ومنها الكناية عن القافلة التجارية غير المسلحة بسلاح الحرب بأنها (غير ذات الشوكة) والشوكة هي الكناية عن السلاح الحربي.

ومنها الكناية ب"كلماته" عن آيات الجهاد وقتال المشركين وحثهم على المواجهة وعدم النكوص، وما أمرهم الله به من الانتصار لدينه بالتضحية والفداء. وكلها جاء بها الوحي في هذه السورة وفي غيرها.ومنها الكناية عن الاستئصال والهزيمة بأنها "قطع الدابر" والادبار أيضا كناية عن الفرار في المعركة وهو نقيض الكر والهجوم.وفي هذا الاطار الكنائي تحقق السبك المحكم للآية المتمثل في ضغط العبارة: "{وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ" قد كان جمهور المسلمين، وفيهم المنافقون وضعيفو الايمان،يجادلون الرسول(ص) في أمر التصدي لجموع المشركين، وهي أضعاف ما كان عليه عدد المقاتلين المسلمين، وذلك بعد أن فقدوا فرصة مهاجمة القافلة التجارية واغتنام ما فيها، فكرهوا الدخول في حرب غير متكافئة، لايتوقعون فيها النصر على أعدائهم، بل يواجهون خطر الموت الوشيك.هذه المضامين لخصتها الآية الكريمة بعباراتها المكثفة لاسيما عبارة "يعدكم" وعبارة "تكون لكم" فهذه العبارات كلها أيضا كنايات عن مواقف وأحوال تفصيلية سردتها كتب السيرة والتفسير على الوجوه المعروفة لدى المتتبعين للتأريخ الاسلامي.وهذه الظاهرة الاسلوبية من أوضح وأوثق ما يميز الاساليب البليغة،وفي مقدمتها الأسلوب القرآني المحكم.

٣ -وفي الدلالة نفسها وردت المفردة في قوله تعالى:{وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا} الكهف: ٢٧. هذه الآية جاءت في أعقاب سرد قصة أهل الكهف،وما فيها من اشارات موجزة عنهم بعيدا عن الخوض في تفاصيل واقعتهم ودقائق شأنهم، مماكان موضع جدل بشأن عددهم ومدة لبثهم ونحو ذلك.

والآية مرتبطة بما بعدها في سياق المناسبة لقوله تعالى: وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} الكهف: ٢٨ "من أغفلنا قلبه" كناية ،قيل عن المؤلفة قلوبهم من زعماء القبائل من ذوي الأبهة وترف المظهر المناسب لـ"زينة الحياة الدنيا".

وفي تفسير "كلماته" قالوا: كان المشركون يقولون على سبيل المماحكة والمناكدة :ائت بقرآن غير هذا، أو بدله، فقيل له:" اتل ما أوحي اليك من القرآن، ولاتسمع لما يهذون به من طلب التبديل، فلا مبدل لكلمات ربك.وانما يقدر على ذلك هو وحده"[١٠]. وقد ورد مثل هذا فيما حكاه الله تعالى عنهم في قوله: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ} يونس: ١٥.

وقالوا: ان المؤلفة قلوبهم من زعماء القبائل استنكفوا أن يشاركهم فقراء المسلمين مثل سلمان وصهيب وبلال وأبي ذر ونحوهم مجلس رسول الله، فاقترحوا عليه (ص) تنحية هؤلاء.أو ان أمية بن خلف اقترح طرد هؤلاء وتقريب وجوه أهل مكة[١١].

ويرجح هذا أن الســورة مكية سابقــة لشــأن المؤلفة قلوبهم وأن الخبر ورد بصيغة الافراد: 'من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا' ويمكن أن يكون الموقــف قــد تكرر في المدينة مع عتاة العرب الذين عزموا على الدخول في الاســلام وأنفوا من حــضور الفقراء معهم في مجلس الرسول (ص)، وهؤلاء العتاة مثل عامر بن الطفيل وعيينة بن حصن والأقــرع بــن حابس صاروا في المؤلفة قلوبهم.فنقل أهل الأثر ذلك، فسيق في بيان سبب النزول.

ومثل هذا الالتباس في بيان أسباب النزول له أمثلة عدة منقولة في كتب التفسير. ٤ – وفي قــوله تعالى : {وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ} التحريم: ١٢.

قيل يجوز أن يراد بكلماته صحــفه التي أنزلها على ادريس (ع) وغيره، سماها كلمات لقــصرها، وبكتبــه الكتب الأربــعة. وأن يراد جميع ما كلم الله بــه ملائكته وغيرهم ،وجميع ما كتبه في اللوح وغيره [١٢]. ونقــل هذا التأويل الرازي ،وأضاف :وقرأ الجحــدري بــكلمة الله، على الافراد، وقرأ الحسن: بــكلمة ربــها، قــال مقاتل:يعني بعيســى، وســمي عيســى (كلمة الله) في مواضع من القرآن، وجمعت تلك الكلمة هنا. وقــرئ: كلمة وكلمات وكتبــه وكتابــه. ونقــل عن أبــي علي الفارسي قوله: الكلمات: الشرائع التي شــرع لها دون القول، فكأن المعنى: صدقــت الشــرائع وأخذت بــها وصدقت الكتب [١٣].

واحتمل ابــن عطية أن (الكلمة) اســم الجنس في التوراة، قال: ومن قــرأ على الجمع فيقــوي أنه يريد التوراة [١٤].

وهذا التأويل فيه مراعاة للواقــع، لأن العذراء (ع) عاصرت شريعة موسى (ع) وسبقت رســالة المســيد المسيح (ع) ورسالة الاسلام .

٥ – ومن هذا الضرب قــوله تعالى: مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيــاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنــاً فِي الدِّينِ} النســاء: ٤٦ الخبــر_ على ماذهب اليه المفسرون _عن اليهود الذين يميلون الكلام الموحى الى موســـى(ع) في نص التوراة، عن مواضعه، ويزيلونه عنها، وذلك بابداله ووضع كلم غيره مكانه، بهذا أمالوه عن مواضعه التي وضعه الله فيها وأزالوه عنها. ومثل له الزمخشري بتحريفهم (أسمر ربــعة) في صفة النبي محــمد(ص) في التوراة عن موضعه ووضع (آدم طوال) مكانه [١٥]. ورجح ابــن المنير في 'حاشيته على الكشاف' أن الكلم المحرف انما أريد بــه في هذه الســورة عبــارات مثل (غير مســمع) و(راعنا) والدليل عنده توسطها بــين قــوله تعالى: يحرفون، وقوله :ليا بألسنتهم. وهو تحريف مشــاهد بين على أن المحرف هاتان الكلمتان وأمثالهما، ولولا اشتمال هذا التحــريف على الهزء والســخرية_ كما قال_ لما عظم أمره [١٦].

ويرجح هذا قــول من قــال انهم يحــرفون كلم

القرآن، وهو قول طائفة، وذهب ابن عباس ومكي بن أبي طالب الى أن المراد كلم الرسول (ص)[17].

ويسط ابن عطية الرأي في هذا قائلا: وتحريف الكلم على وجهين: اما بتغيير اللفظ، وقد فعلوا ذلك في الأقل، وأما بتغيير التأويل، وقد فعلوا ذلك في الأكثر، واليه ذهب الطبري[18]، وهذا كله في التوراة على قول الجمهور. وقالت طائفة: هو كلم القرآن. وقال مكي وهو مذهب ابن عباس ـ : كلام النبي محمد عليه السلام، فلا يكون التحريف على هذا الا في التأويل[19].

وفحوى قول اليهود (غير مسمع) أي لا سمعت، أو غير مجاب الى ما تدعو اليه، أي غير مسمع جوابا يوافقك، أو غير مسمع كلاما ترضاه، فسمعك عنه ناب. هذا مايقصدونه في نواياهم وسرهم، وان كان الظاهر يوحي بأنهم يقصدون: غير مسمع انكارا أو رفضا أو غير مأمور وغير صاغر[20].

وقولهم راعنا، يحتمل: راعنا نكلمك،أي ارقبنا وانتظرنا، هذا على مقتضى الظاهر، ولكنهم يورون بها عن كلمة سب في العبرانية أو السريانية، وهي: راعينا، من الرعونة، وفي مصحف ابن مسعود وقراءته وقراءة أبي: راعونا[21] لهذا نهى المسلمون عن التلفظ بهذه المفردة بحسب منطوق آية البقرة { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} البقرة: ١٠٤[22].

وقرأ الحسن البصري وابن أبي ليلى وأبو حيوة ابن محيصن :راعنا، بالتنوين، أي: قولا راعنا، وكذا قيل في راعونا[23].

والواضح أن التحريف هنا لم يقع على ألفاظ الوحي كما ذهب اليه الجمهور، بل وقع كما هو منقول عن ابن عباس ومكي بن أبي طالب على ألفاظ الحوار بين الرسول (ص) واليهود الذين كانوا يكنون عن مدلولات من شأنها الغض من الرسول بمفردات من لغتهم ظاهرها الحوار المسالم وباطنها الانتقاص من شخصه(ص).

فكلمات (راعن وراعنا وراعين وراعون وأرعون) التي وردت في بعض المصاحف كلها ترجع الى مادة الرعونة، وهي مادة سامية مشتركة كما يظهر، ولأنها قائمة في العبرية فقد تعددت فيها القراءات وهيئات الرسم، وفسرت على ما تقتضيه قوانين الاعراب في العربية، شأنها شأن مفردات سامية الأصل دخلت العربية وتعددت فيها وجوه الأداء مثل (هيت وصلوات وابراهيم وجبرائيل) ونحوها[24].

٦ – وعلى هذا النحو من الدلالة جاء قوله تعالى في شأن بني اسرائيل: {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ} المائدة: ١٣

ومغزى الآية عند الزمخشري بيان لقسوة قلوبهم، لأنه لا قسوة أشد من الافتراء على الله وتغيير وحيه[25].

وله عند النحاس وجهان: (يبدلون حروفه، أو يتناولونه "كذا في المطبوع،ولعلها يتأولونه" على غير معناه[26]. وهو ما ورد في بيان الآية السابقة على هذه.

ويقرر ابـــن عطية أن كلام الله عز وجل في التوراة والانجيل لامبـــدل له في مذهب _ ابـــن عبـــاس _ وانما حرفها اليهود بالتأويل لايبدل حـــروف وألفاظ. وقـــال: وجوز كثير من العلماء أن يكونوا بـــدلوا الألفاظ لأنهم استحفظوها، وهو الأظهر[٢٧].

وقيل: يغيرون ماشق عليهم من أحكامها كتبديل آية الرجم بالتحميم، أي تسويد الوجه بالفحم[٢٨].

٧ – ومن السورة نفسها قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الكُفْرِ مِنَ الَّذِيـــنَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ المائدة: ٤١

تفســيره عند الزمخشـــري: يميلونه ويزيلونه عن مواضعه التي وضعها الله تعالى فيها، فيهملونه بـــغير مواضع بعد أن كان ذا مواضع. ويقولون لأشياعهم: إن أوتيتم هذا المحــــــــرف المزال عن مواضعه فخذوه، واعلموا أنه الحق واعملوا بـــه، وان لم تؤتوه وأفتاكم محمد بـــخلافه فاحـــذروا، واياكم واياه، فهو البـــاطل والضلال[٢٩]. وعند الزجاج والنحاس أن التحريف لحق به بعد أن وضعه الله مواضعه فأحـــل حـــلاله وحـــرم حـــرامه[٣٠].وتوضيح ذلك مانقـــل عن ابـــن عبـــــاس والجمهور أنها حدود الله في التوراة وذلك أنهم غيروا الرجم، أي وضعوا الجلد مكان الرجم. وعن الحســـــن البصري: يغيرون مايسمعون من الرسول(ص) بالكذب عليه[٣١]. ورويت في سبـــب نزول الآية وقـــــائع عدة بسطها المفسرون[٣٢].

الثاني: قضاء الله وارادته وأمره.

اتســـعت دلالة "كلمة" و"كلمات" مضافة الى الله تعالى أو الى الضمير العائد عليه أو الى صفته تعالـــى (رب) أوجاءت نكـــرة موصوفـــة لتتجـــاوز دلالتهـــا المعجمية وتفيد معنى الارادة والامر والوعد والقضاء النافذ، في مواضع عدة من النص القـــرآني . من ذلك قوله تعالى:

١ – ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ الـــلَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ المُرْسَلِينَ﴾ الأنعام: ٣٤ .

السورة مكية وما سبق هذه الآية وماتلاها حـــديث عن مواقـــف المشـــركين ورفضهم دعوة الاســـلام وانكارهم النبوة وجحدهم لآيات الله في خلقهم وبعثهم وعدم اتعاظهم بـــما جرى للأمم قبـــلهم من ســـــوء المنقلب، والآية مواساة وتثبيت للرسول في مواجهة عناد مشـــــــركي مكة واصرارهم على رفض دعوة الاسلام. قيل في تفسير "لكلمات الله": لمواعيده وأمره وكلماته السابقات بـــما يكون، أي قـــضاؤه الأزلي[٣٣] يعضده قـــــوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المُرْسَلِينَ﴾ (الصافات ١٧١_ ١٧٢

وهذا التعضيد يستند الى مبدأ أن القرآن يفسر بعضه بـــعضا بـــصفته نصا متكاملا، وهي رؤية لها جذور بعيدة تعود الى عصر الصحابة وفيهم الامام علي(ع) وابن عباس.

٢ – ومنه قوله تعالى:

{لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} يونس: ٦٤.

الضمير في (لهم) يعود على أولياء الله في الآية السابقة. و"الكلمات" تأولها النحاس بوعد الله، ونقل قول بعضهم: لاتبديل لأخباره، أي لاينسخها شيء ولا تكون الا كما قال[٣٤]. ونقل ابن الجوزي عن ابن عباس تعليل العبارة بأن مواعيده تعالى بكلماته[٣٥]. وعلى هذا النحو أول الزمخشري وابن عطية والرازي المعنى[٣٦].

٣ – ومنه قوله تعالى في السورة نفسها: {فَلَمَّا أَلْقَواْ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ} يونس: ٨١ـ٨٢.

فسرت (الكلمات) بالأوامر والقضايا، أي ما قضاه الله، وقرئ: بكلمته أي بأمره ومشيئته[٣٧]. وقريب منه تفسيرها بكلماته "السابقة الأزلية" في الوعد بذلك. ورجح ابن عطية لختيار الطبري أن الآية من مضمون كلام موسى (ع)[٣٨]

٤ –وعلى هذا التأويل جاءت آية الشورى:

{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} الشورى: ٢٤.

السورة مكية وهي من الحواميم السبع وسياقها ترغيب وترهيب للمشركين وحث لهم على الدخول في الاسلام والايمان وقبول دعوة الرسول(ص) وانذار لهم بما سيؤول اليه عصيانهم لو أصروا عليه وتمادوا في رفض دعوة الاسلام.

قال الزمخشري: من عادة الله أن يمحو الباطل ويثبت الحق (بكلماته) بوحيه أو بقضائه، ويجوز أن يكون عدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه يمحو الباطل الذي هم عليه من البهت والتكذيب، ويثبت الحق الذي أنت عليه بالقرآن وبقضائه الذي لامرد له من نصرتك عليهم[٣٩].

وفسرها ابن عطية بـ "ما سبق في قديم علمه وارادته من كون الاشياء"،أي صيرورتها بالكلمات،وهي المعاني القائمة التي لاتبديل لها[٤٠].

٥ – ويقع بضمن هذا التأويل قوله تعالى:

{إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} التوبة: ٤٠.

أفاد الزمخشري بأن كلمة الذين كفروا دعوتهم الى الكفر وكلمة الله دعوته الى الاسلام، قال:وقرئ كلمة الله، بالنصب، والرفع أوجه[٤١]، والنصب قراءة الحسن البصري ويعقوب والأعمش. قال ابن عطية: يريد لا اله الا الله، وقيل :الشرع بأسره، وهذا أولى لأنه يمثل ارادة الله تعالى مقابل كلمة الذين كفروا وهي عقيدة الكفر ولاتختزلها عبارة واحدة[٤٢].

وتأولها الرازي بأنها اشارة الى يوم بدر حيث انتصرت كلمة الله(لا اله الا الله) على كلمة الشرك[٤٣].

٦ – وعلى هذا المنوال الدلالي جاءت لفظة "كلمة" مضافة الى لفظة (ربك) في أربعة مواضع هي: قوله تعالى:{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ

وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ } الانعام: ١١٥.

وهذه الآية تقدمها حديث عن عناد أهل الشرك ومجاهدتهم دعوة الاسلام وعدائهم للرسول (ص) وانكارهم ما أوحي اليه،لاسيما أهل الكتاب الذين يعلمون أنه منزل بالحق كما قررت الآية التي تسبق هذه.

والتوحيد قراءة عاصم وحمزة والكسائي وخلف يعقوب، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر(كلمات)[٣٣] وهي كذلك في "الكشاف" بالجمع. قال الزمخشري :أي تم كل ما أخبر به وأمر ونهى ووعد وأوعد. وقرئ: كلمة ربك، أي ماتكلم به، وقيل :هي القرآن[٣٤] وهو رأي الطبري[٣٥]. واعترضه ابن عطية ليقرر أن المقصود العبارة عن نفوذ "قوله" تعالى صدقا فيما تضمنه من خبر وعدلا فيما تضمنه من حكم. قال: "تمت" في هذا الموضع بمعنى استمرت وصحت في الأزل صدقا وعدلا، وليس بتمام من نقص[٣٦]. ثم قرر أن دلالة لامبدل لكلماته، أي في معانيها، بأن يبين أحد أن خبره بخلاف ما أخبر به، أو يبين أن أمره لاينفذ. قال: وأما الألفاظ فقد بدلتها بنو اسرائيل وغيرتها، وهذا مذهب جماعة من العلماء[٣٧].

٧ - وكذلك قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ } يونس: ٣٣.

الاشارة في (ذا) من (كذلك) الى قوله تعالى في الآية التي قبل هذه: "فذلكم الله ربكم الحق" والمعنى عند الزمخشري: مثل ذلك الحق أي ربوبيته وقدرته ومشيئته، حقت كلمة ربك، أي مشيئته وقدره ووعيده أنهم لايؤمنون، وأنهم من أهل الخذلان. واحتمل وجها آخر هو أن يراد بالكلمة :العدة بالعذاب، لأنهم لا يؤمنون وتكون (أنهم) للتعليل، بمعنى لأنهم[٣٨] وعند مكي: سبق قضاؤه[٣٩].

وقرأ نافع و ابن عامر هنا وفي التي قبلها والتي بعدها(كلمات) بالجمع، وهي قراءة أبي جعفر المدني وشيبة بن نصاح[٤٠].

٨ـ وفي سورة يونس أيضا:{ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُون}يونس: ٩٦

عن قتادة: حق عليهم غضب الله وسخطه بمعصيتهم[٤١]. وقريب منه: ثبت عليهم قول الله الذي كتبه في اللوح وأخبر به الملائكة أنهم يموتون كفارا، فلا يكون غيره، لأنه قضاؤهم وقدرهم. ويقرر الزمخشري، بمنظور اعتزالي، ان ذلك اختيارهم، وهو "كتابة معلوم لاكتابة مقدر مراد، تعالى الله عن ذلك"[٤٢] . وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر المدني: كلمات[٤٣]. قال الرازي: انها كلمات بحسب الكثرة النوعية أو الصنفية ، وكلمة واحدة بحسب الوحدة الجنسية، وقال في تفسيرها، المراد من الكلمة حكم الله بذلك واخباره عنه، وخلقه في العبد مجموع القدرة والداعية، الذي هو موجب لحصول ذلك الأثر..وقال: وقد احتج أصحابنا_ يريد الأشاعرة_ بهذه الآية على صحة قولهم في اثبات القضاء اللازم والقدر الواجب[٤٤].

٩ - وبهذه الصيغة جاء قوله تعالى:

{وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ

أَصْحَابُ النَّارِ }غافر : ٦ .

الآية من سورة غافر ، وهي مكية من الحواميم السبع، بـدايتها توبـيخ وتهديد لمشـركي مكة والعرب ممن شاكسوا الرسول (ص) وانكروا دعوته وتذكيرهم بـما جرى لقوم نوح والأحزاب من بعدهم من مصير ماحق.

وفسرت عبارة (حقت كلمة ربـك) بـالوجوب على الكفرة من قريش وسواهم، ممن حاربوا دعوة الاسلام، كونهم من أصحـاب النار ،كذلك وجب اهلاكهم بـعذاب النار في الآخرة، مثلما جرى لقوم نوح والأحـزاب من الاستئصال في الدنيا والعذاب في الآخرة[٣٧] .

واستحضر النحاس قـوله تعالى: {وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّـي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } السجدة: ١٣ تفسيرا لـ(حقت كلمة ربك) في هذا الموضع[٣٨] .

وقرأ نافع و ابن عامر وأبو جعفر المدني:كلمات، وفي مصحف ابن مسعود: كذلك سبقت كلمة. قال ابـن عطية: وهذه كلها عبارة عن حتم القضاء[٣٩] .

قال الرازي: واحتج أصحابـنا_ يريد الأشـاعرة ـ بهذه الآية على أن قضاء الله بالسعادة والشقـاوة لازم لايمكن تغييره، فقالوا: انه تعالى أخبر أنه حقـت كلمة العذاب عليهم، وذلك يدل على أنهم لا قـدرة لهم على الايمان، لأنهم لو تمكنوا منه لتمكنوا من إبـطال هذه الكلمة الحقة، ولتمكنوا من إبـطال علم الله وحـكمته، ضرورة أن المتمكن من الشـيء يجب كونه متمكنا من كل ما هو من لوازمه، ولأنهم لو آمنوا لوجب عليهم أن يؤمنوا بهذه الآية، فحـينئذ كانوا قـد آمنوا بـأنهم لا يؤمنون أبدا ،وذلك تكليف مالايطاق[٤٠] .

١٠- في هذه الفقرة والفقرات الأربع اللاحقـة لها تأتي لفظة (كلمة) نكرة منونة موصوفة بـجملة فعلية هي (سبقت) وجاءت مرفوعة بـعد (لولا) الشـرطية .وفي جميع هذه المواضع فسرت بأنها قـضاء ووعد مؤجل من الله الى يوم البعث والنشور.

ففي سورة يونس جاء قـوله تعالى: {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّـكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُـمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } يونس: ١٩ السـورة مكية والآية وردت في سـياق تقـريع أهل الشرك على رفضهم دعوة الاسلام وتذكيرهم بـآيات الله ونعمه عليهم وتحـذيرهم من مواجهة مصائر من قبلهم من القـرون المهلكة بـظلمهم وانكار شـرائع السماء.

فسرت (كلمة) بأنها تأخير الحكم بـينهم الى يوم القيامة، أو أنها الآجال المؤقتة لهم، والتأخير سبقـت به الكلمة لحكمة أوجبت أن تكون هذه الدار دار تكليف وتلك دار ثواب وعقـاب[٤١]. وزاد الرازي وجها ثالثا فحواه أن المراد بـالكلمة قـوله تعالى فيما ورد في الآثار:(سبقت رحمتي غضبـي)، فلما كانت رحـمته غالبة اقتضت تلك الرحمة الغالبة اسبال الستـر على الجاهل الضال وامهاله الى وقت الوجدان[٤٢].

١١_وفي هذا المضمون جاء قـوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيـبٍ } هود: ١١٠

المورد
العدد الأول
لسنة/٢٠١٣

جاءت هذه الآية في سياق مخاطبة المشركين ومجادلتهم في أمر الرسالة والوحي ثم سرد طائفة من قصص الرسل مع أقوامهم ومالحق هؤلاء من التنكيل والعذاب، وذلك ابتداء بقصة نوح مع قومه ثم قصص هود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب وموسى، مما كنى عنه القرآن بـ(أنباء القرى)، وبعد هذه السورة تأتي سورة يوسف وما فيها من تفاصيل وقائع ما جرى له (ع) مع اخوته ومع أهل مصر والبيت الحاكم فيها. وفي "فضائل القرآن" لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ): قالوا: يا رسول الله انا نرى في رأسك شيبا، فقال: كيف لا أشيب وأنا أقرأ سورة هود"[١١].وأيا كانت دلالة هذه الرواية فان للحديث مغزى عن مضمون السورة ومافيها من حديث عن مصائر الأمم السالفة واهلاكهم بالعذاب النازل بهم في الدنيا، وخشيته (ص) أن يلحق قومه_ إن هم تمادوا في عصيانهم_ ما لحق السالفين من وبال.

فسرت (كلمة سبقت) بأنها كلمة الانظار، أي التأخير الى يوم القيامة، وتقدير ذلك في قضاء الله. وبهذا تأول ابن قتيبة في "المشكل" اللفظة بأنها: لولا نظرة لهم الى يوم الدين، ويفهمها ابن عطية والرازي أنها "الحكم والقضاء" ويستحسن أن لايقتصر المقصود على بني اسرائيل، بل يعم غيرهم من قوم الرسول (ص) ومعاصريه. ويرجح ذلك عندهما قوله بعد الآية: {قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} هود: ١١١[١٢].

١٢ – ومثل ماتقدم لفظا وتأويلا قوله تعالى: {وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} طه: ١٢٩.

هذه الآية جاءت في سياق قصة آدم وغواية ابليس له وتوبته (ع) عما بدر منه وهبوطه وزوجه الى الأرض، ثم تذكير المشركين بعاقبة القرون التي اهلكت قبلهم لضلالهم، وفسرت (الكلمة) بأنها العدة بتأخير جزائهم الى الآخرة، فلولا هذه العدة لأهلكهم كما أهلك الذين من قبلهم من القرون[١٣].

وفي الآية تقديم لرعاية الفاصلة كما لمحه المفسرون. والتقدير :ولولا كلمة سبقت في التأخير وأجل مسمى لكان العذاب لزاما[١٤].

وتوسع الرازي بالقول: ولاشبهة في أن الكلمة هي اخبار الله تعالى ملائكته وكتبه في اللوح المحفوظ أن أمته عليه السلام وان كذبوا فسيؤخرون ولايفعل بهم ما يفعل بغيرهم من الاستئصال. قيل: لأنه علم أن فيهم من يؤمن، أو أن في نسلهم من يؤمن. وذهب آخرون الى خفاء المصلحة في ذلك.

وفي الأجل المسمى، قيل: انه في الدنيا وهو يوم بدر، وقيل انه في الآخرة. ورجحه الرازي قال: ويكون المراد: ولولا كلمة سبقت تتضمن تأخير العذاب الى الآخرة لكان العقاب لازما لهم[١٥].

١٣ – وعلى نحو ماتقدم في الفقرة ١١(هود ١١٠) جاء قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ}فصلت: ٤٥.

السورة من الحواميم السبع، أولها حديث عن نزول الكتاب مفصلة آياته بلسان عربي، واعراض أكثر أهل مكة ومجاوريها عن دعوته لهم للاسلام، ثم حديث عن خلق السماوات والأرض وآيات الله فيهما، ثم انذار للمشركين بما نزل في عاد وثمود من العذاب الصاعق عقابا على جحدهم آيات الله ورسله. وتطمين للمؤمنين ووعد لهم بالجنة. وتذكير بأن قوم موسى اختلفوا فيما نزل عليه من ربه، كما اختلف هؤلاء في قبول الوحي وقول بعضهم: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ} فصلت: ٥ ثم قولهم: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} فصلت ٢٦.

قال النحاس: انهم قد أخروا الى مدة يعلمها الله، وأنه لايعاجلهم بالهلاك[16]. وخصص ابن عطية ذلك بقوله: والكلمة السابقة هي حتم الله بتأخير عذابهم الى يوم القيامة. واليه ذهب الرازي[17].

ولم يقتصر الزمخشري على جزاء العذاب بل وسع ذلك ليقول: والكلمة السابقة هي العدة بالقيامة وان الخصومات تفصل في ذلك اليوم، ولولا ذلك لقضي بينهم في الدنيا[18] .ويلاحظ أن هذه الآية جاءت مطابقة تماما لآية(هود ١١٠) المتقدمة،وهذا نادرا مايقع في المصحف.

١٤ – وعلى هذا المعنى جاء قوله تعالى:{وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ} الشورى: ١٤

هذه السورة أيضا من الحواميم السبع فهي مكية، وفيها تذكير بأن رسالة محمد (ص) هي ما وصى به الله تعالى نوحا وابراهيم وموسى وعيسى، وأن اختلاف أممهم بعد ما جاءهم العلم انما هو بغي وضلال.

وجمهور المفسرين أن المراد بـ(كلمة) عدة التأخير الى يوم القيامة[19].

وبسط ابن عطية القول :والكلمة السابقة هي حتمه تعالى القضاء بأن مجازاتهم انما تقع في الآخرة، ولولا ذلك لفصل بينهم في الدنيا وغلب المحق على المبطل[20] .

١٥ – وفي سياق آخر وردت (كلمة) مضافة،لكن اضافتها الى غير اسم الله وذلك في ثلاث مواضع حملت فيها جميعا دلالة حكم الله وقضائه .

ففي قوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } الشورى: ٢١

فسرت كلمة الفصل بأنها القضاء السابق بتأجيل الجزاء. قال الزمخشري: ولولا العدة بأن الفصل يكون يوم القيامة لقضي بينهم، أي بين الكافرين والمؤمنين، أو بين المشركين وشركائهم[21] . وعند ابن عطية: القضاء بينهم هو عذابهم في الدنيا ومجازاتهم[22] . وسياق الآية يفيد بأن الضمير في (لهم) للكفار المناوئين للرسول(ص).

١٦ – ومثلما أضيفت لفظة (كلمة) الى (الفصل)

أضيفت أيضا الى (العذاب) وذلك قوله تعالى: {أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ } الزمر: ١٩

جرد الفعل من علامة التأنيث للفصل بـــالجار والمجرور بـينه وبـين فاعله أو لأن المؤنث اكتسـب التذكير من المضاف اليه، وهو كثير في الشعر والنثر. والآية في سياق مخاطبة المشركين وتتكرر فيها لفظة الخطاب (قل) في مواضع عدة. وفسـر النحـاس الآية بقوله: أفمن سبـق في علم الله جل وعز أنه يدخل النار ينجو أويتخلص؟[٧٢] فهي هنا قضاء مقدر كائن في علم الله.

وتوقف النحاة المفسرون عند تكرار الاستفهام بدخوله على المبتدأ والخبر ففسره بعضهم بالتوكيد لطول الكلام كما بين النحاس[٧٣] . وقدر الزمخشري أصل الكلام على الحذف :أمن حـق عليه كلمة العذاب فأنت تنقـذه؟[٧٤] ونسب ابن عطية الحذف الى فرقة تقول: في هذا الكلام محذوف وتقديره: أفمن حق عليه كلمة العذاب تتأسـف أنت عليه، أو نحو هذا من التقـدير[٧٥] والى مثله ذهب الرازي[٧٦] .

١٧ – وفي سورة الزمر ورد أيضا قوله تعالى:{وَسِيقَ الَّذِيــنَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْـــكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنـــذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} الزمر: ٧١

عند ابن عطية كلمة العذاب: الكلمة المقتضية من الله تعالى تخليدهم في النار وهي عبارة عن قضائه السابق لهم بذلك، قال: وهي التي في قوله تعالى:{لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} ص:٨٥ [٧٧] والخطاب كما هو معلوم موجه الى ابليس بعد معصيته المعلومة في الاستكبار عن السجود لآدم (ع) وتأولها بنحو ذلك الزمخشـري قـائلا: ولكن وجبـت علينا كلمة الله (لأملأن)، لسوء أعمالنا فذكروا عملهم الموجب لكلمة العذاب وهو الكفر والضلال[٧٨] .

وذهب الى ذلك الرازي أيضا، لكنه أضاف: دلـت الآية على أنه لا وجوب قبل مجيء الشرع[٧٩] .

الثالث :العلم

وردت صيغة 'كلمات الله' في موضع واحـــد، و'كلمات ربي' في موضع واحد من النص القـرآني. واتفق الجمهور على أن دلالتها في الموضعين :علـم الله.

١ – ففي ســورة الكهف قـوله تعالى: {قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً } الكهف: ١٠٩

هذه الآية جاءت ختاما لســورة الكهف المتضمنة مئة وعشر آيات، وفيها قـصة أهل الكهف وقـصة موسـى (ع) والعبـد الصالح وقـصة ذي القـرنين ويأجوج ومأجوج وكلها مغيبات أو من (أنباء الغيب) التي جاءت ردا على ماكان يثيره أهـل الكتـاب مـن أسئلة لاختبار علم الرسول (ص) بشـأن الحـوادث الماضية والأمم السـالفة التي وردت أخبـارها في كتبهم.

وفي تفسير (الكلمات) نقل النحاس عن مجاهد أنها العلم[٨٠] . وهي كذلك عند الطبري[٨١] والزمخشري[٨٢]،

وابن عطية الذي وجهها بقوله :فعبــر عن هذا (العلم) بتمثيل ما يستكثرونه، ونقل في سبب نزولها أن اليهود قالت للنبي(ص)كيف تزعم أنك نبي الأمم كلها ومبعوث اليها وأنك أعطيت مايحـــتاج اليه الناس من العلم وأنت مقصر، قد سئلت عن الروح ولم تجب ،ونحـــو هذا من القول. .ثم قال: و"الكلمات" هي المعاني القائمة بالنفس، وهي المعلومات، ومعلومات الله سبحـــــانه لاتتناهى، والبحر متناه ضرورة[٨٣].

وقريب منه قول الرازي: ان البحـــار كيفما فرضت في الاتســـــاع والعظمة فهي متناهية ومعلومات الله غير متناهية، والمتناهي لايفي البتة بغير المتناهي[٨٤].

ونقل الواحدي عن ابن عبـــاس أن اليهود قـــالوا للرسول(ص) حـــين ســـمعوا:{وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً} الإسراء: ٨٥ قالوا: كيف وقــد أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقــد أوتي خيرا كثيرا!؟ اشـــارة الى قوله تعالى: {يُؤتِيْ الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ} البقرة: ٢٦٩

فنزلت الآية[٨٥] .وفحـــواها أن ذلك خير كثير ولكنه قطرة من بحر كلمات الله[٨٦].

٢ -وفي ســـورة لقـــــمان: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } لقـــمان: ٢٧ في تأويل الآية نقل الخبر السابق عن ابن عباس، ونقـــل أيضا أن المشركين قالوا: ان هذا_ يعنون الوحي_ كلام سينفد، فأعلم الله أن كلامه لاينفد[٨٧].

ومع أن سورة لقمان مكية لكن الآية مدنية نزلت بعد الهجرة بحسب ما أفاد الزمخشـــري، وختامها أن الله عزيز لايعجزه شـــيء، حـــكيم لايخرج من علمه وحكمته شيء، ومثله لاتنفد كلماته وحكمه[٨٨].

وعند النحـــاس أن الكلمات هنا يراد بــــها العلم وحقائق الأشياء، لأنه علم قبل أن يخلق الخلق ماهو خالق في السماوات والأرض من شيء[٨٩] . قال ابـــن عطية: وانما قرب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى، لأنه غاية مايعهده البشر من الكثرة، واستدرك: وليس تقـــتضي الآية أنها تنفد بـــــأكثر من هذه الأقـــــلام والبحور .ونقل عن أبي علي الفارسي قـــوله :المراد بالكلمات، والله أعلم، مافي المقدور دون ما أخرج منه الى الوجود. قال ابن عطية ملمحا الى فحوى كلام أبي علي: ذهبت فرقـــة الى ان"الكلمات" هنا اشـــارة الى المعلومات، وهذا قول ينحو الى الاعتزال، من حـــيث يرون (أي المعتزلة) في الكلام أنه مخلـــوق. وهـــذه الآية بحر نظر، نور الله تعالى قلوبنا بـــهداه[٩٠]. وعند الرازي أن "الكلمات" هنا تعني عجائب صنع الله، قال: فالكلمة مفسرة بالعجيبة، ووجهها ان العجائب بقوله :كن ،و"كن" كلمة، واطلاق اسم السبب على المسبـــب جائز، ودليل صحة هذا هو أن الله تعالى سمى المسيح كلمة، لأنه كان أمرا عجيبا وصنعا غريبا لوجوده من غير أب[٩١].

الرابع :المسيح(ع)

وردت لفظة (كلمة) مضافة الى الله تعالى اضافـــة مباشرة (كلمة الله) واضافة غير مباشـــرة "كلمة من

الله" أو "كلمة منه" في ثلاثة مواضع من القـرآن وكلها كناية عن السيد المسيح(ع) .

١ -جاء الخبر عن زكريا (ع) في قوله تعالى:{فَنَادَتْهُ المَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المِحْرَابِ أَنَّ الـلَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِياً مِّنَ الصَّالِحِينَ } آل عمران: ٣٩

والكلمة هنا_ على ماتقل عن ابـن عبـاس ومجاهد وقتادة والحسن البصري والسدي_ هي المسـيح (ع) وسمي (كلمة) لأنه لم يوجد الا بكلمة الله وحدها، وهي قوله: كن، من غير سبب انسان آخر كعرف البشر[٤٢] .

وقال أبو عبيدة وغيره: بكلمة من الله، أي بـكتاب مـن الله: التوراة أو الأنجيـل، وغيرهما، فـأوقـع المفرد(كلمة) موقع الجمع (كتاب) _لأن الكتاب يجمع الكلمات_ فكلمة اسـم جنس، وعلى هذا النظر سـمت العرب القصيدة الطويلة كلمة[٤٣]. وأورد الرازي وجوها خمسة في تأويلها اسـتمدها ممن قبـله ومن معجزات المسيح عليه السـلام، من قبـيل تكلمه في طفولته، أو ارشاده الى الحقائق والأسـرار الالهية أو أن الاشـارة وردت به في الكتب[٤٤] .

٢- بعد هذا الموضع ببضع آيات تكررت البشارة من الملائكة أيضا الى السيدة مريم عليها السلام بكلمة من الله {إِذْ قَالَتِ المَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ المُقَرَّبِينَ } آل عمران: ٤٥ .

قال قتادة :جعله كلمة، اذ هو موجود بـكلمة، وهي قـوله تعالى لمرادته :كن، وهذا كما نقـول في شـيء حادث هذا قدر الله، أي هو عند قدر الله، وكذا تقـول: هذا أمر الله. ونقل عن ابن عباس: الكلمة هي عيسى. وعن غيره: سماه الله كلمة من حيث كان تقـدم ذكره في توراة موسى وغيرها من كتب الله، وأنه سيكون. فـهذه كـلمة سبقت فيه مـن الله، وجاء الضمير في (اسمه) مذكرا لأن المسمى به مذكر[٤٥] .

وقيل لتسميته (المسـيح) وهو كلمة من الله، أي من كلام الله، وقيل: لأن الله يهدي بكلمته، ويرجع هذا الى قول الرازي: كان عيسى عليه السلام سببا لظهور كلام الله عز وجل بسبب كثرة بياناته وازالة الشبهات والتحريفات منه، فلا يبعد أن يسمى بـكلمة الله تعالى على هذا التأويل[٤٦]. أو الكلمة هنا لايراد بها عيسـى بل الكلمة بشارة الملائكة لمريم بعيسى، وقيل: بشارة النبي لها، وتقدم تكليم الملائكة قبل هذا التبشير بذكر الاصطفاء والتطهير من الله وبالأمن بالعبادة له، على سبـيل التأنيس واللطف، ليكون ذلك مقـدمة لهذا التبشـير بـهذا الأمر العجيب الخارق الذي لم يجر لأمرأة قبلها ولا يجري لأمرأة بعدها. وكان جري ذلك الخـارق مـن رزق الله لهـا أيضا، تأنيسـا لهذا الخارق[٤٧] .

٣ -في سورة النسـاء، وهي مدنية مثل آل عمران، وردت العبارة عن المسيح(ع) بأنه رسول الله وكلمته وروح منه، ووصف المسيح بأنه "روح الله " ورد في هذه الآية دون سابقتيها، قال تعالى: {يَا أَهْلَ الكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الـحَقَّ إِنَّمَا المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ } النساء: ١٧١

وعلى المنوال السابق فسروا تسمية عيسى(ع) كلمة الله وكلمة منه لأنه وجد بـكلمته وأمره لاغير، من غير واسطة أب ولانطفة. ومعنى، ألقاها الى مريم: أوصلها اليها وحصلها فيها[97].

الخامس : كناية عن عبارة تامة قرآنية وغير قرآنية. وردت لفظة (كلمة وكلمات وكلم) مضافة أوغير مضافة. ووردت معرفة موصوفة أو نكرة موصوفة أو غير موصوفة، وفي جميع صورها جاءت كناية عن مقولات قرآنية أو أعتقادية يتعبد بها الناس أو سواها.

١ -فمما جاء مضافا الى معرفة قوله تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ} االأعراف: ١٣٧

فسرت (كلمة ربك الحسنى) كما نقل المهدوي بأنها قوله تعالى: {وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ} القصص: ٥ ونقل عن مجاهد أنها ماسبق في علمه وكلامه في الأزل من النجاة من عدوهم والظهور عليه.

وهو لايخرج عن مضمون الكلام السابق. ومعنى(تمت) مضت عليهم واستمرت[98].

وعند النحاس وآخرين أنها قوله تعالى:{عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} الأعراف: ١٢٩[100] وهذا يقوي مذهب القول بأن القرآن يفسر بعضه بعضا.

وقرأ أبو عمرو في رواية عنه وفي رواية عن عاصم أيضا: وتمت كلمات ربك الحسنى بالجمع[99].

٢ -ومما جاء مضافا قوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ } هود: ١١٨ - ١١٩ فسرت " الكلمة " هنا بأنها قوله للملائكة: لأملأن جهنم...الآية. قال الزمخشري :لعلمه بكثرة من يختار الباطل. (ذلك) اشارة الى مادل عليه الكلام الأول وتضمنه يعني : ولذلك من التمكين والاختيار الذي كان عنه الاختلاف خلقهم ليثيب مختار الحق بحسن اختياره[101] . وهذا على أصله في عقيدته الاعتزالية القائلة بأن العبد مخير.

وذهب ابن عطية وتبعه أبو حيان الى تفسير الكلمة بأنها قضاء الله واحقاق أمره، وهذا لا ينافي الأول، لأن العبارة (لأملأن) هي بدل من كلمة، فهي تفسير للكلمة وفحوى لها[102] .

٣ -ومن هذا الباب قوله تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} الصافات: ١٧١ - ١٧٣

وتفسير(كلمتنا) هنا جاء في الآية مباشرا، وذلك قوله تعالى: انهم لهم المنصورون ..الآية)

قال الزمخشري: وانما سماها كلمة، وهي كلمات عدة، لأنها لما انتظمت في معنى واحد كانت في حكم كلمة مفردة[103] .

وعند النحاس: سبق منا القول لرسلنا: انهم لهم المنصورون، أي مضى بهذا منا القضاء والحكم[104].

ومثله ما فسر به ابن عطية[105]. وعند الفراء: سبقت لهم السعادة[106]، قال ابن عطية: وقيل: أراد بالكلمة قول الله عز وجل: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} المجادلة: ٢١.

وقرأ الضحاك: كلماتنا، وقراءة ابن مسعود: ولقد سبقت كلمتنا على عبادنا المرسلين[١٠٦].

٤ –ومما جاء في هذا الباب بصيغة العموم المجرد من التعريف وهو مؤول بعبارات عدة قوله تعالى:{فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} البقرة: ٣٧ .

وفسرت الكلمات_ كما نقل عن الحسن البصري_ بقول آدم: {قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} الأعراف: ٢٣ وهذا يشكل في معناه لأن الكلمات صادرة من آدم لا من الله تعالى.

وعن ابن مسعود ومجاهد: هي ان آدم قال: 'سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك، لااله الا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي، انه لايغفر الدنوب الا أنت'[١٠٧]
وقيل على هذا النمط من المحاورات بين آدم وربه لتفسير (كلمات) روايات عدة، وقيل المراد بالكلمات ندمه واستغفاره وحزنه، وسميت كلمات مجازا[١٠٨] .

وكل هذا يشكل عليه أن المتلقي_ بحسب منطوق الآية_ هو آدم، وان مصدر الكلمات (من ربه)

–٥ومن هذا الضرب أيضا قوله تعالى:{وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ } البقرة: ١٢٤

تأول المفسرون' الكلمات' بأنها أوامر ونواه اختبره الله بها. وفسر مقاتل (الكلمات) بما سأل ابراهيم ربه قوله: رب اجعل هذا بلدا آمنا...واجعلنا مسلمين لك ...وابعث فيها رسولا[١٠٩] . وهذا الكلام مستخلص من ثلاث آيات من سورة البقرة (١٢٦-١٢٩) وهذا يشكل على قراءة النصب، لكن الرواية وردت أيضا عن ابن عباس وأبي حنيفة: ابراهيم ربه، برفع ابراهيم، والمعنى أنه دعاه بكلمات من الدعاء فعل المختبر، هل يجيبه اليهن أم لا؟[١١٠] .

وقيل في معنى "الكلمات" هي مناسك الحج خاصة وما يقتضيه من التطهر في البدن كله. وعن ابن عباس وقتادة :عشر خصال، خمس منها في الرأس وخمس في الجسد، وكلها تلزم التطهر والنظافة[١١١] .

وقيل: هي الامامة وحج الناس الى البيت وأمنه ورزق أهله وبيان المناسك. وارتقى بها الحسن البصري الى ست خصال اختبر بها ابراهيم، وهي: الكوكب والقمر والشمس والنار والهجرة والختان.

قال ابن عطية :وانما سميت هذه الخصال(كلمات) لأنها اقترنت بها أوامر هي كلمات[١١٢] .

وبمنطق المعتزلي يقول الزمخشري: اختبار الله عبده مجاز عن تمكينه من اختيار أحد الأمرين، ما يريد الله، وما يشتهيه العبد، كأنه يمتحنه ما يكون منه حتى يجازيه على حسب ذلك[١١٣] .

الهوامش

(١) الوجوه والنظائر لمقاتل ١٠٨

(٢) الوجوه والنظائر لهارون بن موسى ٣٠٥

(٣) نزهة الأعين النواظر لابن الجوزي ٣٢٩

(٤) المفردات في غريب القرآن ٤٤٠

(٥) جامع البيان للطبري ٩|٨٧ ، معاني القرآن للنحاس ٢|٩٢ المحرر الوجيز لابن عطية ٢|٤٦٥ .

(٦) مفاتيح الغيب للرازي ١٥|٢٦ ، وينظر البحر المحيط ٤|٤٠٦ .

(٧) الكشاف للزمخشري ٢|١٦٧ .

(٨) الكشاف للزمخشري، وينظر البحر المحيط ٤|٤٠٦ .

(٩) جامع البيان ٩|١٨٤ ، معاني النحاس ٣|١٣٣ ، الكشاف ٢|١٩٩ ، مفاتيح الغيب ١٥|١٠٨ ، وتفسير ابن كثير ٣|٥٥٧ .

(١٠) الكشاف ٣|٧١٦ .

(١١)جامع البيان ١١٥|٢٣٣ ،مفاتيح الغيب ٢١|١٠٥ ، أسباب النزول للوحي ٣٠٥.

(١٢) الكشاف ٤|٥٧٢.

(١٣) مفاتيح الغيب ٣٠|٤٥ .

(١٤) المحرر الوجيز ٥|٣٣٥.

(١٥)الكشاف ١|٥١٦ ،مفاتيح الغيب ١٠|١٠٢.

(١٦) حاشية الكشاف ١|٥١٧.

(١٧) البحر المحيط ٣|٢٦٢، المحرر الوجيز ٢|٦٢ .

(١٨) جامع البيان ٥|١١٧.

(١٩) المحرر الوجيز ٢|٦٢.

(٢٠) مفاتيح الغيب ١٠|١٠٣.

(٢١) الكشاف ١|٥١٧، المحرر الوجيز ٢|٦٢.

(٢٢) معاني الزجاج ٢|٥٨ ومعاني النحاس ٢|١٠٠ وجامع البيان ٥|١١٧ والبحر المحيط ٣|٢٦٢.

(٢٣) البحر المحيط ١|٣٣٨ ومفاتيح الغيب ٣|٢١٨ .

(٢٤) المحتسب لابن جني ١|٧٩، ٩٧، ٢٢٣، ٢٥٦، ٣٣٧، ٢|٨٣، ٩٠، ٢٠٣، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٢٥ وغيرها.

(٢٥) الكشاف ١|٥١٧.

(٢٦) معاني القرآن للنحاس ٢|٢٨٢.

(٢٧) المحرر الوجيز ٢|٨٧.

(٢٨) البحر المحيط ٣|٤٤٥.

(٢٩) الكشاف ١|٦٣٣.

(٣٠) معاني القرآن للنحاس ٢|٣٠٧ ومعاني الزجاج ٢|١٦٠.

(٣١) جامع البيان ٦|٢٣٧، البحر المحيط ٣|٤٨٦، مفاتيح الغيب ١١|١٩٩.

(٣٢) البحر المحيط ٣|٤٨٦.

(٣٣) الكشاف ٢|١٩، المحرر الوجيز ٣|٢٨٧، مفاتيح الغيب ١٢|١٧٨.

(٣٤)معاني النحاس ٣|٣٠٣، ومعاني الزجاج ٣|٢٧، الجامع للقرطبي ٨|٣٩٥.

(٣٥) زاد المسير ٤|٤٤.

(٣٦) الكشاف ٢|٣٥٧، المحرر الوجيز ٣|١٢٩، مفاتيح الغيب ١٧|١١١.

(٣٧) الكشاف ٢|٣٦٣.

(٣٨) المحرر الوجيز ٣|١٣٦، مفاتيح الغيب ١٧|١٢٣ وانظر جامع البيان.

(٣٩) الكشاف ٤|٢٢٢، وينظر جامع البيان ٢٥|٢٧.

(٤٠) المحرر الوجيز ٥|٣٥.

(٤١)الكشاف ٢|٢٧٢، وينظر: البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة،١١١.

(٤٢)المحرر الوجيز ٣|٣٦،وينظر اعراب القرآن للنحاس ٣|٣٨٩

(٤٣) مفاتيح الغيب ١٦|٦٠.

(٤٤) السبعة لابن مجاهد ٢٦٦ ،وينظر البدور الزاهرة:١٨

(٤٥)الكشاف ٢|٦٠.

(٤٦) جامع البيان ،وينظر المحرر الوجيز ٢|٣٣٧ (٤٧) المحرر الوجيز ٢|٣٣٧، مفاتيح الغيب ١٣|١٣٩.

(٤٨) الكشاف ٢|٣٤٥.

(٤٩) تفسير المشكل من غريب القرآن ٥٥.

(٥٠)النشر لابن الجزري ٢|٢٦٢ وينظر المحرر الوجيز ٣|١١٨ ومفاتيح الغيب ١٧|١٦ والسبعة لابن مجاهد ٣٢٦ والبدور الزاهرة ٢١٩.

(٥١) معاني النحاس ٣|٣١٨.

(٥٢) الكشاف ٢|٣١٧ وينظر جامع البيان ١١|١٧٠.

(٥٣) السبعة لابن مجاهد ٣٢٦ ،والبدور الزاهرة ٢٢٤.

(٥٤) مفاتيح الغيب ١٧|١٣٨، البحر المحيط ٥|١٩١.

(٥٥) الكشاف ٤|١٥١.

(٥٦) معاني القرآن ٦|٢٠٤.

(٥٧) المحرر الوجيز ٤|٥٤٧، وينظر السبعة لابن مجاهد ٥٦٧ ،والبدور الزاهرة٤١٨.

(٥٨) مفاتيح الغيب ٢٧|٢٨.

(٥٩) معاني الزجاج ٣|١٢، الكشاف ٢|٣٣٧، المحرر الوجيز ٣|١١.

(٦٠) مفاتيح الغيب ١٧|٥٦.

(٦١) فضائل القرآن ١٣١.

(٦٢) معاني النحاس ٣|٣٨٥، الكشاف ٢|٤٣٢، مفاتيح الغيب ١٧|١٣٨.

(٦٣) الكشاف٣|٩٦.

(٦٤) الكشاف ٣|٩٦، وينظر المحرر الوجيز ٤|٦٩.

(٦٥) مفاتيح الغيب ٢٢|١٢٤.

(٦٦) معاني القرآن للنحاس ٦|٢٨٢.

(٦٧) المحرر الوجيز ٥|٢١ ومفاتيح الغيب ٢٧|١٢٢.

(٦٨) الكشاف ٤|٢٠٣.

(٦٩) معاني النحاس ٦|٣٠٢، الكشاف ٤|٢١٦، مفاتيح الغيب ٢٧|١٤٣

(٧٠) المحرر الوجيز ٥|٣٠.

(٧١) الكشاف ٤|٢١٨.

(٧٢) المحرر الوجيز ٥|٣٣.

(٧٣) معاني القرآن ٦|١٦٤.

(٧٤) الكشاف ٤|١٢١.

(٧٥) المحرر الوجيز ٤|٥٢٦.

(٧٦) مفاتيح الغيب ٢٦|٢٤١.

(٧٧) المحرر الوجيز ٤|٥٤٣.

(٧٨) الكشاف ٤|١٤٦.

(٧٩) مفاتيح الغيب ٢٧|٢٠.

(٨٠) معاني القرآن ٤|٣٠٢.

(٨١) جامع البيان ١٦|٣٩.

(٨٢) الكشاف ٢|٧٥٠.

(٨٣) المحرر الوجيز ٣|٥٤٦.

(٨٤) مفاتيح الغيب ٢١|١٦٠.

(٨٥) لسباب النزول ٣٠٧.

(٨٦) الكشاف ٢|٧٥٠، ومفاتيح الغيب ٢١|١٦٠.

(٨٧) المحرر الوجيز ٤|٣٥٣.

(٨٨) الكشاف ٣|٥٠١.

(٨٩) معاني القرآن ٥|٢٩١.

(٩٠) المحرر الوجيز ٤|٢٥٤، وينظر الجامع للقرطبي ١٤|٧٦.

(٩١) مفاتيح الغيب ٢٥|١٤٠.

(٩٢) جامع البيان ٣|، معاني النحاس ١|٣٩٠، الكشاف ١|٣٦٠، المحرر الوجيز ٢|٤٢٩.

(٩٣) مجاز القرآن البحر المحيط ٢|٤٤٧، مفاتيح الغيب ٨|٣٣.

(٩٤) مفاتيح الغيب ٨|٣٣.

(٩٥) الكشاف ١|٣٦٣، المحرر الوجيز ١|٤٣٥، البحر ٢|٤٥٩.

(٩٦) مفاتيح الغيب ٨|٤٥.

(٩٧) البحر المحيط ٢|٤٥٩.

(٩٨) الكشـــاف ١|٥٩٣، المحرر الوجيز ٢|١٣٩، مفاتيح الغيب ١١|٩٦.

(٩٩) الكشـــاف ٢|١٤٩، المحرر الوجيز ٢|٤٤٦، مفاتيح الغيب ١٤|١٩٣.

(١٠٠) معاني القرآن للنحاس٣|٧٢.

(١٠١) الكشاف ٢|٤٢٨.

(١٠٢) المحرر الوجيز ٣|٢١٦، البحـــر الحيط ٥|٢٧٤، مفاتيح الغيب ١٨|٦٥.

(١٠٣) الكشاف ٤|٦٧.

(١٠٤) معاني القرآن للنحاس ٦|٦٩.

(١٠٥) المحرر الوجيز ٤|٨٩ــــ٤، وينظر مفاتيح الغيب ٢٦|١٥٩.

(١٠٦) معاني القرآن للفراء ٢|٣٩٥.

(١٠٧) الكشاف ١|٢٩.

(١٠٨) المحرر الوجيز ١|١٣٠، مفاتيح الغيب ٣|٢٠.

(١٠٩) الكشاف ١|١٨٣.

(١١٠) الكشاف ١|١٨٣.

(١١١) المحرر الوجيز ١|٢٠٦ وينظر مفاتيح الغيب ٤|١٣٧.

(١١٢) معاني النحـاس ٦|٥١١، المحرر الوجيز ٥|١٣٨، البحـر المحيط ٨|٩٩.

(١١٣)الكشاف ٤|٤٤٣، ومفاتيح الغيب ٢٨|٩٤.

(١١٤) المحرر الوزير٥|١٣٨، تفسير المشكل من غريب القرآن ٩٩.

(١١٥) الكشاف ٢|٢٩١، المحرر الوجيز ٣|٦١، اسباب النزول ٢٥٦.

(١١٦) مفاتيح الغيب ١٦|١١٦ وأسباب النزول ٢٥٧.

(١١٧) الكشاف ٣|٦٠٢.

(١١٨)معاني النحاس ٥|٢٤٤، المحرر الوجيز ٤|٤٣١، البحر المحيط ٧|٣٠٤.

(١١٩)مفاتيح الغيب ٢٦|٨.

(١٢٠) جامع البيان ١٣|٢٠٣، معاني النحاس ٣|٥٢٥.

(١٢١) المحرر الوجيز ٣|٣٣٥.

(١٢٢)جامع البيان ١٣|١١٢، معاني الزجاج ٣|١٦١، معاني النحاس ٣|٥٢٧، الكشاف ٢|٥٥٢، زاد المسير ٤|٣٦٠، المحرر الوجيز ٣|٣٣٦.

(١٢٣) مفاتيح الغيب ١٩|١٠٥.

(١٢٤) معاني الفراء ٢|٧٦، المحرر الوجيز ٣|٣٣٦.

(١٢٥) معاني النحاس ١|٤١٧، الكشاف ١|٣٧١.

(١٢٦) المحرر الوجيز ١|٤٤٩ ومفاتيح الغيب ٨|٧٩.

(١٢٧)الكشاف ٤|٢٤٦.

(١٢٨)معاني النحاس ٦|٣٤٩، جامع البيان ٢٥|٦٣، مفاتيح الغيب ٢٧|١٨٨، البحر المحيط ٨|١٢، تفسير المشكل من غريب القرآن ٩٦.

(١٢٩) معاني النحـــاس ٤|٢١٤، جامع البيـــان ١٥|١٩٣، الكشاف ٢|٧٠٣، البحر المحيط ٦|٩٧.

(١٣٠)اتحاف فضلاء البشر ٢٨٨، المحرر الوجيز ٣|٤٩٦، مفاتيح الغيب ٢١|٢٧.

(١٣١)الكشاف ٣|٢٠٤، المحرر الوجيز ٤|١٥٥، مفاتيح الغيب ٢٣|١٠٧.

مصادر البحث

*اتحاف فضلاء البشر في قراءات الأربعة عشر، أحمد بن محمد البناء(أوفست) دار الندوة الجديدة_ بيروت .

*أسباب النزول علي بن أحمد الواحدي_ دار الكتب العلمية_ بيروت

*البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (أوفست) دار الفكر بيروت ١٣٩٨هـ١٩٧٨م "

*تفسير المشكل من غريب القرآن_ مكي بن أبي طالب_ دار الفرقان_عمان ١٤٠٥هـ١٩٨٥م.

*جامع البيان في تفسير القرآن، محمد ابن جرير الطبري، ت: محمود محمد شاكر، دار العارف القاهرة ١٩٥٥ .

*الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ،دار الشعب القاهرة،١٣٧٢هـ.

*زاد المسير في علم التفسير ،ابن الجوزي، دمشق ١٣٨٨هـ.

*السبعة لابن مجاهد_ تحقيق د.شوقي ضيف_ ط٣_ دار المعارف القاهرة ١٩٨٨م.

*فضائل القرآن، أبو عبيد القاسم بن سلام، دار الكتب العلمية_بيروت ١٤١١هـ١٩٩١م.

*الكشاف للزمخشري محمود بن عمر ط٣_ (أوفست) دار الكتاب العربي_بيروت ١٤٠٧هـ١٩٨٧م.

*مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بن الحسن الطبرسي، دار احياء التراث العربي بيروت.

*المحتسب لابن جني_ ت ناصف والنجار وشلبي _المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية_ القاهرة ١٣٨٦هـ.

*المحرر الوجيز لابن عطية_ دار الكتب العلمية_ بيروت ١٤١٣هـ١٩٩٣م.

*معاني القرآن واعرابه للزجاج _ ت د.عبد الحفيظ شلبي_عالم الكتب_بيروت ١٤٠٨هـ١٩٨٨م.

*معاني القرآن للفراء_ ت أحمد نجاتي ومحمد علي النجار(أوفست) دار السرور_بيروت(د.ت).

*معاني القرآن للنحاس_ ت محمد علي الصابوني_ مركز احياء التراث الاسلامي_جامعة أم القرى ١٤٠٨هـ١٩٨٨م.

*المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني_ دار المعرفة_ بيروت(د.ت) .

*مفاتيح الغيب (تفسير الفخر الرازي) محمد بن عمر_ دار الفكر، دمشق ١٤٢٥هـ٢٠٠٥م .

*نزهة الاعين النواظر في علم الوجوه والنظائر_ جمال الدين ابن الجوزي_ مكتبة الثقافة الدينية_ القاهرة ١٤٣١هـ٢٠١٠م.



مدارس بغداد في العصر العباسي

وتقاليدها الجامعية

أ. د. حسين امين

باحث / العراق



برزت نهضة تعليمية في العراق في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، ففي سنة ٤٥٧هـ / ١٠٦٥م بُدئ بتأسيس المدرسة النظامية ببغداد التي قام بتأسيسها الوزير نظام الملك، صحيح ان هناك عدداً من المدارس ظهرت في المشرق الاسلامي إلاّ ان المدرسة النظامية التي أسسها نظام الملك كانت بحق تتوافر فيها الوسائل التعليمية، وعمل نظام الملك بداية عصر جديد من الازدهار للمدرسة، فكانت هناك سجلات باسماء الطلبة، وتحديد اعدادهم، وتهيئة مساكن لاقامة الطلاب وصارت تلك المدرسة نموذجاً يحتذى في سائر المدارس التي انشئت في جميع البلدان الاسلامية.

وعيّن نظام الملك المدرسين للمدرسة وخصص للمدرس والناظر والمحدث ولخازن المكتبة والمناول ولجميع من يعمل بالمدرسة الرواتب المنتظمة، ومن الطريف أن علماء ما وراء النهر لما علموا أن نظام الملك خصص الرواتب للعلماء اقاموا مجلس عزاء وقالوا: كان يشغل بالعلم ارباب الهمم العلية والانفس الزكية



الذين يقصدونه لشرفه والكمال به، وإذا صار بـآجرة تداعى اليه الاخصاء وارباب الكسل.

ومن الجدير بالذكر ان اول مدرس صدر امر تعيينه مدرساً في المدرسة النظامية هو الشيخ ابـو اسحـق الشيرازي كبير فقهاء الشـافعية ببـغداد، ومن الجدير بالذكر ان المدرسة النظامية خصصته لتدريس الفقـه الشافعي، كون المؤسـس نظام الملك شـافعي المذهب وبذل جهده الى ان تكون مدارسه تُعنى بتدريس الفقـه الشافعي، وقـد اسـس نظام الملك اضافة الى نظامية بـغداد، مدارس اخرى في البـصرة والموصل وآمل وغيرها من المدن الاسـلامية وجميعها كانت مختصة بتدريس الفقه الشافعي، كما كان يدرس في المدرسـة موضوع علوم القرآن والحديث النبوي واللغة والنحـو والأدب وعلم الكلام. وافتتحـت النظامية للتدريس في سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٦٧م.

وانشئت في الحقبة ذاتها مدرسة أنشأها ابو سـعيد مستوفي المملكة السلجوقية قرب مشهد ابـي حـنيفة وتُعنى بتدريس الفقه الحنفي سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٦٧م. ثم اخذ الملوك والامراء والوزراء بتأسـيس المدارس ببغداد، فكانت هناك مدارس تعنى بتدريس الفقه الحنفي واخرى للفقه الشافعي والحنبلي واستمر الحال الى سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م حـيث اسـس الخليفة العباسـي المستنصر بالله مدرسته الخالدة المدرسة المستنصرية التي جعلها الخليفة المستنصر لتدريس فقـه المذاهب الاربعة الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية، والحق بالمدرسـة معاهد علمية، مدرسـة للطب ومعهدا التدريس الحديث النبـوي، ومعهداً لتعليم وتحـفيظ القرآن الكريم، ومدرسة للصيدلة، وهذا في الحقيقـة احدث تطوراً كبيراً في مناهج التعليم وتوسيع آفاقه.

عند افتتاح أي مدرسة، يقام احتفال كبير يحضره كبار شخصيات الدولة والعلماء الكبار وشـخصيات مرموقـة من المجتمع وتقـام المآدب في ذلك اليوم وتلقـى الخطب والقـصائد في اهمية العلم والمعرفة والتمجيد بالمؤسس على مبـادرته العلمية في خدمة المبادئ الدينية السامية وتوفير العلم لابناء المجتمع.

ولنأخذ المدرسـة المسـتنصرية نموذجاً ليوم الاحتفال الذي جرى في الخامس من رجب ٦٣١هـ/ ١٢٣٤م حـيث حـضر نائب الوزارة وسـائر الولاة والحجاب والقضاة والمدرسون والفقهاء ومشـايخ الربـط والصوفية والوعاظ والقـراء والشـعراء وجماعة من اعيان التجار الى المدرسـة، وحـضر الخليفة المستنصر واستقبل بعظيم الحفاوة والاجلال.

ووقف نائب الوزارة نصير الدين بن الناقد وبـيده السجلات الخاصة بالمدرسـة المسـتنصرية واعلن افتتاح المدرسة برعاية الخليفة المستنصر بالله، وتلا على الحـاضرين نظام المدرسـة مبـيناً أقسـامها ومرتباتها ومخصصاتها وتفاصيل ادارتها ووقـوفها وموظفيها وعدد طلابـها ومناهج التدريس فيها، وتخير لكل مذهب من المذاهب اثنين وسـتين فقـيهاً ورتب لها مدرسـين ونائبـي تدريس وخلع على كل واحد جبة سوداء وطرحة كحلية وأُعطي بغلة بمركب جميل وعُدّة كاملة، كما خلع على جميع المعيدين وهم



اربـعة لكل مـذهب كمـا خلـع على جميع الموظفين والعاملين في المدرسة.

وفي وسط تلك البهجة مُد سماط عظيم في صحـن المدرسة عليه انواع الاطعمة والاشربة والحـلواء أكل منه الحاضرون وهم في نشوة من السرور والحبـور. وفي نهاية الاحتفال نشـر الشـعراء المدائح الرائقـة والقصائد الفائقة.

اصبحت الجُبّة التي يرتديها مدرس المسـتنصرية والطرحـة الكحـلية هي اللبـاس الرسـمي لمدرس المسـتنصرية وهي ما يعرف اليوم ((بـالروب الجامعي)).

كان لباس الطلبة موحداً، العبـاءة والعمامة وكان الطلاب يعيشون في المدرسـة كل ثلاثة او اربـعة من الطلاب يقيمون بغرفة مؤثثة وهناك عامل مسؤول عن تنظيفها وترتيبها وتوفير الاضاءة لكل غرفة.

لكل مدرس في المسـتنصرية اربـعة من المعيدين يجلس اثنان عن يمينه واثنان عن يساره.

والطالب المجد الذي يجد فيه الشـيخ كفاءة يعينه معيداً. وان المعيد يُرقّى الى درجة مدرس بـعد مدة من ممارسته وظيفة المعيد بشرط ان يقـدم بحـوثاً اصيلة تنال قبول استاذه، وهذا التقليد قائم في جامعاتنا.

من التقـاليد في المدارس البـغدادية، ان يجتمع التدريس للمدرس في مدرستين، فالشيخ تاج الدين بن السباك كان يدرس بمدرسـة ابـي حـنيفة مضافاً الى تدريسه بالمدرسة المستنصرية.

ومن التقاليد، ان يجتمع للمدرس في المسـتنصرية منصب إضافة الى التدريس، فالشيخ محيي الدين بـن الجوزي مدرس الحنابلة في المستنصرية عين استاذ الدار(رئيس ديوان رئاسـة الجمهورية)اضافة الى وظيفته التدريسية، والشيخ عبد الله الواسـطي وُليّ القضاء بالاضافة الى التدريس بالمستنصرية.

جواز تعيين الضرير مدرساً، فالشـيخ ابـو طالب الضرير، كان مدرساً في المدرسة البشيرية ثم نقل الى المستنصرية.

من تقاليد المدارس البغدادية العناية بالاختصاص، فعند وفاة الشيخ (ابي زكريا التبـريزي) مدرس اللغة والأدب في المدرسـة النظامية تولى الموضوع علي ابن الفصيحي، وكان الوجيه النحوي متفقهاً حـنفياً، تولى منصب التدريس في النظامية بعد تغيير مذهبـه الى الشافعية.

وهذا التقليد اي الاختصاص في الموضوع العلمي مهم جداً لأنه يعمل على اتقـان الموضوع وحسـن تدريسه وسلامة نتائجه.

من التقـاليد في المدارس البـغدادية في العصر العباسـي تكليف الخلافة لبـعض اسـاتذة المدارس البغدادية بمهمات مهمة، فقـد كلفَ الخليفة المقـتدي العباسي، ابـا اسحـق الشـيرازي مدرس النظامية بسفارة الى بلاد فارس وهذا التقليد جار في العراق فقد كلف بـعض الاسـاتذة بـوظائف مهمة مثل الوزارة وبمهمات سياسية مهمة.

من التقـاليد، ان يقـيم المُعيّن مأدبـة لاسـاتذة المدرسة ولما عُيّن الامام الغزالي مدرساً في النظامية



طلب منه زملاؤه ان يقيم وليمة لهم.

من التقاليد، ان المدرس لا يحال على التقاعد (المعاش) وذكر ابن الفوطي المؤرخ البغدادي، ان الشيخ كمال الدين ابا الفرج المعروف بابن وريدة البغدادي نيّف على التسعين وكان شيخاً بدار الحديث المستنصرية، وان مدرس الطب في المستنصرية، ابن الصباغ المنعوت بالشمس ناهز المائة ونيف عليها.

وهذا الامر سار عليه في الجامعات العراقية الآن.

ـ من التقاليد المتبعة في المدارس البغدادية ان المدرس اذا مات جلس اصحابه للعزاء بالمدرسة.

ـ عدم تحديد بقاء الطالب في المدرسة كما لا توجد امتحانات موحدة .

ـ المدرسة تفتح ابوابها طوال ايام السنة (محيي الدين الجوزي وصل بغداد من مصر في رمضان وحضر المدرسة والقى دروساً)

ـ مواعيد الدروس مرتبطة باوقات الصلاة، ولم يكن هناك وقت محدد للدرس.

ـ من التقاليد ان المدرس كان يجلس على منصة عالية.

ـ لكل مجموعة من الطلاب (مُرتّب) يعرف بالعراق باسم المراقب ويعرف ايضاً بالقدوة وهو حلقة الوصل بين الطلاب واساتذتهم او الادارة.

من التقاليد ان المدرس هو الذي يختار المادة، وهو المسؤول عن طلابه وهو الذي يمنح الشهادة (الاجازة) للطلاب، وان الشهادة (الاجازة) تصدر باسم المدرس.

من التقاليد ان المدرس في المستنصرية او غيرها من المدارس البغدادية يمنح الاجازة بالمراسلة، كما يمنح الشهادة الفخرية، فقد استجاز الحافظ السلفي بالاسكندرية العلامة الزمخشري مسموعاته ومصنفاته بالمراسلة.

وان العالم علم الدين السخاوي المتوفى سنة ٦٤٣ اجاز الخليفة المستنصر العباسي جميع مؤلفاته، بقصيدة شعر محفوظة بمخطوط محفوظ بدار الكتب/ القاهرة/ تحت رقم ٨١٦ أدب ضمن الخزانة التيمورية.

من التقاليد، ان المدرس يكلف طلابه باعداد البحوث العلمية ضمن تخصصاتهم، وكان الاستاذ يقرأ البحث ويعلق عليه وهذا متبع في جامعاتنا.

من التقاليد ان المدرسة كانت تؤمن للطالب السفر الى اماكن العلماء في بلد اسلامي للاستزادة من العلم، وهذا ما يعرف عندنا اليوم بالبحوث العلمية.

ومن التقاليد، ان المدرسة تهيئ كل ما يحتاج اليه المدرس للتعرف على المراكز العلمية في العالم الاسلامي والاستزادة من المعرفة وايجاد علاقات علمية وثقافية بين مدرسته والمراكز العلمية في العالم الاسلامي والتعرف على شيوخها وعلمائها.

هذه نماذج مما كانت عليه المدارس البغدادية بتقاليدها التي نسميها بالجامعية، وادت تلك المدارس رسالتها الثقافية. وحفظت للاجيال التراث العربي الاسلامي الخالد.



احتلال بغداد
(٦٥٦هـ ـ ١٢٥٨م)



د / محمد حسن سهيل
محمود محسن داود
الجامعة المستنصرية/كلية التربية الاساسية
قسم التاريخ

المقدمة

مدينة بغداد ارتبط اسمها بتاريخ الدولة العربية العباسية ، وتاريخ واحدة من اكبر الحضارات الإنسانية في عطاءاتها التي استمرت طوال خمسة قرون ، ثم بدأت هذه الدولة بالتدهور بعد اندماج العناصر الأجنبية في كيان الدولة . وبسبب هذا التدهور استطاع المغول أن يقوموا بهجمات شرسة استهدفت الأمة العربية الإسلامية .

كان الغزو المغولي واحتلال بغداد سنه٦٥٦ هـ قد أزالا عهدا متميزا يمثل ما وصل إليه الفكر الإسلامي من تقدم ورقي في كل المجالات سواء من الناحية العلمية أو الاجتماعية أو الاقتصادية ، ثم مجيء عهد أدى إلى زوال الخلافة من بغداد وبالتالي تدهور ما وصلت إليه الحضارة العربية الإسلامية التي كانت نواتها بغداد.

إن أحداث سنة٦٥٦ هـ المريرة لم تكن مفاجئة وإنما لها جذور تاريخية قديمة حيث التفكك والانحلال الذي كان ينخر جسم هذه الأمة العريقة لوصولها الى هذا الوضع المؤلم الذي أدى إلى تحطيم ما موجود من حضارة متطورة



بنيت على أكتاف قطاحل من العرب المسلمين آنذاك . ومن خلال الأسطر القاصة سيكون لهذا البحث وقفة على احتلال المغول لبغداد والتحدي والمقاومة اللذين جسدهما أهلها بأروع الملاحم البطولية ، وذلك من خلال مبحثين :

المبحث الأول

• ظهور المغول

تعرض المشرق الإسلامي منذ الربع الأول من القرن السابع الهجري إلى هجمات متعاقبة شنتها عليه أقوام شبه بدوية ، وتمكنت في اقل من نصف قرن من تقويض معظم الكيانات السياسية فيه .

عرفت هذه الأقوام باسم التتار ، وكان موطنهم الأصل هضبة منغوليا التي تمتد إلى أواسط اسيا – جنوب سيبيريا – وشمال التبت وغرب منشوريا وشرق تركستان بين جبال التاي غربا وجبال جنجان شرقا[١].

ويسود هذا الإقليم مناخ صحراوي ، ففي فصل الصيف القصير ترتفع درجات الحرارة فيه لتصل إلى(٦٠ف) وتقل كميات الأمطار الساقطة عن خمس بوصات ، وهي كمية لا تكفي سوى نمو بعض الحشائش اللينة الباردة ، وتنخفض درجة الحرارة شتاءا إلى دون درجة التجمد لتصل أحيانا إلى(٥٨ف) تحت الصفر بسبب تعرض هذا الإقليم للرياح الباردة الجافة القادمة من سيبيريا والتي تؤدي إلى تجمد المياه اشهرا عديدة من السنة [٢].

في ظل هذه الظروف عاشت قبائل المغول حياة بدوية قاسية متنقلة من مكان إلى آخر سعيا وراء موارد الرزق الشحيحة ، وقد انعكست مظاهر هذه البيئة على حياتهم الاجتماعية إذ أصبحت الهجرة وعدم الاستقرار من أهم صفاتهم [٣].

أصلهم :-

يصعب على الباحث الاهتداء إلى أصل المغول بشكل دقيق لقلة المصادر التاريخية التي تبحث في ذلك وان كان الكثير من الباحثين المحدثين يميلون إلى الاعتقاد بأنهم قريبو الصلة أو ينحدرون من أصل تركي[٤]

وينسبون بلهجاتهم إلى الأسرة اللغوية التانية أي التركية – المغولية ، وكانوا منقسمين إلى عدد كبير من قبائل تصل إلى حوالي تسع وثلاثين قبيلة [٥] أشهرها قبيلة التتر[٦] والمنغور تتاري المغول[٧].

سبب تسميتهم بالتتار :

طغى اسم التتار على اسم هذه القبائل جميعا ، وأصبحت تعرف بها أمام شعوب العالم آنذاك[٨].

والصينيون هم الذين عمموا هذه التسمية على جميع هذه القبائل قبل ظهور جنكيز خان[٩].

ظهورهم على مسرح التاريخ

قدر لهؤلاء القوم أن يبرزوا على مسرح التاريخ عندما تولى قيادتهم تموجين [١٠]الذي خلف والدهُ يسوكاي في الحكم ولم يكن قد تجاوز الثلاثة عشر عاما [١١] وحدث في بداية حكمه أن تآمر عليه زعماء القبائل الخاضعة لهُ ، إذ اخذ كل منهم يطلب السيادة لنفسه[١٢] وأبرزهم آوتك خان وتايانك خان زعيما قبيلتي مركريت واويرات .

تمكن تموجين من القضاء عليهم واستسلمت على اثر ذلك قبائلهم في عامي(٥٩٩ هـ-١٢٠٢م) و(٦٠٣هـ-١٢٠٦م) على التوالي .

تسميتهم بالمغول :

بعد أن احكم تموجين سيطرته على معظم القبائل انصرف إلى تنظيم شؤون مملكته ، فدعا زعماء القبائل التي خضعت لهُ الى عقد مجلس سنة(٦٠٣ هـ -١٢٠٦م) تقرر فيه إعمام تسمية المغول على كل القبائل التي دانت لهُ بالتبعية [١٣].

ويرجع إلى ذلك أن قبائل التتر كانت من القبائل المستضعفة والمحتقرة والمنبوذة فأراد تموجين أن يرفع من شأنها فأطلق عليهم هذه التسمية[14].

تسمية جنكيز خان

تضمن الاجتماع السالف الذكر تأكيد زعامة تموجين ومنحه لقب خان[15] وأطلق عليه تسمية جنكيز خان بدلا من تموجين فعرف منذ ذلك الحين بهذه التسمية وكان في الثانية والأربعين من عمره .

بداية المواجهة بين المسلمين والمغول :

شرع جنكيز خان في توسيع ملكه خارج منغوليا ، فاستطاع أن يسيطر على معظم أجزاء الإمبراطورية الصينية بما فيها العاصمة بكين وذلك سنه(٦٢٢ هـ - ١٢١٥م).[16]

وعندما اكمل جنكيز خان هدفه في الشرق ، وجه قوته نحو الغرب مستهدفا إخضاع القبائل المغولية التي تمردت عليه أثناء حملته على الصين [17] فادى ذلك إلى الاحتكاك مع القوى الإسلامية المجاورة ،ومنها الدولة الخوارزمية التي بلغ توسعها أقصاه في عهد السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه(٥٩٦ -٦١٧ هـ)/١١٠٩-١٢٢٠م)[18].

ويذهب بعض الباحثين انه لم يكن هناك ما يحول دون وقوع الاصطدام بين الدولتين [19] خاصة ان السلطان علاء الدين قد مهد السبيل لهذا التصادم بعد أن أزال الدولة القرة خطائية [20] وكان ذلك في سنة (٦٠٧هـ -١٢١٠ م)[21] التي كانت حاجزا بينه وبين المغول .

كما ان جنكيز خان كان بصدد البحث عن سبب كاف يبرر له إشعال نار الحرب مع الدولة الخوارزمية بعد أن أدرك ان استمرار هذه الدولة يعوق تحقيق أحلامه التوسعية في اقامه إمبراطورية عالمية[22]

فاخذ المغول يحتكون بدار الإسلام وذلك لحاجتهم إلى المواد الغذائية التي يفتقرون إليها وذلك بسبب قوة بلادهم وندرة إنتاجها الزراعي[23].

فاستغل جنكيز خان حادث مقتل تجاره في اترار[24] من قبل السلطان علاء الدين وكان قد أرسلهم إلى بلاد خوارزم لغرض المتاجرة بناءاً على اتفاقية سابقة ذريعة لتحقيق ذلك[25].

وبناءاً على ذلك اجتاحت جحافل المغول بلاد خوارزم شاه دون أن يستطيع السلطان علاء الدين محمد من التصدي لهم ، فبدأ بالتقهقر أمامهم حتى انتهى إلى احدى جزر بحر قزوين فتوفي هناك سنة ٦١٧هـ--١٢٢٠م [26].

المبحث الثاني

المغول وتهديدهم العراق

بعد أن اجتاحت جحافل المغول بلاد خوارزم اتجهوا نحو اربل قادمين من جهة مراغة ، فبثوا الرعب في المنطقة ووصل الخبر إلى الموصل ، ماحدا قسما من الناس إلى الهروب خوفا من السيف فاستنجد مظفر الدين كوكبري صاحب اربل ببدر الدين لؤلؤ فانجده بجمع من عساكر الموصل إلا أن المغول لم يصطدموا بقوات كوكبري ، ظنا منهم أن قوات الخلافة في أثرهم [27] وقد عاودوا الهجوم بعد عشر سنوات من الهجوم السابق سنة(٦٢٨هـ --١٢٣٠م) ، فقد سارت طائفة منهم على طريق الموصل فاستباحوا أعمالهم ثم أعمال اربل[28] فاستغاث مظفر الدين كوكبري صاحب اربل بعساكر الموصل ، فساروا إليه ، ولكن انسحاب جند المغول إلى أذربيجان أزال الخطر[29] وفي سنة(٦٢٩ هـ – ١٢٣١م) أغار المغول على شهر زور التابعة لأعمال اربل ، غير أنهم ما لبثوا أن عادوا إلى بلادهم ، بعد أن تتبعتهم عساكر الخليفة وصاحب اربل [30].



وفي سنة ٦٣٣هـ أتت الأخبار من اربل تقول ان عساكر المغول اجتازوا قاصدين الموصل فحاربهم عسكر اربل ، ثم انفصلوا قاصدين الموصل ، فعاثوا بها وقتلوا ونهبوا واسروا . فأمر الخليفة بتجهيز العسكر ، فبلغهم أن المغول عادوا إلى بلادهم . وفي سنه ٦٣٤هـ توجه عساكر الموصل إلى اربل وأحاطوا بها ، وتحصن سكان البلد بإغلاق الأبواب وصعود القلعة[31] ويمكن القول إن تلك الهجمات استطلاعية لتحديد إمكانية الاحتلال .

من ذلك يمكن ملاحظة أن بدر الدين لؤلؤ بدأ يفكر بسياسة المصالحة والمهادنة مع المغول محاولة منه لحماية إمارته من عبثهم بعد أن تأكد من ضعف القوة العسكرية للخلافة العباسية وفشلها في الحصول على إمدادات عسكرية من الشام ومصر لكي تتمكن من دفع الخطر عن بلادها خاصة بعد أن نجح المغول في تطويق الجزيرة من جهة الشرق والشمال سنة(٦٤١هـ-١٢٤٣م)[32] الأمر الذي دفع بدر الدين لؤلؤ إلى الدخول في طاعتهم سنة(٦٤٢هـ -١٢٤٤م)وجعل نفسهُ وسيطا عندما شرع في جباية الأموال من المنطقة . فقد ذُكر عنهُ بأنهُ كتب كتاباً يقول فيه((إني قررت على أهل الشام مطبعة للتتر في كل سنة من الغني عشرة دراهم ، ومن المتوسط خمسة دراهم، ومن الفقير درهم)) فقرأ الكتاب القاضي محيى الدين الزنكي على الناس وبدا في الجمع [33].

لقاء هذه السياسة التي اتبعها معهم بدر الدين لؤلؤ ، أرسلوا إليه (اليوبيغ)) [34] و(البايزة) [35] فكافأه لجهوده وطاعته لهم [36].

استمر بدر الدين لؤلؤ بالدخول في طاعتهم ، وطبع ألقابهم على نقوده[37].

وإزاء تحرك جيوش هولاكو من أطراف بلاد فارس والروم سنة ٦٥١هـ - ١٢٥٣م باتجاه بغداد [38]، قطع بدر الدين لؤلؤ اتصاله بالخليفة العباسي وانحاز بشكل تام إلى المغول [39]، بعد أن اقتربت قواتهم من أطراف بلاده سنه ٦٥٥هـ - ١٢٥٧م [40]، لتعزيز ثقة هولاكو فيه قدم مساعدته لإقامة جسر على نهر دجلة عند تكريت لعبور جيش المغول المتوجه لحصار بغداد [41].

وأثناء حصار هولاكو بغداد سنه٦٥٦ هـ - ١٢٥٨م أرسل بدر الدين لؤلؤ ابنه الملك الصالح ركن الدين إسماعيل على رأس ألف فارس ليسهم مع جيش هولاكو في احتلال بغداد[42] وعندما وصل هذا الجيش متأخرا غضب هولاكو وقال لهُ : ((انتم بعد في شك من أمرنا عطلتم نفوسكم يوما بعد يوم وقدمتم رجلاً وأخرتم أخرى لتنظروا من الظافر بصاحبه ، فلو انتصر الخليفة وخذلنا لكان مجيئكم إليه لا إلينا)) واستكمل الخطاب قائلاً : ((قل لأبيك : لقد عجبنا منك تعجباً كيف ذهب عليك الصواب ؟ ، وعدل بك ذهنك عن سواء السبيل واتخذت اليقين ظنا ، وقد لاح لك الصبح فلم تستصبح))[43].

ولم تكن الخلافة العباسية في حالة من الانتباه واليقظة والحذر لدرء هذا الخطر الجديد الذي بدأ يكتسح البلاد وينتهك الحرمات ، ولم تتخذ الإجراءات الحاسمة لدفعه ولم تستمع إلى الرسل الذين قدموا من البلاد المنكوبة يطلبون الغوث والنجدة ، وعند سماع الخليفة بوصول المغول إلى كرمنشاه واقترابهم من بغداد أمر الناس بالتضرع إلى الله سبحانه وتعالى بالقنوت في الصلاة [44].

ومما أطال في عمر الخلافة أن جنكيز خان رجع إلى بلاده بعد أن أباد الكثير من الخوارزميين ، وكانت معاناة جنكيز خان وانشغال المغول باختيار خلف لهُ فرصة ساعدت جلال الدين على أن يخرج من الهند ويعمل على تنظيم أمور بلاده ، لكنهُ لم يستغل الفرصة



بـــجمع كلمة أمراء المســـلمين والتعاون مع الخلافة ، وبالأخص أن المغول قد فقدوا الحماس والاندفاع بعد أن ملئت أعينهم بالخيرات والأموال كما انقسموا بعد وفاة جنكيز خان الأمر الذي اضعف عزيمتهم وقـــلل خطر هجماتهم[٤٥].

كل هذه الاحداث وخليفة بغداد لاه بـــما هو فيه من عسف الناس وظلمهم فقد كان قبيح السيرة في رغيـــته ظالما ، اذ خرب العراق في أيامه وتفرق أهلهُ في البلاد واخذ حلالهم وأموالهم ، وكان يفعل الأشياء وينقـــضها وكانت هوايته هي رمي البندق والطيور وســـراويلات الفتوة فبطلت الفتوة في البلاد جميعها إلا من يلبس منهُ سراويل يدعى إليه ، هذه كانت مشـــاغل الخليفة والتتر يتجولون في بلاد المسلمين قتلاً وأسرا وتخريبا [٤٦].

في بداية الأمر لم يواصل المغول الزحف نحو بغداد إنما اكتفوا بتوجيه بعض الحملات التي هدفها الســـلب والنهب ، وكانوا يقـــصدون من وراء ذلك معرفة مدى قوة الخلافة وقدرتها على المقـــاومة ، وكذلك يدل على اضطراب أمور المغول الداخلية وضعف وحــــــدتهم السياسية ، ولهذا تراهم قد اكتفوا بإرسال هذه الحملات الصغيرة للإبقاء على حالة الرعب والفزع التي كانت قد عمت البلاد الإسلامية[٤٧].

اســـتعد هولاكو للزحـــــف نحـــــو بـــــغداد في المحـــرم ٦٥٥هـــ بـــعد أن اقـــتلع في طريقـــه قـــلاع الاسماعيلية في إيران[٤٨].

إن الخسوف والانهيار السريع الذي حل بـــالخلافة لم يكن سببهُ قوة جيوش المغول وحسن تدريبها وشدة بأسها وبراعة خططها العســـكرية بقـــدر مالهُ علاقـــة بـــضعف الخلافة وتفكك أوصالها وانهيار مقـــــوماتها الأساسية ، بحيث أصبحت عاجزة عن مقـــاومة المغول وإغلاق الطريق أمامهم للوصول إلى بغداد[٤٩].

موقف الخلافة من المغول

إن موقف الخلافة مـــن المغول كان منطويا على الضعف والتخاذل، ويتحـــمل الخلفاء المتأخرون المســـؤولية الكبرى في ذلك ، ومن تولى الخلافة بعد المقتفي لأمر الله لم يسلكوا سبيلهُ في الحزم واليقظة والحـــذر في معالجة الأمور فقـــــــط اعتزل هؤلاء الخلفاء الناس .وقلما ظهروا لهم[٥٠].

وكان بينهم وبين الناس سد من الحزم والحـــجاب وهذا الانعزال امتد حتى إلى ابناء الخليفة وأقربائهم ، واعتمد الخليفة على حاشـــــية من الخدم والمماليك واعتمدوا في تنظيم شؤون البلاد على بـــعض هؤلاء الخدم المقربين فاخذوا يتحكمون بالبلاد ، ويحـــملون أوامر الخليفة صدقا أو كذباً إلى الوزير وتعرضت حياة الخلفاء إلى الخطر بسبب هذه العزلة ، إذ لم يجدوا من أهليهم من يدافع عنهم وقت النكبات[٥١].

لم تكن الخلافة على مســـتوى المســـؤولية ولم تدرك الأخطار التي كانت تهدد البـــــلاد آنذاك وكانت الخلافة تعمل فقـــط على اســـــتنفار المتطوعين من الأطراف وترسل الكتب إلى الأمراء تطلب منهم الدفاع عن بلدهم ، وعند ابتعاد الخطر تزول هذه الإجراءات في حين يتعين على الخلافة تعبئة طاقات الأمة وحشد قواها المادية والبشـــرية لمواجهة التحـــدي المغولي وان يتولى الخليفة بنفسه قيادة القوى المقـــاتلة وما يترتب على ذلك من رفع للمعنويات وشحذ الهمم[٥٢].

وبدلاً من الاســـتعداد والتهيؤ فان الخلافة تصرفت عكس ذلك ، وعلى ســـــبيل التمثيل كانت سياســـــة المستنصر بالله تقوم على أساس اســـترضاء المغول ومصالحتهم ، ثم بلغت الخلافة ذروة ضعفها في عهد المســـتعصم بـــالله الذي وصفهُ المؤرخون بـــالغفلة وضعف الرأي وقلة العزم ، وكان لخطر ما أقـــدم عليه الخليفة الجديد هو إهمالهُ الجيش وإمســــــاكه عن الإنفاق على الجند [٥٣].



إن إهمال الناحية العسكرية وما ترتب عليه من نتائج سيئة لا يتحمل مسؤوليتها الخليفة وحده بل يشاركه أيضاً رجال دولته من الوزراء والحجاب وأمراء الجيش والحاشية فهم جميعا يتحملون مسؤولية الكارثة التي حلت بالبلاد فكان بعضهم يهون على الخليفة والبعض الآخر ينصح بإعطائهم الهدايا والأموال لاسترضائهم ، إضافة إلى ما موجود من نزاعات وصراعات بين هؤلاء الوزراء والامراء حول السلطة عجز الخليفة عن القضاء عليها، فكان هذا يعد عاملاً من عوامل إشاعة الفوضى والاضطراب في دار الخلافة[44].

ولم يكن لهؤلاء الخلفاء سياسة واضحة في معالجة المشاكل السياسية ، بل لجأوا في حلها إلى التحريض والإيقاع بين الأمراء الذين كانوا يخرجون على طاعتهم الأممية وهذا أدى إلى اشتعال نار الحرب بين الأمراء المسلمين ، واستعانت الخلافة بكل من يقف بجانبها للتخلص من خصومها[45].

وهذه دلالة على سيادة وانتشار الفوضى والاضطرابات في البلاد آنذاك .

إن الخلفاء لم يهتموا بالأخطار التي كانت تهدد البلاد سواء من الشرق أم الغرب على الرغم من أصوات الاستغاثة التي كانت تطلب آنذاك وكان باستطاعتهم أن يفعلوا الكثير ولكنهم اكتفوا بإرسال الكتب إلى الأمراء المسلمين لإنجاد المستغيثين وكان المستعصم بالله آخر هؤلاء الخلفاء وأضعفهم عزيمة وأكثرهم تهاونا ، تولى الخلافة بعد وفاة أبيه المستنصر بطريقة تكشف عن مدى سيطرة رجال الحاشية على مقاليد الحكم[46].

إن المستعصم بويع بالخلافة صحوة نهار الجمعة العاشر من جمادى الآخرة سنه ٦٤٠هـ واستدعي من مسكنه التاج سرا من باب يفضي إلى ظهر داره وكان المستدعي لهُ شرف الدين أمال ألشرابي المستعري واجلسه على سدة الخلافة وخاطبهُ بأمير المؤمنين ، ثم اشعر أستاذ الدار محمد بن العلقمي والوزير احمد بن الناقد وطلب منهما الستر إلى الليل ثم بويع ولقب المستعصم ثم استدعي احد أعمامه وهو أبو الفتوح حبيب وأوهموه بأن جماعة إخوته حضروا وبايعوا وعندما حضر لم يرهم ثم بايع وعاد إلى دارة بالفردوس[47].

وكان للمستنصر أخ يعرف بالخفاجي يزيد عليه في الشهامة والشجاعة ولو استلم الخلافة لعبر بالعساكر نهر جيحون وانقذ البلاد من التتر فلما توفي المستنصر لم تعط لهُ الخلافة وذلك خوفا منه عما يعلمون من استغلاله الأمور واستبداده بالتدبير ، فأعطيت المستعصم بالله بما يعلمون من لينه وانقياده ليكون الأمر إليهم فتقلدها واستبدوا بالتدبير[48]لقد كان المستعصم بالله ، ابن الخليفة المستنصر بالله متدينا متمسكا بمذهب أهل السنة والجماعة على ما كان عليه والدهُ وجدهُ ، ولم يكن على ما كان عليه من التيقظ والهمة بل كان قليل المعرفة والتدبير ، نازل الهمة ، محبا للمال ، مهملاً للأمور يقلل فيها على غيره ... وكان ضعيف الرأي والبصر بتدبير الأمور وذا طمع ويتصف باللين والانقياد[49].

فازدادت الفتن في زمانه وازداد التذمر وازداد تدهور الحياة الاقتصادية وانتشر الغلاء وسيطر اللصوص والشطار والعيارون يسرقون أمام الشرطة وصاحبها بالتواطؤ معه والخليفة لا يحاسب صاحب الشرطة ولا الوزير الذي سيطر على جميع أمور البلاد وولاياتها التي انفصلت أو استقلت ، والوزير ابن العلقمي يمهد للانقلاب ، لهذا التدهور والتذمر والافتتان ، حتى يسهل تمرير المؤامرة لإزالة السيادة العربية وإسقاط الخلافة العباسية [50].

وكان الانفجار الأخير بين الأحزاب المتصارعة في



سنة٦٥٣ هـ عندما تراشق ابن العلقمي والدويدار الصغير الذي كان يتولى قيادة الجيش الذي اتهم بالخيانة والغدر، وكان ذلك سببا من الأسباب الرئيسية والمباشرة التي أضعفت كثيرا مقاومة الدولة واستعداداتها لمواجهة الخطر، اذ حدثت المعارك بين أنصار الحزبين في الأسواق وانتشرت الشائعات بين الناس وزادت في حدة الصراع الطائفي القديم وأدى إلى انتشار الفتن والفوضى[٢١].

وقد كان الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي يتصل بالمغول ويدعوهم للقضاءعلى الخلافة ويمهد الطريق لهم بتسريح الجيوش وكتم أنبائهم عن الخليفة والتقليل من شانهم .

إن ابن العلقمي قد استخدمهُ المغول في منصبه نفسه للاستفادة منهُ في إدارة البلاد ، لذلك تركزت هذه التهم في عنقه وانهُ لا يبرأ من تهمة التقصير والإهمال والمغول لم يكونوا بحاجة إلى أن يستدعيهم العلقمي للقضاء على الخلافة إذا عرفنا أنهم كانوا في زحف عام وفق خطة مبرمجة للسيطرة على العالم ، ولم يكن تقصير الخلافة وإهمال أجهزتها كافيا لتمكين المغول من القضاء على الخلافة ، بل شهدت هذه السنوات الحاسمة مظاهر كثيرة من غضب الطبيعة وقسوتها ساعدت على التفكك واستمرار الفوضى[٢٢].

وقد كان الوزير مؤيد الدين العلقمي يتصل بالمغول ويدعوهم للقضاء على الخلافة ويمهد الطريق لهم بتسريح الجيوش وكتم ابناءهم عن الخلافة والتقليل من شأنهم.

حصار بغداد

شرع هولاكو بالزحف نحو بغداد منذ عام٦٥٥ هـ وكان الزحف الأخير لاحتلالها وإسقاط الخلافة العربية العباسية في المحرم من سنة (٦٥٦هـ - ١٢٥٨م)، وكان الزحف متواضعا مع دعوة وزير الدولة العربية العباسية الفارسي مؤيد الدين بن العلقمي ومن ثم ذهاب وإياب التجار الجواسيس الذين ينقلون الأسرار وينالون حرمات الأمان من هولاكو وأصحابه تأمينا لهم بعد احتلال بغداد وحدث هذا كلهُ والخليفة المستعصم مودع أمره ، وأمر الخلافة وأمر العاصمة بغداد المركز إلى وزرائه وحجابه وأساتذة داره ، وخدمه وحشمه ، معتقداً بأنهم قادرون وبمستوى المسؤولية ومستوى الامانة والثقة التي يحملونها ولكن الصراع الشخصي بين هؤلاء أنفسهم والحقد والغضب كانت قد أعمت أعينهم عن الحقيقة التي تمثلت بمجرة الاحتلال الدامية[٢٣].

وعندما طلب هولاكو من حسام الدين (بن عكة) تخريب جميع القلاع ،خرب القلاع لكن هولاكو لم يقنع بذلك بل أمر بقتله مع كل أتباعه وأشياعه ما عدا أهل القلعة التي كان فيها ابنه الأمير (مسعد) الذي هرب حتى قتل في حرب بغداد .

إن هذه المذبحة لابد ان الخليفة عرف بها إما عن طريق الوزير الفارسي ابن العلقمي أو عن طريق مسعد بن حسام الدين عكة الذي هرب إلى بغداد ، أو من عامة الناس أو من الشعراء والفضلاء والمؤرخين ، حتى تعطي الخليفة تنبيها وحذرا لمواجهة هذا الخطر .

كان الخليفة المستعصم بالله غارقا في خيالاته وأوهامه يتصور أن أمرالمغول خرافة والرسل الذين بينهُ وبينهم لا بدأنهم كاذبون فيما ينقلون ، وانهُ إذا دعا ملوك الأرض كانوا رهن إشارته يدعوهم فيلبون نداءهُ ، كان المغول يزحفون نحو بغداد وهو لا يحس ضجيجهم ولا ضوضاء الهاربين أمامهم من أهل البلاد وعندما قرب المغول من أسوار بغداد اخذ الخليفة يتوسل بالكلام والرسل لمنع حدوث هذا الزحف ، فكان يستجير بحاشية منقسمة على نفسها متخاذلة مع



استخدامه النصح والرأي فكانت اعجز منه عن التفكير[٦٤].

وحاولت الخلافة التأثير في المغول وإرهابهم بقوى الخلافة سواء الروحية أم المادية حتى يمنعوهم من مهاجمة الحدود فقط ويكتفوا بما ملكوه من بلاد المسلمين وكان المغول يقصدون من وراء ارسال رسلهم بفترات متباعدة معرفة استعدادات الخلافة وحقيقة قوتها[٦٥] لكن الخليفة قدم الاعتذار واظهر جانب الطاعة لهولاكو ثم الإشارة إلى مكانة أسرته العباسية وعراقتها وقوة الخلافة ونفوذها[٦٦].

لم يأبه هولاكو بتهديد الخليفة لهُ وقوة الخلافة بل استخف بها وأصر على مواصلة الزحف ، ثم وجه هولاكو تهديدا بالتوجه نحو بغداد لكن الخليفة رفض هذا الإنذار أو التهديد ظنا منهُ أن الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر سيسارعون إلى الانضواء تحت لوائه متناسيا الظروف السيئة التي كانت تحيط بهؤلاء في هذه الحقبة ولم يجد الخليفة بدا من المواجهة فأمر قائدهُ مجاهد الدين أيبك الدويدار بالخروج على رأس قوات للتصدي لهولاكو على طريق حلوان[٦٧].

كان هولاكو يستعد للزحف نحو بغداد بعد أن اتخذ للأمر أهبته ، لكنهُ كان يفكر في الصورة التي أعطيت لهُ عن قوة الخلافة وكثرة عدد جذورها ، وعن الأحداث التي وقعت للجيوش التي أرادت أن تمس بغداد بسوء، فاستعان هولاكو بحاشيته الخاصة التي ترافقهُ لكن جوابها لم يشف نفس هولاكو لأنهُ كان مسلما وعاش على طاعة الخلافة والإيمان بتقديسها ، فرأى هولاكو أن يستنير برأي الخواجة نصير الدين الطوسي الذي أفتى بأنهُ لا ضير من الزحف نحو بغداد ، وعزز رأية بكثير من الوقائع التاريخية التي تعرضت فيها بغداد للغزو دون أن تظهر كرامة العباسيين .بعد ذلك أعلن هولاكو الزحف إلى بغداد وهكذا كان مصير الخلافة مستندا على كلمة الخواجة نصير الدين الذي توهم أن حياتهُ أثمن من حياه الآلاف من الناس الأبرياء الذين حصدهم الغزو المغولي[٦٨]

الوزير ابن العلقمي ورجال الخليفة جميعا يجتمعون ويتشاورن في أمور الخلافة وشؤون الدولة وزحف هولاكو وجيشهُ ، وان الوزير والدويدار وأمراء الجيش ، كلهم من غير العرب ، الأعاجم الفرس ، والعلماء التركمان الذين لا تربطهم رابطة تاريخية أو لغوية أو مواطنة بالدولة العربية ، هذا فضلاً عن شعورهم بالاضطهاد على الرغم من انهم من ارستقراطية الفرس والتركمان الذين يواجهون ارستقراطية العرب ، اذ أنهم يشعرون بالضعف والصغر امام العرب الذين هم أصحاب الدولة[٦٩].

كان هولاكو قد وضع خطة للإطباق على بغداد من جميع جهاتها ، قرر أن يزحف قسم ليعبر دجلة فيحيط بالجانب الغربي في حين يتولى بنفسه الالتفاف على القسم الشرقي من المدينة ، ونزل عسكر الخليفة بقيادة الدويدار في بادئ الأمر في بعقوبة ، فلما علم بمجيء المغول نحو الضفة الغربية لنهر دجلة ، سار بعبور النهر ليتصدى لهم في القسم الشمالي من بغداد وهذا الانسحاب أدى إلى خلو الجهة الشرقية من الجند وأمر الخليفة من تبقى من أمراء العسكر بالخروج بقيادة مرشد السخفي فرفضوا المسير تحت لوائه ولم تنفذ الأوامر ، وهذا أدى إلى تسهيل مهمة هولاكو في الوصول الى اسوار بغداد ، والتقى جيش الخليفة بالمغول بالقرب من قنطرة باب البصرة ، فتظاهر المغول بالهرب أمام قوات الخليفة التي كان يقودها الدويدار فاندفع وراءهم ولم يستمع إلى نصيحة فتح الدين ابن قمر الذي نصحهُ بالثبات في مواقعه والاستعداد مرة أخرى لمواجهتهم ، وكان المغول يقومون بتدمير السدود المقامة على ترع بشير من



الدجيل لإغراق الأراضي وراء تلك القوات وحصرها فيها ، وتجمع المغول في ذلك حين توقفوا عن التراجع وعادوا للهجوم مرة ثانية حيثما انحصرت قوات بغداد في منطقة المياه فهلك معظمها إلا من القى نفسهُ في الماء ومن دخل البرية ، وتمكن الدويدار من النجاة ودخل بغداد في عدد قليل من أصحابه[٧٠].

ثم أطبق المغول على الجانب الغربي من بغداد في الوقت الذي وصلت فيه طلائع هولاكو في الحادي عشر من محرم ٦٥٦هـ وأطبقت على الجانب الشرقي وأنشأت الاستحكامات اللازمة للحصار ، ثم أقاموا جسرا على نهر دجلة جنوبي بغداد بالقرب من قرية العقاب لكي يمنعوا الهاربين منها بطريق النهر .

وقد ساعد جيش المغول في حصار بغداد قدوم جيش من الموصل أرسلهُ بدر الدين بن لؤلؤ الذي ساعدهم ، كما ساعد المغول جماعة من أهل الكرخ الذين كانوا قد انضموا إلى المغول ، ولعب هؤلاء دورا كبيرا في إضعاف معنويات السكان وإغرائهم بعدم المقاومة والاستسلام للمغول ، وكان لهؤلاء صلة بهم بحكم القرابة أو الجوار[٧١].

وفي هذه الأثناء كانت المفاوضات مستمرة بين المغول من جهة وابن العلقمي من جهة اخرى سرا وبدون علم الخليفة ، لأنها كانت مفاوضات تجسس وتواطؤ للتآمر على الخلافة العباسية ، وقد اطمع ابن العلقمي هولاكو وأوضح لهُ نقاط الضعف في كيان الخلافة وقلة عدد الجند، وضعف همة الخليفة [٧٢] وهذا مما شجع هولاكو على الاستمرار في زحفه وتحقيق أهدافه. في الوقت الذي كان المغول يتقدمون ويحاصرون بغداد من جميع جهاتها ، نلاحظ أمراء الجيش العباسي يختلفون ويتخاصمون ويتناحرون لمجرد أن الخليفة لسبب ما عين عليهم قائدا لم يقتنعوا به دون بيان أسبابهم، وفي كونهم يحتقرونهُ لأنه من الخدم ولذلك لم يجد الخليفة همة لدى أي من وزرائه ورجال دولته وأمراء جنده بل وجدهم متقاعسين عن القيام بأي عمل من الأعمال ، وكان ابن العلقمي يضحك في سره وانشرح قلبهُ فرحا، لأنه علم أن ساعة النهاية قد اقتربت ، وان الخليفة سينتهي أمرهُ، وانه المرشح للخلافة[٧٣]بدأ القتال يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من محرم وركز المغول هجومهم على برج العجمي المجاور لباب الحلبي حيث كان يعسكر هولاكو نفسهُ، وعندما رأى الخليفة أن البرج لن يتحمل الضربات انهارت معنوياتهُ وأرسل الوزير إلى هولاكو ليلتمس إيقاف الحرب وعقد الصلح لكن هولاكو لم يعر أهمية لذلك[٧٤] وساءت الأحوال في بغداد وحاول حماتها الهرب لكنهم وقعوا في قبضة المغول فأجهزوا عليهم ، وأعلن الخليفة المستعصم الاستسلام وأرسل فخر الدين الومغاني وابن درنوس مع بعض الهدايا لتقديمها إلى هولاكو ، غير أن الأخير استمر بالقتال ، كما انهُ رفض شفاعة ولدي الخليفة الفضل عبد الرحمن وأبي العباس احمد اللذين خرجا بعد ذلك مع جماعة من أهل بغداد محملين بالهدايا والتحف ، وأصر هولاكو على حضور الدويدار وسليمان شاه ، وطلب إليهما إصدار الأوامر إلى المدافعين عن بغداد بالانضمام إلى الجيش المغولي الذي يتوجه إلى الشام ومصر فاستجابا لذلك خرج عدد كثير من الجند للالتحاق بالمغول ، غير أن الموت كان بانتظارهم خارج الأسوار ، وخرج الدويدار وسليمان شاه في اليوم التالي ولقيا المصيرنفسه[٧٥].

أما الخليفة فقد أصبح لا يعرف ماذا يصنع ودماء الضحايا تجري أمامهُ ، فقدجرد من الأصحاب والأعوان ، ثم جاءهُ الأمر بالخروج هو وأولاده ومن بقي من أتباعه فساق نفسهُ كالشاة إلى مذبحها .



ثم استخدم الخليفة ليطلب من الناس إلقاء أسلحتهم والخروج لإحصائهم ، وبعد ذلك أقيمت لهُ ولأولاده واتباعه خيام في باب كلواذى تحت حراسة كيتوبقانويان احد كبار قواد المغول[٧٦].

وبعد ذلك أباح هولاكو لجنده مدينة بغداد في يوم الأربعاء السابع من صفر فعملوا فيها قتلاً وحرقا ونهبا حتى ان قسما منهم قد استجار ببعض المقربين من المغول ثم طلبوا الأمان من هولاكو لإبقائهم على قيد الحياة . فصدر أمرهُ باستقرار الأهالي[٧٧].

واشتعلت النيران في أرجاء بغداد فاحترق جامع الخليفة مشهد موسى الكاظم ومراقد الخلفاء ، وكانت القتلى كثيرة في الدروب والأسواق . ثم أمر هولاكو بقتل الخليفة المستعصم مع ولده أبي العباس احمد ثم ابنه الأوسط أبي الفضل عبد الرحمن ، وكذلك قتل أعمام الخليفة وأقاربه وجماعة من الأعيان [٧٨].

وذكر الدكتور القزاز ، ان هولاكو لم يبق بجوار بغداد بسبب ما فاح منها من هواء عفن ، فرحل عنها ونزل بقرية بطريق خراسان ، ثم صفى حسابهُ مع الخليفة وأمر بالقضاء عليه وعلى ابنه الكبير أبي العباس احمد وعدد من أتباعه ، ثم أمر بقتل ابنه الثاني الفضل عبد الرحمن ومن بقي معهُ ، وسلم من أبناء الخليفة ابنهُ الصغير مبارك الذي احتفظ به المغول والذي انقطع ذكرهُ بعد ذلك[٧٩].

وقبل مغادرة المغول بغداد اخرجوا أقرباء الخليفة من العباسيين الذين كانوا محبوسين في دار الشجرة ودار الصخرة وحملوهم إلى مقبرة الخلال وقضوا عليهم جميعا. كان القصد من وراء ذلك أن لا يبقى احد من بني العباس حيا فيسعى إلى الخلافة ثانية وبالتالي يخلف المشاكل للمغول من جراء تعلق الناس بخلافتهم[٨٠].

وقبل مغادرة هولاكو معسكرهُ نحو همدان ، أمر بتنظيم الإمارة الجديدة في العراق، ففوض أمر بغداد إلى علي بهادر وجعلهُ شحنة بها ، وابقى الوزير ابن العلقمي في الوزارة وفخر الدين الدامغاني في ديوانه واقر نظام الدين البندنيجي قاضي القضاة ، كما تولى كل من نجم الدين عبد الغني بن الدروس وتاج الدين علي بن الدوامي وفخر الدين مبارك بن المخرمي بعض المناصب الإدارية والمالية في الحكم الجديد .

وقد لحقت لعنة الخلافة أكثر من هؤلاء الذين بقوا على قيد الحياة بعد نكبتها ، والذين وضعوا أنفسهم تحت تصرف المغول وفي مقدمة هؤلاء الوزير ابن العلقمي الذي توفي في مستهل جمادى الآخرة من سنة النكبة ثم لحق به آخرون[٨١].

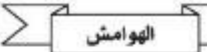
الخاتمة

يعد دخول المغول وسقوط مدينة بغداد عاصمة الخلافة العربية الإسلامية نتيجة طبيعة لما أصاب الخلافة العباسية من وهن وضعف ، فقد أدركتها الشيخوخة وبدأت عليها مظاهر الانحلال والانهيار ، ولا يمكن بأي حال من الأحوال تحميل الخليفة العباسي المستعصم بالله المسؤولية وحدهُ ، فقد كانت الظروف أقوى منه فقد تخاذل ملوك الأطراف برغم استنجاد الخليفة بهم .

ومثالاعلى ذلك الوضع في الموصل الذي يعكس مدى التبعية والتآمر على العرب المسلمين بما قدمهُ بدر الدين لؤلؤ من تنازلات وتحالفه الواسع مع المغول ، فلم يكن بمستوى المسؤولية التي يفرضها عليه الواجب الإسلامي المقدس وهو ضد الجهاد .

ورغم ظهور مجاهدين بمواقف مشرفة في اعلان الجهاد الاسلامي على المغول يساندهم أبناء الأمة العربية الإسلامية ورغم الحصار الذي أحيط بهم وقلة في العدد والعدة ، كان لعامل الخيانة في الداخل الدور الكبير في احتلال مدينة بغداد على أيدي المحتلين المغول





الهوامش

١ـ بدر ، مصطفى طه ، محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد مطبعة المكتب الثقافي الدولي ، الجيزة ٤٨ ، القزاز د.محمد صالح داود ، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير ، مطبعة القضاء (النجف ،١٩٧١م) ٢٩٧

٢ـ أبو العينين ، حسن سيد احمد ، جغرافية العالم الإقليمية ، دار النهضة العربية (بيروت، ١٩٧٩م) ١/١٦٦.

٣ـ ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، دار القلم (القاهرة ،١٩٧٢م) ٤/٣٦.

٤ـ ابن الأثير ، أبو الحسن ابن أبي الكرم الشيباني ، (ت٦٣٠.هـ) ، الكامل في التاريخ ، دار الفكر (بيروت، ١٩٧٨ م ٥/٣٣)، الذهبي ، الحافظ شمس الدين محمد بن احمد ، (ت٧٤٨.هـ) ، دول الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب(١٩٤٧م) ٢/١٢١

٥ـ بار تولد ، تاريخ الترك في آسيا ، ترجمة احمد سعيد وليمان ، مكتبة الانجلو ، (مصر ٣٤).

٦ـ بدر : محنه الإسلام ٧٤.

٧ـ القلقشندي ، احمد بن علي ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، (مصر ،(د.ت) ٤/٣٠٥.

٨ـ بار تولد ، دائرة المعارف الإسلامية ، مادة جنكيز خان ٧/١٢٦.

٩ـ بدر ، م.ن ٧٤.

١٠ـ تموجين : اسمه يتموجين بن يسوكي بن جهادر بن كومان ينظر القلقشندي ، صبح الأعشى، ٤/٣٠٥.

١١ـ الأمين ، حسن ، الغزو المغولي ، دار التعارف والمطبوعات (بيروت، ١٩٧٦م ٧٥).

١٢ـ الصوفي رزق الله منقريوش ، تاريخ دول الإسلام ، مطبعة الهلال ، (مصر ،١٩٠٧ م٢/٢٦٧).

١٣ـ الامين ، م.ن، ٣١-٣٠.

١٤ـ برو كلمان ، كارل ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة : نبيلة أمين (بيروت ،١٩٧٧ م٣٨٢).

١٥ـ خان ، لقب أطلقه المغول على رؤسائهم الذين يتولون جزء من الإمبراطورية المغولية ، أما كاخان او قاان فهو لقب يطلق على الرئيس الأعلى لدولته ومعناه الخان الأعظم . وجنكيز خان جاءت تسميته من الكلمة الصينية (شنك سنر) فحرفت إلى جنكيز خان وتعني ابن السماء . ينظر: الصوفي: دول الإسلام ٢/٢٦٨ ، رشاد عبد المنعم ، الرعب الذي أحدثه الغزو المغولي ، (مجلة آداب الرافدين ، كلية الآداب ، جامعة الموصل العدد٢/١٩٧١م).

١٦ـ رشاد ، م.ن: ٦.

١٧ـ الصياد ، فؤاد عبد المعطي ، المغول في التاريخ ، دار النهضة العربية ، (بيروت ،١٩٨٠م) ١/٥٣ـ٥٤

١٨ـ الصياد، م.ن٥٤ـ٥٣

١٩ـ الخربوطلي ، علي حسين ، غروب الخلافة العباسية ، مطبعة التقدم (د.ت١٣٦).

٢٠ـ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ٩/٢٩١.

٢١ـ ابن واصل: مفرج الكروب٤/٣٨، الصياد: المصدر السابق٦٧.

٢٢ـ القزاز، د.محمد صالح داود ، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير ، مطبعة القضاء (النجف١٩٧١م)٢٩٨.

٢٣ـ القزاز ، م.ن٢٩٧.

٢٤ـ اترار، مدينه من مدن ما وراء النهر تقع بالقرب من نهر سيحون .

٢٥ـ الصياد ، المغول في التاريخ ١/٦٧

٢٦ـ ابن الأثير ، م.ن،٦/٣٣٢،٣٣٤.

٢٧ـ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ٩/٣٣٧ـ٣٣٨.

٢٨ـ ابن الأثير ، م.ن،٩/٣٨٥ .

٢٩ـ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون،٥/٢٧٥.

٣٠ـ ابن الفوطي ، كمال الدين ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة تحقيق ، د. مصطفى جواد ، (بغداد١٣٣١ هـ) ٢٧ـ٢٩.

٣١ـ التكريتي ، سلمان بغداد مدينة السلام وغزو المغول ، مكتبة الشرق الجديد ، (بغداد ،١٩٨٨م)١٢٣.

٣٢ـ ابن العبري ، غرهوريوس المالطي ، تاريخ مختصر الدول ، المطبعة الكاثوليكية ، (بيروت١٩٥٨ م) ٢٥١،٢٥٢ .

٣٣ـ المقريزي ، احمد بن علي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، مطبعة لجنة التأليف ، (القاهرة ،١٩٥٦ م) ١/٣١٥ـ١٣٢٠



٣٤. اليوبيغ، هو الامر الملكي والمرسوم الذي يصدره الخان الأعلى يمنح فيه الأمان للخائن من السلطة ويعطى سلطة مطلقة لمن يكلف خلاله بعمل ما.

٣٥. البايزة: لوحة من الذهب او الفضة أو الخشب عليها علامة خاصة تهدى إلى من يثق بهم للغول من رجال الدولة، ويتمتع حاملها بامتيازات خاصة فله الطاعة على كل من في دولة المغول.
ينظر، رشيد الدين، جامع التواريخ حاشية ٨٠-(٢/١/١٩٠)

٣٦. رشيد الدين، م. ن١٩٢.

٣٧. الحسيني، د. محمد باقر، العملة الاسلامية في العهد الاتابكي مطبعة الجاحظ (بغداد، ١٩٦٦م٦٠).

٣٨. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول٢٦٣.

٣٩. الرويشدي، سوادي عبد محمد، إمارة الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ، مطبعة الإرشاد، (بغداد، ١٩٧١م)٢٠٢.

٤٠. رشيد الدين، جامع التواريخ،٢٨٤.

٤١. بدر، محنة الإسلام الكبرى١٣١.

٤٢. ابن العبري، تاريخ الدول السرياني، (مجلة المشرق، العدد، ٥٠ ١٩٥٦م).

٤٣. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول: ٢٧٦.

٤٤. القزاز، د. محمد صالح، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير، ٣٠٠

٤٥. القزاز م. ن ٣٠٠

٤٦. بك، الشيخ محمد الخضري، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية — (الدولة العباسية — ط٩/، المكتبة التجارية الكبرى) مصر،١٩٥٩ م ٤٧٦.٤٧٥.

٤٧. القزاز، د.محمد صالح، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير ٣٠١، د. رشيد عبد الله الجميلي، حملة هولاكو على بغداد٦٥٦هـ (مجلة المورد العدد٤ /، إصدار وزارة الثقافة والإعلام / دار الجاحظ (١٩٧٩)٦١.

٤٨. د. رشيد عبد الله الجميلي، م. ن٦٢.

٤٩. القزاز: م. ن٣٠٣-٣٠٢

٥٠. القزاز، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير٣٠٤.

٥١. القزاز: م. ن٣٠٤.

٥٢. د. رشيد الجميلي، حملة هولاكو على بغداد ٦١—٦٢

٥٣. د. رشيد الجميلي: حملة هولاكو على بغداد٦٢.

٥٤. د. رشيد الجميلي، م. ن٦٢.

٥٥. القزاز: الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير ٣٠٥—٣٠٦.

٥٦. القزاز، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير٣٠٦.

٥٧. القزاز: م.ن٣٠٦.

٥٨. القزاز: م. ن٣٠٧.

٥٩. التكريتي، سلمان، بغداد مدينه السلام وغزو المغول.

٦٠. التكريتي: بغداد مدينة السلام والغزو المغولي١٢٥.

٦١. القزاز، الحياة السياسية في العراق في العهد العباسي الأخير٣١٦.

٦٢. القزاز، الحياة السياسية في العراق في العهد العباسي الأخير٣٢٨-٣٢٨

٦٣. التكريتي، بغداد مدينة السلام والغزو المغولي،

٦٤. القزاز، الحياة السياسية في العراق في العهد العباسي الأخير ٣٢٧.

٦٥. القزاز، م. ن: ٣٢٧

٦٦. القزاز، م. ن ٣٢٩.

٦٧. د. رشيد الجميلي، حملة هولاكو على بغداد٦٢.

٦٨. القزاز، الحياة السياسية في العراق في العهد العباسي الأخير،٣٣٢.٣٣٢.

٦٩. التكريتي، بغداد مدينة السلام والغزو المغولي ١٢٩.

٧٠. د. رشيد الجميلي: حملة هولاكو على بغداد:٦٢-٦٣.

٧١. القزاز، الحياة السياسية ٣٣٥-٣٣٦.

٧٢. التكريتي: بغداد مدينة السلام ٢٦٦-٢٧٧.

٧٣. التكريتي، م. ن٢٢٦.

٧٤. القزاز: الحياة السياسية٣٣٦.

٧٥. (د. رشيد الجميلي، حملة هولاكو على بغداد ٦٣— ٦٤، القزاز، الحياة السياسية٣٣٧.

٧٦. القزاز: م. ن٣٣٨

٧٧. القزاز، م. ن٣٣٨، ٣٣٩.

٧٨. د. رشيد الجميلي، م. ن٦٥،

٧٩. القزاز، الحياة السياسية، ٩٣٣٠.

٨٠. القزاز، م. ن٩٣٣،

٨١. القزاز، م. ن١٣٦،٣٤٠



المصادر والمراجع

المصـــادر

*ابن واصل ، جمال الدين محمد بن محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ)
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق : حسنين محمد وآخرين ، دار القلم (القاهرة ١٩٧٢م) .

*ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن محمد الجزري (ت ٦٣٠ هـ) .
*الكامل في التاريخ ، دار الفكر (بيروت ، ١٩٧٨م) .

*القلقشندي ، أبو العباس احمد بن علي (ت٨٢١هـ) .
*صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، نسخة مصورة عن المطبعة الأميرية (مصر ، د . ت) .

*ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون المغربي (ت٨٠٨ هـ) .
*تاريخ ابن خلدون ، منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات (بيروت ١٩٧١م) .

*ابن الفوطي ، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن تاج الدين (ت٧٢٣هـ) .
*الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ، المنسوب لابن الفوطي ، تحقيق ، د. مصطفى جواد (بغداد ١٣٣١هـ) .

*ابن العبري ، غرهوريوس المالطي (ت ٦٨٥هـ).
*تاريخ مختصر الدول ، الطبعة الكاثوليكية ، (بيروت ١٩٥٨م) .
*تاريخ الدول السريالي ، مجلة المشرق اللبنانية ، بيروت ، الاعداد ٤٨ــ٤٩ــ٥٠ .

*المقريزي ، احمد بن علي(٨٤٥هـ).
*السلوك لمعرفة دول الملوك ، مطبعة لجنة التأليف ، (القاهرة ، ١٩٥٦م) .

*رشيد الدين ، فضل الله الهمداني (ت٧١٨هـ).
*جامع التواريخ ، ترجمة صادق نشأت ، دار أحياء الكتب العربية ، (مصر ، د.ت) .

المراجع

بدر ، مصطفى طه
*محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة من بغداد ، مطبعة الكتب الثقافي الدولي (الجيزة ، د.ت) .

القزاز ، محمد صالح داود
*الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير ، مطبعة القضاء (النجف ، ١٩٧١م) .

أبو العينين ، حسن سيد احمد
*جغرافية العالم الإقليمية ، آسيا الموسمية وعالم المحيط الهادي ، دار النهضة العربية (بيروت ، ١٩٧٩م) .

بارتولد
*تاريخ الترك في آسيا ، ترجمة ، احمد سعيد سليمان ، مكتبة الانجلو (مصر ، د .ت) .
*دائرة المعارف الإسلامية ، مادة جنكيز خان .

الأمين ، حسين
*الغزو المغولي ، دار التعارف والمطبوعات ، (بيروت ،١٩٧٦م) .

برو كلمان ، كارل
*تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة : نبيلة أمين ، ط٧ ، دار العلم للملايين ، (بيروت ،١٩٧٧م) .

الصوفي ، رزق الله
*تاريخ دول الإسلام ، مطبعة الهلال (مصر ،١٩٠٧م) .

رشاد ، عبد المنعم
*الرعب الذي أحدثه الغزو المغولي ، (مجلة آداب الرافدين ، كلية الآداب ، جامعة الموصل العدد ١ ١٩٧١ ، ٢ م) .

الصياد ، فؤاد عبد المعطي
*المغول في التاريخ ، دار النهضة العربية ، (بيروت ، ١٩٨٠م) .

الخربوطلي ، علي حسين
*غروب الخلافة الإسلامية ، مؤسسة المطبوعات الحديثة ، مطبعة التقدم ، (د .ت) .

التكريتي ، سلمان
*بغداد مدينة السلام وغزو المغول ، مكتبة الشرق الجديد ، (بغداد ، ١٩٨٧م) .

الحسيني ، د. محمد باقر
*العملة الإسلامية في العهد الاتابكي ، مطبعة الجاحظ ، (بغداد، ١٩٦٦م) .

الرويشدي ، سوادي عبد محمد
*إمارة الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ ، مطبعة الرشاد ، (بغداد، ١٩٧١م) .

بك ، الشيخ محمد الخضري
*محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية الدولة العباسية ط٩ ، (مصر، ١٩٥٩م) .

الجميلي ، رشيد عبدا لله
*حملة هولاكو على بغداد ٦٥٦هـ ، مجلة المورد ، وزارة الثقافة والإعلام ، دار الجاحظ ١٩٧٩م.

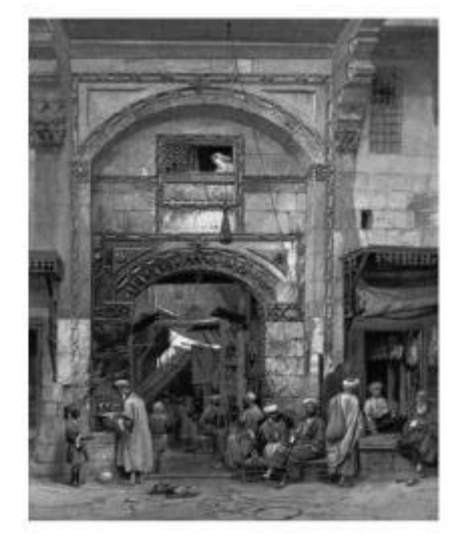
المورد
العدد الأول
لسنة/٢٠١٣



بغداد وحياتها العلمية في العصر العباسي

احمد هاشم العطار
باحث / العراق

عني العرب ومنذ القدم بتعليم أبنائهم الفصاحة والأخلاق وكان هذا من الأمور المعتادة لدى عرب الجاهلية . ومن وصايا العرب في العصر الجاهلي الوصية المنسوبة إلى يعرب بن قحطان [1] والتي أوصى بها بنيه ويكفينا هنا أن نورد السطر الأول منها نظرا لطولها وهو ما يعنينا في موضوعنا هنا إذ يقول " يا بني أحفظوا مني خصالا عشرا تكن لكم ذخرا وذكرا يا بني تعلموا العلم واعملوا به ..الخ" [2] وهذه الوصية دليل على أن العرب في ذلك الوقت كانوا على وعي بأهمية العلم ودوره في الحياة ، إضافة لذلك فإنهم كانوا يعلمون أبنائهم فصاحة الحديث والشعر والمروءة والشجاعة وإكرام الضيف والإيثار وكانت تلك الخصال ومازالت من أفضل خصال العرب بل انهم تميزوا بها عن سائر أمم الأرض جميعا . ولما بعث الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم) بدأت المسيرة التي أسس العرب



من خلالها لدورهم الأهم في الحضارة الإنسانية فالإسلام الحنيف شجع بل أوجب على الإنسان التعلم والتفقه لهذا فالإسلام دين علم وعمل وقد ساعد هذا التوجه في ظهور طبقة أو فئة من المتعلمين ، وكان العلم الذي اهتم به طلبة العلم في ذلك الزمان هو علم الفقه وظل هذا العلم إلى اليوم من أجل العلوم مقاما وأوسعها انتشارا وقد أفاد



العرب بعد حروب التحرير التي خاضوها ضد الإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية من معارف وعلوم الأمم الأخرى وزادوا عليها ونقحوها وبذلك بدأت حركة علمية نشطة شملت مختلف العلوم والآداب وكان لبغداد دور بارز في تلك الحركة العلمية على مدى خمسة قرون وأضحت في تلك الأيام منارة للعلم وقبلة له يأتيها طلبة العلم من جميع البقاع والأقاليم وراجت فيها الحياة العلمية وتنوعت وازدهرت وأسست فيها أولى الجامعات وأنشئت فيها أسواق الوراقة وكان فيها أعظم الخطاطين والمزخرفين ولعلمائها الفضل في التقدم العلمي الذي عاشته الإنسانية في تلك العصور وما تلاها . ومن هنا كان لزاما علينا أن نطلع القارئ العربي على تلك الحركة العلمية الفذة .

لقد بدأت الحركة العلمية في بغداد في مراكز مختلفة كان أولها المسجد وقد كان للمسجد في الإسلام وظيفتان مزدوجتان الأولى تعبدية كإقامة الصلاة والثانية كمؤسسة تعليمية وقد اختصت المساجد نظرا لوظيفتها الأولى بالدراسات الدينية وما يتصل بها من علوم العربية فقد اختص المسجد بتعليم علوم القرآن والفقه والحديث والعقائد واللغة والنحو والأدب والشعر وكان في بغداد ثلاثة مساجد جامعة وهي جامع المنصور أو جامع المدينة في الجانب الغربي وجامع المهدي أو جامع الرصافة شرق بغداد وجامع القصر أو جامع الخليفة ونظرا لكبر هذه الجوامع فقد احتوت على حلقات علم متنوعة [٣] تعقد في جهات مختلفة من الجامع وتتخذ أسماءها (إما من أسم شيخ الحلقة مثل حلقة ابن البناء وحلقة ابن زبيبا وحلقة الخطيب وحلقة رزق الله التميمي وحلقة الزاغوني أو أن تأخذ اسم العلم الغالب عليها كأن يقال حلقة أهل الحديث أو حلقة النحويين ونحو ذلك . وكان في جامع المنصور وحده خمسون حلقة وهو عدد كبير في ذلك الوقت [٤] وكانت منزلة صاحب الحلقة تشبه إلى حد كبير مكانة أستاذ الكرسي في جامعاتنا اليوم أما المساجد وهي التي لا تقام فيها صلاة الجمع وتكون صغيرة عادة فكانت تختص بعلم واحد من العلوم الدينية كاختصاص بعضها بتعليم القرآن الكريم أو رواية الحديث أو اللغة ....الخ .ومن هذه المساجد مسجد أبي عبدالله الجرجاني ومسجد أبي بكر الخوارزمي ومسجد الصيمري ومسجد عبدالله ابن المبارك ومسجد ابن البقال ومسجد ابن القواس ومسجد ابن اللبان ومسجد أبي بكر الشامي ومسجد أبي الطيب الطبري وغيرها .

كان الأستاذ يستمر في التدريس بالمسجد مدى الحياة مادام قادرا على القيام بهذه المهمة والجميل في هذا أن المدرسين لم يكونوا يتقاضون أجرا عن تدريسهم في الجوامع والمساجد انما يرتجون



الأجر من الله عز وجل في الدار الآخرة .

ولم تكن المساجد وحدها دورا للعلم فقد انتشرت الكتاتيب [*] انتشارا واسعا وكان عمر التلميذ الذي يدرس في تلك الكتاتيب بين الخامسة والسادسة ويبقى في الكتاب مدة أربع إلى خمس سنين وإضافة للمساجد والكتاتيب كان بعض العلماء يستقبلون الطلبة في بيوتهم أو في مجالس العلم في السوق أو في محل عمل الأستاذ ويروي لنا بعض المؤرخين أمثال الخطيب البغدادي في ترجمة محمد ابن الحسين الشيباني العطار المعروف بقطيط " سمعت منه في دار أبي القاسم الأزهري " وقال أيضا أخبرنا أبو يعلى محمد بن الحسن البصري في دار القاضي أبي القاسم التنوخي " [5] لهذا كانت المساجد ودور العلماء أو المعلمين هي الحلقة الأولى في الحياة العلمية قبل أن تنشأ المدارس العلمية لكن دور المسجد ودور العلماء والمعلمين في التعلم والاستزادة من العلم لم ينته حتى ألان .

أما المدارس فان بدايتها كانت في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري وكانت من أوائل المدارس في بغداد مدرسة الامام أبي حنيفة النعمان التي أنشئت في محلة الاعظمية سنة ٤٥٩ هـ وتسمى أيضا بالمدرسة الشرفية نسبة إلى بانيها شرف الملك محمد بن منصور الخوارزمي المتوفى سنة ٤٩٤ هـ وتعد هذه المدرسة من أطول مدارس بغداد عمرا على الإطلاق فهي لا تزال موجودة حتى يومنا هذا باسم كلية الامام الأعظم وكانت تدرس فيها العلوم الشرعية ومازالت . وقد أنشئت في نفس السنة أيضا المدرسة النظامية أنشأها الوزير نظام الملك الحسن بن علي المتوفى سنة ٤٨٥ هـ ومدرسة فخر الإسلام المنسوبة إلى الامام فخر الإسلام محمد بن احمد الشاشي والمدرسة التاجية سنة ٤٨٢ هـ والمدرسة الفخرية ومدرسة ابن بكروس ومدرسة زمرد خاتون زوجة الخليفة المستضيء بالله العباسي وقد بقيت على أغلب الظن إلى العهد العثماني والمدرسة الثقتية والمدرسة الشاطنية التي أنشئت سنة ٥٧٠ هـ والمدرسة الموفقية ومدرسة زيرك ومدرسة أبي سعيد المخرمي سنة ٥١٣ هـ والتي أنشأها أبو سعيد المبارك بن علي ابن الحسين المخرمي وهي تعرف أيضا بمدرسة الشيخ عبد القادر الكيلاني الذي درس بها ووسعها فعرفت به وهي من المدارس القديمة التي ما زالت باقية إلى يومنا هذا وهناك الكثير من المدارس التي أنشئت في بغداد نذكر منها المدرسة المغيثية والمدرسة التتشية والمدرسة الكمالية ومدرسة سعادة والمدرسة المجاهدية ومدرسة السلطان ملكشاه والمدرسة النجيبية



ومدرسة ابن العطار والمدرسة الشرابية ومدرسة ابن الصقال ومدرسة السلطان محمود [٧] أما جامعات بغداد في العصر العباسي فكان أعظمها واجلها مقاما المدرسة المستنصرية التي أنشاها الخليفة العباسي أبو جعفر المستنصر بالله وقد شرع ببنائها سنة ٦٢٥ هـ على شاطئ دجلة الشرقي وافتتحت سنة ٦٣١ هـ وهي أول جامعة في العالم وقد عنيت بتدريس الفقه الإسلامي إضافة إلى تدريس باقي العلوم كالطب والرياضيات وهي أفخم مدارس العراق والعالم الإسلامي على الإطلاق وأكثرها شهرة وأعظمها وقفا وما زال بناؤها قائما حتى اليوم وقد أنفق عليها من المال الكثير وبلغ عدد طلبة الفقه في المدرسة ٢٤٨ طالبا يأتون من مختلف أنحاء العالم الإسلامي وكانت مدة الدراسة فيها ما بين ٤-٦ سنوات وكان ملحقا بها دار عظيمة للقرآن الكريم ودرس في المدرسة أيضا علم النحو وعلم الطب والرياضيات والفلسفة[٨] لقد كانت الحياة العلمية ببغداد في العصر العباسي مفعمة بروح الاستزادة من العلم والعمل والمثابرة يقول قطب الدين الحنفي (كانت مدارس بغداد يضرب بها المثل في ارتفاع العماد وإتقان المهاد وطيب الماء ولطف الهواء ورفاهية الطلاب وسعة الطعام والشراب وغير ذلك من الأسباب) وحقيقة الأمر أن طلبة العلم في ذلك الزمان كانت تتوفر لهم جميع الاحتياجات والمستلزمات فقد كان طالب الفقه في المدرسة المستنصرية يتقاضى شهريا دينارين وطلبة القرآن والحديث والطب ثلاثة عشر قيراطا وحبة وكان السكن في المدرسة (أي داخليا) وتوفر المدرسة لطلبتها المأكل والمشرب لذا اشتملت بناية المدرسة المكونة من طابقين[٩] على غرف وحجرات لسكن الطلبة وكان الطعام يطبخ ويوزع عليهم بالمجان إضافة إلى الحلوى والفاكهة وهيئ لهم السراج والزيت والفرش والصابون والأحبار والورق والأقلام وكان لهم حمام فيه ماء ساخن في الشتاء للاستحمام ووفر لهم الماء البارد للشرب صيفا فضلا عن المعالجة الطبية المجانية وكان للمدرسين مثل ذلك وأكثر حيث كانت تجرى لهم ولأسرهم الأرزاق إضافة إلى الراتب الشهري ومن أبرز علماء المستنصرية ال العاقولي جمال الدين وابنه وحفيده وال الجوزي وابن السباك والزريراني وفخر الدين اليعقوبي الذي تولى مشيخة دار القرآن ومن أطباء المستنصرية شمس الدين بن الصباغ وكمال الدين النميري وعلاء الدين الاربلي وابن الكتبي الشافعي ومن الجامعات الأخرى المشابهة للمستنصرية المدرسة البشيرية التي أنشئت سنة ٦٤٩ هـ وافتتحت سنة ٦٥٣ هـ.

وقد كانت لبغداد مكتبات عظيمة دلت على ثراء الحياة العلمية ورقيها وكانت تسمى يوم ذلك



بخزائن الكتب حيث هناك الخزائن العامة والخاصة ومن الخزائن العامة خزانة بيت الحكمة وخزانة عضد الدولة البويهي وخزانة الوزير أبي نصر وخزانة الوزير أبي منصور بن فنه وخزانة أبي الحسن محمد بن هلال الصابي وخزانة الخليفة الناصر لدين الله العباسي وخزانة المستنصر بالله العباسي وخزانة المستعصم بالله وخزانة المدرسة المستنصرية التي كانت على قدر رفيع من حيث شروط الاستعارة والاستنساخ وشروط الخزن والفهرسة [٢٠] ومن أشهر خزائن الكتب الخاصة هي خزائن كتب العلماء ومنها خزانة ابن النديم صاحب الفهرست وخزانة الشريف الرضي صاحب دار العلم وخزانة الشريف المرتضى وخزانة الخطيب البغدادي وخزانة ابن التلميذ وخزانة ابن الجوزي وغيرها كثير وكانت تفرض على الطلبة شروط في القبول للدراسة وهي أن يكون الطالب على مستوى من العلم وان يكون نبيها وصدرت أنظمة التوقيعات التدريسية لأول مرة في بغداد (وهي الأوامر والأنظمة التي تصدر بتعيين المدرسين ومنحهم منصب التدريس وتبين فيها طريقة التدريس التي ينبغي على المدرس إتباعها ويذكر فيها المخصصات المالية للمدرس وجرايات عينية) وغيرها من الأمور.

وأنشئت في بغداد المراصد الفلكية ومنها المرصد المأموني الذي أنشئ في عهد الخليفة المأمون وقيست دائرة نصف النهار التي لم يوفق الأوربيون لمعرفتها الا بعد ألف سنة ووضع فلكيو بغداد التقاويم لأمكنة الكواكب السيارة ومن المراصد الأخرى مرصد بني موسى ومرصد بني الأعلم والمرصد الشرفي ومن أشهر الراصدين إبراهيم بن حبيب الفزاري وموسى بن شاكر والخوارزمي وحبش الحاسب وقد اخترع الإسطرلاب ببغداد وهو آلة قياس عجيبة تقيس ارتفاع الشمس والكواكب ومعرفة أوقات الصلوات، معرفة القبلة بالليل والنهار، ومعرفة المشارق والمغارب، ومعرفة موضع القمر من البرج، وقد استعمل الإسطرلاب المسطحي الصغير مكان الساعة الصغيرة التي تحمل في الجيب وغير ذلك من أمور.

وراجت في بغداد إضافة للعلوم الشرعية مثل علوم القرآن ويأتي في مقدمتها التفسير وعلوم الحديث والفقه وأصوله وعلم الكلام والعقائد والعلوم الكونية مثل علم المنطق وعلوم الطبيعيات مثل الفيزياء والكيمياء والطب والصيدلة والرياضيات مثل علم الجبر والهندسة وعلم الآلات وعلم الحيل (الميكانيكا) وعلم الفلك وعلم الجغرافية الرياضية والإلهيات وتشمل علم الروحانيات والمدركات العقلية وغيرها والعلوم

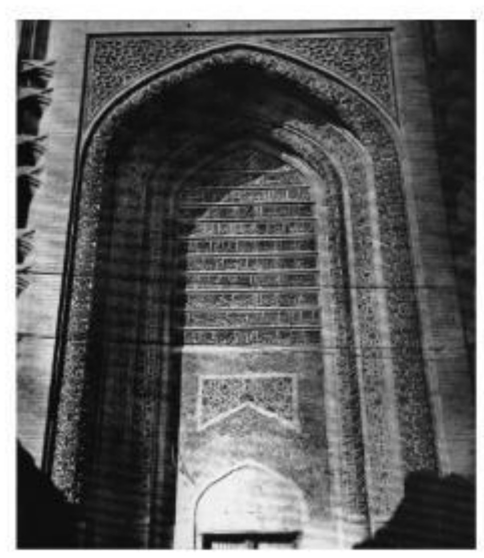


اللسانية كالأدب والنحو (الصرف واللغة) والإنشاء والخط والشعر [١١] .

ومن أشهر المؤسسات العلمية في ذلك العصر بيت الحكمة الذي أنشأه الخليفة المأمون وقد عني بنواح علمية عديدة وما زال يعمل حتى اليوم . وللحياة العلمية ببغداد تاريخ تزدحم فيه الأبواب والفصول وما ذكرناه انما هو من قبيل الإيماء وما هي الا زهرات من روض رحب وجولة قصيرة المدى في مجال طويل عريض يكفينا أن نذكر في الختام بيتا شعريا للامام الشافعي رحمه الله في فضل العلم إذ يقول :

العلم مغرس كل فخر فافتخر

واحذر يفوتك فخر ذاك المغرس [١٢]



الباب الرئيسي للمدرسة المستنصرية في بغداد



المدرسة المستنصرية من الداخل





الهوامش

١ - قحطان هو جد العرب القحطانية .

٢ - الصرف ، سناء تاجي ، وصايا الاباء لأولادهم في عشرة قرون ، بغداد ، دار الحرية للطباعة ، ٢٠٠٠ ، ص ١٦

٣- الحلقة العلمية : نظام دراسي أوجد في الإسلام يجتمع فيه طلبة العلم حول أستاذهم بشكل دائري يشبه الحلقة .

٤ - معروف ، بشار عواد ، المؤسسات التعليمية ، حضارة العراق ، الجزء الثامن ، بغداد ، دار الحرية للطباعة ، ١٩٨٥ ، ص ٤٠ .

٥ - وهي عبارة عن مدارس شعبية يتعلم فيها الفتيان القراءة والكتابة وحفظ وتلاوة القرآن الكريم . والكتاتيب جمع كتاب وهو موضع التعليم وهو مشتق من الكتاب وتعليم الكتابة .
عن : قدوري ، حسين ، التعليم في الكتاتيب العراقية ، بغداد مطبعة العمال المركزية ، ١٩٩٢ ، ص٢٩ .

٦ - الخطيب البغدادي ، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي تاريخ بغداد ، ج٢ ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٩٣١ ، ٢٢٠ .

٧ - معروف ، بشار عواد ، المصدر السابق ص ٦٧ وما بعدها .

٨ - بغداد ، نخبة من الباحثين ، مؤسسة رمزي للطباعة ، بغداد ١٩٦٩ ، ص١٥٦ .

٩ - الاعظمي ، خالد خليل حمودي ، المدرسة المستنصرية في بغداد ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٨١ ، ص٤٠ .

١٠ - بغداد ، المصدر السابق ص١٤٧ .

١١ - الراوي ، طه ، بغداد دار السلام ، دار المدى للثقافة والنشر ، بدون مكان طبع ، ٢٠٠٥ ، ص ٧٩ وما بعدها .

١٢ - ديوان الامام الشافعي ، جمع وتعليق محمد عفيف الزعبي ، مطابع أوفست كوثوغرافية ، بيروت ، ١٩٧١ .





قراءة في كتاب بلدية بغداد " ١٩١٧ـ ١٩٢٣"

دراسة تاريخية

للدكتور: قيس جواد علي الغريري

أ.م.د. سمير عبد الرسول العبيدي
باحث / العراق



لعل أبرز ما يميز النشاط المعرفي في العالم هو التركيز على الجانبين الاقتصادي والاجتماعي، كونهما يمثلان المحور الأساس في حياة الشعوب والأمم، لكن هذا التوجه غير ملموس بشكل كبير في العراق اذ ركزت غالبية الدراسات على الجانب السياسي لأسباب شتى ارتبطت بمجملها بالتوجه الحكومي الذي هيمن على النشاط الفكري ببعديه الثقافي والتعليمي.

وإضافة لما تقدم تبرز جملة من الأمور حدت من الاهتمام بهكذا مواضيع، لعل في مقدمتها قلة المصادر المتاحة للباحث مما يوجد إشكالية تتلخص بغياب الأرضية العلمية التي يبدأ منها الموضوع، يضاف إليها جملة أخرى من العقبات تتمثل بوجوب انتماء الباحث إلى المحيط أو المنطقة التي يدور البحث حولها في حقل الدراسات الاجتماعية، مما يضمن توفر عنصر الأصالة في الجهد المعرفي.

لقد اطلعتُ على كتاب بلدية بغداد في العام ٢٠٠٧، أي لدى صدوره إذ تفضل المؤلف الأستاذ المساعد الدكتور قيس



جواد الغريري مشكوراً بإهدائي نسخة منه، وللوهلة الأولى أدركت أننا أمام كتاب متميز هو اقرب ما يكون إلى الرسائل العلمية منه إلى المؤلفات الأخرى سواء من حيث المادة العلمية إذ اعتمد على مجموعة متميزة من المصادر الأصلية (١٤٨مصدراً)، تواجدت غالبيتها في المركز الوطني لحفظ الوثائق والتي سأسعى للإحالة إليها كلما اقتضت الضرورات العلمية ذلك؛ أو من حيث الإطار العام حيث لم يترك المؤلف صغيرة أو كبيرة من دون التطرق إليها معززاً مادته بالجداول والإحصائيات ضمن نظرة شمولية واسعة لبحث أكاديمي متميز، وهو لم يكتف بذلك بل أضاف للكتاب جزءاً من خبرته الحياتية بحكم انتمائه لمنطقة (صبابيغ الآل) البغدادية. وأخيراً قام بطبع الكتاب على نفقته الخاصة.

وغني عن القول إن بغداد في ذلك العهد كانت تمثل العراق وليس مجرد كونها العاصمة الإدارية فقط، حيث تركز فيها مجمل النشاط السياسي والاقتصادي والاجتماعي. لذا فالكتابة عنها وعن تأسيس نُظم البلدية هي في الواقع كتابة عن تاريخ البلد برمته. وانطلاقاً من هذه وحرصاً من الباحث على اعتماد مبدأ الأصالة والجدية في منهج البحث العلمي، فقد آثر القيام بهذا العمل، الذي تفتقر إليه مكتباتنا، سوى ما موجود من بعض المعلومات المتناثرة في بعض الكتب والدراسات، لذا بات من الضروري ايجاد دراسة أكثر عمقاً وشمولاً وتقديم عرض لأهم الفعاليات التي تضطلع بها بلدية بغداد.

والمثير للانتباه هنا، انه تم دراسة بلدية الموصل والبصرة، ولم يتم بحث بلدية بغداد، التي هي أكبر المؤسسات، والتي لها مساس مباشر في تمدن المجتمع البغدادي وعمران عاصمة العراق.

إن اختيار عام ١٩١٧ بداية لموضوع البحث يرجع أساساً إلى السنة التي احتلت فيها القوات البريطانية بغداد، وانحسار الإدارة العثمانية عنها وحلول الإدارة البريطانية محلها. وما أعقب ذلك من تغييرات شاملة في أوضاع المدينة حتى ١٣ شباط ١٩٢٣، حين أطلق على البلدية (أمانة العاصمة) واقترن تغيير الاسم بتغييرات إدارية وقانونية واسعة شهدتها الأمانة فيما بعد.

تألف الكتاب من(١٠٤ص) من مقدمة (ص ١ ــ ٢) وثلاثة فصول (ص ٣ ــ ٩٤) وقائمة المصادر (ص ٩٥ ــ ١٠٣) وخاتمة (ص ١٠٤)؛ فالفصل الأول (ص ٣ ــ ٣٣) تأسيس بلدية بغداد وتشكيلاتها الإدارية احتوى على أربعة مباحث تناولت موضوع بناء مدينة بغداد، وتأسيس بلديتها، وإجراءات بلدية بغداد العسكرية وتشكيلات بلدية بغداد الإدارية. أما الفصل الثاني (ص ٣٤ ــ ٦٢) ميزانية البلدية والفساد الإداري والمالي فيها، فقد احتوى على ثلاثة مباحث، اختص المبحث الأول بميزانية البلدية من واردات ومصروفات وتطرق المبحث الثاني إلى قروض البلدية. أما المبحث الثالث فقد استعرض الفساد الإداري والمالي فيها.

أما الفصل الثالث (ص ٦٣ ــ ١٠٣) دوائر بلدية بغداد الخدمية وأثرها في أحوال المدينة فقد استعرض



أعمال دوائر بـــلدية بـــغداد الخدمية، وهي دوائر التنظيفات والمجاري والصحة وإســالة الماء والإنارة وإطفاء الحــرائق ونظام الحراســة والطرق والنقــل والرعاية الاجتماعية.

اعتمد المؤلف في كتابه هذا بالأســاس على وثائق المركز الوطني لحـــفظ الوثائق ، فضلاً عن الوثائق البريطانية المنشورة والمطبوعات الحكومية ، وبعض الرســـائل والاطاريح الجامعية التي تناولت الجانب الإداري من تاريخ العراق الحــديث والموجود طياً في الدراسة ، إضافة إلى المصادر العربية والمترجمة مثل كتاب الدكتور جميل موسى النجار عن(الادارة العثمانية في ولاية بغداد) وكتاب الدكتور عماد عبد السلام رؤوف (تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة في بــغداد) وكتاب لونكريك (العراق الحـديث ١٩٠٠ ــ ١٩٥٠) وكتاب فخري الزبيدي (بغداد من ســنة ١٩٠٠ ــ ١٩٣٤) مع مخطوط عن أمانة العاصمة محفوظ لدى ولده حســن، وهو عبارة عن ما كتبــته الجرائد العراقــية عن أمانة العاصمة، ولا شك إن الصحف العراقية قد أغنت البحث هذا كثيراً، ونخص بــالذكر جريدة العرب التي أصدرتها سلطات الاحتلال البريطاني، وجريدة العراق والاستقلال والرافدين ودجلة، ومجلة أمانة العاصمة. فضلاً عــن الكثير من الكتب العربية الأخرى.

عرض المحتويات

استهل المؤلف كتابه بالفصل الأول (تأسيس بــلدية بغداد وتشكيلاتها الإدارية) بلمحة تاريخية، فلقــد ظهر من خلال الدراسات الآثارية أن كلمة بــغداد ذات أصول آرامية، حيث ورد ذكر لمدينة باسم (بكداده) في زمن حمورابي في لوح عثر عليه يرجع تاريخه إلى ســنة ١٣٦١ ق. م، ورد فيه اسم لإقــليم (بــغدادي) وعلى حجر تحدد زمنه بالملك الكيشي مردوخ بــلادفه الأول سنة ١٢٠٠ق.م ورد فيه ذكر موضع اسمه (بكدادي)، وهذا الاسم ذا الجذر الآرامي استمر يكابد الزمن حتى تم بــناء بــغداد في المدة (١٤٥ــ ١٤٩هـ) على يد الخليفة أبو جعفر المنصور ١٣٦ ــ ١٥٨هـ ، وطغى على جميع الأسماء حتى على أسماء مدينة المنصور نفسها، التي كانت تسمى مدينة السلام والزوراء[1].

ترجع الشؤون البلدية إلى نظام الاحتساب في عهد الدولة العربــية الإســلامية، والذي اســتفادت منه وطورته الدولة العثمانية ليشمل تنظيم أمور الخدمات والعمل وفض النزاعات[2].

تم تعريف البلديات بعد إنشــاء الدولة العراقــية، بأنها مؤسسة خدمية تقدم المصالح والخدمات العامة في مناطق معينة ومحددة حسب القانون، ولها حــق التعاقد والامتلاك ويقوم وزير الداخلية بتعيين مناطق البلديات وإحداثها وإلغائها مع إدارة اللواء، أما سلطة البلدية فتتمثل بالرئيس والمجلس البلدي والموظفين الفنيين والكتبة وغيرهم.

وغني عن القول ان تأسيس بلدية بغداد يرجع إلى العهد العثماني عام ١٨٦٨م، وكان أول رئيــس لهــا إبراهيم أفندي الدفتري، وهو من أبناء مدينة بــغداد، وعند تولي مدحت باشــا الولاية عام ١٨٦٩م، اهتم بالشؤون البلدية وشرع بإنشاء دوائر بــلدية في أهم



مدنها، وشيد بناية خاصة لدوائر بلدية بغداد[٣].

وبعد احتلال القوات البريطانية بقيادة الجنرال ستانلي مود(S.Maude) مدينة بغداد في ١١ آذار ١٩١٧ .انتقل مركز الإدارة المدنية البريطانية من البصرة إلى بغداد بقيادة رئيس الدائرة السياسية برسي كوكس (P. Cox)، ولحق به تباعاً فريق من ضباط إدارته في البصرة، لغرض المباشرة بتنظيم الإدارة المدنية فيها، لكن ثمة خلافات أخرت المباشرة بالمهمة حتى اشعار آخر، وكان من بين أهم هذه الخلافات الموقف السلبي الذي وقفه الجنرال مود من إقامة ادارة مدنية معتبراً إياها عملاً مغلوطاً بسبب ظروف الحرب، لذلك يجب أن يبقى الجيش صاحب السلطة المطلقة من دون منازع.

وبعد مداولات بين الدوائر البريطانية المعنية بالعراق قررت في ١٦ آذار ١٩٧١ تشكيل لجنة أطلق عليها (اللجنة الإدارية لبلاد ما بين النهرين Mesopotamia Administration Committee وعهد برئاستهاإلى الدكتوراللورد كيرزن(Curzon). هكذا، وبالضبط في ٤ نيسان ١٩١٧ تم تأسيس بلدية بغداد ووضع الجنرال مود على رأسها الحاكم العسكري العام العميد هوكر، يساعده نائب الحاكم العسكري لشرق بغداد (الرصافة) الميجر كوردن، ونائب الحاكم العسكري لغرب بغداد (الكرخ) الميجر أوليفر. أما بلدية الكاظمية فقد تولاها النقيب مارشال.

١-إجراءات بلدية بغداد العسكرية

مما يسترعي النظر أن السلطة البريطانية بدأت بإصدار البيانات والإعلانات للسيطرة على بغداد من خلال قيام البلدية بتعيين وتحديد أسماء المختارين لكل محلة ومنحهم مخصصات مقابل تكليفهم بتقديم المعلومات المفصلة والدقيقة عن مناوئي قوات الاحتلال وتنفيذ أوامر السلطة المحتلة، وبذلك صاروا بمثابة موظفين حكوميين رسميين ويكون بقاء المختار في منصبه مرهوناً بمدى تعاونه مع بلدية بغداد العسكرية[٤]. ولأجل احكام السيطرة اتجهت بلدية بغداد العسكرية إلى وضع خارطة جديدة لمحلات مدينة بغداد، واعطوا للعقارات تسلسلاتها المستندة إلى أسماء المحلات الحالية وللأبواب أرقامها المستندة إلى سجلات البلدية.

ومن هذا المنطلق أيضاً اتجهت بلدية بغداد إلى إجراء أول تعداد لنفوس بغداد أواخر عام ١٩١٧، ظهر من خلاله أن نفوسها هي (١٦٣٥٠٥) نسمة منها (١٣٨٥٠٢) نسمة في الرصافة و (٢٥٠٠٠) نسمة في الكرخ.

ولا بد من الإشارة هنا ان اسعار المواد الغذائية قد ارتفعت بسبب ظروف الحرب،فعلى سبيل المثال ارتفع سعر طن الحنطة إلى (٧٠٠) روبية. بعد أن كان قبل الحرب (٥٠) روبية. لذلك اتجهت السلطة المحتلة إلى تسعير المواد الغذائية والاستهلاكية لمنع التلاعب أولاً ولحاجة قوات الاحتلال البريطاني إليها ثانياً. فاستعانت بنظام البطاقة. وكانت تحدد عدد الرؤوس من الماشية التي يسمح بذبحها أسبوعياً.

٢-تشكيلات بلدية بغداد الإدارية

قرر البريطانيون إقامة نظام إداري عسكري لملء



الفراغ السياسي والإداري وتنظيم العلاقة مع السكان، ولكن هذا النظام لم يكن تشكيلاً لجهاز جديد، وإنما كان استمرارا لما هو موجود، وعلى هذا الاساس تشكلت بلدية بغداد وكان جهازها الإداري يتألف من المجلس البلدي' وهو كل هيئة منتخبة لأداء الوظائف الإدارية والاستشارية والمراقبة لأعمال البلدية ومشاريعها وخدماتها وسلطتها الإدارية يحددها وزير الداخلية لرئيس البلدية باعتباره أكبر موظفيها الإداريين، ويتم انتخاب أعضائه بالاقتراع السري، ومدة العضوية أربع سنوات، والخدمات لأعضائه فخرية (بدون راتب) باستثناء الرئيس الذي تتكفل البلدية بدفع راتبه من ميزانيتها'، وتألف أول مجلس في العام ١٩١٨ على أساس التعيين، وهم كل من:ـ

١ـ حمدي بك بابان.
٢ جعفر جلبي الحاج داود.
٣. عبد اللطيف ثنيان.
٤. عبد المجيد بك الشاوي
٥. الحاج محمود الاطرقجي.

(مسلمون)

٦. اسكندر عزيز عيسائي (مسيحي).
٧. كيورك اسكندر (مسيحي).
٨. مناحيم صالح دانيال (يهودي).
٩. يهودا زلوف (يهودي).

ورغم تأليف هذا المجلس، إلا انه كان من دون سلطات محددة؛ إذ سيطرت الإدارة العسكرية البريطانية على مقدرات البلدية. الأمر الذي أدى إلى شعور بعض أعضاء هذا المجلس بعدم الفائدة من وجودهم فيه، فاستقال ثلاثة منهم بعد مضي ثلاثة اشهر.

وعلى أثر تولي ارنولد ويلسن[*](A.T.Wilson) شؤون العراق بدل برسي كوكس، الذي نُقل إلى إيران في أيار ١٩١٨ بعد انتهاء الحرب، اندفعت السلطات البريطانية إلى تغيير سياستها تجاه عسكرة البلدية. فأعلنت في تشرين الثاني عام ١٩١٨، بأنها قررت تشكيل مجلس بلدي للنظر في أمور البلدية تحت رعاية الإدارة العسكرية البريطانية.

بعد قيام ثورة العشرين، أدركت بريطانيا صعوبة حكم العراق حكماً مباشراً، فأرجعت برسي كوكس إلى العراق، ونجح في تشكيل أول وزارة عراقية ترأسها عبد الرحمن النقيب في ٢٥ تشرين الأول ١٩٢٠ وبعد تأليف هذه الوزارة، قرر مجلس الوزراء أن يكون اختيار رؤساء البلدية وأعضاء مجلس البلدية بالانتخاب، فتم الترشيح لعضوية مجلس البلدية في أواخر عام ١٩٢١ وجرت الانتخابات في مطلع عام ١٩٢٢. وتكون من:ـ

أ. رئيس البلدية:ـ يعرف رئيس البلدية بأنه المسؤول عن إدارة شؤون البلدية فهو سلطتها والموظف الإجرائي الأعلى مع المجلس البلدي، ويقرر الأمور حسب القانون، لتنفذ من الرئيس، والخلاف بين الاثنين يحول لسلطة إدارية أو لوزارة الداخلية، ومقرراته بالتصويت والأكثرية، وبحالة التساوي يرجح رأي الرئيس. وللرئيس سلطة انضباطية على الموظفين، وهو المشرف على



واردات البلدية ومصروفاتها وتعد وظيفة رئيس بلدية بغداد من الدرجة الأولى.

ومن الضروري أن نشير هنا إلى الخطاب الذي ألقاه ويلسن بمناسبة الاحتفال بمولد ملك بريطانيا في ٣٠ مايس ١٩١٩، إذ قال ان إدارة الأمور البلدية ستكون ملقاة على عاتق المجالس البلدية، باشراف الحاكم السياسي اشرافاً عاماً، على أن يكون رئيس البلدية عراقياً تنتخبه الحكومة، وتدفع له راتباً لقاء خدماته.

وتحقيقاً لهذا الالتزام، فقد عرض ولسن على ناجي السويدي (١٨٨٢ ــ ١٩٤٢) في تموز منصب رئيس البلدة، فوافق على المنصب ولكنه سرعان مادب الخلاف بينه وبين البريطانيين، حينما اقترح أن يكون انتخاب المجلس على أساس حر، ولا يكون ضمن أعضائه أي ضابط بريطاني، عدا الضابط الصحي ومهندسي البلدية، فقدم استقالته في ١٤ تموز ١٩١٩.

ثم عرض ويلسن المنصب على عبد الرحمن النقيب الذي رفضه، وعرض المنصب أخيراً عملاً بنصيحة النقيب على عبد المجيد الشاوي، الذي كان ناظراً لأوقاف العراق عام ١٩١٩. مع الحاج محمد حسن جوهر بصفته مدير الكرخ، وعبد العزيز المظفر في منصب مماثل في الرصافة.

وفي ١ تشرين الأول ١٩١٩ أعيد تنظيم بلدية بغداد، فصارت لها ثلاثة فروع، وهي الرصافة والكرخ والثالث في الكرادة، ووضع على رأس الأخير مدير انكليزي.

وبعد انتخابات عام ١٩٢٢، تم انتخاب علي أفندي البزركان مديراً للبلدية الأولى في جانب الرصافة، وعبد الرزاق أفندي مديراً لبلدية لاعظمية، ومحمد أفندي المصطفى الخليل لبلدية الكرخ، أما بلدية الكرادة فصار رئيسها الحاج ناجي رضا.

أدى ارتباط بلديات بغداد بلواء بغداد، أن جعل أمور اللواء مرتبطة ببلدية العاصمة ومحصورة بسلطة واحدة، مما نتج عنه الالتباس والتذبذب بالإدارتين في الأعمال، وعليه طالب مجلس الوزراء بتفريق الإدارتين في الأعمال، بلدية العاصمة عن سلطة اللواء وإلغاء شعب البلديات الثلاث الموجودة وإيداع البلدية لأمين العاصمة بإرادة ملكية وبترشيح من وزارة الداخلية مباشرة، لكي تتبعها ادارياً، ويبقى لواء بغداد تحت عنوان (متصرف لواء بغداد) مع بقاء التشكيلات الإدارية الموجودة وحصلت موافقة مجلس الوزراء في ٢٧ كانون الثاني ١٩٢٣ على المقترح فصدرت الإرادة الملكية في ١٣ شباط ١٩٢٣بتعيين صبيح بك نشأت أول أمين للعاصمة ومقره في دائرة البلدية الأولى وتعيين علي أفندي البزركان معاون أمين العاصمة في جانب الرصافة، ومصطفى أفندي الخليل معاونا لجانب الكرخ.

ب. قلم البلدية وحساباتها: عند تشكيل بلدية بغداد في ٤ نيسان ١٩١٧، أعادت السلطة العسكرية لبلدية بغداد تشكيل بعض الدوائر والشعب تدريجياً على نمط التنظيمات العثمانية، ومن هذه الدوائر قلم البلدية وحساباتها، التي كان يرأسها موظف يطلق عليه (الباش كاتب) الأول أو رئيس الكتاب ويعاونه عدد من



الكتاب حسب الحاجة. وأول من تبوأ منصب الباشكاتب الأول عام ١٩١٧ هو عبد العزيز أفندي المظفر، ورئيس الكتاب مسؤول أمام رئيس البلدية عن تسجيل مقررات المجلس البلدي في السجلات الخاصة بها وتنظيم الملفات لحفظ صور الكتب الصادرة، وهذه الشعب تضم موظفي الأملاك والإحصاء والنفوس.

أما ميزانية البلدية فالمسؤول عنها أمين الصندوق، الذي يقدم خلاصة كل يوم إلى رئيس البلدية بالواردات ومقدار النقد الموجود بالصندوق.

جـ. الشعبة الهندسية: يدير شؤونها مهندس اختصاص يعاونه في أداء واجباته معمار مختص وعدد من الموظفين، وواجبات هذه الشعبة تطبيق قانون الأبنية داخل المدينة وضواحيها، ومنح اجازات البناء وغير ذلك من الأمور الفنية.

وتوسعت أعمال هذه الدائرة عام ١٩٢٢، حين بدأ مد خطوط الكهرباء، فكان على مهندس البلدية الكشف على المحلات المراد مد الكهرباء إليها قبل إيصال الكهرباء.

د. شعبة التفتيش: تعتبر هذه الشعبة من أهم شعب البلدية لأنها مسؤولة عن أهم الأعمال والواجبات الملقاة على عاتقها، والتي من أجلها أوجدت البلدية، فهي المسؤولة عن نظافة المدينة وتنظيم اسواقها ونظافة مطاعمها وأماكنها العامة ومراقبة من يحاول الغش في المقاييس والمكاييل، ومنع بيع الأطعمة الفاسدة ومصادرتها وحماية الأرصفة والطرق العامة من التجاوز عليها وتهيئة مستلزمات إطفاء الحرائق، كل ذلك يتوقف على جهود العاملين في هذه الشعبة المؤلفة من رئيس المفتشين وعدد من المفتشين والمراقبين والمنظفين والحراس. ولأهمية هذه الدوائر تم توسيعها عام ١٩٢٣ فصارت تعرف باسم دائرة التفتيش والمراقبة وعين عبد الرزاق بك مديرا لها وزاد عدد المفتشين والمراقبين فيها.

هـ. الدائرة الصحية: كان لبلدية بغداد في العهد العثماني طبيب ومعاون له (ليعاين المرضى مجاناً مرتين في الأسبوع في مكان تخصصه له إدارة البلدية) مع صيدلية عامة لتزويد الفقراء بالأدوية مجاناً. أما الخدمات الصحية والحفاظ على الصحة فكانت مناطة بالبلدية التي اشرفت أيضاً على إدارة مستشفى الغرباء في الكرخ وكانت تدفع رواتب جميع العاملين في الجهاز الطبي.

وبعد تأسيس بلدية بغداد في ظل الاحتلال البريطاني، استعانت السلطات البريطانية ببعض البريطانيين والهنود للعمل في المؤسسات الصحية لكون الأمراض المعدية منتشرة في العراق، والتي لم يسلم منها أفراد الجيش البريطاني نفسه، فأصبحت العناية بالخدمات الصحية أمرا يكتسب أهمية كبيرة لغرض المحافظة على سلامة قواتها، فضلاً عن كونها احدى أهم وسائل الدعاية للاحتلال البريطاني.

وهكذا تم تأسيس إدارة صحة المدينة، وعين لها طبيب بريطاني مسؤول أمام البلدية، وأصبح تسجيل الوفيات والولادات من الوجهة النظرية في الأقل أمراً إجبارياً. وصار الميجر كورين مفتشاً للصحة تابعا



للبلدية، ثم خلفه بعدها الميجر ت. ب. هيكز عام ١٩٢٠، ثم استحدثت مديرية الصحة العامة، التي صارت تابعة لوزارة الصحة من عام ١٩٢٠ حتى حزيران ١٩٢٢، ثم ربطت إدارياً بوزارة الداخلية، بعد ما ألغيت وزارة الصحة في حزيران ١٩٢٢[٦]. أما صحة العاصمة فقد كانت تابعة إدارياً إلى بلدية بغداد، إلا أنه نظراً لكثرة الأوبئة وقلة عدد الأطباء في العراق فقد كانت مديرية الصحة العامة التابعة لوزارة الداخلية تشرف عليها من الناحية الفنية.

تطرق المؤلف في الفصل الثاني للجوانب المالية (النفقات والواردات) منذ تأسيس بلدية بغداد في ٤ نيسان ١٩١٧ من قبل السلطات العسكرية البريطانية مورداً معلومات تفصيلية عن الموضوع، كما رصد بعض مظاهر الفساد الإداري؛ حيث كانت الميزانية تتألف من الواردات والنفقات وقد استمر تنظيم ميزانية البلدية على النمط العثماني، إذ تم جدولة واردات ومصروفات البلدية المتحققة في ذلك العام والمخمنة للعام القادم، فيتم عرض جميع المستندات والمقترحات على رئيس البلدية لغرض تدقيقها وتصديقها، وما على المجلس البلدي إلا الموافقة عليها، ثم ترفع إلى مجلس إدارة لواء بغداد لإجراء التدقيقات والتعديلات ثم المصادقة عليها.

وترتكز ميزانية بلدية بغداد على مقدار الواردات والنفقات وكما يأتي:

أولا: واردات البلدية ورسومها

١ـ واردات البلدية: هي تلك المبالغ التي تخول البلدية حق جبايتها وفقاً للقانون[٧]. وكانت واردات بلدية بغداد تأتي من المصادر التالية:

أ. الهبات الحكومية

خصصت سلطات الاحتلال البريطانية منذ عام ١٩١٨ مبالغ نقدية للبلدية قدرت بـ (١٥٠٠) روبية في الشهر للقيام بالخدمات العامة، ثم منحت صلاحية مالية تصل إلى (٥٠٠٠) روبية تسلم إلى المجلس البلدي دفعة واحدة للتصرف فيها. كما إن البلدية كانت تحصل على بعض الإعانات والهبات من وزارة المالية، كما حصل عام ١٩٢٢، حين قدمت وزارة المالية (٥٠) ألف روبية إلى البلدية لدعم فرقة الإطفاء فيها.

ب. الرسوم المتفرقة

استبشر أهالي بغداد بتصريحات الجنرال مود الهادفة إلى تحرير العراقيين، واتخذ من جانبه قرار إلغاء ضريبة الملح اعتباراً من ١٥ مايس ١٩١٧، وأعلن في بيان خاص بأن المحتلين الجدد ليسوا أشد طمعاً من العثمانيين[٨]، إلا أن السلطة المحتلة بدأت بفرض ضرائب تدريجية على الأهالي لسد النفقات المتصاعدة، في وقت لم تكن الكثير من هذه الرسوم موجودة في العهد العثماني، وهي كما يأتي.

ج. رسوم الحمالين

فرضت بلدية بغداد رسوما على استخدام الحمالين عن طريق استخدام تذاكر خاصة بهم يشتريها المتعهد من بلدية بغداد، وحذرت من استخدام حمالين لا يحملون مثل هذه التذاكر بالعقاب الشديد. وقامت أيضاً بمنح رخص لعمل الحمالين، وحددت أجورهم، إذ أن



استخدام الحمال لمدة نصف ساعة يكون أجره (٤) آنات ويصير أجره (٨) آنات إذا استخدم لمدة ساعتين، وروبية واحدة إذا استخدم لمدة (٤) ساعات.

د. رسوم الويركو

وهي الرسوم التي فرضت على الدور والمباني المؤجرة، وتكون نسبتها ١٠% من إيجار الملك السنوي، وقد تم تحديد الايجار بنسبة ١٠% من قيمة الملك، ويتم دفع الإيجار تحت اشراف البلدية.

ويبدو أن هذه الضريبة وضعت بسبب حاجة قوات الاحتلال إلى بعض المباني لاشغالها، ولوجود أزمة سكن في العراق مع ارتفاع أسعار الإيجارات.

٢ـ لائحة رسوم البلدية

أصدر الحاكم العسكري في بغداد أمير اللواء س. ج هوكر أول لائحة لرسوم البلدية في كانون الثاني ١٩١٧[٩]، الغي بموجبها المقاولات والرسوم السابقة. ووضع رسوما على المسالخ والماء والحمامات والفنادق والسينمات وأسواق بيع الحيوانات والمخضرات والأسماك وسوق الهرج ورسوم عبور الجسور وركوب النهر. وألحقت بهذه اللائحة رسوم أخرى وضعت على الشخص الذي يريد السفر إلى الأماكن الواقعة في جنوبي بغداد وبواسطة السفن. ووضعت رسوم أخرى شملت رسما على نقل الموتى إلى كل من كربلاء والنجف، وفرضت رسوم على أصحاب المهن والورش الصغيرة في بغداد، فقد قررت بلدية بغداد أن تأخذ منهم (٣٠) روبية كل (٦) أشهر لمنحهم رخصة العمل[١٠].

كان لهذه الرسوم أثرها في زيادة واردات البلدية، فقد اعترف الحاكم العسكري البريطاني هوكر خلال اجتماعه بالمجلس البلدي يوم ٥ مايس ١٩١٨، بأن واردات التزامات البلدية قد زادت عن السنة الماضية بفارق عظيم بلغ أكثر من مائة الف روبية. وقارنت جريدة العرب أيضاً بين استيفاء رسوم الأغنام في العهد العثماني، الذي بلغ (٣٦٣٦،٥) روبية سنوياً عن (٧٢٧٣٠) رأس، بينما في سنة ١٩١٨، فقد بلغ (٧٥٨٣٨،٥) روبية عن (٥١٦٧٧) رأس غنم.

ومن المحتمل أن دقة بلدية بغداد في جباية الرسوم ترجع إلى استخدامها لليهود في التخمين، فهم ماكرون ويسلكون سلوكاً تشكيكياً في تعاملهم مع الآخرين ويحسبون حساب الحبة الواحدة. باعتراف البريطانيين انفسهم كما إنهم استخدموا العقوبات المعنوية والجسدية بحق المتهربين من دفع الرسوم[١١]، واسفرت هذه الإجراءات عن جمع كميات هائلة من الموارد، بلغت خلال السنوات الست من الاحتلال المباشر ثلاثة اضعاف ماجمعه العثمانيون خلال الست سنوات الأخيرة من حكمهم في العراق ومن الجدير بالإشارة هنا ان بلدية بغداد اتجهت منذ شهر آذار ١٩١٨ إلى جباية رسومها بطريقة الالتزام القديمة لأنها أسهل طريقة على حد "تعبير المس بيل". فبدأت البلدية تعلن عن التزام الرسوم عن طريق المزايدة العلنية.

وعندما تبوأ الكولونيل ف. س بلفور منصب حاكم بغداد العسكري والسياسي وضع نظاماً جديداً لرسوم



البلدية عام ١٩١٩ ففضلاً عن الرسوم السابقة أضيفت رسوم جديدة وزيدت أسعار بعض الرسوم؛ ومن الرسوم الجديدة التي أضيفت (اجازات العمل) لأصحاب الفنادق والمطاعم والسينمات والحرف وزيدت رسوم الماء الصافي والخضروات والحيوانات والمراكب النهرية والمسالخ.

أدى ثقل هذه الرسوم إلى قيام بعض أصحاب المهن والحرف والسواق برفع مضابط لبلدية بغداد طالبوا فيها بتخفيض رسوم الاجازات وهددوا بالإضراب، فتدخل أعضاء المجلس البلدي، وبعد مناقشات جرت تقرر تنقيح وتخفيض بعض الرسوم على السواق وبعض أصحاب المهن، ولم يشمل التخفيض الصاغة والدلالين رغم اعتراضهم[١٧].

توالى فرض الرسوم في الأعوام التالية فتم فرض رسوم على المشروبات الروحية وبنادق الصيد وإضافة رسوم جديدة على دور اللهو وهي المسارح والملاهي والسينمات ودور الرقص والموسيقى والألعاب وميادين السباق، إذ أضيف رسم قدره آنة واحدة على كل نصف روبية من قيمة كل بطاقة ما عدا الرسم الذي وضع سابقاً على إصدار الإجازات.

ثم توسعت هذه الرسوم عام ١٩٢٣ لتشمل رسوما على الستائر واللوحات والإعلانات التي يضعها البائعون في محلاتهم.

ومن الجدير بالذكر هنا ان ميزانية البلدية عام ١٩٢٢ بلغت (٢٠٠) ألف روبية، بينما كانت عام ١٩٢١ قد بلغت (٣٠٠) ألف روبية ويرجع ذلك إلى الأزمة الاقتصادية التي عانى منها العراق بين عامي ١٩٢١ ــ ١٩٢٢، نتيجة تأثره بالسوق العالمية، فقد كسدت التجارة وهبطت الأسعار، وجاء انتشار الطاعون ليزيد الطين بلة، حتى أن بعض ملتزمي رسوم البلدية اضطروا إلى الهرب وعدم دفع ما بقي بذمتهم من رسوم، فتم إلغاء عقود البعض منهم، وإجراء تخفيض على رسوم البعض الآخر.

وفي ضوء ما تقدم فإن ميزانية بلدية بغداد قد زادت تدهوراً في مطلع عام ١٩٢٣، حين تم أخذ رسوم الماء والويركو من البلدية، فعهد بالأولى إلى دائرة خاصة سميت (لجنة إسالة الماء) وأعطي الثاني الويركو إلى وزارة المالية ورغم تعهد وزارة المالية بدفع إعانات مالية للبلدية (وهو حصة البلدية من الضريبة ١٠%) إلا أن هذه الإعانة بدأت تتناقص شيئاً فشيئاً.

٣ـ المبالغ المستحصلة من الغرامات

وهي المبالغ التي تفرض على المخالفين لأوامر وتعليمات البلدية فقد فرضت غرامات على الذين أخذوا ايجارا على من الايجار الذي حددته البلدية، أو بيع المواد الغذائية واللحم بسعر أعلى من سعره المحدد، فعلى سبيل المثال تم تغريم عدد من القصابين عام ١٩١٨ مبلغ (٥٠) روبية كل منهم بسبب بيعهم اللحم بسعر عالٍ كما تم تغريم بعض الأهالي الذين لم يخبروا عن الحيوانات المريضة الموجودة لديهم أو اخفوا إصابات الأمراض المعدية لديهم، وارتفع رصيد غرامات البلدية عام ١٩٢١، حين فرضت البلدية



الجزاء النقدي على أصحاب المقاهي والمطاعم الذي يضعون التخوت والكراسي والمناضد خارج حدود حوانيتهم.

٤ـ المبالغ المستحصلة من تأجير أملاك البلدية

استطاعت بلدية بغداد الاستفادة من بعض فضلات الأراضي والمستنقعات في بغداد لإنشاء بعض الأبنية والأسواق عليها، وتأجيرها والاستفادة من ايجاراتها، كإيراد للبلدية ومن هذه الأسواق سوق العوينة والحيدر خانة التي وضعت إيجار محلاتها بالالتزام. كما كان لدى البلدية [١] دكاكين في محلة باب الآغا على الشارع الجديد (الرشيد حالياً) وفي الميدان والفضل تأخذ إيجاراتها عن طريق المزايدة العلنية. وتملك البلدية منذ العهد العثماني كازينو كبيرة في محلة الميدان تسمى (مقهى البلدية) تأخذ عنها إيجارا سنويا وبالمزايدة أيضاً. فضلاً عن ذلك كانت بلدية بغداد تملك عدداً من العقارات في العهد العثماني ومنها بناية المجلس النيابي في الاعظمية والمستشفى الملكي ومستشفى الغرباء في الكرخ والعلوة الملتحقة بمدرسة الفضل وعرصة المدرسة المأمونية، فاستولت عليها بعض الدوائر الحكومية، وتم اخلاء البعض منها والذي كان شاغراً من قبل بعض المواطنين.

٥ـ المبالغ المستحصلة من بيع الأراضي داخل المدن

قامت بلدية بغداد ببيع بعض الأراضي والفضلات التي حصلت عليها اما من خلال تجفيف وردم بعض المستنقعات، مثلما حصل في حدود بلدية الكاظمية، وبلدية الكرخ وحصلت بلدية الرصافة على بعض الفضلات نتيجة لإزالة جزء من سور بغداد، كما كان للبلدية فضلات في بعض المناطق ناتجة من تخطيط بعض الأحياء كما حصل في فضلة الأرض الموجودة في جديد حسن باشا والتي قدرت مساحتها بـ (٤٠) فوت مربع فحصلت البلدية على إيرادبعد بيعها لسد نفقاتها المتنامية.

ثانيا: مصروفات البلدية:

يمكن تمييز نفقات البلدية إلى صنفين

١. النفقات المنتجة: وهي المبالغ التي تنفق كراتب للعاملين في البلدية وشعبها وأقسامها المختلفة ومنها رواتب الموظفين والطبيب والصيدلي والبيطري والإنارة والجباة والمراقبين.

٢. النفقات غير المنتجة: وهي المبالغ المخصصة لحاجات البلدية من قرطاسية ومواد التدفئة وإيجار البناية وإعانة الفقراء إلى المصاريف النثرية الأخرى.

كانت بلدية بغداد في العهد العثماني تعاني من قلة المدخولات فتضطر البلدية إلى الاقتراض، ثم تقوم بتسديده على شكل دفعات، فقد اقترضت بلدية بغداد قبل الحرب العالمية الأولى مبلغ (٤١٠٠٠) ليرة تركية من (المصرف الملي التركي)، وقد طالبت به السلطات التركية، وبعد تدقيق السجلات العثمانية لبلدية بغداد، ظهر أن البلدية قد سددت قسماً منه، ولم يبق غير (٣٥٥٢٩) ليرة تركية، فتم حسم هذا المبلغ بدفع (٥٠٠٠) باون انكليزي صفقة واحدة عام ١٩٢٥.



في ظل الاحتلال البريطاني للعراق، لم تكن للبلدية أموال تكفي لتمويل المشاريع البلدية الخدمية بسبب العجز المفرط الذي كانت تعانيه ميزانيتها، ولذا كانت البلدية تضطر إلى الاقتراض من الخزينة العامة، وتسدده على مدة ثلاث أو أربع سنوات ولذا كانت بلدية بغداد تأخذ ماءها وضياءها الكهربائي من السلطات العسكرية وهذا دليل على ضعف إمكانياتها الذاتية، فقد كانت أغلب مدخولاتها من ضرائب خاصة، يدفعها سكان المدن.

ونتيجة لاعتماد البلدية على السلطة العسكرية البريطانية، فقد تراكمت الديون عليها دون أن تعلم، حتى قام رئيس مهندسي القوات البريطانية في العراق بتقديم إنذار إلى بلدية بغداد في ٧ آب ١٩١٨ يطالبها بتأدية ديونها المستحقة والبالغة (١٨٠٠٠٠) روبية وإلا فانه سيقوم بقطع المياه والكهرباء عن المدينة لتأخر البلدية في تسديد ديونها، وعند الاستفسار أفاد المجلس البلدي أنه عند استلامه زمام إدارة أمور البلدية لم يجد في دفاتر المحاسبة،ان دائرة البلدية مدينة لأحد.

لم تجد البلدية إزاء تهديد السلطة العسكرية غير الاستعانة بوزارة المالية لتسديد ديونها،فتم إقراضها لتسديد جميع ديونها للسلطة العسكرية وعلى شكل دفعات.

لم يعرف عن رئيس بلدية بغداد البريطاني ولا مساعديه ومهندسي البلدية ومفتشيها البريطانيين تقبلهم للرشوة على حساب مصالح الإمبراطورية البريطانية، وبذلك تكون بريطانيا قد أحسنت اختيار رجالها. ولكن البلدية لم تخل من الفساد الإداري، خاصة أن بعض موظفيها هم من بقايا العهد العثماني. فقد حذرت بلدية بغداد المواطنين من تقديم بعض الهدايا والعطايا غير المشروعة إلى المفتشين الصحيين وموظفي الخدمة في البلدية على اعتبار انها (رشوة مقنعة).

وظهر الفساد الإداري واضحاً، حين صدر الحكم على أحد مفتشي دائرة بلدية بغداد بالسجن لمدة سنتين مع الأشغال الشاقة وبجزاء نقدي قدره (٥٠٠) روبية، لقيامه بابتزاز الدراهم من الذين تحكم عليهم محكمة النائب العسكري بدفع غرامة نقدية. وعلى أحد موظفي دائرة الصحة التابعة للبلدية بالسجن لمدة سنة واحدة مع الأشغال وبجزاء نقدي قدره (٢٠٠) روبية لأنه كان يحتال على الزوار الذين يجلبون معهم الموتى للدفن في النجف أو كربلاء ويأخذ نقودهم بطريقة غير مشروعة.

كما ظهر تلاعب مالي في جباية رسوم حراسة سوق السراي والشورجة منذ عام ١٩٢١، حتى بلغ عام ١٩٢٥ (٣٦٠٠٠) روبية حيث ظهر من نتيجة التحقيق أن هنالك عدة وصولات حراسة طبعت في عدة مطابع ووضعت في عدة مجلدات دون علم رئيس البلدية. ولم تسلم غرامات البلدية من التلاعب، فقد ظهر عام ١٩٢١ أيضاً أنه لا توجد لهذه الرسوم والغرامات سجلات صحيحة، فضلاً عن وجود مسح في بعض السجلات يدل على حدوث تلاعب فيها. كما



لم تسلم من التزوير حتى وصولات جباية رسوم الماء، فتم على أثر التحقيق عزل كل من محاسب الأمانة وأحد مأموري الماء والمراقب.

وإزاء كل ذلك اضطرت بلدية بغداد إلى إصدار وصولات جديدة وبختم جديد وحذرت الأهالي من عدم دفع أي مبلغ بذمتهم للبلدية، إلا بعد أخذ وصل مختوم بختم البلدية الخاص.

لم يقتصر الفساد الإداري على بعض موظفي البلدية، بل شمل حتى الملتزمين، حيث قام بعضهم باستيفاء رسوم عن الحيوانات المعدة للحرث والزراعة مع العلم إنها معفاة من الرسم، بل اخذ رسوما من خارج منطقة الالتزام. وظهر تقصير لدى بعض ملتزمي رش الطرق وجباية بعض الرسوم فاضطرت البلدية إلى فسخ عقودهم. وأدى تلاعب ملتزمي الذبيحة في جباية رسومهم الى اضراب قام به القصابون وبقيت مدينة بغداد على أثره بدون لحم ثلاثة أيام. فاضطر المجلس البلدي إلى الاجتماع وإصدار تحديد دقيق لرسم (الذبيحة).

تطرق الفصل الثالث إلى (دوائر بلدية بغداد الخدمية وأثرها في أحوال المدينة)، إذ اضطلعت بلدية بغداد بعدة واجبات وتشعبت أعمالها، فصارت في مقدمة مؤسسات المجتمع المدني لمدينة بغداد، فهي التي تقوم بالعناية بنظافة المدينة وتخطيط وتنظيم الطرق وتجهيزها بالمجاري، ومنع التجاوزات وفحص البناء، وتقييم الدور والعرصات، وصيانة الجسور والمعابر وتهيئة المراسي والشرائع، ومحال الغسل والإنارة والماء والرش وإقامة المتنزهات وتنظيم النقل، وتفتيش أماكن اللهو، والاجتماعات العامة، وتعيين المناطق الممنوعة على أرباب الحرف لممارسة أعمالهم فيها، وإطفاء الحرائق واتخاذ التدابير لمنعها، وخدمات الرعاية الصحية والاجتماعية.

أما أهم الأعمال الخدمية التي تضطلع بها بلدية بغداد فهي:

١. دائرة التنظيفات:

وهي احدى الواجبات الأساسية للبلدية وتأخرت العناية بالتنظيفات نظراً لظروف الحرب.

وعلى العموم فقد تم تأسيس دائرة للتنظيفات في نيسان ١٩١٨ داخل بلدية بغداد، وتحت اشراف الكابتن آرثر بونهام (A.Bonham)، وكان عمال النظافة يقومون بتنظيف الأماكن العامة يومياً، وكانت تتم عملية نقل النفايات بواسطة الحيوانات، وفي بعض أزقة بغداد الضيقة يتم نقلها بواسطة العربات الصغيرة، وكان مستخدمو البلدية يقومون بأخذ أجرة من أصحاب البيوت والمحلات.

وحذرت بلدية بغداد المواطنين من رمي الأوساخ في النهر وعلى شاطئيه في حدود مدينة بغداد أو إلقاء النفايات في الشوارع، حيث يجب وضعها في وعاء أو صفيحة او صندوق، وقررت منذ عام ١٩١٩ فرض غرامة نقدية على الذين لا يتقيدون بتعليمات النظافة، وخصصت مفتشاً في كل أحياء المدينة لمراقبة عمال النظافة ومنحته صلاحيات واسعة.

والحقيقة أن جهود دائرة التنظيفات لم تنه مشكلة



تراكم النفايات في بغداد وملاحظة نظافة مطاعمها وفنادقها، فانتقدت بعض الصحف جهود البلدية في هذا المجال، الأمر الذي دفع المجلس البلدي إلى فسخ التزام التنظيفات وقيام دائرة بلدية بغداد، بأخذ مسألة التنظيفات على عاتقها ووضعت تحت اشراف رئيس دائرة الصحة الميجر هيكز فأخذت مديرية التنظيفات على عاتقها القيام بالتحريات على المحلات لملاحظة مراعاة النظافة والشروط الصحية فيها.

٢ـ خدمات الصرف الصحي:

لم تشهد بغداد اقامة أي نظام للمجاري فيها خلال العهد العثماني، إذ أن عملية تنظيف المنازل والمحلات من تجمع مياه الصرف الصحي وتراكم مياه الأمطار، كان يتم نقلها في علب من الصفيح ثم تنقل على ظهور الحيوانات أو بواسطة العربات إلى المكان المعد لها[١٣].

وأثناء الاحتلال البريطاني لم يجر أي اهتمام بمسألة مد شبكات مجارٍ لتصريف المياه داخل المدينة من قبل بلدية بغداد، بل إنها استغنت عن قيام منتسبيها بالتنظيف، وأوكلت هذه المهمة إلى من يرغب من المنظفين حيث تمنحه إجازة ويقوم بسحب المياه العادمة بالاتفاق مع الأهالي وعلى نفقتهم، ولم تهتم بلدية بغداد أثناء الإدارة العسكرية البريطانية بإنشاء المجاري إلا عام ١٩٢١، وهي فترة متأخرة. إذ أن تراكم المياه الآسنة في الشوارع أخذ يهدد حياة وصحة سكان بغداد ومساكنهم ومحلاتهم، فاتجهت البلدية إلى انشاء فتحات الصرف الصحي على طرف الشارع الجديد لا تبعد الواحدة عن الأخرى سوى ٥ أمتار. ثم قرر المجلس البلدي عام ١٩٢٢ انشاء ٢٧ بالوعة جديدة في شوارع بغداد المختلفة. وسرعان ما ظهرت مساوئ هذه العملية حيث تراكمت فيها النفايات والأطيان، فأدى ذلك إلى انسدادها، فضلاً عن جهل القائمين عليها، إذ يتركونها مفتوحة بعد تنظيفها، فادى ذلك إلى سقوط الأشخاص فيها وخاصة الأطفال فراحوا ضحية لها، بل لسوء تصريفها اختنق ومات عدد من العاملين على تنظيفها.

وعلى ما يبدو لم تحل هذه البالوعات مشاكل المياه العادمة في بغداد، فقد كان تصريفها محدودا وعلاجها وقتيا ولم ترتبط بخطوط تصريف مركزية، إذ أن هذه البالوعات كانت أثناء فصل الشتاء وبالاً على سكان المنطقة حين تمتلئ بمياه الأمطار وتنضح منها المياه والروائح والبعض الآخر يتسرب إلى المياه الجوفية والبيوت المنخفضة المجاورة لها. وشهدت السنوات اللاحقة استمرار نفس المشكلة إذ لم يتم تأسيس مصلحة المجاري فيها إلا عام ١٩٥٥، وهي فترة متأخرة جداً.

٣ـ الخدمات الصحية والحجر الصحي:

ساهمت عوامل عديدة في تدهور الأوضاع الصحية في العراق خلال العهد العثماني، كان من أبرزها الإدارة وكثرة تبدل الولاة وشيوع مظاهر الجهل والفقر. كما أدت الظروف المناخية السيئة وإهمال النظافة إلى انتشار الأمراض والأوبئة، إذ لم يكن في بغداد عام ١٨٧٢ سوى مستشفى الغرباء في الكرخ التي أسسها مدحت باشا[١٤].



وكانت بلدية بغداد تقوم بمهمة الخدمات الطبية، إذ تواجد فيها طبيبان أحدهما في الرصافة والآخر في الكرخ، وكانت البلدية تعاني من قلة الأدوية ووسائل العلاج الناجحة.

وعلى العموم فقد فشلت البلدية في أداء واجباتها الصحية، وهذا ما ينطبق على مستشفى الغرباء أيضاً، وبحكم الواقع فقد ظلت البلاد حتى الحرب العالمية الأولى ميداناً فسيحاً لعبث الدجالين والمشعوذين. وأدى هذا الاهمال أيضاً إلى انتشار الكثير من الأوبئة التي أخذت تفتك بالناس فتكاً ذريعاً، مما أثر سلبياً على نمو عدد السكان في العراق.

وبعد احتلال بغداد عام ١٩١٧، لم يكن في بغداد سوى المستشفى الملكي الذي تعرض للنهب والتدمير من قبل العثمانيين ثم الرعاع، ولكن السلطات البريطانية سرعان ما اهتمت بالأمور الطبية، خاصة وان الأمراض المعدية منتشرة في العراق، والتي أدت إلى ظهور بعض الإصابات بين أفرادها، فأصبحت العناية بالخدمات الصحية أمراً يكتسب أهمية كبيرة لغرض المحافظة على سلامة قواتها، فأوعزت إلى الكولونيل باتي (Batty) مدير الصحة المدنية بتأسيس مستشفيين في بغداد الأول أطلق عليه اسم (المستشفى العام الجديد) في الرصافة، أما الثاني فقد أطلق عليه أسم (المستشفى المدني) في الكرخ والحق بالمستشفى الأول مستشفى للعزل[٣٠].

واللافت للنظر أن بلدية بغداد العسكرية، اهتمت أول الأمر بإنشاء مركز بيطري في الكرخ عام ١٩١٧ أطلق عليه اسم (معهد الحيوانات البلدي) تحت اشراف ضباط من الجيش البريطاني، وذلك لوجود أمراض مشتركة بين الإنسان والحيوان. وخلال عام ١٩١٩ تم إنشاء مستشفى بيطري أطلق عليه اسم (المستشفى البيطري للبلدية) وعين له مدير هو المراقب البريطاني تايلور (Taylor) وكانت تعالج في المستشفى الخيول العائدة لمختلف أقسام الإدارة البريطانية.

وأخذت بلدية بغداد بالتشدد تجاه الأشخاص الذين يخفون إصابات بالأمراض السارية فتم تغريم عدد منهم بين ١٠ ــ ١٥ روبية وبسبب تفشي الطاعون عام ١٩١٩ رفعت هذه الغرامة إلى (٢٠٠) روبية أو السجن شهرين، ودعت مختاري المحلات إلى تحمل مسؤولية ومراقبة تفشي مثل هذه الأمراض في مناطقهم.

وفي إطار حملتها لمنع انتشار الأمراض السارية من الدول المجاورة، شددت بلدية بغداد إجراءات الحجر الصحي للأشخاص وأصحاب السفن القادمة إليها، واجبرتهم على الحصول على شهادة المركز الصحي (الكرنتينة) قبل دخولها بغداد. وفضلاً عن ذلك منعت بلدية بغداد العسكرية الصحية دفن جميع جثث الموتى إلا بعد اعطائها شهادة الدفن، وأن يدفن جميع الموتى داخل حدود مقبرة مخصصة لهذا الشأن. وبرغم اجراءات بلدية بغداد الصحية إلا إن الأمراض السارية استمرت بالتفشي في بغداد، وخاصة في ربيع عام ١٩١٩، إذ تفشى مرض



الطاعون ومات بسببه أكثر من (٦٠٠) إنسان، وتم تعميم التطعيم وبمقياس كبير في هذه السنة، حيث تم تطعيم أكثر من (٨٠) ألف إنسان من سكان بغداد، ومما زاد في استفحال المرض ليس جهل الناس في أمر الوقاية وحسب، وإنما أيضاً لازدحام السكان في المدينة مع وجود أزمة السكن.

واتخذت إجراءات أخرى لحماية الصحة العامة فقامت بلدية بغداد بغلق معامل الطابوق والتي كانت ملاصقة لطريق السدة الواقعة في (ساحة الطيران الآن) وعُدت اقامة معامل الطابوق في هذه المنطقة مخالفة قانونية. وأبعدت عن مركز بغداد أيضاً الصناعات ذات الرائحة الكريهة والملوثة للبيئة كمعامل الأمعاء والجلود.

لكن وبرغم ذلك استمرت الانتقادات، مما دفع بلدية بغداد إلى تحويل عمليات التحري والتفتيش على المحلات من مدير النفايات إلى صحة البلدية في شهر تشرين الثاني ١٩٢١.

فضلاً عن ذلك، قامت صحة البلدية بحملة قوية ضد بائعي المأكولات والمشروبات من الباعة المتجولين، وطلبت منهم الحصول على إجازة من دائرة صحة البلدية قبل ممارسة عملهم، ومنعتهم من بيع المأكولات والمشروبات وطلبت منهم أن يقتصر عملهم على بيع الفواكه والخضروات والخبز والطرشي، وألا سيعرض المخالف على محاكم البلدية ويغرم بغرامة تصل إلى ٥٠ روبية. ورغم هذه الإجراءات إلا أن مرض الطاعون عاود انتشاره عام ١٩٢٢ في بغداد وحدثت من جرائه (٣٥) إصابة.

وقررت صحة البلدية إنشاء مجزرة عصرية وصحية بالرصافة في منطقة الباب الشرقي، وإنشاء مزيد من الحمامات العمومية في مناطق متفرقة من بغداد. ووضع صيدلية خافرة إلى منتصف الليل في بغداد. فضلاً عن ذلك عينت بلدية بغداد ثلاثة أطباء لكل بلدية طبيب واحد ومعاون طبيب مع صيدلية لتوزيع الدواء على الفقراء مجاناً ومعاون طبيب مختص في علاج أمراض العيون. وأعادت فتح مستشفى الأمراض الزهرية عام ١٩٢٢ بعد أن أغلق عام ١٩٢١ بسبب الأزمة الاقتصادية التي مرت بها البلاد.

وفيما يلي جدول رقم (١) يوضح الولادات والوفيات في بغداد للسنوات ١٩١٨ ـ ١٩٢٣[١٦].

السنوات	الولادات	مجموع الوفيات	وفيات الأطفال دون عمر السنة	النسبة
١٩١٨	٢٤٠١	٣٣٧٤	١٨٠٣	٪ ٥٣
١٩١٩	٣٣٠٤	٥١٤٤	١٤٤١	٪ ٢٨
١٩٢٠	٢٤٥٠	٣٨٨٩	١٥٨٩	٪ ٤٠
١٩٢١	٢٠٢٢	٥٦٦٧	١٣٣٧	٪ ٢٣,٥
١٩٢٢	٢١٤٢	٥٧١٣	١٨٥٩	٪ ٣٢٥
١٩٢٣	٤٩٢٢	٥٨٠٣	١٦٦٤	٪ ٢٨,٦

ويظهر الجدول السابق بوضوح كثرة الوفيات قياساً إلى الولادات في بغداد وخاصة بين الأطفال.

٤ـ إسالة الماء:

كان سكان بغداد يعتمدون في استهلاكهم للماء على ما ينقل لهم من نهر دجلة إلى أنحاء المدينة على ظهور الحيوانات في قرب جلدية بواسطة موزع الماء الذي يسمى (السقا)، ثم يتم تفريغ هذا الماء في جرار



من الفخار وكان للسقائين الذين ينقلون الماء إلى السقاية راتب معلوم يحصل عليه من أصحاب بعض الوقفيات في شؤون السقاية من بعض الولاة والأعيان وأهل الخير، بينما كانت تتعامل بعض أحياء بغداد الأخرى مباشرة مع السقاء فتعطيه أجرة على نقل الماء إلى البيوت.

ويبدأ أول تشكيل إسالة الماء خلال العهد العثماني عام ١٨٩١ حين تم تعيين مشغل للمضخة، ثم ازداد عدد العمال في السنة التالية ليبلغ أربعة عمال إضافة الى المشغل ومحصل يقوم باستيفاء أجور الماء من أصحاب الدور، والتي كانت أجورا مقطوعة بلغت عشرة قروش شهرياً لكل دار.

وتوالى بعد ذلك نصب المضخات، إذ نصبت مضخة عام ١٨٩٥، على شاطئ النهر قرب الميدان ومدت أنابيب (آهين) لنقل المياه إلى محلتي الفضل والحيدرخانة، وهو أول مشروع بنظام التجهيز المائي المستمر، والذي كانت تتردد منه البلدية خوفاً من زيادة نضوح الماء. ثم نصبت مضخة أخرى للماء في عام ١٩٠٧، في شريعة الميدان، وشغلت دائرة البلدية الثانية مضخة أخرى للماء لتروي الاحياء الجنوبية من جانب الرصافة بالماء.

وبعد احتلال بغداد عام ١٩١٧، وضع الجيش البريطاني ماكنتين لضخ الماء في الرصافة، ومد أنابيب مياه في بغداد إذ وضع (١٩) فوهة فيها عام ١٩١٧ وذلك لسد حاجيات الجيش البريطاني والأهالي، علماً أن هذا الماء لم يكن نقياً ولا معقماً.

وفي أواخر عام ١٩١٨ أقامت بلدية بغداد العسكرية (٥) محطات لتصفية وضخ الماء النقي، وقد تألفت هذه الشبكة من (٤) محطات ضخ على ضفة نهر دجلة اليسرى في الرصافة في منطقة القلعة (قرب وزارة الدفاع سابقاً) والميدان والمصبغة وجامع السيد سلطان علي، أما المحطة التي نصبت على ضفة دجلة اليمنى (الكرخ) فقد أقيمت في خضر الياس، ثم في عام ١٩١٩ أضيفت محطتان لضخ المياه في أعلى المدينة خصصت لاستعمال مستشفيات المدينة، لكن هذه الإضافات لم تكن كافية لسد حاجة سكان بغداد من المياه.

وعلى الرغم من قيام بلدية بغداد سنة ١٩٢٠ بنصب مضخات إضافية في محلة المصبغة والسيد سلطان علي بالرصافة وخضر الياس بجانب الكرخ، إلا أن سكان بغداد ظلوا يعانون من قلة المياه، خاصة في فصل الصيف بسبب الاستهلاك الكبير لها، واستخدام البعض لهذه المياه لري البساتين أو غيرها من الأغراض الصناعية والتنظيف، فاضطرت بلدية بغداد إلى إصدار تحذير للمواطنين عام ١٩٢١، بأن كل من يستخدم مياه الإسالة لغير الحاجات المنزلية سوف يغرم وتقطع عنه المياه.

ويبدو أن بلدية بغداد كانت مهتمة بإمداد الماء إلى الرصافة أكثر من الكرخ، بسبب وجود إدارة الدولة في جانب الرصافة أكثر من الكرخ فضلاً عن كثرة سكان وأحياء الرصافة قياساً إلى الكرخ، واضطرت البلدية بعد عدة شكاوي من أهل الكرخ إلى إنشاء أحواض



عمومية فيه ليستقي الناس منها الماء. ولم تفكر بمد أنابيب للماء لتناثر أحياء الكرخ وبعدها عن بعضها البعض. ومهما يكن من أمر، فإن تعقيم المياه لم يتم إلا أواخر عام ١٩٢١ إذ طلبت بلدية بغداد من مديرية الصحة الطبية بصنع وإضافة مادة الكلور إلى الماء لغرض تعقيمه.

٥-الإنارة:

لم تكن بغداد قد عرفت الكهرباء بعد حتى أيام الوالي ناظم باشا (١٩١٠ ــ ١٩١١)، حين جرت أول محاولة في عهده لاستخدام الطاقة الكهربائية في تشغيل ترمواي بغداد ــ الكاظمية. واستطاع محمود الشابندر ــ احد تجار بغداد المشهورين أن يؤسس شركة في لندن لإنشاء مشروع الطاقة الكهربائية في بغداد، بعد حصوله على موافقة السلطات العثمانية على هذه الشركة في عام ١٩١٤، التي كانت تعرف باسم (الشركة العثمانية المساهمة للترمواي والتنوير والقوة الكهربائية لمدينة بغداد) ولكن المشروع تم تجميده بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى.

اقترن استخدام الكهرباء في بغداد لأول مرة مع الاحتلال البريطاني لها، وتم ذلك في ١ تشرين الثاني ١٩١٧ حين قامت مصلحة الأشغال العسكرية البريطانية بنصب أول مولدة للكهرباء قرب القشلة، وكانت تهدف إلى إنارة شارع السراي وبنايات القشلة والمستشفيات، وهو المستشفى المركزي البريطاني في (الباب المعظم)، ونصبت أخرى مثلها في شريعة المجيدية لإيصال الضياء إلى جملة المستشفيات الموجود خارج باب المعظم وكلاهما من درجة (٢٢٠) فولت تكفي كل واحدة منها لإضاءة ألف مصباح تقريباً، وكذلك نصبت أخرى في الكرادة (الجانب الأيسر) وأخرى في أم العظام لإنارة معسكرات الجيش البريطاني.

اقتصر تجهيز الكهرباء أول الأمر على المؤسسات العسكرية البريطانية ودوائر الحكومة في القشلة، ولكن في شهر آذار ١٩١٨ أعلنت السلطات البريطانية العسكرية توزيع مقدار معين من النور الكهربائي على بعض الأماكن والبيوت القريبة من السراي بمقابل مالي، وطلبت من الراغبين تقديم طلبهم إلى بلدية بغداد ووضعت شروطاً لذلك.

ومن المفيد بمكان أن نذكر ان نشاط بلدية بغداد في مجال الإنارة الكهربائية كان محدودا إذ استمرت وتوسعت عملية تنوير الكثير من الأحياء بالفوانيس النفطية في هذا الوقت بالذات. وكانت تتم هذه العمليات عن طريق نظام الالتزام، مع اعطاء النفط بسعر منخفض.

وجاءت النقلة النوعية في كهرباء بغداد أواخر عام ١٩٢١، حين أدركت مصلحة الأشغال العسكرية حاجة الجيش وسكان بغداد إلى الضياء الكهربائي فجلبت ماكنة كبيرة لتقوم مقام الماكنات الصغار التي نصبتها عام ١٩١٧ ــ ١٩١٨.

وكانت هذه الماكنة بثلاث محركات بخارية قوة كل منها (٣٠٠) حصان ونصبتها في بناية العبخانة (قرب ساحة الوثبة حالياً) والتي كان سابقاً المعمل

العسكري للجيش العثماني، وكانت درجة الكهرباء الحاصل منها (٤٤٠) فولت تم تقسيمها عند التوزيع إلى (٢٢٠) فولت، لكي تبقى الماكنات السابقة على حالها. ثم ركزت الأعمدة ومدت الاسلاك في الشارع الجديد (الرشيد) من الباب الشرقي إلى باب المعظم، وربطت هذه الأسلاك التي كانت مرتبطة بالمحركات السابقة، التي سرعان ما تم رفعها وصارت محطة العباخانة هي مركز كهرباء بغداد. ووضعت بلدية بغداد عام ١٩٢٢ على كل عامود في الشارع الجديد (الرشيد) مصباحا كهربائياً وأنارت قسماً من شارع النهر.

وكان لهذه الماكنة المغذية الجديدة للكهرباء أثرها في قيام بلدية بغداد، بمد النور الكهربائي من باب المعظم إلى القصر الملكي في الوزيرية ثم الاعظمية، ثم مدت أسلاكا من جسر مود (الأحرار) إلى الصالحية في الكرخ فالكريمات والشواكة حتى وصلت إلى محطة القطار ثم إلى محلة خضر الياس.

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن أجور الكهرباء في بغداد كانت مرتفعة. كما ان شركة الكهرباء ونتيجة لتنصل بعض مستهلكي الكهرباء عن التسديد، لجأت إلى زيادة أسعار التأمينات على الكهرباء، فقد أجبرت زبائنها على دفع تأمينات قدرها (١٠،٥) روبية عن كل مصباح و (١٢) روبية عن كل مروحة.

٦ـ إطفاء الحرائق:

أنيطت مهمة إطفاء الحرائق ببلدية بغداد في العهد العثماني، ففي حالة اندلاع حريق، يقوم عمال البلدية بالاتصال بأقرب نقطة للشرطة للمشاركة في عمليات الإطفاء. وظلت بلديات بغداد تفتقر إلى الآلات الحديثة للإطفاء حتى نهاية العهد العثماني، فإذا ما نشبت نار في محل أو سوق أو دار عمد الناس إلى هدم مصدر النار أو هدم ما حولها لمنع النار من الانتشار.

استعانت بلدية بغداد بعد تأسيسها عام ١٩١٧ بفرقة إطفاء الجيش البريطاني، ثم سرعان ما اتخذت لها مكاناً في منطقة السراي قرب ساعة القشلة ليكون مكاناً لدائرة الإطفاء وجهزت ببعض الصفائح وقرب الماء والبغال لإطفاء الحرائق وكان الماء يؤخذ من (١٩) فوهة نصبتها قوات الاحتلال في بغداد.

وفي أواخر عام ١٩١٧، تم جلب أول سيارة للإطفاء من نوع (دنيس)، كانت لها القابلية على ان تقذف المياه على علو (٣٠)م، وتم تعيين الضابط البريطاني فيشر (Fiesher) مديراً للإطفائية يساعده اثنان من العراقيين، وسائق ومشغل آلة إطفاء حتى صار عددهم سبعة مع المدير، وفي حالة الخطر يوضع تحت تصرفهم (٣٠) جندياً لمساعدتهم في إطفاء الحرائق.

ويبدو أن هذه السيارة لم تكف لإخماد حرائق بغداد، فعمدت بلدية بغداد إلى جلب خمس آلات إطفاء الحرائق من حكومة الهند البريطانية عام ١٩١٨، ثلاث من هذه الآلات تجرها الخيول وتدفع الماء إلى علو (٧٠) قدماً، والأخريات عبارة عن محركين قويين يسيران من ذاتهما ويدفعان الماء إلى علو (٨٠) قدما.

ومنذ عام ١٩٢٠ توسعت الفرقة الإطفائية،



وأضيفت إلى مناطق بغداد ثلاث عشرة فوهة ماء جديدة بأماكن مهمة ليتم استخدامها في إطفاء الحرائق، وصارت سيارات رش حديثة ترافق الفرقة الإطفائية، الأمر الذي جعل بغداد تملك مصلحة إطفاء عصرية عام ١٩٢١ باعتراف أحد المراقبين البريطانيين.

ومن الجدير بالإشارة هنا إن لدائرة الإطفاء دائرتين احداهما مدنية وأخرى عسكرية تابعة للجيش البريطاني، وكانت احداهما تساعد الأخرى في حالة نشوب حريق كبير.

ويظهر أن كثرة الحرائق في بغداد، لم تكن بسبب الجهل والإهمال وحسب، وإنما أيضاً تزداد مع اشتداد الحرارة في الصيف. فضلاً عن ذلك كانت الإطفائية تجد صعوبة في الوصول إلى مكان الحريق بسبب ضيق أحياء بغداد.

وسرعان ما تشعبت أعمال دائرة الإطفاء، فلم تعد تطفئ الحرائق فقط، بل تقوم أيضاً بإجراء الكشف عن الأبنية ومدى سلامتها من أخطار الحريق، وإرشاد سكان البنايات والدور إلى كيفية استعمال أدوات الحريق، ومساعدة المواطنين في حالة سقوط الدور أو المباني الأخرى والاشراف على خزن المواد القابلة للاشتعال بالعاصمة.

أسهمت هذه العوامل بشكل أو بآخر إلى قيام بلدية بغداد عام ١٩٢٢، بإنشاء بناية جديدة واسعة لفرقة الإطفاء بجوار دائرة البلدية في السراي، مع إضافة (١٤) مستخدما جديدا إليها.

٧ـ نظام الحراسة:

كانت بلدية بغداد تقوم بحراسة اكبر سوقين تجاريين في بغداد منذ عام ١٩١٨، وهما سوقا السراي والشورجة، ومن ثم وضعت حراسة هذين السوقين عن طريق الالتزام وبالمزايدة العلنية عام ١٩١٩.

وارتأت وزارة الداخلية عام ١٩٢٣ تعميم هذه التجربة على كل محلات المواطنين لحراستها ليلاً بعد ظهور بعض الشكاوى. فأوعزت وزارة الداخلية إلى بلدية بغداد في ٢٠ كانون الثاني ١٩٢٠ بتشكيل لجنة لمسك الحراسة بالالتزام لمناطق بغداد الأخرى. إلا أن عدم وجود تعهد، دفع بلدية بغداد إلى تعيين موظفين وحراس برواتب تستوفيها البلدية من الأهالي وهي بين ربع إلى نصف روبية عن كل محل، حسب سعته وأهميته، وتتكلف بلدية بغداد بجميع أجور الحراسة المذكورة، غير رسوم البلدية، لقاء تجهيزات الحراس، وحددت اللجنة مسؤوليتهم في المحافظة على الأموال والممتلكات داخل المدن من السرقة ليلاً، ومساعدة مأموري الشرطة بالمحافظة على الأمن ليلاً، وهم مسؤولون أمام دائرة الشرطة وبلدية بغداد، وللأخيرة عملية تنظيمهم، ويراقب مأمور الشرطة الحرس ليلاً، ويرفع أسماء المقصرين منهم للبلدية، وعليهم تسليم مرتكبي الجرائم للشرطة. أما رئيس الحرس فيكون من ضباط الجيش أو موظفي الشرطة ويعين من مدير الشرطة العامة ومصادقة وزارة



الداخلية، هذا ويحمل الحراس شارة من بلدية بغداد.

٨ـ الطرق والمتنزهات:

لم تكن في بغداد طرق عريضة، وإنما كانت عبارة عن أزقة ضيقة ومعوجة، إذ يتراوح عرضها بين ثلاثة أذرع إلى ذراع ونصف وقلما نجد طريقاً عرضه خمسة أو ستة أمتار، كما تكثر فيها الأوحال خاصة في فصل الشتاء، وبدرجة تمنع العابر من المرور.

وبما إن عملية فتح وتعبيد الشوارع تحتاج إلى أموال لا تستطيع ميزانية البلديات تغطيتها دون دعم الدولة لذا نجد أن جميع الولاة لم يعيروا هذا الجانب اهتمامهم سوى الوالي حسين باشا، الذي قام بفتح شارع المستنصر وعبده وكساه بالقار، وأمر بتنفيذ استقامة شارع النهر قبل تعبيده.

وعند قيام الحرب العالمية الأولى، ولأجل تسهيل حركة الجيش أمر الوالي خليل باشا بفتح جادة خليل باشا ثم سمي بعد الاحتلال بـ (الشارع الجديد) ثم (الرشيد حالياً) وقد تم إنجازه في ٢٣ تموز ١٩١٦، وكان بعرض ١٦م، ولاحظ الوالي الحاجة إلى إحداث ساحات فأسس ثلاث ساحات.

الأولى: ساحة الميدان

والثانية: محل اصطبل الجندرمة الكائن أمام جامع السراي

والثالثة: وهي الصغرى (ساحة جامع مرجان)

وكان الشارع الجديد غير معبد، مما كان المرور فيه صيفاً يثير الغبار، وفي الشتاء حيث تهطل الأمطار يصبح السير في شوارع بغداد أمراً متعذراً، وإذا أراد شخص عبور الشارع في الشتاء وجب عليه أن يركب على ظهور الحمالين لتأمين نقله.

وابتداءً من عام ١٩١٨، أخذت بلدية بغداد بتعديل الشوارع الرئيسية في العاصمة بمساعدة الآليات العسكرية البريطانية، ووضعت رش الطرق في العام نفسه بطريقة الالتزام.

وبعد سلسلة من شكاوى الناس ودعوتهم إلى تبليط الطريق وردم المستنقعات قامت بلدية بغداد عام ١٩٢٢ بتبليط الشارع الجديد، ومن ثم تبليط الشارع الذي يربط الباب الشرقي بكرادة مريم.

أما عن الحدائق والمتنزهات، فقد أسست بلدية بغداد حديقة مود في الصالحية عام ١٩١٨، وزرعت فيها أنواعا من الأشجار والورود. اما ساحة الميدان فقد تمت زراعتها عام ١٩٢٢، وأحيطت بسور حديدي دائري منعاً للعبث فيها.

٩ـ النقل:

لم يكن في بغداد خلال العهد العثماني سوى خط الترامواي بين بغداد والكاظمية، وهو عبارة عن عربة تسير على سكة تجرها الخيول، ويرجع تأسيس هذا الخط إلى عهد الوالي مدحت باشا عام ١٨٧٠.

وبمجيء البريطانيين إلى العراق بدأت تدخل أنواع السيارات، وبسبب حاجتها إلى سوق للسيارات، أعلنت بلدية بغداد عن حاجتها إلى سوق للسيارات تقوم بتدريبهم وعند اجتيازهم دورة



التدريب يعطي راتباً شهرياً قدره (٤٥ ـــ ٥٠) روبية.

ثم قامت بلدية بغداد بتنظيم سير خط باصات نقل عام في الشارع الجديد (الرشيد) من باب المعظم إلى الباب الشرقي بواسطة مركبات كبيرة نوع (أمينوس) لنقل الناس على أربعة مراحل ولكل مرحلة (آنة واحدة) وأدت هذه السيارات إلى إقبال الناس عليها لسرعتها فاستخدمت على خط بغداد الكاظمية بدل الترامواي بعد أن تم تعديل الطريق الذي يربط بين بغداد والكاظمية في جانب الكرخ، لكي تستخدمه السيارات.

واضطرت بلدية بغداد إزاء شكاوى بعض الناس من ارتفاع أسعار النقل وعدم استقرارها إلى إصدار تسعيرة جديدة لأجور النقل في السيارات والعربات تلزم أصحابها الالتزام بها.

أما النقل النهري، فإضافة إلى القفف، كانت هنالك (البلام) والزوارق البخارية، ولأجل السيطرة على النقل النهري، فقد أجبرت بلدية بغداد أصحاب المراكب على تسجيلها في مراكز الشرطة في جانب الكرخ مع تحديد أسعار الركوب فيها، وحذرت من قيام صاحب أي قارب بالعمل دون تسجيله، ووضعت أرقاما خاصة لهذه.

وبعد إنشاء جسر مود (الأحرار) وجسر بغداد الشمالي (الشهداء) فرضت بلدية بغداد رسوم عبور على هذين الجسرين وعن طريق الالتزام.

١٠ـ الرعاية الاجتماعية:

أدت ظروف الحرب العالمية الأولى الى زيادة معاناة العراقيين من ارتفاع أسعار المواد الاستهلاكية والغذائية، ولأجل رفع المعاناة عن كاهل المواطنين، مع توفير الأرضية الجيدة للدعاية البريطانية، أقدمت بلدية بغداد على فتح (٣٤) فرناً في مناطق مختلفة من بغداد لبيع الخبز للأهالي بثمن رخيص، وقامت البلدية بتجهيز هذه المخابز بمادة الطحين، الأمر الذي أدى إلى هبوط أسعار الحبوب، إذ انخفض سعر الحنطة من (٧٠) روبية للوزنة الواحدة (١٠٠كغم) إلى (٤٥) روبية، والطحين من (٧٥) روبية إلى (٤٧) روبية وهكذا بالنسبة إلى الشعير وحتى الرز.

فضلاً عن ذلك حددت بلدية بغداد أسعار المواد الاستهلاكية والغذائية، وتحت اشراف الحاكم العسكري العام، الذي فرض الجزاء النقدي على المخالفين والذي وصل بعض الأحيان إلى ١٠٠ روبية.

وأظهرت بلدية بغداد اهتمامها بالفقراء فعقد المجلس البلدي اجتماعاً برئاسة الحاكم العسكري هوكر والميجر كوردن عام ١٩١٨ من اجل اعانة الفقراء، وحضر الاجتماع ممثلون عن مختلف الطوائف تم بموجبه إنشاء صندوق لدعم الفقراء وتأسيس معمل للخياطة يعمل فيه بعض المحتاجين.

وتولت البلدية تأسيس جمعيات خيرية لدعم الفقراء واستلام التبرعات لهم، وكانت تقوم بمهمة تكفين الفقراء، وتم عام ١٩٢٢ تخصيص مبالغ اضافية نقدية لدعم الفقراء في صندوق البلدية. إلا أن بلدية بغداد لم تتساهل مع باعة الأرصفة، فكانت تقوم بحملات عقابية ضدهم، فكثرت الشكاوي حولها، واغلب هؤلاء كانوا من الكادحين والمحتاجين.

ومما يؤخذ على البلدية في هذه الفترة إهمالها

أزمة السكن في بغداد والتي كثرت الشكاوي حولها، إذ أن أغلب بيوت بغداد كانت قـديمة ومكتظة بالسـكان وآيلة للسقوط حتى سقـط العديد منها، ولكنها أقـدمت فقط على تسعير إيجارات الدور دون بناء أو في الأقـل التشجيع على بناء وحدات سكنية جديدة.

ومن ناحية أخرى اهتمت بـلدية بـغداد بإحـصاء نفوس العراق عام ١٩٢٢، حيث ساهم كوادرها في هذا الإحصاء وتنظيمه وصارت دائرة النفوس تابـعة لها، حيث خصصت كادراً إدارياً لها. واتجهت بلدية بغداد إلى العناية بالعمال وأصحـاب الصنائع المختلفة، وقـامت بتنظيم أصناف العمالة، وكانت هذه الخطوة الأولى نحو تأسيس نقابـات العمال، ووضعت لهم أجور عمل عام ١٩٢٢ وهي الحد الأعلى.

ولا بد أخيراً من القول ان بـغداد كانت من الولايات المهملة في العهد العثماني، اما البريطانيون فيعود لهم الريادة في إدخال وسائل التطور الحديثة التي جلبـوها معهم خدمة لوجودهم أولا، ثم انعكس بـعد ذلك على أهالي بـغداد في السـنوات اللاحقـة، فشـهد عهدهم استخدام الكهرباء لأول مرة في بغداد، والمياه المعقمة، وتعميم التلقـيح ضد الأمراض وتحسـين خدمات التنظيف، والتوسع في خدمات إطفاء الحرائق وتحسن الرعاية الاجتماعية. إلا أن هنالك جوانب ظلت تعانـي من التخلف، فقد استمر انتشار الأوبئة والأمراض، مع وجود أزمة السكن، وطفح المجاري، لذلك يمكن القول ان أداءهم لم يكن بالمستوى المطلوب الذي وعدت بـه تصريحات مسؤوليهم.

الخاتمة

سلطت هذه الدراسة الضوء على واقع بلدية بـغداد في ظل الاحتلال البريطاني، وتأسيس الدولة العراقـية حتى عام ١٩٢٣. فظهر من خلالها ان تأسيس بـلدية بغداد من قبل الاحتلال البريطاني، كان من اجل بسـط سيطرته على بغداد، من خلال الدعاية للمجالس البلدية

ت	اسم رئيس البلدية	السنة
١	العميد س. ج فوكر	١٩١٧
٢	الميجر ج. كوردن	١٩١٨
٣	عبد المجيد الشاوي	١٩١٩
٤	توفيق بك الخالدي	١٩٢١
٤	فؤاد الدفتري	١٩٢٢

وتقديم بعض الخدمات التي من خلالها تمت السـيطرة على معظم أحياء المدينة، وربـطت مختاري محـلات بغداد بـها من اجل تحقـيق أهدافها، وعلى الرغم من انتقاد البريطانيين لسياسة العثمانيين الإدارية، إلا إنها لم تكن بالمستوى المطلوب الذي وعدت به تصريحات مسؤوليهم، فكانت ضرباً من ضروب الدعاية، وبقـي الواقع المتخلف من كل النواحي واضحاً. والأمر الجدير بالملاحظة إن المهام البلدية أنيطت بضباط عسـكريين ليست لديهم خبرة بالإدارة المدنية، فتم تحويل البـلدية إلى مؤسسة ذات طابع عسـكري، اتسـمت بالشـدة والصرامة، سـواء بـجمع الضرائب التي عانى منها سكان بغداد، أو بالسيطرة العرفية على بغداد، كما كانت المجالس البلدية شكلية أكثر من كونها تقدم الخدمات. فبقيت بغداد تعاني من قـلة الخدمات وكثرة الأوبـئة والأمراض وأزمة السـكن، وطفح المياه. ويمكن

اعتبار عام ١٩٢٢ السنة التي بدأ فيها واضحاً تحسن وتطور الهيكلية الإدارية والخدمية للبلدية خاصة عقب قيام الحكم الوطني (٢٣/٨/ ١٩٢١ ـ ١٤/ ٧/ ١٩٥٨).

ولا بد هنا من القول أن بغداد كانت من الولايات المهملة في العهد العثماني، أما البريطانيون فيعود لهم الريادة في إدخال وسائل التطور الحديثة التي جلبوها معهم خدمة لوجودهم أولاً، ثم انعكس بعد ذلك على أهالي بغداد في السنوات اللاحقة، فشهد عهدهم استخدام الكهرباء لأول مرة في بغداد، والمياه المعقمة، وتعميم التلقيح ضد الإمراض وتحسين خدمات التنظيف، والتوسع في خدمات إطفاء الحرائق وتحسن الرعاية الاجتماعية.

الهوامش

١ـ للتفاصيل ينظر د. صالح احمد العلي، بغداد مدينة السلام ـ دراسات في تاريخ بغداد وخططها، بغداد، ١٩٨٥.

٢ـ للتفاصيل ينظر: حسين الرحال وعبد المجيد كمونة، الإدارة المركزية والإدارة المحلية في العراق، بغداد، ١٩٥٣.

٣ـ للتفاصيل ينظر: عبد العظيم عباس نصار، بلديات العراق في العهد العثماني ١٥٣٤م ـ ١٩١٨م، اطروحة دكتوراه غير منشورة، معهد التاريخ العربي، بغداد، ٢٠٠٥.

٤ـ للتفاصيل عن مختاري محلات بغداد راجع، د.ك.ر، الداخلية، ملفة رقم ١٠٥٦/ ٢٠١ العشائر العراقية لعام ١٩١٤ ـ ١٩٢٠، وراجع أيضا د.ك.ر، وثائق الاحتلال البريطاني، ٢٩٠/ ٢، ميزانية البلدية ١٩١٩ ـ ١٩٢٠، و ٢١.

٥ـ للتفاصيل ينظر: سؤدد كاظم مهدي، أرنولد ولسن ودوره في السياسة العراقية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٥.

٦ـ للتفاصيل ـ ينظر محمد صالح ربيع العجيلي، الخدمات الصحية لمدينة بغداد، دراسة في جغرافية المدن، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، حزيران ١٩٨٩.

٧ـ للتفاصيل ينظر: عباس العزاوي، تاريخ الضرائب العراقية، بغداد، ١٩٧٣.

٨ـ للتفاصيل ينظر: اياد طارق خضير الدليمي، مدينة بغداد في ظل الاحتلال البريطاني ١٩١٧ ـ ١٩٢١ رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية (ابن رشد) جامعة بغداد، ٢٠٠٢.

٩ـ للتفاصيل ينظر: جريدة العرب، بغداد، العدد (١٢٦)، ٢٦ كانون الاول ١٩١٧.

١٠ـ للتفاصيل ينظر: جريدة العرب، الأعداد (٢)، ٢ كانون الثاني ١٩١٨، (٥٢)، ٢ آب ١٩١٨؛ (١٦٠)، ٩ كانون الأول ١٩١٨.

١١ـ للتفاصيل ينظر: عدنان هرير جودة الشجيري، النظام الإداري في العراق ١٩٢٠ ـ ١٩٣٩، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠٠٥.

١٢ـ للتفاصيل ينظر: د.ك.و، وثائق الاحتلال البريطاني، ٢٩٠/ ٢، و ٢٤ص ٦٠ ـ ٦١ ـ ٦٢، قانون رسوم البلدية ١٩١٩.

١٣ـ للتفاصيل ينظر: فخري الزبيدي، بغداد من سنة ١٩٠٠ ـ ١٩٣٤، ط١، بغداد، ١٩٩٠.

١٤ـ للتفاصيل ينظر: داود سلمان علي، الأوضاع الصحية في بغداد اثناء الفترة المظلمة من تاريخها من الاحتلال العثماني إلى الاحتلال البريطاني، ندوة أبحاث بغداد، مركز احياء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، ١٩٩٠.

١٥ـ للتفاصيل ينظر: هاشم الوتري ومعمر خالد الشابندر، تاريخ الطب في العراق مع نشوء وتقدم الكلية الطبية الملكية البريطانية، بغداد، ١٩٣٩، جريدة العرب، العدد (٨٠)، ٤ نيسان ١٩١٨.

١٦ـ حيدر حميد رشيد، الأوضاع الصحية في العراق ١٩٣٢ ـ ١٩٤٥، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية الأولى، جامعة بغداد، ٢٠٠٠، ص ٣٢.



رحلات الأطباء إلى بغداد ومنها ..

إبان الحضارة العربية الإسلامية

الدكتور محمود الحاج قاسم محمد
طبيب أطفال - الموصل / العراق

المقدمة:

جاء في لسان العرب المحيط في معنى الرحلة بكسر الراء اسم للارتحال ، وهي تعني المسير والانتقال فيقال : دنَتْ رحلتنا ، ورحل فلان ، وارتحل وترحل والرُحلة بضم الراء الوجه الذي تأخذ فيه وتريده ، فيقول أنتم رحلتي أي ارتحل إليهم[1] .

والرحلة اصطلاحا : الانتقال من مكان لآخر لتحقيق غاية معينة أو هدف ، وقد تنوعت بتنوع أسبابها وحوافزها، فمنها ما قامت لتحقيق الأرباح فتسمى بالرحلات التجارية ، وأخرى قامت لأسباب دينية فسميت بالرحلات الدينية ، وأخرى رحلات لتحقيق أهداف سياسية فسميت بالرحلات السياسية ، وأخرى قامت لتحقيق غايات علمية فسميت بالرحلات العلمية[2].

وقد ربطت الرحلات على اختلاف أهدافها وأسبابها العالم الإسلامي بروابط متينة من الوحدة الثقافية ، وحفظت للأمة على مدى قرون التواصل الحضاري بين أقاليمه المختلفة شرقا وغربا[3]. بعد هذه



المقدمة ندخل في صلب الموضوع الذي قسمناه على محورين رئيسين :

المحور الأول :الأطباء الراحلون إلى بغداد من بقية الامصار.

المحور الثاني: الأطباء الراحلون من بغداد إلى بقية الامصار

المحور الأول : الأطباء الراحلون الى بغداد من بقية الامصار

تعد بغداد بحق رائعة من روائع الفكر الإسلامي



أصالةً وإبداعا ، وهي أعظم مدن العراق بـناها الخليفة العباسـي الثاني أبـو جعفر المنصور سـنة (١٤٥هـ/٧٦٢م) واتخذهـا عاصمـة الخلافـة وأصبحت حاضرة الحـضارة الإسـلامية. وظهرت في بغداد في القرن الخامس الهجري الحـركة المدرسـية التي كانت لها جذورها وخلفياتها، بدءًا من اهتمام الدين الإسلامي بـالعلم والتعليم وعناية الخلفاء العباسـيين بشؤون العلوم ورعاية العلماء وبأثر المساجد في نشر العلوم الدينية واللغوية وبظهور حـركة الترجمة التي كان لها الأثر في اطلاع طلاب العلم على نتاجات الأمـم المختلفة وانتشـار المجالس ودور الحـكمة في بغداد[١]. وبيت الحـكمة كان أول مركز للبحـث العلمي وأول جامعة إسـلامية يدرس بـها الطب فاجتمع فيها العلماء والباحثون الذين يمثلون ثقافات مختلفة الاتجاه تشمل علوم الطب والفلسفة والحكمة وغيرها..

وبذلك أصبحت بغداد مركزا ثقـافيا ، محـط أنظار العلماء والأطباء تستقطبهم ويشدون الرحـال إليها من مختلف البـلاد ويؤكد على أهميتها العديد من العلمـاء منهم ابن حزم الأندلسي ، إذ يقول ' بغداد حاضرة الدنيا ومعدن كل فضيلة ، والمحبة التي سبق أهلها إلى حمل ألوية المعارف ، والتدقيق في تصريف العلوم ، ودقـة الأخلاق ، والنباهة والذكاء ، وحـدة الأفكـار ونفـاذ الخواطر "[٢]. وكان الراحلون إلى بغداد ثلاثة أصناف :

الصنف الأول : أطباء قدموا إلى بغداد للتطبيب والتدريس والترجمة :

١ - **جورجيوس بن جبرائيل** (توفي سنة ١٥٢ هـ / ٧٦٩ م) :أبو بختيشوع جورجيوس بـن جبـرائيل ابـن بختيشوع*لا نعرف بـالتحديد سـنة ومكـان مولـده.((وهو مؤسس أسرة بختيشوع))[٣] .

أسـرته[٤]: إن أصل عـائلة جورجيوس مـن النساطرة السريان الذين ظهروا في جنديسابـور في مطلع الخلافة العباسية. كان لهذه الاسرة فضل لا ينكر على الطب العربي فقد استطاعوا بمهارتهم كسب ثقة الخلفاء والقيام بالتدريس والتطبيب أكثر من قـرنين من الزمان ويحتمل أن يكون أصلهم البعيد من إحـدى مدن سوريا أو شمال ما بـين النهرين وأول من عُرف من هذه الأسرة هو جورجيوس.

كان جورجيوس بـن جبـرائيل أشـهر أطبـاء بيمارستان جنديسابور خبرة بـالطب على الطريقـة اليونانية . وكان أول قدومه إلى بغداد بأمر من الخليفة المنصور. فقـد اشـتكى المنصور سـنة ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م من فسـاد معدته وانقـطاع شـهوته ولم تفد معالجة الأطباء في بغداد . فأمر الربـيع بـأن يجمع الأطباء لمشاورتهم ، وسألهم عن أمهر الأطباء فقالوا ليس في وقتنا هذا أحد يشبه جورجيوس رئيس أطباء جنديسابـور ، فإنه ماهر في الطب ، وله مصنفات جليلة . وكان جورجيوس يومئذ طاعنا في السـن فاعتذر عن الاستجابـة لهذا التكليف ، فأخذوه عنوة وأناب عنه ابنه بختيشـوع في إدارة البيمارسـتان ، واصطحب معه تلميذه عيسى بن شـهلاثا وإبـراهيم وترك تلميذه الآخر سـرجيوس مع ولده للعمل في البيمارستان .



ولمـا صار فـي حضرة الخليفة بهيبتـه ووقـاره وحسـن تحـدثه، أعجـب بـه الخليفـة ووثـق بطبـه، واعتمد على أدويته دون غيرها من أدوية الأطباء الآخرين حتى شـفي ، ففرح المنصور وأكرمه وأجزل له عطاءه وجعله طبيبه الخاص .

ولمـا كـانت سـنة ١٥٢هـ/٧٦٩ م مـرض جورجيوس مرضا شديدا ، استأذن من الخليفة الرجوع إلى أهله فأذن لـه وأرسـل معه خادمـا ومالا وفيرا وأوصى الخادم إن مات فـاحمله إلى منزله ليدفن هناك كما آثر ، فوصل جنديسابور حيا ثم مات هناك ودفن بين أهله[٩] سنة ١٥٢ هـ / ٧٦٩م .

مؤلفاته: يعد دخول جورجيوس بغداد الشرارة التي أوقدت نهضة الطب عند العرب . وأكثر الاحتمال أن هذا الطبـيب هـو الذي لفـت نظر الخليفـة المنصور إلى الاهتمام بموضوع الطب وترجمة كتبـه إلى العربـية ليقرأها مـن يريـد تعلـم الصنعة ولجورجيوس مـن المؤلفات الكنـاش : وهو أول الكتب الطبـية التي ترجمت في بغداد إلى العربية ، ترجمه حنين بن إسحق العبادي ، ثم شرحه تلميذه أبـو عيسـى صهاربـخت. والكتاب من مصادر الرازي الرئيسة في كتاب الحاوي . كتاب الأخـلاط : وقد أخذ عنه الرازي أيضا .

٢. بختيشوع بـن جـورجيوس(توفي١٨٢هـ/٧٩٨ م)

أبو جبرائيل بختيشوع بن جورجيوس كان مثل أبيه جورجيوس فاضلاً بصناعة الطب ويجيد ممارسـتها . تدرب على أبيه في بيمارستان جنديسابور ونـاب عنه في هذا البيمارستان عندما سافر إلى بـغداد لمعالجة الخليفة المنصور . ولما تـوفي جـورجيوس بـعد رجوعـه إلى جنديسابور خلفه بختيشـوع في إدارة البيمارستان[١٠].

وبقي عـاملاً فـي بيمارستان جنديسابـور إلـى أيـام المهدي (١٦٩ –١٧٠ هـ / ٧٨٥ – ٧٨٦م) ومرض ولده الهادي ابن المهدي فاستدعي بختيشوع من جنديسابور وداواه .

وعز على أم المهدي الخيزران أنه اسـتدعاه ولم يستطب أبا قريش طبيبها ، وأخذت هي وأبو قـريش في مناكدة ابن بختيشوع ومضاربـته ، وعلم المهدي بفعلتها فأعاده مكرما إلى جنديسابور[١١] . فأقـام على حالته في تدبير البيمارستان هناك حتى سنة ١٧١ هـ / ٧٨٧ م ، اذ مرض الرشيد من صداع لحقه فأرسـل في طلبه ، ولما دخل عليه أكرمه وجعله طبيبه الخاص وأحد ندمائه المفضلين ورئيسـا على الأطبـاء فـي بغداد [١٢]. وتوفي بختيشوع بـن جورجيوس سـنة ١٨٢هـ /٧٩٨ م . ولبختيشوع بـن جورجيوس من الكتب كناش صغير بـعنوان (التذكرة في الطب) فيه معلومات في بعض الأمراض ، وقد أشـار الرازي في كتابه الحاوي في مواضع مختلفة الى هذا الكتاب وأخذ عنه[١٣] وخلّف بختيشوع ولداً واحداً هو جبرائيل .

٣ـ جبرائيل بـن بختيشـوع بـن جورجيوس بـن جبرائيل (ت ٢١٣هـ/٨٢٨م) :اشـتغل أولاً في بيمارسـتان جنديسابور . ورشحه أبـوه وهو في بـغداد أن يكون طبيب جعفر البرمكي . ثم ما لبث أن التحق بحاشـية



الخليفة هارون الرشيد وصار أكبر طبيب يعتمد عليه الخليفة[١٨] .

وكان طبيباً نبيلاً حاذقاً كأبيه وجده ولما ملك الخليفة الأمين التحق به جبرائيل فرحب به ووهب له أموالاً . وحينما ولي المأمون الخلافة حبسه أولاً ثم جعله طبيبه الخاص وله من الكتب الكناش ، مختصر في الطب ، ورسالة في المطعم والمشرب[١٩].

٤ – **بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع** (بقي حتى خلافة المهتدي المتوفى ٢٥٦هـ/ ٨٦٩ م) : كان مثل أبيه في الفهم والطب وكان عظيم المنزلة وكثير المال حتى أنه لم يبلغه أحد من سائر الأطباء الذين كانوا في عصره، وكان يضاهي المتوكل في اللباس والفرش ونقل حنين بن اسحق لبختيشوع بن جبرائيل كتبا كثيرة من كتب جالينوس إلى اللغة السريانية والعربية[٢٠]. وفي سنة(٢٤٤هـ/٨٥٨م) أمر المتوكل بنفي بختيشوع إلى البحرين وقبض ماله[٢١].

٥ – **يوحنا بن ماسويه**(ت ٢٤٣هـ/ ٨٥٧م): كان طبيباً فاضلاً وعالما مصنفا، خدم في صناعة الطب هارون الرشيد والمأمون والمعتصم والمتوكل[٢٢]. وكان الخليفة المعتصم يعتمد على مشورته، وكان يوحنا رئيس أعظم مدرسة ازدحم الطلاب على أبوابها في دار السلام. وكان له مجالس علم .

لقد اشتهر ابن ما سويه، فضلاً عن ترجمته لبعض الكتب بتأليفه لعدد ضخم من المقالات . وقد أحصى ابن أبي اصيبعة تآليف هذا العالم الطبيب فبلغ عددها بحدود ٤٠ مؤلفاً لم يبق إلا الشيء القليل، ومنها:- كتاب "نوادر الطب"، وكتاب "الكامل في الطب"، وكتاب "الحميّات"، ترجم إلى اللاتينية والعبرانية، وكتاب "جواهر الطب"، وكتاب "ماء الشعير"، وكتاب "الأدوية المسهلة".

وقد عُرفَ يوحنا بن ماسويه عند اللاتين في القرون الوسطى باسم (Mesaa) ونشرت كتبه المهمة بعنوان "Canones universlesi"في البندقية سنة ١٤٧١م وأهم كتبه المترجمة: ١- الفصول ،٢- السموم، هذان الكتابان ترجما للاتينية. ٣ – الكناش قام بترجمته جيرارد الكريموني إلى اللاتينية، وطبع في البندقية سنة ١٤٩٧م. ٤ – نوادر الطب .

٦ – **أبو زيد حنين بن إسحاق العبادي** : ولد بالحيرة في العراق (سنة ١٩٤ هـ = ٨٠٩ م) وتوفي في سامراء(سنة ٢٦٠ هـ = ٨٧٣م) لأب مسيحي يشتغل بالصيدلة ، والعباد قبائل من بطون العرب بالحيرة . تتلمذ على يوحنا بن ماسويه فلما تبينت له قدرته على التفقه باللغات عكف عليها وأتقن السريانية ثم رحل إلى اليونان وحذق لغتها ، ثم ذهب إلى البصرة وتلقى اللغة العربية من علمائها . عهد إليه المأمون رئاسة بيت الحكمة وقام حنين بترجمة الكتب الطبية اليونانية ترجمة متقنة دقيقة وكان يدفع له ذهبا بقدر ما تزن مترجماته . بلغ من المجد العلمي غايته وأصبح المرجع الأكبر للمترجمين جميعا ورئيسا لأطباء بغداد . ويقال إنه مارس الطب والعلاج وله مؤلفات تربو على المائة منها :كتاب المسائل



وهو المدخل لعلم الطب ، وكتاب العين على طريقة السؤال والجواب ، وكتاب في تركيب العين ، وكتاب الأدوية المفردة وأشهر كتبه العشرة مقالات في العين

٧ - أبو بكر محمد بن زكريا الرازي[١٩] Rhazes (٢٥١-٣١٤هـ/٨٦٥-٩٢٧م) :

ولد بالري قرب طهران سنة(٢٥١ هـ = ٨٦٥م) وعاش في بغداد ودفن في الري على الأرجح سنة (٣١٤ أو ٣١٧ هـ = ٩٢٧ أو ٩٢٩ م)[٢٠] واشتغل في أول عمره بالصيرفة وقيل بالصياغة وهوى الغناء ثم أعرض عنه وأقبل على دراسة العلوم اللغوية والطبيعية والفلسفة وربما كان أبو زيد البلخي أحد أساتذته . أما صنعة الطب فقد تعلمها بعد أن تجاوز الاربعين من عمره[٢١] ولكنه اهتم بها كثيرا ومنحها جهوده ووقته فتعرف على حقائقها واسرارها اذ قرأ ما وصل الى يده من كتب ابقراط و جالينوس فتمهر فيها كما تفرد في أسلوب معالجة المرضى . حتى نعته المؤرخون بأنه أعظم طبيب إكلينيكي(سريري) أنجبته الحضارة العربية الإسلامية . كما اشتهر بالكيمياء ، واشتغل بالفلسفة الاّ أنه كان طبيبا أكثر منه فيلسوفا . ظل حجة الطب في أوربا حتى القرن السابع عشر الميلادي . وربما كان دخوله بغداد أول مرة بدعوة من الخليفة المكتفي بالله سنة (٢٩٢هـ = ٩٠٥ م) اذ عينه رئيسا للبيمارستان فيها[٢٢].

وصل الرازي إلى مرتبة رفيعة كعالم وممارس لصناعة الطب ، وكان من سعة علمه وتمكنه من صناعة الطب وثقته بنفسه فيها أن انتقد بعض أفكار جالينوس .

ألف نحو ٢٢٤ كتابا ضاع منها الكثير ،أما كتبه الطبية فهي تربو على الخمسين ، وأشهر كتبه الطبية يمكن تقسيمها إلى نوعين من التآليف :

أ-تآليفه في الطب النظري :المرشد أو الفصول ، رسالة في الجدري والحصبة رسالة تدبير الصبيان : تعد هذه الرسالة أول مؤلف في طب الأطفال أخذ شكلاً مستقلاً بذاته لا يوجد منها نسخة باللغة العربية[٢٣]. الكتاب المنصوري . كتاب منافع الأغذية ودفع مضارها .

ب-تآليفه في الطب العملي : الحاوي في الطب : إن مجد الرازي يقوم في الواقع على علمه بالطب السريري (الإكلينيكي) وخدمته فيه ، وما ابتدعه في هذا الكتاب من تدوين المشاهدات والتعليق عليها وهو عمل لم يسبق إليه من قبل . وكتاب من لا يحضره الطبيب : وهو موجز في علم الأدوية والعلاج .

٨ - السموأل بن يحيى بن عباس المغربي[٢٤]:

كان فاضلاً في العلم ، وعالما بصناعة الطب . أصله من بلاد المغرب ، وسكن في بغداد مدة ، كان يهوديا وارتحل إلى الموصل وديار بكر وأسلم فحسن إسلامه . وله كتب كثيرة منها كتاب المفيد الأوسط في الطب صنفه في سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م ببغداد ، وكتاب القوافي في الحساب الهندي ألفه سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م .

٩ - سعد الدولة بن صفي الدولة اليهودي

(المتوفى سنة ٦١٠ هـ/١٢٩١ م):

عاش مدة طويلة من حياته في الموصل ، حظي



بتكريم أرغون الذي قربــه إليه وجعله المســؤول عن طبابــة البــلاط الإلخاني [٢٠] ، وفي ســنة ٦٧٢ هــ / ١٢٨٣ م عزل من نظر البيمارستان العضدي [٢١] .

الصنـف الثانـي : أطبــاء قـدموا إلى بغداد للتعلم والدراسة :

كان لرحلات الأطباء من مختلف الأقــطار العربــية والإسلامية إلى بغداد حوافز عديدة، أهمها حرص كثير منهم على تلقي العلوم ونقل الكتب اعتدادا منهم بــعلوم أهلها ، فقد كان العالم والطبــيب لا يجد له منزلة بــين قــومه ما لم يكن قــد زار بــغداد عن طريق الرحــلة والدراسة والتحصيل في معاهدها المشــرعة الأبــواب أمام القادمين إليها . والواقع يشــهد على أنه قــد جاء جمع كثير من أطباء الدولة الإسلامية ليطلبوا العلم في بغداد فالتقوا مشاهير أطبائها وتتلمذوا عليهم ، ومنهم من استقر في العراق وأصبح يقصده الآخرون ، ومنهم من رحل الى بلاده لينشر ما اكتسبه من علم وخبرة فيها كما أنه كان يصحب الرحلة إلى أداء فريضة الحج نقــلا للأفكار والآثار العلمية لأن العالم والطبــــيب كان أثناء ذلك يعمل لطلب العلم نفسه فيستفيد ويفيد ويحــمل معه كل ما هو جديد . نذكر فيما يلي بعضا منهم :

١ ـ **البلخي : أبوزيد أحمد بن سهل** ، ولد في قرية من قرى بلخ عام ٢٣٥هــ/ ٨٤٩ م ، متكلم أديب ، من حــكماء الإسلام وفصحائه وبلغائه (البيهقــي ، تاريخ حــكماء الإسلام ص ٤٢) . كان فاضلاً في سائر العلوم واتبع في تصانيفه طريقة الفلاسفة . وقد تضاربت الأقوال فيه مع ترجيح تعديل الرجل لا سيما بعد أن إستقــام وعاد عن إعتناق مذهب الأئمة . كان والده معلماً ، أثر فيه ذلك فعمل فيما بــعد معلماً للصبــيان . ومن المفترض أن عمله التدريسي وطلبــه للعلم على الشــيوخ كان في مدينة بلخ . وبعد أن إكتسب شهرة علمية قرر السفر إلى العراق وهو في مقتبــل العمر ليكمل ما بــدأه من مسيرته العلمية في العلوم الشرعية ، ثم أخذت ميوله اتجاها جديدا بعد لقائه الكندي لاســيما ما يتعلق منها بالفلسفة وعلم المنطق والعلوم الكونية ، ثم طوف في البلدان المتاخمة . ولما قضى وطره من العراق وصار في كل فن من العلوم قدوة قصد العود إلى بلده ، ولما وصل بلخ نشر علمه فيها .

صنف البــلخي في علوم شــــتى وقــــد ذكر له المؤرخون ٦٤ كتابا لا نعرف عنها غير أسمائها ، ولم يصل إلينا منه ســوى كتابــين هما صور الأقــاليم ، ومصالح الأبدان والأنفس .

والمقالة الثانية من كتابه مصالح الأبدان والأنفس وهي ((حفظ صحة النفس)) تشــهد أن البــلخي هو الرائد الأول لعلم الصحة النفسية ، فلم يعرف أحد قبله جعل الطب النفسي والصحة النفســية فرعاً من فروع الطب ، وفي الوقت نفسه أعطاه استقلاله وتميزه من الفروع الأخرى . كما أن تحريره لعلم الصحة النفسية من علوم ما وراء الطبيعة ، ووضعه في صف العلوم التطبيقية يعد نقلة تاريخية في مسيرة هذا العلم ، وقد جاء البــلخي بــنظرية متكاملة في تصنيف العوامل المسببــة للاضطراب النفســي ، يتوافق مع تصنيفنا اليوم لمسببات الاضطراب النفســي . وتوفي ســنة



٣٢٢هـ / ٩٣٤م[٢٧] .

٢ـ الفارابي : أبو نصر محمد بن اوزلغ طرخان ولد في مدينة فاراب (٢٥٧ هـ - ٨٧٠ م) وإليها انتسب وفد إلى بغداد في عهد الخليفة المقتدر للتزود بالعلم ثم ارتحل إلى حران ثم إلى دمشق وعاد إلى حلب فاتصل بأميرها سيف الدولة الحمداني وفي سنة ٣٣٩ هـ - ٩٥٠ م صحب الأمير إلى دمشق وتوفي وهو في الثمانين من عمره . وضع الفارابي طائفة جليلة من الكتب والرسائل ضاع أكثرها وكان بعضها في الطب . وأغلبها في المنطق والفلسفة والأخلاق وأشهر كتبه إحصاء العلوم .

٣ ـ احمد بن يونس الجذامي الحراني هو وأخوه عمر : رحلا إلى المشرق سنة ٣٣٠ هـ /٩٤١ م في خلافة عبد الرحمن الناصر ودخلا بغداد ، ودرسا فيها (كتب جالينوس على ثابت بن قرة ، وعلل العين على ابن وصيف) . وعادا إلى الأندلس عام ٣٥١ هـ في دولة المستنصر فألحقهما لخدمته ، ومات عمر ، وبقي احمد من المقربين إلى الخليفة المؤتمنين عنده في مأكله ومشربه وسكن في قصره في مدينة الزهراء . وتولى إقامة خزانة بالقصر للطب لم يكن قط مثلها ورتب لها اثني عشر طبيبا من الصقالبة لصنع الأدوية التي كانت توزع مجانا على من يحتاج إليها من المرضى[٢٨] .

٤ ـ أبو مروان عبد الملك بن محمد بن زهر الإيادي الإشبيلي الأندلسي (توفي سنة ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م) : من جملة الفقهاء المتميزين في علم الحديث بإشبيلية . وهو أول طبيب وأقدم من ذُكر من اسرة (ابن زهر) التي طفحت كتب التراجم بالإشادة بمكانتهم العلمية والطبية والأدبية . رحل إلى المشرق لتلقي العلوم ، فبرع في صناعة الطب واشتهر هناك في ممارسة تلك المهنة حتى ((تولى رئاسة الطب ببغداد ، ثم بمصر ، ثم بالقيروان))[٢٩].

((ثم رجع إلى الأندلس وقصد مدينة دانية . وكان ملكها في ذلك الوقت مجاهد العامري . فلما وصل أبو مروان ابن زهر إليه أكرمه إكراما كثيرا ، وأمره أن يقيم عنده وطار ذكره منها إلى أقطار الأندلس . . . وانتقل من دانية إلى مدينة إشبيلية ولم يزل بها إلى أن توفي وخلف أموالاً جزيلة))[٣٠]. ولم يذكر تاريخ وفاته . وكانت وفاته سنة ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م[٣١] .

٥ ـ أبو الحكم المغربي الأندلسي الحكيم المرسي : رحل إلى العراق واشتهر ذكره في بغداد وكان كثير الهزل والمجون ثم رحل إلى دمشق واستحسن البقاء فيها ، وفتح دكان عطار يبيع به العطر ويطب ، وأقام على ذلك إلى أن أتى أجله[٣٢].

٦ـ محمد بن عمر الجلياني ، أبو الفضل (٥٣١ -٦٠٢هـ / ١١٣٦-١٢٠٥م) : طبيب أديب ، رحالة سائح ، مؤلف شاعر أصله من وادي (آش) قرب غرناطة، وصل في رحلته إلى القاهرة ، ودمشق، ودخل بغداد سنة (٦٠١هـ) ولُقب بـ (حكيم الزمان) وحضر مجلس السلطان (صلاح الدين الأيوبي)[٣٣].

٧ ـ احمد بن محمد بن مفرج النباتي المعروف بابن الرومية ، أبو العباس (٦٣٧ هـ/ ١٢٣٩م) : من أهل إشبيلية ،



كانت له معرفة بالنبات وتمييز العشب فاق في ذلك أهل زمانه . رحل لطلب العلم ومعرفة النبات في منابـتها ، والف في علم الأعشاب كتاب (الرحـلة) الذي كان من أهم مصادر ابن البيطار ، كما الف (شـرح حشـائش دياسقوريدس وأدوية جالينوس) زار بغداد والموصل ودمشق وسمع من علمائها[٣١] .

٨ـ نجم الدين ابـو الفتوح ابـن الصلاح (ت ٥٤٨ هـ / ١١٥٣م) : هو الشـيخ الإمام العالم نجم الدين أبـو الفتوح أحمد بن محمد بـن السـري ، فاضل في العلوم الحكمية ، فصيح اللسان قوي العبـارة ، متميز في علم صناعة الطب ، وكان أصله من همدان ، وقطن بـغداد واستدعاه حسام الدين تمرتاش بـن الغازي بـن أرتق وأكرمه ، وبقي في صحبته مدة . ثم توجه إلى دمشق ، ولم يزل بها إلى أن توفي[٣٢] . له كتاب الفوز الأصغر في الحكمة .

٩ـ **كمال الدين بن يونس**[٣٣]: هو كمال الدين أبو عمران موسى بن يونس بن محـمد بـن منعة العقـيلي . ولد بـالموصل سـنة ٥٥١هـ/١١٥٦م ، وتعلم فيها وفي المدرسة النظامية في بغداد حتى تميز في سـائر العلوم ومنها الطب ، فأصبح علامة زمانه حتى أن ملك الفرنج أرسل له رسولاً مع مسـائل في علم النجوم وغير ذلك فتلقاه وكتب الأجوبة عن تلك المسائل بأسرها .

وكان مدرسا في المدرسة الزينية التي سميت أيضا بالكمالية لطول مكثه فيها ، يقـرئ العلوم بأسـرها من الفلسفة والطب والتعاليم وغير ذلك . له كتب عديدة منها كتاب مفردات ألفاظ القرآن . كتاب في الأصول . كتاب عيون المنطق . كتاب لغز الحـكمة . كتاب الأسـرار السـلطانية في النجوم . توفي في الموصل سـنة ٦٣٩هـ/١٢٤٢م . وخلف أولاداً في مدينة الموصل أتقنوا الفقه وسائر العلوم .

١٠ـ **هبة الله بن علي بن ملكا البلدي**[٣٤]: هو أبـو البركات الملقب بأوحد الزمان ، ولد نحـو ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م ، في بلد (أسـكي موصل الحـالية) قـرب الموصل . ونشأ في بغداد ، كان يهودياً ثم أسلم ، وكان في خدمة المستنجد بالله وحـظي عنده . درس الطب على أبـي سـعيد بـن هبـة الله بـن الحسـين (سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٥م) ، وأحاط ببقـية العلوم حتى صار فيلسوفاً وطبيباً فاضلاً . ولما فشل مرة في معالجة السلطان محمد بـن ملكشـاه إتهمه بسـوء علاجه وسوء تدبيره فحبسـه مدة ، وعمي في أواخر عمره وطرش وبرص وتجذم ، ومع ذلك لـم ينقطع عـن العمل في التدريس والتأليف. وكان يوسف أبو عبد اللطيف البـغدادي والمهذب إبـن النقـاش من تلاميذه النابـهين ، ويكتبـون له ما يملي عليهم في الطب والحكمة . ومن تلاميذه أيضا إبن هبل البغدادي توفي في نحـو ٥٦٠هـ/ ١١٧٢م . ومن مؤلفاته إختصار التشريح (جمعه من كتب جالينوس ، مقـالة في الدواء ، كناش في الطب ، وحواش على قانون إبن سينا أقرباذين ، وكتب أخرى) .

١١ـ **ظافر بن جابر السكري**[٣٥]: هو أبو الحـكم ظافر ابن جابر السـكري ، كان مسـلماً فاضلاً في الصناعة الطبية متقنا للعلوم الحكمية ، متحليا بالفضائل والأدب



محبا للاشتغال والتضلع بـــالعلوم . وكان أن لقـــي أبـــا الفرج إبن الطيب ببغداد واجتمع به واشتغل معه . وكان ظافر بن جابر قد عمر مثل أبيه ، وكان موجوداً في سنة ٤٨٢ هـــ ــ ١٠٨٩م . وهو موصلي وإنما إنتقـل من الموصل إلى مدينة حلب ، وأقام بحلب إلى آخر عمره ، ومن خلفه جماعة مشتغلون في صناعة الطب ومقامهم في حلب .

ولظافر من الكتب ، مقالة في أن الحيوان يموت مع أن الغذاء يخلف عوض ما يتحلل منه . واشــتهر إبــنه موهوب بــن ظافر وحفيده جابر بن موهوب في الطب وأقاما في حلب .

١٢ ـ **موفق الدين بن المطران** (٥٨٧ هـ/ ١١٩١م)[٣٩] :

هو الحكيم العالم موفق الدين أبو نصر أسعد بن أبي الفتح الياس بن جرجيس المطران : كان أمير زمانه في علوم الطب وعملها وأكثرهم تحصيلاً لأصولها وجملها جيد المداواة . وكان مولده ومنشأه بدمشق ، وكان أبوه أيضاً طبيباً متقدماً . سافر إلى بلاد الروم ، ثم عدل بــعد ذلك إلى العراق واجتمع بــأمين الدولة ابــــن التلميذ ، واشتغل عليه بصناعة الطب مدة ، وقرأعليه كثيراً من الكتب الطبية ، وصار موســـوماً بـــالطب . ثم عاد إلى دمشق وبقي طبيباً بها لحين وفاته .واشتغل بالطب على مهذب الدين بن النقاش ، وخدم بــصناعة الطب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بـــن أيوب . وكان نصرانياً وأسلم وحسن إســـلامه ، وزوجه صلاح الدين إحـــدى حظايا داره . ولابــن المطران تصانيف تدل على فضله ونبله في صناعة الطب وفي غيرها من العلوم . وتوفي بدمشق .

١٣ ـ **ركن الدين شافع بن إسماعيل الجبلي الحنبلي**[٤٠] :

نزل بغداد ، سمع الحديث ، وتفقـــه في بـــغداد وأعاد بالمستنصرية ، وكان رئيســـا نبـــيلاً ، فاضلاً عارفا بالفقـــه والأصول والطب مراعياً لقـــوانينه ، ودرّس بالمجاهدية بدمشق توفي ببـــغداد ســـنة ٧٤٠ هـــ / ١٣٣٩م .

١٤ ـ **عبد الله بن قاسم اللخمي الإشبيلي الحريري البغدادي أبو محمد** (٥٩١ – ٦٤٦ هـــ / ١١٩٣ – ١٢٤٨م) :

ولد بجزيرة شقـــر القريبـــة من ساحـــل الأندلس موطن أسلافه . انتقلت اسرته إلى إشبـــيلية وهو في سن عشر سنوات . فيها شـــب ودرس مختلف العلوم قام برحلة إلى المشرق فزار العراق وفارس ثم بـــلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا ، وقضى في بغداد معظم وقت رحلته هذه لذا لقبـــه أهله بالبـــغدادي ولما عاد واستقر في إشبيلية عكف على التدوين وتبـــويب ما جمعه من هذه الصناعة (الكحـــالة) مضيفا إلى ذلك خلاصة تجاربه في كتاب سماه (نهاية الأفكار ونزهة الأبصار) والذي يمكن اعتباره أكمل وأحســـن ما كتب في طب العيون عند العرب والمسلمين[٤١] .

١٥ ـ**اليبرودي** :هو أبو الفرج جورجس بن يوحنا بـــن سهل بن إبـــراهيم[٤٢]: من النصارى اليعاقبـــة ، كان فاضلاً في صناعة الطب عالماً بـــأصولها وفروعها ، كان مولده ومنشـــأه في صدر عمره بيبـــرود ، وهي ضيعة كبيرة قريبـــة من صيدنايا ، وامتهن في بـــداية حياته الفلاحة ، ثم ترك يبرود واستقر بدمشق حـــيث



تعلم صناعة الطب وبعد ذلك توجه إلى بغداد واشتغل على أبي الفرج بن الطيب كاتب الجاثليق إلى أن مهر في صناعة الطب ، ثم عاد إلى دمشق وأقام بها إلى أن توفي بعد سنة أربعمائة ولا نعلم بالتحديد في أي سنة . وللبيرودي من الكتب مقالة في أن الفرخ أبرد من الفروج ، ونقض كلام ابن الموفقي في مسائل ترددت فيما بينهما في النبض .

١٦ـ **أبو الفضل إسماعيل بن أبي الوقار** (كان حياً سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م)[٤٣]: هو الشيخ العالم ، أصله من المعرة وأقام بدمشق ، وسافر إلى بغداد وقرأ على أفاضل الأطباء من أهلها واجتمع بجماعة من العلماء بها وأخذ عنهم . ثم عاد إلى دمشق ، وكان متميزاً بصناعة الطب علمها وعملها وكان في خدمة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي ، ويعتمد عليه في صناعة الطب ، وتوفي الملك العادل نور الدين ، وهو في حلب سنة ٥٥٤ هـ .

١٧ـ **ابن الكتبي**: هناك اختلاف في اسمه الا أن المرجح هو ، إسماعيل بن الياس بن أحمد الجويني البغدادي الشافعي المعروف بابن الكتبي . جاء في معجم الأطباء ((المدني المولد والنشأة ، العالم الفقيه الأصولي الفرضي الطبيب العلامة ، أعاد بالمستنصرية ولازم الطب))[٤٤] . توفي سنة (٧٥٤ أو ٧٥٥ هـ / ١٣٥٣ أو ١٣٥٤ م) . اشتغل في الشام وبغداد فسمي البغدادي .

مؤلفاته : له كتابان ، الأول ما لا يسع الطبيب جهله ، والثاني مجمع المنافع البدنية .

وقد اشتهر ابن الكتبي بكتابه ما لا يسع الطبيب جهله ، اذ أجاد فيه كل الإجادة وله أهمية من عدة نواح ، فقد حدد فيه ابن الكتبي نقاط الضعف في كتاب ابن البيطار من ناحية تناوله لموضوعاته في مفردات الأدوية وقد كان تحديده موفقاً ويدل على تعمق في النظرة العلمية ، كما جاءت مقدمة الجزء الأول لتلقي الضوء على وجهة نظره في علم الأدوية العام ، وعلم الأدوية التطبيقي السريري ، وأخيرا يتوضح من الكتاب نظريته العلمية التجريبية حول الأدوية وابتعاده عن الخرافات .

الصنف الثالث : أطباء قدموا إلى بغداد زائرين : وهم

١ـ **محمد بن عمر الجلياني ، أبو الفضل** (٥٣١ -٦٠٢هـ / ١١٣٦-١٢٠٥م) :

طبيب أديب ، رحالة ، سائح ، مؤلف شاعر أصله من وادي (آش) قرب غرناطة ، وصل في رحلته إلى القاهرة ، ودمشق ، ودخل بغداد سنة (٦٠١هـ) ولُقب بـ (حكيم الزمان) وحضر مجلس السلطان (صلاح الدين الأيوبي)[٤٥].

٢ـ **أحمد بن الحسن بن احمد القضاعي أبو جعفر الأندي**[٤٦] المتوفى سنة ٥٩٩ هـ/ ١٢٠٢ م. وهو رفيق ابن جبير في رحلته ، كان معتنيا بعلم الطب وله فيه تقييد مفيد .

٣ـ **علي بن يقظان السبتي**[٤٧]: طبيب شاعر أديب . أصله من سبتة ، ذكره بعض أهل مصر ، فقال ورد البلاد المصرية سنة ٥٤٤ هـ /١١٤٩ ومضى منها إلى اليمن ، وسافر إلى الشرق وزار العراق ودار



الآفاق ، وله قصيدة في الوزير جمال الدين أبـــي جعفر محمد بن علي بن أبي المنصور الأصفهاني بالموصل .

٤ـ رضي الدين الرحـــبي[١٠]: (٥٣٤ - ٦٣١ هـــ / ١١٣٩ - ١٢٣٣ م) : هو الشـــيخ الحـــكيم رضي الدين أبـــو الحجاج يوسف الرحبي . من الأكابر في صناعة الطب ، كبير النفس عالـــي الهمـــة حســـن السيرة مبجلا عند الملوك شديد الاجتهاد في مداواة المرضى. وكان والده من بلد الرحبة وله أيضاً نظر في صناعة الطب . وكان مولد رضي الدين بجزيرة ابن عمر ، ونشأ بـــها وأقـــام أيضاً في نصيبين وبالرحبة سنين . وســـافر أيضاً إلى بغداد وإلى غيرها . واشتغل بصناعة الطب وتمهر فيها . واجتمع في مصر مع ابن جميع المصري وانتفع بـــه . وكان وصوله مـــع أبـــيه إلى دمشـــق فـــي ســـنة (٥٥٥ هـــ) ، وبقي قـــاطناً دمشـــق ســـنين وملازما للدكان لمعالجة المرضى ونسخ بها كتبا كثيرة واشتغل على مهذب الدين بن النقاش الطبيب ، وتأدت به الحال إلى أن اجتمع بالملك الناصر صلاح الدين يوسف بـــن أيوب فحسن موقعه عنده وأطلق له في كل شهر ثلاثين ديناراً على أن يكون ملازماً للقلعة والبيمارستان .

واشتغل عليه بصناعة الطب خلق كثير ونبـــغ منهم جماعة عديدة ، منهم الشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بن علي قبل ملازمته لابن المطران .

٥ـ أبو الحكم : هو الشيخ الأديب الحكيم أبو الحكم عبيد الله بن المظفر بـــن عبـــد الله البـــاهلي الأندلسي (ت ٥٤٩ هــ/ ١١٥٤م)[١١]: كان فاضلاً في العلوم الحكمية متقناً للصناعة الطبـــية ، وكان يجلس على دكان في جيرون للطب ومسكنه في دار الحجارة باللبادين ، وسافر أبو الحكم إلى بغداد والبصرة وعاد إلى دمشق وأقام بـــها إلى حين وفاته .

المحور الثاني :الأطباء الذين رحلوا من بغداد إلى البلاد الأخرى

بالمقابل لما ذكرنا سابقا لقد رحـــل بـــعض علماء العراق إلى بقية أرجاء الدولة الإسلامية ــ وان كانوا بأعداد اقل ــ لينشـــروا العلم والمعرفة و ليمارســـوا مهنتهم التي بلغوا فيها درجة عالية من الإتقان حيثما حلوا. وبفضلهم دخلت مؤلفات عدة في العلوم الطبية العقلية والنقلية تلك البلاد . واشهر هؤلاء هم :

١ – **إبن بطلان : المختار بـــن الحســـن بـــن عبـــدون** : نصراني ولد في بغداد في العقـــد الرابـــع من القـــرن الرابـــع الهجري ، عاش أول حياته ودرس الطب في بـــغداد ، ومن شيوخه في الطب أبو الحسن ثابت بن إبـــراهيم الحراني ، وأبو الفرج بن الطيب ،ثم إرتحل من بـــغداد إلى حلب ، الفســـطاط ، القســـطنطينية ، أنطاكية[٢٠] . حصلت بينه وبين إبـــن رضوان المصري مراســـلات عجيبة ، ولم يكن أحدهما يؤلف كتاباً ، ولا يبتدع رأياً إلا ويرد الآخر عليه ويسفهه وحصلت بينهما مشـــادة حتى وصل الخصام بينهما إلى الشتم والسباب . ومن مؤلفاته الطبية رسالة دعوة الأطبـــاء ، كتاب تقـــويم الصحة ، المدخل إلى الطب ، وقعة الأطباء ،ورســـائل في الرد على إبـــــن رضوان . تـــوفي ٤٥٠هــ / ١٠٥٨م وقيل فـــي ٤٤٤هــ/١٠٥٢م.

٢ـ اسحق بـــن عمران البـــغدادي (٢٩٤هــ / ٩٠٢م) : طبيب مسلم ، ومؤسس الطب بشـــكل عملي في ديار



تونس الأغلبية وشيخ أطبائها جميعاً . كان في بدايته من أطباء بغداد وسامراء واستقدمه أمراء الأغالبة للقيام بمعالجتهم وللقيام بتعليم علم الطب . وكانت نهايته على يد آخر أمرائهم زيادة الله الثالث .عرفنا من مؤلفاته ما يزيد على الخمسة عشر كتابا، لم يصلنا كاملاً الاّ كتاب المالينخوليا الذي يحوي آراءه وتجاربه في معالجة مرض المالينخوليا[٣١].

٣ـ أمين الدولة بن التلميذ ٤٦٦ – ٥٦٠ هـ / ١٠٧٣ – ١١٦٤م)[٣٢]:

هو موفق الملك أمين الدولة أبو الحسن هبة الله بن أبي العلاء صاعد بن إبراهيم بن التلميذ . كان أوحد زمانه في صناعة الطب سافر في أول أمره إلى بلاد العجم وخدم فيها سنين طويلة وصار ساعور البيمارستان العضدي بعد رجوعه إلى بغداد وبقي كذلك إلى حين وفاته . كان أمين الدولة في خدمة المقتفي بأمر الله العباسي (٥٣٠ – ٥٥٥ هـ – ١١٣٦ – ١١٦٠م)

٤ـ عبد اللطيف البغدادي[٣٣] :هو موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد . المعروف بابن اللباد أصل أسرته من الموصل ، إلاّ أنه ولد ونشأ في بغداد في بيت علم ودين . وكان أبوه وعمه من علماء الأدب والفقه والمنطق ، فدرس عليهما العلوم كما درس الطب على أمين الدولة ابن التلميذ البغدادي المتوفى سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٤م .

كان مغامرا محبا للتنقل والاستكشاف ، هجر بغداد إلى الموصل وهو بعمر الثامنة والعشرين ، ففي سنة ٥٨٥ هـ دخل الموصل والتقى بكمال بن يونس . واجتمع إليه جماعة كثيرة وعرضت عليه مناصب فاختار منها مدرسة ابن مهاجر المعلقة ودار الحديث التي تحتها . وأقام بالموصل سنة في اشتغال في التدريس دائم متواصل ليلا ونهارا . ثم ترك الموصل متوجهاً إلى دمشق ، ثم دخل عكا ثم شد رحاله إلى مصر حيث صارت له علاقات فكرية مع علماء تلك البلاد وخصوصاً مع موسى بن ميمون القرطبي وابن سناء الملك . ثم سافر إلى القدس ومنها دخل بلاد الروم ، ثم توجه إلى بغداد لمقابلة الخليفة المستنصر بالله بعد غيبة عنها دامت ما يزيد على الاثنين والأربعين سنة، توفي فيها سنة ٦٢٩ هـ / ١٢٣١م

وقد استفاد من هذه التنقلات فتعرف على أنواع الخلق من الناس ، وتولد فيه حب المهاجمة والنقد ، والتعالي أيضا ، فلم يخلص من لسانه حتى شيخ الأطباء ابن سينا .

وباختصار كان البغدادي من أبرز علماء القرنين السادس والسابع الهجريين ، وأنه كان ثائرا على النمطيات السائدة في زمانه ، وأكثر مؤلفاته ذات مادة دسمة ، وعبارتها رصينة وسليمة اللغة .

مؤلفاته : له من الكتب ما يزيد على المائة والسبعين كتابا أما كتبه الطبية فهي ثلاثة وأربعون لم يصل إلينا منها إلاّ القليل وأشهر ما وصلنا منها ١. كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، انتقد فيه جالينوس عن الفك الأسفل



وأثبت أنه قطعة واحدة وليس بقطعتين كما قال جالينوس ٢. رسالة في المرض المسمى ديابيطس ٣. مقالة في الحواس .

٥ ـ جلال الدين أبو محمد بن عبد الجبار بن عبد الخالق بن محمد بن نصر :

٦١٠ – ٦٨١ هـ / ١٢١٣ – ١٢٨٢ م ، برع في الطب ، وكان قد أسره المغول عند احتلالهم بغداد ، فاشتراه بدر الدين لؤلؤ لكي ينتفع به[٤٠].

٦ ـ مهذب الدين بن هبل البغدادي[٥٠] :

هو ابو الحسن علي بن أحمد بن هبل ، ولد ببغداد سنة ٥١٥ هـ / ١١٢٢م ، حفظ القرآن ودرس الفقه في المدرسة النظامية ببغداد . ودرس الأدب على أبي إسماعيل السمرقندي والشريف الشجري ، وتعلم الطب على أبي البركات علي بن هبة الله بن ملكا . ثم صار إلى الموصل واستوطنها مدة ، ثم انتقل إلى أذربيجان ومنها إلى خلاط (في أرمينية) وأقام فيها عند حاكمها شاه أرمن طبيبا ونديما .

وقرأ الناس عليه هناك الحكمة والأدب وحصل على مال كثير بعثه إلى الموصل . ثم انتقل إلى ماردين بضيافة صاحبها ، ثم عاد إلى الموصل وعمل له مجلساً فيها يعلم الحكمة والطب وهو فاقد للبصر وعمر حتى مات سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٣م ، وخلف ولدا واحدا اشتهر بالطب وهو شمس الدين بن هبل .

وأشهر مؤلفاته : ١ – كتاب الطب الجمالي ، كتبه إلى جمال الدين محمد الوزير المعروف بالجواد ٢ – النار المجوسية أسبابها وعلاماتها وعلاجها ٣ – الطب المختار وهذا يعد أشهر كتبه ، كتبه في الموصل سنة ٥٦٠هـ / ١١٦٤م ، وهو تجميع من الكتب الطبية العربية التي سبقته ، إلا أنه يمتاز بحسن التبويب والإيجاز ، مما جعله مرجعاً مهماً في القرن السابع الهجري ، ويقع في أربعة أجزاء .

٧ ـ مهذب الدين بن النقاش البغدادي[٥١] (ت ٥٧٤ هـ/ ١١٧٨م) : هو الشيخ الإمام العالم أبو الحسن علي بن أبي عبد الله ابن هبة الله النقاش ، مولده ومنشأه ببغداد . عالم بعلم العربية والأدب ، اشتغل بصناعة الطب على الأجل أمين الدولة إبن التلميذ . ولما وصل إلى دمشق بقي بها يطب ، وكان أوحد زمانه في صناعة الطب ، وله مجلس عام للمشتغلين عليه ، ثم توجه إلى الديار المصرية وأقام بالقاهرة ثم رجع إلى دمشق ولم يزل مقيماً بها إلى حين وفاته .

الهوامش والمصادر

١- عيسى ، د . احمد ، معجم الأطباء ، دار الرائد العربي ، بيروت ط ٢ ، ١٩٨٢ ،ص ٥٢٤ .

٢ــ لمزيد من التفصيل يراجع ، الخطيب ، درية / صقال ، د . مضر ، ما لا يسع الطبيب جهله لابن الكتبي ، مجلة معهد المخطوطات العربية م ٢٨ ، ج ٢ ، ١٩٨٤ ،ص ٥٧٧ .

٣ــ ابن منظور ، محمد بن مكرم : لسان العرب المحيط ، أعاد بناء الحرف الأول ، يوسف الخياط ، بيروت ، دار لسان العرب ، ١ / ١١٤٢ .

٤ــ شوقي ضيف ، الرحلات ، ط ٢ ، مصر ، دار المعارف ، ١٩٦٩ م ، ص ٩ .

٥ــ ناطق صالح مطلوب ، " الرحلات العلمية بين الغرب الإسلامي والقدس الشريف حتى القرن العاشر الميلادي " ، مجلة التربية والعلم ، العدد الثامن والعشرون ، الموصل ، ٢٠٠١ م ، ص ١٠٤ .

٦ــ امين، حسين ، التقاليد الجامعية في المدارس البغدادية في العصر العباسي، الندوة العلمية الاولى — كلية التربية ، (بغداد في التأريخ)، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بغداد ، ١٩٩٠ ، ص١٩٩ .

٧ــ فضائل الأندلس واهلها ، ص ١٠ .

* بختيشوع ، القسم الأول من هذه الكلمة (بخت) تعبير فارسي معناه (عبد) والقسم الثاني (يشوع) تعبير سرياني يعني اسم المسيح أي عبد المسيح . وعلى هذا فالأرجح أن بختيشوع الأب الأكبر للأسرة قد ولد في بلاد فارس فأعطي اسماً خليطاً من لغة البلاد ومن لغة الأجداد .

٨ــ خير الله ، د . أمين أسعد ، الطب العربي — المطبعة الأمريكانية ، بيروت ١٩٤٦ ، ص ٥٦ .

٩ــ السامرائي ، الدكتور كمال ، مختصر تاريخ الطب — دار الشؤون الثقافية ، بغداد ١٩٨٤ ، ج ١ ، ص ٣٨٢ .

* ــ جنديسابور ، مدينة في شمال فارس أسسها سابور الأول (٢٤١ – ٢٧٢ م) وصلت ذروة مجدها في حكم كسرى انوشروان (٥٣١ – ٥٧٩) اذ احتمع فيها عدد من الأطباء الهنود واليونانيين والسوريين النساطرة والفرس المحليين وأنشأ فيها بيمارستاناً والحق به مدرسة لتعليم الطب ، ولما فتحها المسلمون سنة (١٧ هـ / ٦٣٨ م) كان البيمارستان والمدرسة الطبية مازالتا تعملان بنشاط ، وبقيتا كذلك حتى خلافة المنصور (١٣٦ – ١٥٨ هـ / ٧٥٤ – ٧٧٥ م) .

١٠ــ السامرائي ، مصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٨٤ .

١١ــ السامرائي ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٨٥ .

١٢ــ ابن ابي أصيبعة ، موفق الدين احمد ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، دار الفكر ، بيروت ١٩٥٦ – ج ٢ ، ص ٤١ .

١٣ــ القفطي ، تاريخ الحكماء — ص ١١٠ .

١٤ــ ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء — ج ٢ ، ص ٤٢ .

١٥ــ السامرائي ، مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٣٨٦ .

١٦ــ حمارنة ، د . سامي خلف ، تاريخ تراث العلوم الطبية عند العرب والمسلمين — طبع المكتبة الوطنية ـ عمان ١٩٨٦ ، المجلد الأول ، ص ١٢٦ – ١٢٨ .

١٧ــ ابن أبي اصيبعة، المصدر نفسه، ح١ ، ص٦١ .

١٨ــ ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر، تاريخ ابن الوردي،(ط٢ النجف ١٩٦٩)، ج١، ٣٢٥ .

١٩ــ ابن النديم ، الفهرست، ص٣٥٤ ./صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص٤٦ ./القفطي، تاريخ الحكماء، ص١٨٠ .

٢٠ــ للمزيد يراجع محمد ، الدكتور محمود الحاج قاسم ، الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٧ ص ٧١ . ويراجع ابن أبي أصيبعة ص ٤١٥ وابن القفطي : تاريخ الحكماء ص ١٩١ وللقريزي ، ج٢ ص ٢٤٠

٢١ــ هناك اختلاف بين المؤرخين حول وفاة الرازي ، تدل عليه المقترحات الآتية ٣١١ هـ / ٩٢٣ م ، ٣١٣ هـ/ ٩٢٥ م ، ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م ، ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م . وقد جاء في وفيات الأعيان والأعلام انه توفي سنة ٣١١ هـ وذكر القفطي بأنه توفي عام ٣٢٠ هـ ورجح الدكتور السامرائي بأن وفاته كانت ٣١٤ هـ / ٩٢٧ م .

٢٢ــ ابن خلكان ، وفيات ، ٥ / ١٥٩ .

٢٣ ــ يذكر ابن أبي أصيبعة (ج٢ ص ٣٤٣) ،

وقال بعضهم أن الرازي كان في جملة من اجتمع على بناء هذا البيمارستان العضدي ، وان عضد الدولة استشاره في الموضع الذي يجب أن يبنى فيه البيمارستان)) وهذا لا شك خطأ لأن عضد الدولة حكم في المدة (٣٦٧ – ٣٧٢ هـ) أي بعد وفاة الرازي بحوالي ستين عاما ، وربما كان المقصود المعتضد بالله الذي حكم بين (٢٧٩ – ٢٨٩ هـ) .

٢٤ــ ترجمها مؤخراً (راديل) للإنكليزية ونشرها في مجلة امراض الأطفال الأمريكية .

The First Treatise on Pediatrics by



Sammuel Radbil. American Journal of Diseases of children vol. ١٢٢. Nov. ١٩٧١.
قمنا بترجمتها إلى العربية وصدرت ضمن إصدارات المؤتمر القطري للطفولة – بغداد ١٩٧٩ .

٢٥ ــ ابن أبي أصيبعة ج٢ ص ٤٦ـ٤٧ .

٢٦ــ المصدر نفسه ص ٤٣٦ .

٢٧ــ العزاوي ، عباس ، تاريخ العراق بين إحتلالين ، الطبعة الأولى ١٩٣٦ ج١ ، ص ٢١٧ .

٢٨ــ أوجزت سيرته من كتاب مصالح الأبدان والأنفس ، لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي ، تحقيق الدكتور محمود المصري ، القاهرة - ٢٠٠٥ .

٢٩ــ ابن جلجل طبقات الأطباء والحكماء ص ١١٢ – ١١٤ .

٣٠ــ التلمساني ، أحمد بن محمد المقري ، نفح الطيب من غصن الباب الأندلس الرطيب – تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٨ ، المجلد الثاني ، ص ٢٤٤ .

٣١ــ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء – ج ٢ ، ص ١٠٤ .

٣٢ــ السامرائي ، مختصر تاريخ الطب – ج ٢ ، ص ١٧٨ .

٣٣ــ ابن العبري ، غريغوريوس أبي الفرج – تاريخ مختصر الدول ، وقف على تصحيحه الأب أنطون صالحاني اليسوعي ، دار الرائد اللبناني ، بيروت ١٩٨٣ ص ٣٦٦ .

٣٤ــ جمال الدين ، د. محسن – أعلام من الأندلس في بغداد – مجلة المورد العدد ٤ ، مجلد ٨ ، ١٩٧٩ ص ٤٠ نقلاً عن النفح الطيب ج ٢ ص ٦٥٣ .

٣٥ــ الخطابي ، المصدر السابق ج٢ ص ٦٩ (نقلا عن عيون الأنباء ٣ / ١٣٣ ، التكملة ١ / ١٢١ ، الإحاطة (١ / ٢٠٧ – ٢١٤) .

٣٦ــ المصدر نفسه ، ص ٢٧٠ . مصر (بدون تاريخ) ج٥ ص٢٩٨ . عيسى ، الدكتور أحمد : معجم الأطباء ص٢٩٨ . موسوعة الموصل م٢ ص ٣١١ .

٣٧ــ إقرأ عنه إبن أبي أصيبعة ج٢ ص٣٣٧ . الزركلي : الأعلام ٨ / ٢٨٨ . كحالة : معجم المؤلفين ١٣ / ٥١ .
البغدادي : هدية العارفين ٢ / ٤٧٢ . موسوعة الموصل م٣ ص٢١٢ .

٣٨ــ إقرأ عنه السامرائي ، مختصر تاريخ الطب ج١ ص ٥٩١ . القفطي : تاريخ الحكماء ص ٣٤٣ـ٣٤٦ . إبن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ج٢ ص٢٩٦ . البيهقي ، تاريخ حكماء الإسلام ص١٥٢ . موسوعة الموصل م٣ ص ٢١٠ .

٣٩ــ إبن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ج٣ ص٣٣٩ . موسوعة الموصل م٣ ص ٢١٠ .

٤٠ــ المصدر نفسه ج٣ ، ٢٨٧ – ٢٩٥ .

٤١ــ الحنبلي ، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب – دار الكتب العلمية ، بيروت (بدون تاريخ) ج ٦ ، ص ١٣٠ .

٤٢ــ محمد ، الدكتور محمود الحاج قاسم ، الطب عند العرب والمسلمين ... تاريخ ومساهمات ص ٨٧ .

٤٣ــ ابن أبي أصيبعة ج ٣ ص ٢٣٣ـ ٢٣٩ .

٤٤ــ المصدر نفسه ج٣ ، ٢٦٥ .

٤٥ــ جمال الدين ، د. محسن – أعلام من الأندلس في بغداد – مجلة المورد العدد ٤ ، مجلد ٨ ، ١٩٧٩ ص ٤٠ نقلاً عن النفح الطيب ج ٢ ص ٦٥٣ .

٤٦ــ ابن الأبار ، التكملة ١ / ٩٣ . المقري ، نفح الطيب ٢ / ٣٨٣ .

٤٧ــ البغدادي ، إسماعيل باشا : هدية العارفين ، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة – استنبول ١٩٥١ . أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى – بغداد (بدون تاريخ) م١ ص٢٢٥ .

٤٨ــ المصدر نفسه ، ص ٣١٦ – ٣٢١ .

٤٩ــ المصدر نفسه ج٣ ، ص ٢٤٠ – ٢٤١ .

٥٠ــ ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ، ص ٣٢٥ .

٥١ــ محمد ، د. محمود الحاج قاسم – الطب عند العرب والمسلمين ص ٧٤ – ٧٥ .

٥٢ــ المصدر نفسه ص ٨٣ .

٥٣ــ إقرأ عنه إبن العبري ، تاريخ مختصر الدول ص٤٤٧ . عيسى الدكتور أحمد: معجم الأطباء ، دار الرائد العربي ، بيروت ط٢ - ١٩٨٢ ، ص ١٥٦ . موسوعة الموصل م٣ ص ٢١٣ .

٥٤ــ خليل علاء الدين محمود : المغول في الموصل والجزيرة (رسالة ماجستير ، كلية الآداب – جامعة الموصل ١٩٨٥) ، ص ٢٠٣ نقلا عن أبي الفداء ، المختصر ٤ / ٥٧ . الرازي ، مفصل إيران ص ٣١٠ .

٥٥ــ إقرأ عنه القفطي ، تاريخ الحكماء ص ٢٣٨ . إبن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ج٢ ص٣٣٤ . نكت الهميان ص٢٠٥ . ابن العبري ، مختصر تاريخ الدول ص ٤٢٠ . ابن الأبار ، التكملة ص٦٧٥ . النويري ، الدارس في أخبار المدارس ٢ / ١٣٠ . ابن عبد القوي المنذري : وفيات النقلة ٢ / ٢٦٦ـ٢٦٧ . دائرة المعارف الإسلامية ١ / ٢٩٢ . الزركلي ، الأعلام ٢ / ٦٢ / ٥ . كحالة ، معجم المؤلفين ٧ / ٢١ . السامرائي : مختصر تاريخ الطب ج١ ص٥٩٩ . موسوعة الموصل م٣ ص ٢١٠ .

٥٦ــ المصدر نفسه ، ص ٢٦٥ – ٢٦٧ .



تتمة شعر

ابن الهبارية البغدادي

(ت ٥٠٩هـ)



د.عبد الرّازق حويزي
استاذ الدراسات الادبية والنقدية بجامعتي الازهر والطائف

لا يزال تراثنا الشعري بحاجة ماسة إلى الدراسات المتتابعة التي تنقب عن نفائسه، وتكشف عن كنوزه، إذ ما وصلنا منه لا يتسق وشاعرية أمتنا العربية. فهناك الجم الغفير من الدواوين التي لم تصل إلينا، ومن ثم تحمل أعباء جمعها من بطون المصادر والمخطوطات كوكبة من الباحثين المعاصرين الذين حملوا على عاتقهم مسؤولية الحفاظ على التراث العربي تعبيراً عن الأصالة وتعميقاً للهوية العربية، وتأصيلاً لفاعليته في النهضة العربية في العصر الحديث.

ومن الدواوين التي لم تصل إلينا ديوان "ابن الهبارية"،الذي قال عنه"الصفدي ت ٧٦٤هـ في كتابه الوافي بالوفيات ١٣٢/١ "إنه كان في ثلاثة أجزاء، وابن الهبارية شاعر بغدادي الأصل، ولد وعاش في القرنين: الخامس والسادس الهجريين، له اليد الطولى في الإبداع الأدبي نظماً وتأليفاً كما جاء في مقدمة ديوانه المجموع.



وقد صرح "ابن فضل الله العمري ت٧٤٩هـ" في كتابه مسالك الأبصار ١٥/٧٠٤ بمكانته السامقة في الحياة الأدبية في قوله: "هو شريف وضيع وسخيف إلا أنّه غير صنيع من بيت هاشميّ حطّ بسوء الصنّع سمكه الرّفيع وحلّ بهذر القول سمطه الجميع. تطبّع بطباع ابن الحجاج وقاسمه شرب الأدب إلا أنّ ذاك عذب فرات، وهذا ملح أجاج إلاّ بعض تنذير، في أبيات جاءت قلائل كأنّما قدّرها بتقدير، وسائر ما له من النوادر فاتر لا بالسّخن ولا بالبارد، ولا يضحك بالناقص ولا بالزائد، راود عقائل ابن الحجاج فتمنعت، وراوغ عقائم معانيه المسفرة فتبرقعت، فقصّر دون غايته، وجهد به شيطانه وما قدر على مثل غوايته، وحاكى ذلك الثغر ففاته الشنّب، وتعلّق بذلك الثاوي فانقطع به السبب، وكان من شعراء الوزير نظام الملك المبالغ في مديحه، ثمّ إنّه ما خلا من تقبيحه... وله على نمط كتاب كليلة ودمنة ما قُيدت به أمثاله الشوارد، وأشباهه الفرائد وأنظاره إلاّ أنّها النجوم الماثلة في الظلام الراكد".

إن ضياع ديوان هذا الشاعر أمرٌ يحزن كلّ باحث مَعنيٌّ بالثقافة الإنسانية عموماً والحياة الأدبية خصوصاً، وقد دفع هذا الضياع الدكتور الفاضل "محمد فائز سنكري طرابيشي" إلى تَحَمُّل أعباء جمع ما تبقى من شعر "ابن الهبارية" في المصادر المختلفة، وتنسيقه ونشره في ديوان، فجاء عمله في ديوان لطيف، متقن الجمع والدراسة والإخراج، فهو يستحق على مابذل من جهده ووقته الشكر الجزيل، والتحية الخالصة، غير أن تقادم العهد بهذا الديوان ومع صدور مطبوعات حديثة بعد نشره أمر يجعلنا نعيد النظر ليس في هذا الديوان فحسب بل في جميع ما نُشر من تراثنا للإضافة إليه، وتنقيته من الأوهام، وإحكام تهذيبه وترتيبه، كي تأتي النتائج الأدبية قريبة من الحقيقة.

أقول هذا: لأن هناك بعض المصادر نُشرت بعد نشر هذا الديوان، هذه المصادر تضمّنتْ أشعاراً لابن الهبارية ليست موجودة في مجموع شعره، من هذه المصادر: "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" لابن فضل العمري، وجمهرة الإسلام ذات النثر والنظام للشيزري (ت٦٢٢هـ).

إن وجود أشعار جديدة في هذين المصدرين، وفي غيرهما من المصادر حدا بي لجمع هذه الأشعار وإدارجها هنا مع إثبات بعض الملحوظات اليسيرة التي جاءت في العمل المبارك الذي نهض به المحقق الجليل، ولعل في هذا الإدراج، وذلك لإثبات دعوة للأستاذ المحقق على ضرورة العودة إلى عمله من جديد، لإضافة ما حملته المصادر الجديدة من إضافات، وإخراج الديوان مرة ثانية بصورة تفضل المرة الأولى.

أما الأشعار الجديدة التي عثرت عليها فقد آثرت أن أرتبها على قوافيها، ثم أردفها بالإشارة إلى أشعار منسوبة لابن الهبارية في ديوانه على سبيل الخطأ، ثم أثبت في النهاية بعض التخريجات والروايات الجديدة.

وقد اتبعتُ منهجاً في إيراد هذه الأشعار يتلخّص في الآتي:



١ــ رتبتُ المقطعات وفق حروف قوافيها على ترتيب حروف الهجاء، من الألف إلى الياء.

٢ــ أفصحتُ عن وزن كل ما أوردته هنا من نُتف ومقطعات، وقد أفصح محقق كتاب مسالك الأبصار عن أوزان شعر "ابن الهبارية" الوارد في هذا الكتاب، بيد أن فيه أخطاء مختلفة، دفعتني إلى رد بعض المقطعات إلى أوزانها الصحيحة، وتصحيح ما ورد فيه من تحريف وتصحيف، وتصحيح تقسيم الأبيات المدورة التي كتبت بتقسيم غير مستقيم، أو كتبت على أنها غير مدورة، وعالجت كسور الأبيات في هذا الكتاب، ووضعت ما تدخلت فيه بين قوسين، وأشرت إليه أيضاً في الهوامش، وعذري إذا كنت قد أخفقت في اجتهادي، إذ ليس بين يدي الأصل المخطوط لهذا الكتاب.

٣ــ شرحتُ بعض الألفاظ التي يصعب معناها على القارئ غير المتخصّص، واعتمدت في هذا الشرح على بعض المعاجم.

٤ــ خرّجتُ الأشعارَ وأثبتُّ مصادرَها وفروق روايات بعض ألفاظها إن وُجدت.

٥ــ رقّمْتُ المقطعات والأبيات تسهيلاً على الباحث المتابع.

٦ــ ضبطتُ الألفاظ تسهيلاً على القارئ.

٧ــ قمت بحذف بعض الأبيات والكلمات التي تحمل بين طياتها معاني تخدش الحياء، وأشرت إلى مصادر الأولى، ووضعت نقاطاً في أماكن الثانية، مع ذكر مصادرها أيضاً.

٨ــ أضفتُ بعض الرّوايات والتخريجات والفوائد الجديدة اعتماداً على مصادرها.

وليس لي هدف من هذه السطور إلا العناية بالتراث الشعري، والدعوة إلى إعادة النظر في ديوان "ابن الهبارية"، وأبدأ أولاً بتتمة الديوان.

قافية الهمزة

(١) ما خلصت نسبته "لابن الهبارية":

قال "ابن الهبارية":

(١)

(من الوافر)

١ــ لئن حذَفَتْنيَ الأيّامُ فيهنْ
فَمَا بِي مَعْ خُمولي من خَفاء

٢ــ وإنّي معْ تَعَمّدِهم خُمُولي
ألوحُ كأنّني حرفُ النّداء[1]

قافية الباء

(٢)

(من الخفيف)

وقال:

١ــ وطباعُ الأشكالِ تُوجِبُ للأشكالِ جمعاً مُؤلّفاً واقترابَا

٢ــ وعيوبُ الرجالِ تجمعُها قُرْ
بى إلى أن يظنّها أنسابَا

٣ــ فلذاك البّازي يطيرُ مع البا
زي وينأى عن الغرابِ اجتنابَا

٤ــ وكذا البُومُ يصحَبُ البومَ طبعاً
والغرابُ الخبيثُ يهوى الغرابَا

٥ــ والتيوسُ الكبارُ لا تترك الأخـ
ـلاقَ (حتّى) تُعاينَ القَصّابَا



٦ــ (وقـديماً) سكتُّ (عنه احتقاراً)
وسُكوتُ الأسودِ يُغري الكلابــــا

منها يصف شعره:

٧ــ وهْو عـذبٌ لو ذاقه الـكمدُ العا
شـــقُ لم يرشـــف الثنايا العِذابا

٨ــ رقَّ فــي قــوّة فلـــولا معانيـــ
ـــه التي تُبـــهر العقــولَ لذابا

٩ــ مطمــعٌ مــؤيسٌ قــريبٌ بعيــد
لو تَراءى شـــخصاً لكان سرابا

١٠ــ وافتراقُ الأخلاق لا (يجمعُ) الضد
دين (لكــن) تشاكلا أنقـــابا[٢]

(٣)

(من مجزوء الرجز)

وقال:

١ــ حتّى كأنَّ ما نظمـــ
ـــتُ فيه كان كذبــا

٢ــ نـخلٌ أذانــي شوكَه
ومــا جـنيت رطبا[٣]

(٤)

(من الكامل)

وقال:

١ــ أرســلنَ مــن أقراطهنّ أفاعيا
وبـــعثنَ من أصداغهنّ عقـــاربا

٢ــ وهززنَ من أعطافهنّ ذوابلا
وسللنَ من ألحاظهنّ قـــواضبا

٣ــ ونصـبن من ألفاظـهنّ حبائلا
وجعلنَ أشــراكَ القـلوب ذوائبــا

٤ــ جعلوا السّهامَ الصّائبات لواحظاً
تُصمي الرّمايا والقسيَّ حواجبــا

٥ــ (وحييتُ) من خُوص الركاب...
من يافث فغدوتُ أحبو راكبا[٤]

قافية التاء

(٥)

(من مجزوء الكامل)

وقال:

١ــ حالتْ علائقُه وغا
بـــــتْ أنجُمي معه وغارتْ

٢ــ صادَ المودّةَ ثُمَّ قا
لَ مَلالـــةً: طيـــري فطارتْ[٥]

(٦)

(من السريع)

وقال:

١ــ سبحانَ من حوّلَ أحوالَنا
فأصبحـــتْ تَعْلُو إلى تَحْتْ

٢ــ صيّرنا الله قُروداً ولم
نكنْ من العادينَ في السّبتْ[١]

(٧)

(من الهزج)

وقال:

١ــ تعالى الله ما أضعـــ
ـــفَ يا سيّدنا بختي

٢ــ فــإنّي مـــذْ تمسّكتُ
بـــه أعلُو إلى تَحْتْ[٢]

قافية الجيم



(٨)

{من السريع}

وقال:

١ــ وأبرزتْه لعُيونِ الورَى
مــــن... بــــالطّوق والتّاج
٢ــ ولم يَزَلْ ليلَته قائماً
كـــأنّـــه إصبعُ مُحتـــاج[8]

قافية الحاء

(٩)

{من المتقارب}

وقال:

١ــ وكانَ كتـــــوماً لسرّ الهَوَى
ولكنْ جرَى دَمعُه فافتضَحْ
٢ــ يحبّ القِقاحَ ويَهوى المِلاحْ
ويقْدحُ زَنْدَ الهَوَى بالقَدَحْ
٣ــ يطيعُ الغَرامَ ويعصي المَلامْ
ويأخذُ منَ وقتهِ ما سَنَحْ[9]

(١٠)

{من مجزوء الرجز}

وقال:

١ــ جـــرباذقانَ بــــــلدةٌ
زرْتُ علـــى جيـــدِ القـــبائـــحْ
٢ــ أرضٌ يموتُ الحُرُّ في
أرجائها لولا ابــنُ صالـــــحْ[10]

(١١)

{من مجزوء الكامل}

وقال في الغزل يصف غلاماً:

١ــ فـــــي ثغـــره وعذاره
مـــا في الـــبنفسجِ والأقاحـــي
٢ــ نشوانُ من خمرِ الصبَا
يـــهتزُّ سُكـــراً وهـــو صَـــاحِي
٣ــ تمّتْ محاسِنُه فعـــــ
ـــــكرْ وجهِه شاكي السّلاحِ[11]

قافية الدال

(١٢)

{من المنسرح}

وقال في الهزل:

١ــ دُوري وخلّي التضايقَ البارِدْ
عنـــكِ وهـــذا التّبظّرمَ الـــزّائدْ
٢ــ وسَـــامحيني في... يا أملِي
بـــواحـــدٍ لا أقـــلّ مـــن واحدْ
٣ــ فإنْ... الذي سَمِعت به
شيـــخٌ فقيرٌ يقـــولُ بـــالمشاهدْ
٤ــ ويَكْرَهُ الغادةَ الحصَانَ ولا
يكْسرُ رُمّـــانَ صدرِهـــا النّاهدْ
٥ــ ويعشقُ الأمْردَ المليحَ إذا
يَـــأتي لـــه فـــي صلاتِه ســـاجدْ
٦ــ يهتزُّ من نَشْوة الصبَا مَرَحاً
كالغُصنِ من نشوةِ الصبَا مائدْ[12]

(١٣)

{من الوافر}

وقال:

١ــ فـــإنْ تـــكُ ليّنا في غيرِ ضَعف
فـــإنَّ الموتَ فـــي لينِ الصّعـــاد



٢ــ وإن تكُ مُضمراً في الحلم بَطْشاً
فإنّ النّار تكْمُنْ في الزّنادِ[١٣]

(١٤)

(من الخفيف)

وقال:

١ــ وبوجهٍ كالبدرِ حُسْناً وبُعْداً
حـــارَ فيه ماءُ الصبَـــا وتردّدْ

٢ــ وبــصُدغٍ مــبلبلٍ مثلِ قلبي
فـــوقَ خـــدٍّ كالجلّنـــارِ مُوَرّدْ

٣ــ مُشرقٍ كالصباحِ أبيضَ يبدو
تحتَ قطعٍ من حِندسِ الليلِ أسـودْ

٤ــ وبخصرٍ مثلي نحيفٍ ضعيفٍ
كـــادَ مـــن لينه يُحَـــلّ ويُـــعْقَدْ[١٤]

(١٥)

وقال وقـــد عزل "ابـــن جهير" عن الوزارة ووُلّيَ "أبـــو شجاع" مكانه:

(من الكامل)

١ــ وكذا سرارُ البدرِ أصلُ كمالِه
وبسوءِ فعـلِ النّارِ يُذكى العُودُ

٢ــ إنّ الخليفةَ في التبدّلِ منهـمْ
بــأبي شُــجاعٍ والــزّمانُ جَدُودُ

٣ــ كالعاشقِ المهجورِ يقنعُ أن يَرَى
طيفَ الحبيبِ إذا ثــنـاه صُدُودُ

٤ــ والحائمِ الصديانِ يخدعُ رأيــهُ
آلُ الهجيرِ وللهجيرِ وَقـــــــودُ

٥ــ وكذلك السّاري إذا ما لم يكنْ
بـــدرٌ هداهُ الفرقـــدُ المَعْهـــودُ

٦ــ جهدُوا وفازَ سواهمُ بمكانِهمْ
ومـــن الكـــلامِ جَواهـــرٌ وعُقُودُ

٧ــ إن نالَ دستكَ بعدَ بُعدكَ هيكلٌ
جعدُ الأناملِ في الأمورِ بـــــليدُ

٨ــ فكــذا سليـــمانُ النّبيُّ على
كُرســـــيّه جســـــدٌ له مَرِيدُ

٩ــ حتّـــى إذا حَـــطَّ اليقينُ لثامَه
عادتْ ســـيوفُ العلْجِ وهي قُيودُ

١٠ــ ولقد علمتُ وغيرُ ظنّي كاذبٌ
أنّ الإمـــامَ إلى عُـــلاكَ يَـــعُودُ[١٥]

قافية الراء

(١٦)

(من السريع)

وقال:

١ــ يا حبّذا الصّهباءُ لو لم يكنْ
تمنعُـــني مـــن ذلـــكَ الأمْرِ

٢ــ ....
كالفرخِ لم ينهضْ مـــن الوكـــرِ

٣ــ كـــأنّه مـــن حزنه ثـــاكلٌ
مُنكّسُ الـــرّاسِ على الصّدرِ[١٦]

(١٧)

(من مجزوء الكامل)

وقال:

١ــ فـــي ليلـــةٍ فلكُ الصبَا
حِ علـــى دُجَاها غيـــــرُ دائرْ

٢ــ أعيـــتْ كواكبُها فشبـــ
ـــبهتِ الثوائرَ بالســـــوائرْ

٣ـ ثمّ انثنت والصبحُ محـ
ـمرّ المآقـي والنّواظرْ
٤ـ فكأنّـه غيرانُ احـ
ـفظَه وصالُك يـا تُماضر[١٧]

(١٨)

(من السريع)

وقال في وصف غلام هندي:

بفـ.. ـة كالتلّ مرتجة
وتينة أحلَى من التّمْرَة[١٨]

(١٩)

(من الرجز)

وقال:

سَعادةُ المَرءِ ويُمْنُ طَيرِه
قَتلُ أعاديه بـكفّ غَيرِه[١٩]

(٢٠)

(من الطويل)

وقال:

١ـ ... صيغ... لا شـك أنّه
لـه وعليـه والمثـالُ مُقدّرُ
٢ـ أما... في التّحقيق بابٌ مقوّرٌ
كما... في التّقـدير ساقٌ مُدوّرُ؟
٣ـ فـهذا لهـذا لا محـالة قدّه
على قدْره أو إن شـككْتم فقدّروا
٤ـ فأمّا... الملعُونُ فهو مُطاولٌ
يـريدُ طبرزيـناً وفيـه تُـعذّرُ[٢٠]

قافية الصاد

(٢١)

(من السريع)

وقال:

١ـ باتت فما زلتُ على ظهرها
تـمْ ... وتستـقصـي
٢ـ رفعـتُ..... إلـى أنْ غدا
.....أعـلى مـن الـخُرْص
٣ـ وقلْتُ: دُوري فأطاعتْ ـ كما
أمرتُهـا ـ طرفـاً ولـمْ تَعْص
٤ـ ما رابني منها سوى.....
كـأنّـها العوْسَجُ فـي الخُص[٢١]

قافية الطاء

(٢٢)

(من الوافر)

وقال:

١ـ وما أدري إذا..... فيه
أفـتقُه بـذلـك أم أخيطُ؟
٢ـ .... إبرتي أرفُو حشاه
فيـها خَيـوطُ[٢٢]

قافية العين

(٢٣)

(من مجزوء الكامل)

وقال:

١ـ إن كـانَ قـدك مثل....
...... مثـل بـاعـي
٢ـ أو هل يعيبُ البَدْرَ طُو
لُ مَسـيره تحـت الشُّعاع

٣ــ ما حَـطَّ فقري سؤدُدي
عن قـــــدْرِ مَجدي وارتفاعي
٤ــ إيّـاكَ تـحقِرُني فليـ
ـــسَ ثكالُ معرفتي بـــصاع
٥ــ فالجسمُ بيتٌ والرُّجو
ع إلـى الخلائـــقِ والطِّبـــاع[٢٣]

قافية الفاء

(٢٤)

(من الوافر)

وقال:

١ــ ومصباحُ الضُّحى قدْ كادَ يبدُو
ومصباحُ الدُّجى قـد كادَ يُطفَى
٢ــ كأنَّ ذكا عَروسٌ في حجابٍ
يشيلُ سُتُورَها فسجفاً سجفاً[٢٤]

(٢٥)

وقال يمدح "أبا الكُفاة" من قصيدة:

(من مجزوء الكامل)

١ــ ألِبـا الكُفاةِ أبـا الكُـفَا
ةِ وأنـتَ معـروفُ الـعوارفْ
٢ــ ولـكَ الصنائـعُ والمـفَا
خـرُ تالـدٌ منهـا وطارفْ
٣ــ والمرءُ أنـتَ بحرمةِ الـ
آدابِ والأشـــعارِ عارفْ
٤ــ إن الفتى يـدْعُو الصدى
فيجيبـــه عجلانَ هاتفْ
٥ــ فلأيِّ حـالٍ مـا أجيـ
ـتَ نـدايَ عن تلكَ الطَّرائفْ[٢٥]

قافية القاف

(٢٦)

(من الرجز)

وقال في تاج الملوك وقد خرج من محبسه:

كـالكوكبِ العلويِّ لا يضرّه
حوادثُ الجوِّ وإن قيل اخترقْ[٢٦]

قافية اللام

(٢٦)

(من الرجز)

وقال مخمّسة في مدح بعض ولاة خوزستان:

حيَّ على خيـرِ العَمَلْ	على الغزالِ والغَزَلْ
علـى الـعذارِ والـكَفَلْ	على العناقِ والقُبَلْ

على رياضِ قطربـلْ

فـإنّها جِنـــانْ	مـا مثلُهـــا مكانْ
الرَّوحُ والريحـانْ	والحُورُ والـولدانْ

والوقتُ فيها مُعتدلْ

حتّى إذا النَّسرُ انحدرْ	وسامَ البدرَ السَّهرْ
وانهزمَ الـليلُ فَفَـرّ	وأقبلَ الصُّبحُ وفَكَرْ

والنَّجمُ حيرانُ وَجِلْ

وطابـــتِ الأسْحارْ	ومالـــتِ الأشجارْ
وضجّـــتِ الأوتارْ	وغنّـــتِ الأطيـارْ

على المـدامِ حيَّ هلْ

فقُــمْ إلى الصَّـبوحِ	في بيْـــعِ المسيحِ
واشربْ على المَطوحِ	فالراحُ رَوْحُ الروحِ

وروحها مـن العللْ

اشربْ ثلاثاً واسقـني	أنـــهلْتني فَعُلّنـــي
واعلمْ أخي وأيقنـي	وحيّنـــي وغنّنـــي



أن الزمان ذو دُولْ

ولادغ لنا ذاك الفتى — يا سيدي حتى متى
تعرضُ عنّا عنتاً — قدْ آنَ أن تلتفتَا

أما مللتَ ذا الملَلْ

مُهفهفٌ رشيقٌ — منظره أنيق
وريقه رحيقٌ — كأنّه ترويقٌ

تجرحُ خدّيه المقلْ

البدر في إزاره — والحقف في إزاره
والليل في إطراره — والعُذر في عذاره

يؤمنني من العذَلْ

إذا سقاني وشربْ — ثم طربتُ وطرب
وملتُ سكراً وانقلبْ — رأيتُم منّا العجبْ

كالشّمس غابتْ في الطفَلْ

يا سائلي عن مذهبي — رضعتْ درَّ العنبْ
نعمْ ولوطٌ لي نبي — والعيشُ كأسٌ وصبي

فكيفما شئت فقُلْ

لكنّما رماني — بصرفه زماني
وجدّ بي حرماني — فعُذْتُ بالقرآنِ

تقرباً إلى المُقَلْ

تلاقِ بول القاري — على سبالِ جاري
والمستراح خاري — والستر باب داري

والأعظم الأمر زجلْ

دركتُ درسَ العلمِ — لما أطالَ همّي
ودسّه برغمي — بالطولِ في حزمي

ولم أفزْ ولم أنَلْ

وصرتُ بعدُ شاعرا — وناظماً وناثراً
إلى المعالي طائرا — لأطرب الأكابرا

وكلّ شخصٍ كالطلْ

فما استفدتُ فائدهْ — ولا استعدتُ عائدهْ
سوى حضور المائدهْ — والنُّزْهات الباردهْ

مزاحماً مع من دخلْ

لكن في أهلِ الأدبْ — ذنباً له فيه سببْ
والدّر غير المختلبْ — لا زالَ في أعلى الرُّتبْ

بدر تمام لا أفل

حتى إذا أسلمني — صبري لما نازلني
من الزمان المزمن — وضره والمحن

وقر صبري وجدل

فرَحتُ من تلك اللُّججْ — والألمعيْ من خرَجْ
منها إلى ابي الفرجْ — مرتجياً ولم ترجْ

لكشفها غير الأجلْ

منصورٌ بن أحمد — حلْفُ العُلى والسؤود
والشْرف الموطّدِ — والمنصبِ المحسّدْ

والسؤود السّامي القُللْ

أبلجُ رَحْبُ البَاعِ — مهذّبُ الطّباع
للفُضلاءِ راعِ — مُوفَّقُ المَسَاعي

همتُه على زُحَلْ

ألقِ عصاكَ عندهَ — وابكِ الكرامَ بعدَه
فهْو الكريمُ وحدَه — إيّاكَ أن تحدّه

فهو الأنام (في) رَجُلْ

لولا وحيدُ دَهْرِه — لولا كريم عصره
لولا لآلي ذكره — لولا تلالي بشره

لم آتِ عن أرضِ الجَبَلْ

لـم أقطـع المفـاوزا   ولا طـرقـتُ رامـزا
مُستوطنـاً أو جـائزاً   أكـابـدُ الـهزاهـزا
من دأبٍ ومن وَجَلْ
حسـبي مـن العقابِ   أنـي مـن العقـابِ
أنـقضُ كـالـعُقابِ   مـا لـي سوى جرابِ
مـن عُدّةٍ ومن نقـلْ
حتّى وصلتُ بابَـهْ   مُسْتَمـطراً سحـابَـهْ
وشـائماً ربـابَـهْ   وراجيـاً ثـوابَـهْ
أنفقُ من كسبِ الأجلْ
حسبي بِحُسْنِ نقدِه   بجيـرةٍ مـن عنـدِه
مـن غَوْرِه وبعدِه   فـي هزلِـه وجـدِّه
وكلّ معنىً كالمثلْ[٢٧]

(٢٨)

(من الرجز)

وقال من كتاب كليلة ودمنة:

١ــ ربَّ لطيفٍ قد سعى واحتالا
عـادَ عليـه كيـدُه وبالا
٢ــ بُعداً وسُحقاً للذكاءِ والأدبْ
إذا دعا صاحبَـيه إلـى العطبْ
٣ــ لا خيرَ في فضلٍ يجرُّ نقصاً
أردتُ قُربـاً فغدوتُ مُقصى[٢٨]

(٢٩)

(من الرجز)

وقال:

١ــ إن الـعدوّ لا يكـونُ خـلاً
والثلجُ لا يُذْكي لخلْقٍ رِجْلا[٢٩]

(٣٠)

(من المنسرح)

وقال:

١ــ فإنّه من عُطارد أخذ الظَّـ
ـرف وخلّى (السنا) على زُحلِ
٢ــ ما كان ظنّي (من) قبل رؤيته
أنّي أرى النيّرَيـن في رجُلِ
٣ــ لـو لم يكـنْ في اللّواط منقبةٌ
إلاّ أمانـيّ فيـه مـن (حيَـل)[٣٠]

(٣١)

(من المنسرح)

وقال:

١ــ والموتُ حاشاك منه يأخذُني
إذا تـأمّلتُ نرجـس الـمُقَلِ
٢ــ تَـهـتزُّ أعـطـافُـه و...
تَـرتَجُّ مثـل الكثيـب للثـقلِ
٣ــ ملتفتُ الخدّ تحت.........
يهوى بـمصِّ اللّسانِ والقُبَلِ[٣١]

(٣٢)

(الكامل)

وقال في معنى كرّره وأعجب به فأكثره:

ومقابـرُ العشّاق أكثرُهـا
يُحفرنَ بين الخصرِ والكفلِ[٣٢]

(٣٣)

(من السريع)

وقال:

والطَّرفُ بالعين يجوزُ المدى
فـي السَّير لا بالسَّرج والجُلِّ[٣٣]



(٣٤)
(من مجزوء الكامل)

وقال:

١ـ حُلو الشّمائل ساحرُ الـ
ألفـاظ يصلُحُ للـعَمَلْ
٢ـ في خدّه ماءُ الشّبا
ب كأنّه ماءُ المُقَلْ
٣ـ فإذا نظرتُ إليه أنـ
ـبتَ خدُّه وَرْدَ الخَجَلْ[34]

(٣٥)
(من الكامل)

وقال:

١ـ ما للمطامع عن نَداك عُدولٌ
كلاّ ولا لك في عُلاك عَديلُ
٢ـ ما قُل رأيك منذُ كنتَ ولم تُقل
إذ رأيُ غيرك فائلٌ مفلولُ[35]

قافية الميم

(٣٦)
(من الهزج)

وقال في "أبي الفتح بن الخشاب":

١ـ أبا الفتح أبا الفتْح تعلمتَ من القَوم
٢ـ وأعرضتَ فعرّضت حمى عرضك للّوم
٣ـ من اليوم تغيّرت علينا ومن اليوم[36]

(٣٧)
(من مخلع البسيط)

وقال يهجو "أنو شروان بن خالد" بكثرة تواضعه، وقيامه لكل من يدخل عليه:

١ـ رأيتُ مشرويه يُعبّى
مزاوداً في يد الغلام
٢ـ فقلتُ: لا يعرضنّ لشُرْب الدّ
دواء من غير ما سقام
٣ـ فما به حاجةٌ إليه
فإنّه دائمُ القيام[37]

قافية النون

(٣٨)
(من مجزوء الرجز)

وقال:

١ـ أفصحَ دمعي بالهوى
فصارَ سِرّي علَنا
٢ـ فلستُ أدري خُلقتُ
مدامعاً أو ألسُنا[38]

(٣٩)
(من مجزوء الخفيف)

وقال:

١ـ لأصونَنَّ درهمي
فهْو لاشك صائنُني
٢ـ لم يُعِنّي ابنٌ والدي
وصحيحي أعانَني[39]

(٤٠)
(من مجزوء الكامل)

وقال:

١ـ لله دَرُّ دراهمي
فهْي التي أعلتْ مكاني

٢ـ لولا الغنى عن صاحبي
لأحلّني دارَ الهوان[40]

(٤١)

[من الوافر]

وقال:

١ـ ثقي منّي بأنَّ هواك باقٍ
وأنّك من سُلُوّي في أمانِ

٢ـ ونادي إن غدرتُ عليَّ هذا
محبٌّ ما وفى لي بالضّمان[41]

(٤٢)

[من الكامل]

وقال:

١ـ ومقاطعُ الندمانِ فوقَ معاطف الـ
أغصانِ فوقَ معاقد الكثبانِ

٢ـ وتراسلُ الأطيار فوقَ سلاسل الـ
أزهار بين تَرَقْرقِ الغُدْرَانِ

٣ـ ويشوقُني بَرَدُ الثغور وأشتهي
وردَ الخدود ونرجس الأجفان[42]

(٤٣)

[من الكامل]

وقال في قصيدة طويلة مشهورة، وهي من فرائد قصائده:

١ـ يا حبّذا رندُ العقيق وبانُهُ
سُقِيَ العقيق وأهلهُ وزمانُهُ

٢ـ وصفتْ خمائلُه ورقَّ نسيمهُ
وصفتْ على حصبانه غدرانُهُ

٣ـ وزكا خزاماه وطاب بريره
وافترَّ عن نوّاره حوذانُهُ

٤ـ وتجاوبتْ أطيارُه وتبرّجتْ
أقمارُه وتبغّمتْ غزلانُهُ

٥ـ وتبسّمتْ أزهارُهُ وتنمّمتْ
أشجارُه وتمايلتْ أغصانُهُ

٦ـ وتأرّجتْ أرواحُه وتبرّجتْ
أشباحُهُ وتعمّمتْ كثبانُهُ

٧ـ وشكت تباريح الصبابة ورقه
وتمايلت بيد الصبا أفنانه

٨ـ يامفردا في حسنه صل مفردا
في حزنه لعبت به أشجانه

٩ـ صبا اذا ذكر العقيق وأهله
صابت مدامعه وجن جنانه[43]

قافية الهاء

[من مخلع البسيط]

(٤٤)

وقال:

١ـ سيّدنا لا.... حتّى
... له حلاوة

٢ـ كالفأس لا يستمرّ قطعاً
إلاّ وفي ثقبها هراوة[44]

قافية الياء

(٤٥)

وقال:

[من الوافر]



١ــ وما تركتْ لي السنــونُ...
ولـكن فـيَّ مـن شَبَقي بَقَايَا
٢ــ ويُعجبُني على شَيبي وفِقْهي
فقاحُ الترك تَلْمَعُ كالمرايا(٤٦)

(٤٦)
(من الخفيف)

وقال:
١ــ يا لقَومي من سابرٍ جُرْحَ نبلٍ
خرقَـتْ دونَ مُهجتِي السَّابـريَّا
٢ــ أخلفتْ وعدَها ومَا خَلَـفَ الشَّو
قُ إليها خَلْفَ البُكاءِ بـــكيّا
٣ــ إن أهلَ الزَّمـــانِ اجدرُ باللؤْ
مِ علـى اللُّومِ فاتخـذْهُمْ دَريَّا
٤ــ لـم يـحُلْ طبـعُهُ وحـالَ بنُوه
ولَحـالُوا عليه ظُلْماً جَليّـا(٤٨)

(٤٧) بيت واحد من مجزوء الرجز، حـذفته لسـخف دلالته، وهو في مسالك الأبصار ٧١١/١٥، ويضاف هذا البيت للأرجوزة المذكورة في ص١٢٧.

(٤٨) بيت واحد من المنسرح، حذفته للسبب نفسه، وهو في مسالك الأبصار ٧٠٦/١٥.

(٢) ما نسب إليه وإلى غيره من الشعراء:

(١)
(من الكامل)

ونسبه اليه، والصواب بأنه لبشار بن برد
١ــ وإذا نَسـيبُك غَلَّ ساعدَهُ
يوماً فَلَيس بنافعٍ نَسبـــهُ
٢ــ خُذْ من صديقك غيرَ مُتعبِه
إنَّ الـجوادَ يـؤودُهُ تَعَبُـهُ(٤٩)

(٢)
(من الوافر)

ونسب إليه وإلى غيره:
وَهَلْ يَخفَى عَلَى السَّارينَ نَهْجٌ
إذا ما البَدْرُ في الأُفْقِ استَنَارا(٥٠)

(٣)
(من الطويل)

ونسب إليه وإلى غيره في الوزير المنعوت بالجواد وزير عز الدولة 'بختيار الديلمي'.
١ــ أقامَ على الأهوازِ خمسينَ ليلةً
يُدبِّرُ أمرَ المُلكِ حـتَّى تَدَمَّرَا
٢ــ فـدبّر أمراً كـانَ أولُه رَدَى
وأوسطُه بَلْوَى وآخره خَرَا(٥١)

(٤)
(من البسيط)

ونسب إليه وإلى غيره في تواضع أنوشروان بن خالد وقيامه لكل من يدخل عليه:
١ــ هذا تواضعُك المشهورُ عن ضعَةٍ
تبدُو فمن أجلها بالكبر تُتَّهمُ
٢ــ قَعَدتَ عن صِلةِ الراجي وقُمْتَ له
فذا وُثُوبٌ على الطُّلاب لا لهُمْ(٥٢)

(٥)
(من الوافر)

ونسب إليه وإلى غيره في الصاحب نظام الدين:

١ــ برغمي أن أعنِّفَ فيك دهراً
قــليلاً فكرُهُ بـــمعنِّفيه
٢ــ وأن أرعى النجومَ ولستَ فيها
وأن أطأ الترابَ وأنت فيه(٢١)

أشعار متداخلة في ديوان ابن الهبارية:

وفي الديوان بــعض الأبـــيات اليتيمة، والنتف والمقطوعات الشعرية منسوبة إلى "ابن الهبارية" على أنها خالصة النسبة إليه، والصحـيح أنها من الشــعر المتدافع، وبعضها استشهد به ابن الهبارية في بــعض مؤلفاته من شــعر غيره، لذا كانت المبـــادرة هنا إلى الإفصاح عن هذه الأشـــعار توصلاً إلى تنقـــية تراثه الشعري من مثل هذا التداخل.

*فقد ورد في ص ٧٤ من الديوان البيتان التاليان:

١ــ ذكرتُك بالريحان لما شممتُهُ
وبالراح لما قابلت أوجُهَ الشربِ
٢ــ تذكَّرتُ بالريحانِ منك روائحاً
وبالراحِ طعماً من مُقبَّلِكَ الــعذبِ

دون ذكر لتدافعهما، والصحيح أنهما للعبـــاس بـــن الأحـــنف في ديوانه ٤٤، بـــرواية: "التفاح" بـــدلا من الريحان في البيتين، وفي البيت الثاني: "منك سوالفاً".

*كما ورد في ص ٧٨ البيتان التاليان:

١ــ قلت للنزلة لمّـــا   أن ألمّـــتْ بلهاتـــي:
٢ــ بحياتي خلِّ حلقي   فهْـــو دهليـــزُ حيَـــاتي

وجاء في الهامش: "قال القاضي أبو المحاسن بن شداد (٦٣٢هــ): أنشدني القاضي الفاضل لبعضهم، ونحـــن نزول على قلعة صفد (وذكر البيتين). وقال ابن خلكان: هذان البيتان منسوبان إلى ابن الهبارية المقـــدم ذكره والله اعلم".

قلت: البيتان لابـــن ســكرة في يتيمة الدهر ٣/٢٩، ونسبهما الأستاذ "عبود الشالجي" إليه في الفرج بـــعد الشدة ١/٢٢٩، وفيه تخريج على بـــعض المصادر، وهما لابن الحـــجاج في التذكرة الحـــمدونية ٤/٣٤٥ باختلاف الرواية في هذه المصادر.

*كما ورد ص ٩٤ البيت التالي:

تزورُكم لا تُكافيكمْ بجفوتكمْ
إنَّ الـــحبيبَ إذا لَـــم يُستزَر زارا

دون إفصاح عن تدافعه، وهو للعباس بن الأحنف في ديوانه ١٢٥، برواية: "المُحبَّ"، ومع هذا البيت بـــيت آخر.

*وكذلك ورد في ص ٩٧ البيتان التاليان:

١ــ فصوصُ زمرّدٍ في كيس درٍّ
حكتْ أقـــماعُها تقـــليمَ ظُفْرِ
٢ــ وقـــد خاط الربيعُ لها ثياباً
لها لونـــانِ من بيضٍ وخُضرِ

دون وجود ما يشير إلى تدافعهما، قلت: للصنوبـــري في المحب والمحبوب ٣/١٠٨ باختلاف الرواية، وفي تخريجهما ذكر لتدافعهما، وتثبـــيت لروايات بـــعض ألفاظهما.

*وورد في ص ١٤٧ البيت التالي:

أرى الطّريقَ قريباً حين أسلكُهُ
إلى الحبيبِ بعيداً حينَ أنصرفُ

على أنه خالص النسبة لابن الهبـــارية، والصواب أنه

للعباس بن الأحنف في ديوانه ١٨٩، وهو له في بهجة المجالس ٨١٩.

*وكذلك وردت في ١٧٥ من الديوان المقطوعة التالية:

أحسينُ والمبعوثُ جدُّك بالهدى
قسماً يكونُ الحقُّ عنهُ مُسائلي

لو كنتُ شاهدَ كربلا لبذلتُ في
تنفيس كربك جهدَ بذل الباذلِ

وسقيتُ حدَّ السيفِ من أعدائكم
عللاً وحدَّ السمهريِّ الذابلِ

لكنّني أُخّرت عنك لشقوتي
فبلابلي بين الغريِّ وبابلِ

هبّني حُرمتُ النصرَ من أعدائكمْ
فأقلَّ من حزنٍ ودمعٍ سائلِ

دون وجود نص يفيد بتدافعها.

واقول: هي له أيضاً في نظم درر السمطين ٢٢٥، وأعيان الشيعة ايضاً ٩ /٤٠٧

وهي لابن الجوزي في مناقب آل أبي طالب ٢/٢٧١، وبحار الأنوار ٤٥/٢٥٦، والعوالم ٥٦ باختلاف الرواية.

*وورد في ص ١٨٣ البيت التالي:

وكائنْ ترى من مُعجبٍ لك صامتٍ
زيادتُه أو نقصُهُ في التكلّمِ

على أنه خالص النسبة لابن الهبارية، والصواب، أنه من الشعر الذي استشهد به، فهو للأعور الشني في ديوانه ٣٩ (ط. الحيدري)، ونص محققه على تدافعه مع زهير بن أبي سلمى وزيادة الأعجم، وص ٣٦ (ط. المعيني)، ونص على التدافع مع زهير وعبد الله الجعفري، وهو لزياد الأعجم في ديوانه ١١٥ ضمن المنسوب إليه وإلى غيره، وفيه نص على التدافع مع زهير. وثمة مصادر أخرى كثيرة.

*وورد في ص ١٩٠ البيت التالي:

كيفَ السبيلُ إلى الغنى
والبُخلُ عندَ النّاسِ فطْنَة

على انه خالص النسبة لابن الهبارية، والصحيح انه استشهد به، فهو مطلع قصيدة لابن نباتة السعدي في ديوانه ١/٢٢٥.

*ووردت في ص ١٩١ النتفة التالية:

١ــ إنّ المرآةَ لا تُريـ
ـك عيوبَ وجهِكَ في صداها

٢ــ وكذاكَ نفسُك لا تُريـ
ـك عيوبَ نفسِك مَعْ هواها

على انها من شعر ابن الهبارية، والصواب أنها لابن الرومي في ديوانه ١/٧٤، ولنفطويه في بهجة المجالس ٨١٥ وفي روايتها اختلاف في بعض الألفاظ.

*ونسب البيت التالي في مجلة العرب في ص ٣٩٩ــ ٤٠٠، ج٧ــ٨س ٤٤ عام ١٤٣٠هـ:

أرض بها الحرُّ معدوم كأن لها
قد قيل في مثل لا حر بالوادي

لابن الهبارية اعتماداً على الدر الفريد ٢ /١٠٧، وورد في البيت ضمن استدراك على ديوان ابن الهبارية، والصواب أنه لجده، وقد نسبه إليه ابن الهبارية في



المصدر نفسه ١/٣٨٢، ومعجم البلدان ١ /٤٦٧ ضمن مقطعة فيهما.

تخريجات وروايات:

قلت آنفاً: إن امتداد المدة بين نشر الديوان حتى الآن أتاح لظهور مصادر جديدة، حملت لنا مادة علمية جديدة، تخص شعر ابن الهبارية، وغيره من دواوين الشعراء التي لم تصل إلينا أصولها المخطوطة، ومن المادة العلمية الجديدة غير الأبيات: التخريجات، والروايات. وإضافة مثل هذه الأمور إلى الديوان أمر مهم لما فيه من خدمة النص دراسة وتحقيقاً، ومن ثم بناء نتائج وتأسيس حقائق علمية على أسس متينة.

وأثبت هنا بعض ما وقفت عليه من الروايات والتخريجات الجديدة تاركاً أمر استقصائها إلى المحقق الفاضل، لعله يعود لعمله بالتقويم وطباعته من جديد في صورة أكمل وأتم مما هي عليه الآن. وأقول: إن التنقيب المستمر في مصادر التراث العربي من شأنه أن يرفدنا بأشعار جديدة لابن الهبارية، ومن ثم لا أزعم انني استقصيت كل ما له من شعر في المصادر، فربما يكون هناك بعض المصادر التي لا أعرفها، أو فاتني الاطلاع عليها، تحمل بين طياتها شعراً جديداً، لم تصل إليه يد بعد. وهذه بعض التخريجات والروايات الجديدة.

*وردت النتفة الأخيرة في ص٧٥ لابن الهبارية "في وفيات الأعيان ١٣٢/٥، والغيث المسجم ٢٠٤/٢، ورواية البيت الأول فيه هي: "وإن تكبر... بمنصبه"، ومسالك الأبصار ٧٠٧/١٥، والبيت الأول فيه برواية: "ولا تخدعك... إذا تتايه... بمنصبه"، والبيت الثاني فيه برواية: "لولا فلانة، والنتفة له في الكنى والألقاب ٢٥٣/١، والبيت الأول فيه برواية: "فاشرك حراً"، والبيت الأخير له في الوافي بالوفيات ١٤ /١٧٩، وشذرات الذهب ٣٥٧/٥.

*وردت النتفة الأولى في ص٧٧ منسوبة لابن الهبارية في انوار الربيع، ووفيات الأعيان ٥٥٤/٤ وحلبة الكميت ٣٨٢.

*ووردت الأبيات ١-٤، من القصيدة الثانية في ص٧٧ منسوبة لابن الهبارية في المستطرف ١٤١/٢، والبيت الأول فيه برواية: "أيجمل... من ذراك"، وورد البيت الثالث فيه برواية: "عن نوالك"، وورد البيت الرابع فيه برواية: "عم الورى كرماً".

*النتفة المذكورة في ص٨١ لابن الهبارية في لمح الملح ١ /٣٨١، وانظر ما بهامشه من مصادر، وهي له في مسالك الأبصار ٧٠٨/١٥، والدر المصون المسمى بسحر العيون ٤٣/٢، وتزيين الأسواق ١٥٩/٢، والبيت الأول منها فيه برواية: "تام علي"، والبيت الثاني فيه براوية: "ما أشتكي.... إلى الله".

*البيت الرابع في ص٨٤ له في مسالك الأبصار ٧٠٩/١٥، ومعه بيت لم يرد في الديوان تم استدراكه هنا.

*والنتفة التالية له بلا نسبة في معجم البلدان ٤٠٥/٢.

*والبيتان الأخيران في ص٨٤ لابن الهبارية في مسالك الابصار ٧٠٩/١٥، والبيت الثاني فيه برواية: "فلولا".

*والبيت التالي لهما لابن الهبارية في المرقصات والمطربات ٢٠٤.

*النتفة الاولى في ص٩٩ له في لمح الملح ٥٢٢/١، والاذكياء ١٦٧، ومسالك الابصار ٧١٠/١٥، ٧١٠/١٥،والبيت الاول منها فيه برواية: 'للشيخ الاجل'، والثاني فيه برواية: 'بي' بدلا من: 'لي'.

*والنتفة الاولى في ص١٠٠ له في مسالك الابصار ٧١٠،١٥، ومعهما في بيت تم استدراكه هنا.

*البيت الخامس في ص١٠٤ له في مسالك الابصار ٧١٠/١٥ برواية: 'في كفه' بدلا: 'من يده'.

*والبيت الخامس في ص١٠٥ له في مسالك الابصار ٧١٠/١٥.

*والنتفة الاولى في ص١٠٩ له في الدر الفريد ١١٩/٢.

*والبيتان ٣، ٥ في ص١١٦ له في الدر الفريد ٣٢٧/٥، والثالث فيه برواية: 'بإدراك العلى'، والخامس فيه برواية: 'فإن ساد'.

*والبيتان:٣، ٤ في ص١٢٤ له في مسالك الابصار ٧١١/١٥.

*والبيتان: ٦، ٧ في ص١٢٧ له في مسالك الابصار ٧١١/١٥، ومعهما بيت تم استدراكه هنا.

*والنتفة الاولى في ص١٣٥ له في الدر الفريد ٤٧٥/٥، ومستوفي الدواوين٢ /١١٩، ونسمة البحر ٣٦٨/٢، والبيت الاول فيه ٥٧٤/١، ورواية البيت الاول في الدر الفريد هي: 'يا واسطين اسمعوا... إنني دون الورى...'، ورواية البيت الاول في مستوفي الدواوين هي:

*ياواسطين... بالهجو فيكم أبدا'، ورواية البيت الثاني فيه هي: 'ما فيكم بين الورى واحد'.

*القصيدة المذكورة في ص١٣٨ـ ١٣٩ له في الدر الفريد ٢٤١/١، ورواية البيت الرابع فيه هي: 'والكير شين'، ورواية البيت السابع فيه هي: 'واضرب بعز'.

*والابيات ١ـ٣، ٥، ٦ في ص١٤٨ له في مسالك الابصار ٧١١/١٥، والبيت الثالث فيه برواية: 'يمدّ إلى صفاح'، والبيت السادس فيه برواية: 'وقد رقّ المدام وراق'، وهو له في لمح الملح٢ /٦٤٤.

*والنتفة الأولى في ص١٥٨ له في الدر الفريد ٣٩٤/٥، والثاني منها له فيه ص١٤٣/٤ برواية: 'منها... يوماً'.

*والبيتان ٢، ٣ في مسالك الابصار ١٥ /٧١٢.

*والأبيات: ٧ـ٩ في ص١٥٩ له في مسالك الأبصار ٧١٢/١٥، والسابع فيه برواية: 'فكان'، والتاسع فيه برواية: 'السحق'.

*والابيات ١ـ٤ في ص١٦٠ له في مسالك الأبصار ٧١٢/١٥، والثالث فيه برواية: 'إذا امتحق'

*والنتفة الأولى في ص١٦١ له في مسالك الأبصار ٧١٢/١٥.

*والبيت الثاني في ص١٦٧ له في مسالك الأبصار ٧١٢/١٥.

*والمقطعة الهزلية المذكورة في ١٧٢ له في اخبار الملوك ٢٦٩، ومعها ثلاثة أبيات جديدة تم استدراكها هنا، والبيت الثاني منها في مسالك الأبصار



٧١٢/١٥، ومعه ابيات تم استدراكها.

*والأبيات ٤ـ٦في ص١٧٣ له في مسالك الأبصار ٧٠٥/١٥، وورد البيت الأول منها فيه هكذا:

من كل تيس خرق بارد".

*والنتفة الأخيرة في ص ١٨٠ له في مسالك الأبصار ٧١٣/١٥، ورواية البيت الثاني منها فيه هي: "فكم رأيت في الهوى".

*والبيتان ٣،١ في ص١٨٥ له في الأنساب ٦٢٦/٥، والغيث المسجم ٢٠٥/٢، والبيت الأول فيه برواية: "يتبيدق"، والبيت الأول له في مسالك الأبصار ٧١٤/١٥.

*والنتفة الأولى في ص١٨٦ له في خريدة القصر (قسم شعراء العراق) ١٩٢/٢.

*والأبيات: ٤ـ٦ في ص١٨٨ له في مسالك الأبصار ٧١٤/١٥، والبيت الخامس فيه برواية: "فإنما".

*والنتفة الأخيرة في ١٨٨ له في وفيات الأعيان ٢٤٣/٤، وأنوار الربيع ٢٢٩/٥، ورواية البيت الأول فيه هي: "على شجن"، ورواية البيت الثاني فيه هي: "في نفس مسكين".

*والبيتان: ٣،٢ في ص ١٩٠ له في مسالك الابصار ٧١٤/١٥.

*والنتفة الثانية في ص ١٩٠ له في جوهر الكنز ص ٤٠١، والبيت الثاني فيه برواية: "بجلاله"

*لم ترقم نتف الديوان ومقطعاته وقصائده، وكذلك أبياته، لذلك يصعب على الدارس التحديد والمتابعة

*أرجوزة الشطرنج نشرها د. فايز القيسي في تحقيقه لكتاب أنموذج القتال في نقل العوال لابن أبي حجلة التلمساني.

*رقم الصفحة الصحيح في الإحالة الرابعة ص ١٩٠ هو ١٣١/١.

هذا ما تمكّنت من تعليقه وإضافته الى ديوان "ابن الهبارية"، ولا أدّعي أنني أتيتُ على كل ما يمكن إضافته، فمن المؤكد أن هناك مصادر أخرى تحتوي على أشعار جديدة لم أقف عليها، وكذلك لا أدعي أنني لم أسبق الى هذه الإضافات والتعليقات، فربما يكون هناك بعض الباحثين الفضلاء سبقني إليها، بيد أنني بحثت عن هذا فما وجدت، ولو كنت وجدت لأشرت، وحسبي أنني أخلصت واجتهدت وما قصرت.





(١) التخريج: مسالك الأبصار ١٥/ ٧٠٧.

(٢) التخريج: مسالك الأبصار ١٥/ ٧٠٦ ،وورد عجز البيت الخامس مكسوراً هكذا: "حين تعاين"، والصواب ما اثبت، والمقصود بأخلاق التيوس: التناطح، وورد صدر البيت السادس مضطرباً هكذا: "قديما... عن اذاه احتقارا. وورد عجز البيت الأخير مسكوراً هكذا: "تجمع... إنما تشاكلا"، ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) التخريج: مسالك الأبصار ١٥/ ٧٠٧، وورد عجز البيت الثاني مكسوراً هكذا: "وما جنيت منه رطباً"، ولعل الصواب ما تم إثباته، واستلهم الشاعر في هذا البيت المثل القائل: فيه:

وخبيت من خوص الركاب بأسود

من دارش فغدوت أمشي راكبا

الشرح: اقرانهن: جمع قرن، وهو: "ذؤابة المرأة وضفيرتها:" تاج العروس ٣٥/ ٥٢٩.

تصمي: أي تقتل. تاج العروس ٣٨/ ٤٤٤. خوص الركاب: "الخوص: جمع الخوصاء، وهي الناقة الغائرة العينين، وهو من امارة الكرم". شرح ديوان المتنبي (معجز أحمد) ٢/ ٣٠.

(٥) التخريج: مسالك الأبصار ١٥/ ٧٠٨، الشرح: العلائق: جمع علاقة، وهي: الحبُّ اللازم للقلب. تاج العروس ٢٦/ ١٢٩، وحالت علائقه: اي تغيرت محبته لي.

(٦) التخريج: مسالك الأبصار ١٥/ ٧٠٨، الشرح: أصحاب السبت: مذكورون في القرآن الكريم في سورة الأعراف الآية ١٦٣ وما بعدها، مسخهم الله ـ عز وجل ـ قروداً بسبب اعتدائهم واقترائهم في يوم السبت. ينظر تفسير القصة في كتب التفاسير المختلفة.

(٧) التخريج: لمح الملح ١/ ٣٥٨.

(٨) التخريج: مسالك الأبصار ١٥/ ٧٠٨.

(٩) التخريج: مسالك الأبصار ١٥/ ٧٠٨ ـ ٧٠٩.

(١٠) التخريج: معجم البلدان ٢/ ١١٨، وهي فيه من إنشاده. الشرح: "جرباذقان أيضا بلدة بين استراباذ وجرجان من نواحي طبرستان". معجم البلدان ٢/ ١١٨، وزرت: جمعت وشددت. ينظر: تاج العروس ١١/ ٤٢٢.

(١١) التخريج: إخبار الملوك ونزهة المالك والملوك في طبقات الشعراء ٢٦٨.

(١٢) التخريج: اخبار الملوك ونزاهة المالك والملوك في طبقات الشعراء ٢٦٨ ـ ٢٦٩. الشرح: "يقال: قد تبظرم الرجل: إذا كان احمق وعليه خاتم فيتكلم ويشير به في وجوه الناس، كذا في العباب. قلت: والعامة تسمي هذا الرجل البظرميت". تاج العروس ٣١/ ٢٩١. والغادة الحصان: الممتنعة. ينظر: ديوان عمرو بن كلثوم ص ٣١٤ في قوله:

وثدياً مثل حق العاج رخصاً

حصانا من اكف اللامسينا

(١٣) التخريج: مسالك الأبصار ١/ ٧٠٩. الشرح: وصعاد: جمع صعدة بالفتح، وهي القناة. تاج العروس ٨/ ٢٨٢.

(١٤) التخريج: مسالك الابصار ١٥/ ٧٠٩ ـ ٧١٠. الشرح: الصدغ، بالضم: ما انحدر من الرأس ال مركب اللحيين ومن المجاز: الصدغ: هو الشعر المتدلي على هذا الموضع: "تاج العروس ٢٢/ ٥٢٤. مبلبل: اي متحرك مضطرب. ينظر تاج العروس ٢٨/ ١١٤. والحندس: بالكسر: الليل المظلم". تاج العروس ١٥/ ٥٦١.

(١٥) التخريج: مسالك الأبصار ١٥/ ٧٠٩ دون البيت العاشر، والأبيات: ٧ ـ ١٠، له في إخبار الملوك ونزهة المالك والملوك في طبقات الشعراء ٢٦٩، والبيت الأول في الديوان ص ٨٤ ضمن مقطعة، هذه الأبيات ليست من بينها.

الرواية: (٨) ورد في البيت الثامن في مسالك الأبصار خطأ نحوي،

إذ ورد هكذا: "غدا... جسداً، وورد على الوجه الصحيح في إخبار الملوك ونزهة المالك والمملوك في طبقات الشعراء. الشرح: السرارُ من الشهر: آخرُ ليلة منهُ يستترُ الهلالُ بنور الشمس". تاج العروس ١٦/١٢. و"العلج: الرّجل من كفار العجم، والقويّ الضخمُ منهم". تاج العروس ١٠٨/٦. والصديان: العطشان. ينظر: تاج العروس ٤١٤/٣٨. والآل: السراب. تاج العروس ٣٤/٢٨. وجعد الأنامل: أي بخيل. ينظر: تاج العروس ٥٠٢/٧. ومريد: صفة للجسد، وهو: "الشيطان الذي كان دفع إليه سليمان خاتمه، فقذفه في البحر، وكان ملك سليمان في خاتمه، وكان اسم الجنيّ صخراً". تفسير الطبري، المسمى بجامع البيان في تأويل القرآن ١٩٧/٢١. وقد تأثر الشاعر في البيت الثامن بالآية الكريمة المذكورة في سورة ص ٣٤، وهي: "ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثمّ أناب".

(١٦) التخريج: مسالك الأبصار ٧٠٥/١٥.

(١٧) التخريج: مسالك الأبصار ٧١٠/١٥، وورد في البيت الأخير فيه بزيادة الحرف: "أو" قبل: "احفظه"، وهي زيادة أخلت بالوزن، كذلك حذفتها.

(١٨) التخريج: مسالك الأبصار ٧١٠/١٥، ويضاف للنتفة المذكورة في ص٩٩ـ١٠٠.

(١٩) التخريج: الدر الفريد ٣٥٥/٣.

(٢٠) التخريج: مسالك الأبصار ٧٠٥/١٥. الشرح: قال الجواليقي: "والطبرزين: فارسي، وتفسيره فاس السرج، لأن فرسان العجم تحمله معها يقاتلون به". المعرّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم ٢٧٦.

(٢١) التخريج: مسالك الأبصار ٧٠٥/١٥ـ٧٠٦، الشرح: "والخرص: بالضم ويكسر: حلقة الذهب والفضة". تاج العروس ٥٦٤/١٧. العوسجة: شجر من شجر الشوك تاج العروس ١٠١/٦، "والخصّ": بالضم: البيت من القصب". تاج العروس ٥٥٣/١٧.

(٢٢) التخريج: مسالك الأبصار ٧١١/١٥.

(٢٣) التخريج: مسالك الأبصار: ٧٠٤/١٥ـ٧٠٥.

(٢٤) التخريج: مسالك الأبصار ٧١١/١٥، ويضافان للقصيدة المذكورة في ص١٤٧ـ١٤٨، ويوضعان بعد البيت السابع فيه. "السجف: بالفتح، ويكسر: الستر". تاج العروس ٤١٤/٢٣. الشرح: ذكا عروس: "أي شدة نفاذ عطرها الطيب. ينظر: تاج العروس ٩٦/٣٨.

(٢٥) التخريج: خريدة القصر وجريدة العصر (في ذكر فضلاء اهل فارس) ص٥٩/٣. الشرح. التالد: القديم. ينظر: تاج العروس ٤٥٧/٧. والطارف: الحديث. ينظر: تاج العروس ٧٢/٢٤.

(٢٦) التخريج: مسالك الأبصار ٧١٢/١، ويضاف للقصيدة المذكورة في ص١٥٩ـ١٦٠، ويوضع في نهايتها.

(٢٧) التخريج: وردت المخمسة تامة في جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام ١١٦١ـ١١٦٧، وورد احد أشطر الخمسة مكسوراً هكذا: "فهو الأنام رجلٌ" بسقوط حرف الجر (في)، وقد أضفته لاستقامة الوزن. ووردت الخمسة ناقصة في الديوان ص١٧٨ـ١٨٠، وقد أسقطت منها ما ورد هناك ما عدا المطلع فقط، ويذكر أن فيما أسقطته روايات لبعض ألفاظه في جمهرة الإسلام. الشرح: الإطرار: الإغراء". تاج العروس ٤٢٤/١٢. والترويق: التصفية يقال: روق الشراب: إذا صفاه بالراووق" تاج العروس ٣٧٨/٢٥. والنهل: السقية الأولى". تاج العروس ٤٤/٣٠. و"العلّ، والعلل محركة: الشربة الثانية أو الشرب بعد الشرب تباعا "تاج العروس ٤٤/٣٠. و"الحقف، بالكسر: المعوج من الرّمل....... الحقف كمنبر: من لا يأكل ولا يشرب، وكأنه من مقلوب قفح. واحقوقف الرّمل، والظهر، والهلال: طال، واعوج، اقتصر الجوهريّ على الرّمل والهلال، وقال فيهما: اعوج"تاج العروس ١٥٦/٢٣ـ١٥٧، ولعل في البيت تصحيفاً. والجذل: الفرح والسرور. ينظر: تاج العروس ١٩٨/٢٨. و"الطفل الطفالة: إقبال الليل على النهار بظلمته، والظلمة نفسها والوقت قبيل غروب الشمس، أو بعد العصر إذا طفلت الشمس للغروب. وطفل العشي: آخره عند غروب الشمس واصفرارها والوقت بعيد طلوع الشمس. وطفل الغداة: بعيد طلوع الشمس" المعجم الوسيط ٥٦٠. و"قطربل بالضم ثم السكون ثم فتح الراء وباء موحدة مشددة مضمومة ولام وقد روي بفتح أوله



وطائه وأما الباء فمشددة مضمومة في الروايتين وهي كلمة اعجمية اسم قرية بين بغداد وعكبرا ينسب إليها الخمر وما زالت متنزهاً للبطالين وحانة للخمارين وقد أكثر الشعراء من ذكرها". معجم البلدان ١٤/٣١٧. حي هلا، "ولقد يسمع قولي، حيَّ هل وكقول الآخر- هيهلا وحيهله، وإنما جمعها من كلمتين (حيّ كلمة على حدة ومعناه هلمّ وهل، حثيثي فجعلهما كلمة واحدة). وكذلك ما جاء في الحديث: (إذا اذكر الصالحون فحيهلاً بعمر): اي فأت بذكر عمر: "تاج العروس ٦/٢٩٢، والبيع: معابد النصارى: المعجم الوسيط ٧٩، و"الهزائز: الشدائد تاج العروس ١٥/٣٨٦، والرباب: جمع الربى: النعمة والإحسان والحاجة". المعجم الوسيط ٣٢١. والنقل: الريش ينقل من سهم إلى آخر". المعجم الوسيط ٩٤٩.

(٢٨) التخريج: الدر الفريد ٣/٣١١، والبيت الأخير ٥/٤٣٨.

(٢٩) التخريج: الدر الفريد ٢/٣٣٤.

(٣٠) التخريج: مسالك الأبصار ١٥/٧١٣، وورد عجز البيت الأول فيه هكذا: "وخلى النسا"، ولعل الصواب: "السنا"، اي الضوء؛ بدلالة عجز البيت الثاني. وورد صدر البيت الثاني: "ظني قبل"، وبهذا اضطرب وزن البيت، ولعل الصواب ما تم إثباته. وورد عجز البيت الأخير مكسوراً ومحرفاً هكذا: "إلا اماني فيه من الحبل"، ولعل الصواب ما أثبتنا، ومعنى البيت: لو لم يكن من الحبل إلا الأكاذيب. وتضاف هذه الأبيات للمقطعة الهزلية المذكورة في ص١٧٢، وتوضع فيها بعد البيت الثاني.

(٣١) التخريج: إخبار الملوك ونزهة المالك والمملوك في طبقات الشعراء ص٢٧٠، وتضاف للمقطعة الهزلية المذكورة في ص١٧٢ من الديوان، وتوضع بعد البيت الأخير فيها، وهو:

ووجهه البدر تحت طرّته   يبدو كصبح بالليل مشتمل

ولعل القطعتين: (٣١، ٣٢) من قصيدة واحدة.

(٣٢) التخريج: مسالك الأبصار ١٥/٧١٣.

(٣٣) التخريج: مسالك الأبصار ١٥/٧٠٥، ويضاف في ص١٧٣، ويوضع بعد البيت الرابع فيها.

الشرح: "الطرف: الكريم من الخيل العتيق". تاج العروس ٢٤/٧١، وحِلُّ الدابة: الذي تلبسه لتصان به. لسان العرب ٦٦٤.

(٣٤) التخريج: مسالك الأبصار ١٥/٧١٣.

(٣٥) التخريج: لمح الملح ٢/٧٦٨. الشرح: راي فائل: اي ضعيف، ينظر: تاج العروس ٣٠/٢٠١. ومفلول: اي مهزوم. ينظر: تاج العروس ٣٠/١٨٩.

(٣٦) التخريج: المختار من شعر شعراء الأندلس ١١٥، والدر الفريد ١/١١١.

(٣٧) التخريج: الفخري في الآداب السلطانية ٣٠٧، وأعيان الشيعة ٣/٥٠٤.

(٣٨) التخريج: مسالك الأبصار ١٥/٧٠٦، وكذا ورد البيت الثاني.

(٣٩) التخريج: نهاية الأرب ٣/ ٣١٧.

(٤٠) التخريج: نهاية الأرب ٣/ ٣١٧.

(٤١) التخريج: الدر الفريد ٣/ ١٨٤.

(٤٢) التخريج: مسالك الأبصار ١٥/٧١٣ـ ٧١٤.

(٤٣) التخريج: إخبار الملوك، ونزهة المالك والمملوك في طبقات الشعراء ٢٧٠، والأبيات ١، ٢، ٧ـ ٩ بلا نسبة في الدهش ٢٤٨. الرواية: (١) ورد البيت الأول في الدهش برواية: "العقيق وبانه". (٢) ورد البيت الثاني فيه برواية: "راقت خمائله.. عصياته". الشرح: "الرّند: شجرٌ بالبادية طيّب الرائحة، يستاك به، وليس بالكبير، وله حبٌّ يسمّى الغار، واحدته: رندة. وقال أبو عبيدة: ربما سمّوا العود الذي يتبخر به رنداً". تاج العروس ٨/١٢٠.

(٤٤) التخريج: مسالك الأبصار ١٥/٧١٤.

(٤٥) التخريج: مسالك الأبصار ١٥/٧٠٣.

(٤٦) التخريج: لمح الملح ٢/٩٨٢. الشرح: السابري: ثوب رقيق جيّد... من أجود الثياب". تاج العروس ١١/٤٩١.

(٤٧) التخريج: البيتان لابن الهبارية في مسالك الابصار ١٥/٧٠٧، وهما لبشار بن برد في ديوانه ١/٢٧١. الرواية: (١)ورد البيت الأول في ديوان بشار برواية: "ونأى فليس".

(٤٨) التخريج: الدر الفريد ٥/٣٤٠، وهو لابن الخياط

الدمشقي في ديوانه ص٥.

(٤٩) التخريج: نسمة البحر٢/ ٥٤٩، وهما لأبي غسان البصري الطبيب في الإمتاع والمؤانسة٣/ ٧٨، ووفيات الأعيان٥/ ١١٩، ومرآة الجنان٢ / ٢٩٤، ونكت الهميان ٢٧٢، والوافي بالوفيات ١/ ١٠١، وحرف الاسم فيه إلى: "أبي عنان الطبيب". الرواية: (١) ورد البيت الأول في الإمتاع والمؤانسة برواية: "ستين ليلة". (٢) وورد البيت الثاني في الإمتاع والمؤانسة برواية: "يدبر أمراً كان اوله عمى* وأوسطه ثكلاً"، وورد في وفيات الأعيان، ونكت الهميان، مرآة الجنان برواية: "كان أوله عمى".

(٥٠) التخريج: الفخري في الأدب السلطانية ٣٠٦، وأعيان الشيعة ٣/ ٥٠٤، وهما لأبي القاسم، هبة الله بن الفضل الشاعر في خريدة القصر٢/ ٢٧٧. الرواية: (١) ورد البيت الأول في خريدة القصر برواية: "قصرت من اجله"(٢) وورد البيت الثاني فيه برواية: "قعدت عن صلة الراجي".

(٥١) التخريج: مستوفى الدواوين٣/ ١٠٩، وهما لأحمد بن عبد الله بن فضال، الماهر الحلبي في فوات الوفيات١/ ١٠٧، الوافي بالوفيات٧ / ١٧٣ ـ ١٧٤، ولابن حبيب الحلبي في نسيم الصبا ١٣٣. الرواية (١) ورد البيت الأول في الوافي بالوفيات برواية: "برغمي أن الوم عليك دهرا".

المصادر:

١ـ أخبار الأذكياء: لابن الجوزي (ت٥٩٧ هـ)، تحقيق: محمد مرسي الخولي، المكتب الشرقي للنشر والتوزيع

٢ـ إخبار الملوك ونزهة المالك والمملوك في طبقات الشعراء، المنصور بن محمد الأيوبي (ت٦١٧ هـ)، تحقيق: د. ناظم رشيد، بغداد، ٢٠٠١م.

٣ـ أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين (ت١٣٧١ هـ)، تحقيق، تحقيق وتخريج: حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت.

٤ـ الإمتاع والمؤانسة: لأبي حيان التوحيدي (ت٤٠٠ هـ تقريبا)، تحقيق: أحمد امين، وغيره، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٤م.

٥ـ الأنساب: للسمعاني (ت٥٦٢ هـ)، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، دار الجنان، بيروت، ١٩٨٨م.

٦ـ أنوار الربيع في أنوار البديع: لابن معصوم (ت١١٢٠هـ)، تحقيق: شاكر هادي شكر، النجف، ١٩٦٨م.

٧ـ بحار الأنوار، العلامة المجلسي (ت١١١١هـ)، تحقيق: محمد الباقر البهبودي، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م.

٨ـ بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس: لابن عبد البر القرطبي (٤٦٣هـ)، تحقيق د: محمد الخولي، دار الكتب العلمية، د. ت.

٩ـ تاج العروس: للزبيدي (ت١٢٠٥هـ)، تحقيق: نخبة من المحققين، سلسلة التراث العربي، الكويت، نشر على سنوات متعددة.

١٠ـ التذكرة الحمدونية: لابن حمدون (ت٥٦٢هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

١١ـ تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق: لداود الأنطاكي (ت١٠٠٨هـ)، تحقيق: محمد التونجي، عالم الكتب، ١٩٩٣م.

١٢ـ جامع البيان في تأويل القرآن: لمحمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، تحقيق: احمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٠م.

١٣ـ جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام: للشيزري (ت٦٢٢هـ)، تحقيق: محمد ابراهيم حور، المجمع الثقافي، ابو ظبي، ٢٠٠٥م.

١٤ـ جوهر الكنز: لأحمد بن الأثير الحلبي (ت٧٣٧هـ)، تحقيق: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، ١٩٨٣م.

١٥ـ حلبة الكميت: للنواجي (٨٥٩هـ)، مطبعة إدارة الوطن، ١٢٩٩هـ.

١٦ـ خريدة القصر وجريدة العصر، للعماد الأصفهاني (ت٥٩٧هـ)، القسم العراقي: تحقيق: محمد بهجة الأثري، المجمع العلمي العراقي، ١٩٦٤م.

١٧ـ الدر الفريد وبيت القصيد: لمحمد بن أيدمر (ت٧١٠هـ)،

مخطوط طبعه مصوراً د. فؤاد سزكين، فرانكفورت، ١٩٨٩م.

١٨- الدر المصون المسمى بسحر العيون: للبدري الدمشقي (٨٩٤هـ)، نشره: سيد صديق عبد الفتاح، ط دار الشعب، ١٩٩٨م.

١٩- نظم درر السمطين: للزرندي الحنفي (ت ٧٥٠هـ)، ط١، ١٩٥٨م.

٢٠- ديوان ابن الخياط الدمشقي (ت٥١٧هـ)، تحقيق: خليل مردم بك، مجمع اللغة العربية، دمشق، المطبعة الهاشمية، ١٩٥٨م.

٢١- ديوان ابن الرومي (ت٢٨٣هـ): شرح: احمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٢م.

٢٢- ديوان ابن نباتة السعدي (ت٤٠٥هـ)، تحقيق: عبد الأمير مهدي الطائي، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٧م.

٢٣- ديوان الأعور الشني (ت٥٠هـ)، جمع وتحقيق: السيد ضياء الدين الحيدري، دار المواهب، ط١، ١٩٩٩م، وجمع وتحقيق: عبد الحميد العيثي، ضمن كتاب: شعراء عبد القيس وشعرهم في العصرين الإسلامي والأموي، مؤسسة عبد العزيز البابطين، ٢٠٠٢م.

٢٤- ديوان العباس بن الأحنف (ت١٩٢هـ)، شرح وتحقيق: عاتكة الخزرجي، دار الكتب المصرية، ١٩٥٤م.

٢٥- ديوان بشار بن برد (ت١٦٧هـ)، تحقيق وشرح: محمد الطاهر ابن عاشور، وزارة الثقافة، الجزائر، ٢٠٠٤م.

٢٦- ديوان عمرو بن كلثوم التغلبي، تحقيق: أيمن ميدان، النادي الأدبي، جدة، ١٩٩٢.

٢٧- زهر الأكم في الأمثال والحكم: للحسن اليوسي (ت١١٠٢هـ)، تحقيق: محمد حجي، دار الثقافة - المغرب ١٩٨١م.

٢٨- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: لابن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ)، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، وغيره، دار ابن كثير، دمشق.

٢٩- شرح ديوان المتنبي (معجز احمد): المنسوب - وهما - لأبي العلاء المعري (ت٤٤٩هـ)، تحقيق: عبد المجيد دياب، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٩٢م.

٣٠- شعر زياد الأعجم (ت١٠٠هـ)، جمع وتحقيق: يوسف حسين بكار، دار المسيرة، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.

٣١- شعر ابن الهبارية (ت٥٠٩هـ)، جمع وتحقيق: محمد فائز سنكري طرابيشي، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٧م.

٣٢- العوالم، الإمام الحسين: للشيخ عبد الله البحراني (ت١١٣٠هـ)، تحقيق: مدرسة الإمام المهدي، مطبعة أمير، قم، ط١، ١٤٠٧هـ.

٣٣- الغيث المسجم في شرح لامية العجم: للصفدي (ت٧٦٤هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩٠م.

٣٤- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية: لابن الطقطقا (ت٧٠٩هـ)، دار صادر، بيروت.

٣٥- الفرج بعد الشدة: للقاضي التنوخي (ت٣٨٤هـ)، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨م.

٣٦- فوات الوفيات والذيل عليها، لابن شاكر الكتبي (ت٧٦٤هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

٣٧- لمح الملح: لأبي المعالي الحظيري (ت٥٦٨هـ)، تحقيق: يحيى عبد العظيم، دار الكتب المصرية، ٢٠٠٧م.

٣٨- مجلة العرب: ج٧-٨س٤٤ عام ١٤٣٠هـ.

٣٩- المحب والمحبوب والمشموم والمشروب: للسري الرفاء (ت٣٦٢هـ) تحقيق: ماجد الذهبي، وغيره، دمشق ١٩٨٦م.

٤٠- المختار من شعر شعراء الأندلس: لابن الصيرفي (ت٥٤٢هـ)، تحقيق: هلال ناجي، مجلة المورد، مج٤، ع٤، ١٩٧٥م.

٤١- المدهش: لابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، تحقيق: مروان قباني: دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٢- مرآة الجنان: لليافعي اليمني (ت٧٦٨هـ)، نشره: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧.

٤٣- المرقصات والمطربات: لابن سعيد الأندلسي (ت٦٨٥هـ)، تحقيق: إبراهيم الجمل، دار الفضيلة، القاهرة



٤٤ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ج١٥، لابن فضل الله العمري (ت٧٤٩هـ)، تحقيق: د. وليد محمود خالص، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٤م.

٤٥ـ المستطرف من كل فن مستظرف، للإبشيهي (ت٨٥٢هـ)، تحقيق: إبراهيم صالح، دار صادر، ط١، ١٩٩٩م.

٤٦ـ مستوفى الدواوين: لمحمد بن عبد الله الأزهري (ق٩هـ)، تحقيق: زينب القوصي، ووفاء الأعصر، مركز تحقيق التراث، القاهرة، ٢٠٠٤م.

٤٧ـ معجم البلدان: لياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ)، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.

٤٨ـ المعجم الوسيط: إصدار مجمع اللغة العربية ـ مكتبة الشروق الدولية ـ القاهرة ـ ط٤ ـ ٢٠٠٤م.

٤٩ـ المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم: للجواليقي (ت٥٤٠هـ)، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، مطبعة دار الكتب المصرية، ط٣، ١٩٩٥م.

٥٠ـ مناقب آل ابي طالب: لابن شهر أشوب (ت٥٨٨هـ)، تحقيق: لجنة من أساتذة النجف الأشرف، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، العراق، ١٩٥٦م.

٥١ـ نسمة السحر بذكر من تشيع وشعر، للصنعاني (ت١١٢١هـ) تحقيق: كامل الجبوري، دار المؤرخ، بيروت، ط١، ٩٩٩م.

٥٢ـ نسيم الصبا: لابن حبيب الحلبي (ت٧٧٩هـ)، تحقيق: محمود فاخوري، دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٣م.

٥٣ـ نكت الهميان في نكت العميان: للصفدي، تحقيق: أحمد زكي بك، المطبعة الجمالية، مصر، ١٩١١م.

٥٤ـ نهاية الأرب: النويري (ت٧٣٣هـ)، نسخة مصورة عن مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٢هـ ومابعدها.

٥٥ـ الوافي بالوفيات: للصفدي، تحقيق لفيف من المحققين، دار نشر فرانز شتاينر، فيسبادن.

٥٦ـ وفيات الأعيان: لابن خلكان (ت٦٨١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٤م.

٥٧ـ يتيمة الدهر، لأبي منصور الثعالبي (ت٤٢٩هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، ١٩٥٦م.





توظيفُ الشِّعرِ في تراجمِ القُدماء

-تأريخ بغداد أو مدينة السلام- أنموذجا



عبد العزيز إبراهيم
باحث من العراق / الديوانية

تقديم خارج التوظيف

تكمن أهمية "تأريخ بغداد أو مدينة السلام" للخطيب البغداديّ كونها أظهرت الجهد الذي بذله الأوائل رجالاً ونساءً في بناء الحضارة الاسلاميّة وبذلك شكّلت هذه الكتابة نقلة نوعيّة في التراجم والسير. وفي هذا يقول د. بشار عواد معروف "عُني العرب المسلمون بكتابة تأريخ الأمة، وتأريخ الأمة هو تأريخ الشعب وأفراده، فدوّنوا سِيرَ الناس وعرضوها بصور وأشكال متنوعة في مؤلفاتهم فنظموها على الطبقات (أجيال) أو أنساب، أو الوفيات، أو على حروف المعجم أو على البلدان."[1] فجاء ترتيبه الأول عند كارل بروكلمان في (تواريخ المدن والأمصار) وعرّف به قائلاً: "تأريخ بغداد" تأريخ علمائها خاصة في أربعة عشر مُجلداً.. طبع في القاهرة سنة ١٣٤٩هـ - ١٩٣١م على أساس مخطوطة كوبريلي وقد حدث سقط في القسم الخاص بالمحمدين يشتمل على أكثر من ثلثمائة ترجمة كما لاحظ ريتر في مجلة Der Islam ولكنه إستدرك في المجلد الخامس"[2] فضلاً عن طبعات غيرها، أما مَنْ سبق الخطيب البغدادي في تأليف كتاب عن تأريخ بغداد فهو أبو بكر محمد بن عمر بن محمد بن سلم التميمي المعروف بابن الجِعَابي (نسبة الى الجعبة التي توضع فيها السهام) المتوفى سنة ٣٥٥هـ قال عنه الخطيب البغدادي في ترجمته "إنه لم يَر في البغداديين أحفظ منه"[3] وكان "عالماً كبيراً من علماء فن التراجم" كما يقول د. بشار عواد معروف[4] لكن اللافت للنظر

قول الخطيب البغدادي في ترجمته "وكان أوصى بأن تحرق كتبه فأحرقت جميعها"[4] وهذه الوصية أغرب ماقرأت!

وقد اختصره القاضي ابو اليمين مسعود بن محمد (ت/٤٦١هـ) ووضع ابن جزلة الحكيم البغداديّ (ت٤٩٣هـ) مختار مختصر كتاب تأريخ بغداد. وصنع له ذيلاً أبو البركات هبة الله (ت/٥٠٩هـ)[5] ثم كتب أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني (ت/٥٦٢هـ) تتمة لتأريخ بغداد باسم "ذيل تأريخ بغداد"[6] وبعده نشر الحافظ أبو عبد الله محمد بن سعيد المعروف بابن الدبيثي الواسطيّ (ت/٦٣٧هـ) كتابه "ذيل على ذيل ابن السمعاني"[8] وتابعهم محمد بن محمود المعروف بابن النجار (ت/٦٤٣هـ) ثم ظهر "المختصر المحتاج اليه من تأريخ الحافظ أبي عبد الله ابن الدبيثي" للحافظ شمس الدين محمد بن عثمان الذهبي[9] (ت/٧٤٨هـ) ومعاصره أحمد بن أيبك الدمياطي (ت/٧٤٩هـ) في كتابه "المستفاد من ذيل تأريخ بغداد"[10] أما مؤلف هذا السفر فهو (الحافظ أبو بكر أحمد بن عليّ بن ثابت بن أحمد بن مهدي بن ثابت البغدادي المعروف بالخطيب (٣٩٢ـ ٤٦٣هـ) قال عنه ابن خلكان في وفياته[11] "كان من الحفاظ المتقنين والعلماء المتبحرين، ولو لم يكن له سوى التأريخ ـ يقصد تاريخ بغداد ـ لكفاه، فإنّه يدلّ على اطلاع عظيم.. وكان فقيها فغلب عليه الحديث والتأريخ." ويزيد ابن العماد الحنبلي في شذراته من آراء العلماء فيه فيذكر ابن ماكولا الذي قال فيه "لم يكن للبغداديين بعد الدارقطني مثله"[12] فضلاً عن ابن السمعاني في مدحه والثناء عليه.

أما بروكلمان في تأريخه[13] فإنه يُعدّد رحلاته ومعاناته مابين العراق والشام. وقد ترجم له غير هؤلاء ياقوت الحَمويّ في معجم الأدباء[14] ومعجم البلدان[15] حيث يقول في معجم الأدباء "وله ستة وخمسون مُصنفاً بعيدة المثل"[16] وغيرهم[17] يذكر ياقوت الحموي في ترجمته للخطيب البغدادي مدى نباهته ودقة ملاحظته في التأريخ بعد عودته الى بغداد سنة ٤٦٢هـ فقال: "ورجع إلى بغداد فقُرِّب من رئيس الرّؤساء أبي القاسم بن مسلمة، وزير القائم بأمر الله. وكان قد أظهر بعض اليهود كتاباً، وادّعى أنه كتاب رسول الله (ص) بإسقاط الجزية عن أهل خَيْبَر وفيه شهادات الصّحابة، وانّه خط عليّ بن أبي طالب (رض) فعرضه رئيس الرؤوساء على أبي بكر الخطيب، فقال: هذا مُزوّر فقيل له: من أين لك ذلك؟ قال: في الكتاب شهادة مُعاوية بن أبي سُفيان، ومُعاوية أسلم يوم الفتح ـ أي فتح مكة سنة ٨هـ ـ وخيبر كانت في سنة سبعٍ، وفيه شهادة سعد بن معاذ، وكان قد مات يوم الخندق، في سنة خمسٍ، فاستحسن ذلك منه"[18].

وهناك إشارة من ياقوت الحمويّ في ترجمته بمعجم الأدباء يقول عنه: "كان حسن القراءة، فصيح اللهجة، عارفاً بالأدب، يقول الشعر الحسن" ثم ينقل عن ابن الجوزيّ قوله "ونقلت ـ من خطّه ـ من شعره قوله:



لعمرك مـــا شجانـــي رسمُ دار
وقَفْتُ بها ولا ذكرُ المغاني"[٢٩]

وهي قصيدة في ستة عشر بيتاً فضلاً عن مقـطعات أخرى بخمسة وثلاثين بـيتاً. وتبقـى ملاحـظتان عن حفظه وخُلُقه نتعرف عليهما في جواب أبـي القاسـم الشيرازي أحد معاصري الخطيب "قلت: هل كان أبو بكر الخطيب كتصانيفه في الحفظ؟ فقال: لا، كُنّا إذا سـألناه عن شـيء أجابـنا بـعد أيام، وإن ألحَحنا عليه غضب وكانت له بادرة وحشة"[٣٠] أي أنه لم يكن سريع الإجابة حفظاً وفي طبعه نفور لا أنس فيه. ولكن ذلك لا يقلل من مكانة هذا الرجل الكبير علماً، أو كتابة الموسوعة مدار بحثنا هذا.

توظيف الشعر في تراجم الخطيب

ألزم الخطيبُ البغداديُّ نفسَهُ بنهج في تراجم تأريخه فقال في مقـدمة الكتاب أو خطة المؤلف وهو يتحـدث عمن ترجم لهم. فقال:ـــ

"وهذه تسمية الخلفاء والأشراف والكبراء والقضاة والفقهاء والمحـدثين والقـرّاء والزّهاد والصلحـاء والمتأدبين والشـعراء من أهل مدينة السـلام. الذين وُلدوا بها أو بسـواها من البـلدان ونزلوها، وذكر من انتقل منهم عنها ومات ببلدة غيرها، ومن كان بالنواحي القريبة منها، ومن قدمها من غير أهلها، وما انتهى الى من معرفة كناهم وأنسابـهم، ومشـهور مآثرهم وأحسابهم ومستحسـن أخبـارهم، ومبـلغ أعمارهم وتأريخ وفاتهم وبـيان حـالاتهم وماحـفظ فيهم من الألفاظ، عن أسلاف أئمتنا الحفاظ، من ثناء ومدح، وذم وقدح وقبـول وطرح، وتعديل وجرح، جمعت ذلك كله وألفته أبواباً مرتبة على نسق حروف المعجم من أوائل اسمائهم..."[٣١] وقد تجاوزه بذكر اسم محـمد تبـركاً برسول الله (ص) فالرجل لم يذكر الشعر الذي استشهد به في كتابه ولم يذكر الشـعراء الذين ترجم لهم إلا في نهاية تسـميات رجاله. وهذا الاهمال لم يكن فواتاً بـل اشارة دالة على أن المؤرخين من كُتّاب السِّير والتراجم توارثوا تزيين كتبهم بأبيات من الشعر مثلما وجدوا في الحكاية وسيلة لتوصيل المكتوب لقرائهم بعد أن شـاع قول "الشـعر ديوان العرب" فتسـارع هؤلاء الى نقـل أشعار القدماء سواء صحت نسبتها للشـاعر أم كانت منحولة عليه ولعل أول مَنْ أفسد الشعر كما يقول ابـن سلاّم في طبقاته هو ابن اسحق لأنه (هجّنه وحـمل كل غُثاء منه.. وكان أكثر علمه بالمغازي والسِّير.. فقبـل الناس عنه الاشعار، وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لي بالشعر.. أُتينا به فأحمله... فكتب في السـير أشـعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط، ثم جاوز ذلك الى عاد وثمود فكتب لهم أشعاراً كثيرة.. أفلا يرجع الى نفسـه فيقول: مَنْ حـمل هذا الشـعر؟ ومن أدّاه منذ آلاف من السنين"[٣٢] أما الخطيب البغدادي فإنه يختلف عن ابـن اسحق وإنْ جاء بعده فيذكر لنا شعراً يحتاج الى التدقيق أو التحقيق عند روايته[٣٣] بالرغم مما كتبه ابـن خلكان عنه "كان من الحفاظ المتقنين والعلماء المتبحـرين"[٣٤] أقول كما قال ابن اسحق: "لا علم له بالشعر" فهو حافظ للشـعر ولم يكن مُحقّقـاً فيه لا يخرج عنده عن زينة لتراجمه. أما نسبـة النّصّ لصاحبـه أو صحـته أو





المناسبة التي قيل فيها، فهذه لا ينظر اليها الخطيب البغداديّ إلاّ نادراً فضلاً عن اختلاف الشعر الذي استشهد فيه الخطيب عما جاء في ديوان الشاعر وهو ما تسميه رواية النصّ، فهذه لم يعرها الرجل أي اهتمام قدر اهتمامه بملاءمة القول لصاحب الترجمة!! ولكن ذلك لا يعني أننا نفقد أية إشارات دالة على نسبة الشعر أو مناسبته وسط هذا الركام من التراجم فنواجه اشارتين نتوصل بهما الى تحقيق النصّ الشعري عند الخطيب البغدادي وهما:ـ طرق عرض الشعر وتوثيقه.

أولاً:ـ طرق عرض الشعر

ويتضح ذلك من قراءتنا عندما يستشهد بالنص الشعري ويظهر في:ـ

أ. الاستطراد/ وهو أن يسرد المؤلف مُسْهباً في حديثه عن المتُرَجَم له ولما يجد نفسه قد أطال يُحلّي هذه الإطالة بالأبيات الشعرية التي تقرّب القارئ اليه وتزيل الملل عنه ونرى ذلك في تراجمه الطويلة، ومثالنا هو ترجمة (محمد بن داود امام أهل الظاهر)[٢٥]، ولكن ذلك لا يعني خلو مَنْ ترجم لهم مُختصراً، ومثالنا ترجمة (محمد بن السّري بن السّراج)[٢٦].

ب. تأريخ المكان / ويكون في أسماء المدن أو البلدان عندما يذكر ولادة او وفاة المترجم له ومثالنا حديثه عن بغداد ومحلاتها أو أماكن بناء قصور أصحابها ولعل في حديثه عن (نسبة نهر عيسى) أو (نسبة دار اسحاق) شاهدين[٢٧] لنا.

جـ. التعليق/ وهو أن يبدي الخطيب البغداديّ رأياً أو ملاحظة أثناء حديثه عن المتَرجَم له ثم يطعّم ذلك بالشعر عندما يتحدث عن ظرف أهل بغداد أو شوقه اليها[٢٨]. أو يذكر آراءً يجد نفسه منحازاً اليها[٢٩].

د. التكرير / هو أن يُكرر الخطيب البغدادي البيت أو الأبيات الشعرية أكثر من مرة في الترجمة نفسها مثلما صنع في حديثه عن بغداد عندما كرّر أبيات (ابن المبارك) الدالية[٣٠].

هـ. تعدد أسماء قائل الشعر- فقد يكون باللقب دون الأسم أو الكنية مثاله: الأصمعي[٣١] أو بالكنية دونهما (أبو حنش)[٣٢] أو بالاسم (منكف) ثم يُعرّف به فيقول: (وهو من ولد زهير بن أبي سُلمى)[٣٣] أو بالاسم والشهرة (نصر بن أحمد الخبز أرزي)[٣٤] أو بالاضافة (مولى ابراهيم بن عبد الله بن حسن) باعتبار المضاف غير معروف[٣٥].. الخ.

ثانياً/ توثيق النصّ الشعري: ويكون في صحته ونقده.

(أ) صحة الشعر:ـ

١. صيغة القول: وتظهر في الفاظ مُؤكدة بلسان الخطيب البغداديّ مثالنا: "قلت: وأول قصيدته هذه.."[٣٦] أو بلسان قائل الشعر "فقال بكر (بن النطاح): قد حضرني شيء في هذا فأنشد"[٣٧].

٢. التدافع في نسبة الشعر: يذكر الخطيب البغداديّ قصيدة بسبعة أبيات قائلاً: "فلذلك قال عُمارة بن عقيل ابن بلال بن جرير بن الخطفى عند تحوّل الخلفاء من بغداد.. (الابيات) ثم يقول: وقد رويت هذه الأبيات لمنصور النمريّ والله أعلم"[٣٨].



٣- **إسناد الشعر عن رواته.** ومثالنا قول الخطيب البغدادي: أخبرني أبو الحسن محمد بن عبد الواحد حدثنا أبو الفضل محمد بن عبد الله الشيباني قال حدثني كلثوم بن عمرو بن كلثوم التغلبي قال أنشدني أبي أن جده كلثوم بن عمرو أنشده لنفسه: (الأبيات)..."[٣٩].

أو تنشد أبيات من الشعر أحدها مُضَمَّنٌ فيذكر الخطيب البغداديّ معلقاً على أربعة أبيات بائية لأحمد بن أبي فنن في ترجمته قاطعاً بأن لم يكن من شعره فيقول: "قال علي بن هارون: وهذا البيت الأخير من هذه الأبيات هو عينها وأخذه ابن أبي فنن مما أنشدنيه أبي لإبراهيم ابن المهدي"[٤٠].

(ب)-**نقد الشعر**

ومثالنا في النقد مانقله الخطيب البغداديّ في ترجمة (أحمد بن يوسف كاتب المأمون) فقال: "حدثني ابو الحارث النوفلي، قال: كنت أبغض القاسم بن عبيد الله لمكروه نالني منه، فلما مات أخوه الحسن قلت على لسان ابن بسّام:-

مات لك ابن وكان زينا

وعاش ذو الشين والمعائب

حياة هذا كموت هذا

فليس تخلو من المصائب

قال الصولي: وانما أخذه من قول احمد بن يوسف الكاتب لبعض اخوانه وقد ماتت له بنت وكان له أخ يُضعّفُ فكتب اليه:

عجباً للمنون كيف أتتها

وتخطتْ عبد الحميد أخاكا

شملتنا المصيبتان جميعاً

فقدنا هذه ورؤية ذاكا

قال الصولي وانما أخذه أحمد بن يوسف من قول أبي نواس في التسوية -وزاد في المعنى ارادة وكراهية - قال أبو نواس:" لما مات الرشيد وقام الأمين - يعزي الفضل بن الربيع:

تعز أبا العباس عن خير هالك

بأكرم حي كان أو هو كائن

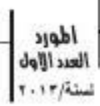
حوادث أيام تدور صروفها

لهنّ مساوٍ مرة ومحاسن"[٤١]

الأخذ الذي أشار اليه الصولي في نقده كان في المعنى وليس في اللفظ. والمعنى مشاع بين الناس ولذا ترى الجاحظ يقول: "إنّ حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ لأن المعاني مبسوطة الى غير غاية ومُمتدّة الى غير نهاية.."[٤٢]، وإذا أرجع تأثر النوفلي بأحمد ابن يوسف ثم تأثر الثاني بأبي نُواس فإن هذا التأثر قد يكون في قدرة الشعراء الثلاثة على ما أسماه ابن المعتز"[٤٣] ائتلاف اللفظ مع المعنى" وكانت "المساواة" هي أول أنواع هذا الائتلاف ويظهر جلياً في قول أبي نُواس الذي أخذ منه أحمد بن يوسف ومن ثم النوفلي.

ولم يعلق الخطيب البغدادي رأياً نقدياً عرضه لقول الصولي، فهو لا يرى حاجه لذلك والقضية لا تخرج عنده إلا سرد حكاية تتعلق بشخص المُترجَم له. ولا يختلف الخطيب البغداديّ في عرض الشعر دون التعليق النقدي عن بقية كتّاب السّير والتراجم في هذا.

وإذا كان الشعر هو المقصود دون غيره في





التوظيف في كتاب الخطيب البغداديّ فإن هذا الشعر يمثل شاهداً وقف عنده القدماء واكده الأصمعي (ت/٢١٦هـ) بقوله: "ختم الشعر بإبراهيم بن هرْمة (ت/١٧٦هـ) وهو آخر الحجج"[٤٤] يرى كُتّاب السِّيَر والتراجم أنهم غير معنيين بشروط الاستشهاد بالشعر والقضية تتعلق باللغويين والنحاة على وجه الخصوص. أما هُمْ فإنّ الشعر يمثل ضفة أخرى تقابل نثرية الحكاية وطريقة السّرد التي يلجأ اليها هؤلاء المترجمون حتى يبعدوا الملل عن قرائهم ولذا فإنك لن تجد ــ إلا نادراً ــ من هؤلاء مَنْ إهتم بدراسة هذا الشاهد وطبق رأي النقاد عند الاستشهاد به في تراجمهم من ناحية صحة النصّ ونسبته الى قائله أو اختلاف روايته..[٤٥] الخ.

إنّ ماهدف اليه الخطيب البغدادي عندما اتخذ من الشعر شاهداً هو أنْ يحقق عدّة أغراض حاول فيها أن يُوظف البيت أو الأبيات في ترجماته التي جمعت(٧٨٣١) ترجمة غطت اكثرها ولم يستشهد بالشعر في بعضها، أما هذه الأغراض فإنها تتمثل في:ــ

١ــ تحلية السّرد عندما يتحدث عن الآخر، فيدخل الشعر عاملاً على صنع هذه التحلية من الحكاية في ترجمة "ابراهيم بن السَّري الزّجاج النحوي" أو يتبعها باخرى في الترجمة نفسها عن خلاف الزُّجاج مع آخر فيكون الشعر قائماً بهذه الوظيفة[٤٦]. وأمثلة ذلك كثيرة[٤٧]. مقدما لحكاياته هذه بقوله: "أخبرنا" وبذلك يرفع التهمة عن نفسه بهذا الاسناد.

٢ــ تأييد وجهة نظره إذا استدعت الترجمة ذلك كما في مقدمته عن بغداد. حيث يشير بالنصّ "قال الخطيب.."[٤٨].

٣ــ تزيين ترجماته بالشعر جرياً على طريقة القدماء في مؤلفاتهم.

٤ــ عرض مسألة لغوية إنْ كان المُترجَم له من أهل اللغة. ومثالنا ماذكره الخطيب البغداديّ في ترجمة (عمرو بن عبيد المعتزلي". وسؤاله أبي عمرو بن العلاء عن الفرق اللغويّ بين الوعد والوعيد[٤٩]. أو ضبط اسم (بغداد) أهي بالدال أم بالذال المعجمة (بغداذ) في مقدمة الخطيب عن بغداد[٥٠]. وما يؤاخذ على الخطيب البغداديّ أنه لا يعطي رأياً في الأحاديث الموضوعة التي تتنبأ بحكم العباسيين[٥١] أو أوصاف أبي جعفر المنصور[٥٢]فهو يتجنب ازعاج السلطة الحاكمة إن قال إنّ هذه الأحاديث وضعها الأعوان.

أما علميّة هذه التراجم والحكايات المعروضة فهي ضعيفة لا تختلف عما كتبه السابقون على الخطيب البغداديّ بالرغم من ثلاثة قرون كان بعدهم!

وفي ضوء ماتقدم فإننا ندرس الشعر الذي استشهد به الخطيب البغداديّ من زاويتي المنسوب الى قائله والشعر المجهول نسبته حتى نتمكن من ان نستشف قدرة الرجل على توظيف هذا الكم في تراجمه.

١ـ الشعر المنسوب لقائله

ولنا فيه وقفتان: الأولى/ الشعر المنسوب لصاحبه، المُتَرْجَم له.

والثاني/ الشعر المستشهد به في تراجم الآخرين.

الوقـــــفة الأولى وفيها تتخذ شـــــاعرين ترجم لهما الخطيب البغداديّ احدهما أفاض في ذكر شعره، والآخر اختصر شعره إلى أبيات قليلة. بـــالرغم من حـــداثتهما ومعاصرتهما وتقارب سنة الوفاة. وهما العبـــاس بـــن الأحنف (ت/١٩٢هـ) وأبو الشيص (محمد بن عبد الله ت/١٩٦هـ)

(أ). كثـــرة الشعر: ونجدها في ترجمة الشـــاعر العباس بن الأحنف اذ قاربت أربعين بيتاً أظهر فيها ميلاً اليه وتعاطفاً في الحديث عن سيرته ونسبه، فتراه يقول "كان ظريفاً حلواً مقبولاً حســـن الشـــعر، ولم يقـــل في المديح والهجاء إلا شيئاً نزراً، وشعره في الغزل"[٤٣] لكن ذلك لا يعني أن يغض الطرف عنه فتراه يقول "كان ابـــن الاحنف شاعراً مُجيداً غزلاً، وكان أبـــو الهذيل العلاف يبغضه ويلعنه لقوله:

إذا أردت سلواً كان ناصركـــم
قلبي فهل أنا من قلبـــي بـــمنتصر
فأكثروا أو أقلوا من إساتكـــم
فكل ذلك محـــمول على الـــقـــــدر

فكان أبو الهذيل يقـــول: يعقـــد الفجور والكذب في شعره"[٤٤] لكن الخطيب البـــغداديّ يســـتدرك مُدافعاً عنه فيتمّ قوله: "قال العطويّ وقد أحسن في تمام هذا الشعر:

وضعتُ خدي لأدنى مَنْ يَطيفُ بكم
حـــتى احتُقـــرتُ ومامِثلي بمحتقـــر

ويُنَبّه على سلوكه مع معاصريه من الشعراء فيقـــول: "كان عباس بـــن الأحـــنف مع اخوان له على شـــراب، فجرى ذكر مســـلم بـــن الوليد، فقـــال بـــعضهم صريع الغواني، فقـــال عبـــاس: والله ما يصلح إلا أن يكون صريع الغيلان. فاتصل ذلك بمسلم فأنشأ مسلم يهجوه ويقول:

بَنو حَنيفةَ لايَرضى الدعيُّ بهمْ
فاتركْ حَنيفةَ واطلب غيرَها نَسَبا
مُنّيتَ منّي وقد جدَ الجراء بنا
بـــغايةٍ منـــعتكَ الفـــوتَ والطَّلَبا
واذْهب فأنتَ طليقُ الحلم مرتهنٌ
بسورةِ الجهلِ مالمْ أملكِ الغَضَبـــا
اذهبْ الى عَرَب تَرضى بدعوتهم
إني أرى لكَ خَلقاً يُشبه العَرَبـــا"[٤٥]

أو يُنبّه على تأثر العباس بـــن الأحـــنف في غيره من الشعراء إن لم يكن صنيعه سرقة فيقول: عن الصولي "كنت عند أبي ذكوان ــ وهو القاسم بن إســـماعيل ــ فقال أنشدني عمك إبراهيم بن العباس لخاله العبـــاس ابن الأحنف:

قد سَحَبَ الناسُ أذيالَ الظُّنونِ بنا
وفَرّقَ الناسُ فينـــا قولَـــهُم فرَقا
فكاذبٌ قد رَمَى بالحبِّ غيركُـــم
وصادقٌ ليس يدري أنّهُ صدقـــا"[٤٦]

ثم قال: كأني أعرف شعراً أخذه العباس منه، فقلت له أنشدنا أبو العيناء عن الأصمعي لمزاحم العقيلي:

ألا يا سرورَ النفسِ ليـــس بعالم
بكَ الناسُ حتى يَعلموا ليلةَ القَـــدر
سوى رجَمهِم بالظّن والظّن مخطئ
مراراً ومنهم من يُصيبُ ولا يدري



فقال: والله الذي أردت؟..[٩٧]

وفي وفاة العباس بن الأحنف المختلف بها مابين بغداد والبصرة فهو بعد أن يعرض للروايتين يقول عن الأولى: "قلت في هذا الخبر نظر" ويذهب الى الثانية موكداً رأيه فيقول: "لأن وفاة العباس كانت بالبصرة، واختلف في الوقت الذي مات فيه" ناقلاً رواية عن الأصمعي "بينا أنا ذات يوم قاعد في مجلس بالبصرة، فإذا بغلام.. واقف على رأسي فقال إنّ مولاي يريد أن يوصي اليك، فقمت معه، فأخذ بيدي حتى أخرجني الى الصحراء، فإذا انا بعباس بن الأحنف ملقى على فراشه، وإذا هو يجود بنفسه وهو يقول:

يابعيد الدار من وطنه

مُفرداً يبكي على شَجَنهْ

كلّما شدّ النجاءُ به

دارت الأسقامُ في بدَنهْ

ثمّ أغمي عليه.. فحركته فإذا هو ميت."[٩٨]

هذه الابيات وظّفها في سيرته وأخباره، أما في شاعريته فإننا نقرأ في شواهد الخطيب البغدادي من شعر العباس بن الأحنف ثلاث اشارات دالة عليها:ـ

الأولى/ القيمة النقديّة لشعره: يذكر الخطيب البغداديّ قول بشار بن برد: "ماكنا نعدّ هذا الغلام في الشعراء ـ يعني العباس بن الأحنف ـ حتى قال هذين البيتين:ـ

نزفَ البكاءُ دموعَ عينيك فالتمسْ

عيناً لغيرك دمعُها مدرارُ

مَنْ ذا يُعيرك عينَه تبكي بها

يامَنْ لعين للبكاء تُعارُ؟"[٩٩]

الثانية- القدرة على ارتجال الشعر. ينقل الخطيب البغدادي في ترجمته للشاعر "أن الرشيد قال بيتاً ورام أن يشفعه بآخر فامتنع القول عليه، فقال عليّ بالعباس بن الأحنف.. فلما وقف بين يديه، قال له الرشيد: وجهت اليك لبيت قلته ورمت أن أشفعه بمثله، فامتنع القول عليّ، فقال: يا أمير المؤمنين دعني حتى ترجع إلى نفسي فإني قد تركت عيالي على حال من القلق عظيمة، ونالني من الخوف ما يتجاوز الحدّ والوصف، فانتظرَهُ هنية ثم أنشده البيت:ـ

جنان قد رأيناها ولم نرَ مثلها بشرا

فقال العباس بن الأحنف:

يزيدك وجهها حُسناً إذا ما زدته نظرا

فقال الرشيد زدني، فقال:

أذا ما الليل مال عليك بالاظلام واعتكرا

ودَجَ فلم ترى قمرا فأبرزها ترى قمرا"[١٠٠]

الثالثة: رأي النُقّاد فيه: أورد الخطيب البغداديّ آراء نقاد الشعر في العصر العباسي فذكر رأي ابن المعتز والصولي والمرزباني من بعدهما وكلهم لا يختلفون في شاعرية العباس بن الأحنف. فيذكر رواية يرويها الصولي عن المبرد قال: "صرت الى مجلس ابن عائشة(عبيد الله) وفيه ـ الجاحظ والجمّاز ـ فسأله عيسى بن اسماعيل من أشعر المولدين؟ فقال الذي يقول: 'يزيدك وجهها حسنا.. الخ ـ الابيات السابقة ـ يعني العباس بن الأحنف"[١٠١].

وفي رواية أخرى عن المغيرة بن محمد المهلبي قال: "سمعت الزُبير (بن بكار) يقول: العباس بن



الأحنف أشعر أهل زمانه"[١٢] ويؤيد الخطيب البغداديّ هذا القول بأربعة أبيات منها:

يعتلُّ بالشغلِ عنّا مايكلّمنا
والشغلُ للقلبِ ليس الشغلُ للبدنِ[١٣]

ومن أجل أن يُحلّي ترجمته عند نهايتها وهو يسرد اللحظات الأخيرة لموت الشاعر العباس بن الأحنف كما يصفها الأصمعي ــ حسبما قدمنا ــ فيذكر البيتين الأخيرين بقافية النون وهاء السكت فتراه يقول: "ثم أغمي عليه، فانتبه (على) صوت طائر على الشجرة وهو يقول:

ولقد زاد الفؤادَ شجى
هاتفٌ يبكي على فَنَنه
شَاقَه ما شاقَني فَبَكى
كلَّنا يبكي على سكَنِه"[١٤]

(ب). قلة الشعر: وهي في ترجمة (أبي الشيص) ــ كما قدمنا ــ حيث ذكر له سبعة أبيات فقط. وهذا النَّزر القليل ينبهنا على أن الرجل لا يلتفت الى هذا الشاعر أو أن نسخة ديوانه بعيدة عن يده، يؤيد ما ذهبنا اليه أنه حين يُعرِّف به، يلجأ الى الواسطة بالآخر فيقول: "محمد ابن عبد الله بن رزين، أبو الشيص الشاعر، يكنى أبا جعفر، وأبو الشيص لقب، وهو ابن عم دعبل بن علي الخزاعي..."[١٥] ويغض الطرف عن شاعريته بقوله: "ومما يستحسن من شعره قصيدته الضادية التي أولها:

أبقى الزمانُ به ندوبَ عضاض
ورمى سوادَ قُرونه ببياض[١٦]

لكنه يستدرك قائلاً "وهي مشهورة سائرة" ثم يذكر قول أبي خلف العامريّ رأياً في شعره أنه قال: "مَنْ قال إنه كان في الدنيا أشعر من أبي الشيص فكذّبه والله للشعر على لسانه كان أسهل من شرب الماء على العطاش"[١٧]! ولما كان الشاعر أحد شعراء الرشيد ــ حسب قول الخطيب البغدادي ــ فقد أيّد قوله بثلاثة أبيات بمدحه مشيراً الى مناسبتها وهي هزيمة (نقفور) وفتح بلد الروم منها:

شددت أمير المؤمنين قوى الملك
صدعت بفتح الروم أفئدة الترك
فريت سيوف الله هام عدوه
وطأطأت للاسلام ناصية الشرك"[١٨]

ويختم ترجمته بثلاثة أبيات أخرى فيها من الصنعة اكثر من تصوير العاطفة منها:

جاءَ الرسولُ بِبُشْرَى منك تطمعني
فكان أكبرَ وهمي أنه وَهَما
فما فَرحتُ ولكن زادني حزَناً
علمي بأنّ رسولي لم يكن فَهِما"[١٩]

الوقفة الثانية/ الشعر المستشهد به في تراجم الآخرين

ونقصد بتراجم الآخرين هي المساحة التي تمدد بها رجال أو نساء الخطيب البغدادي مترجماً لهم مؤيداً مايذهب اليه مدحاً أو قدحاً بشاهد شعري قاله الآخر فيهم. وهذه المساحة غطت اجزاء كتابه الأربعة عشر. ولنا في ترجمة (ابراهيم بن المهدي) مثال فقد ذكر الخطيب البغداديّ في ترجمته مانصه "ابراهيم بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي



ابن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، أبـو اسحـاق ويعرف بابن شكلة. بويع له بـالخلافة ببـغداد في أيام المأمون."[٧٠] ولكنه هُزم أمام عسكر المأمون.. فظفر به المأمون وعفا عنه. ويستشهد الخطيب البغداديّ بشعر قدّم له قائلاً: "وله يقول دعبل بن علي يتقرب بـذلك الى المأمون:

نفرَ ابن شكلةَ بـالعراق وأهلها
فهفـا اليه كلُّ اطلسَ مائقِ
إنْ كان ابراهيم مُضطلعا بهـا
فلتَصلُحَنْ من بعده لمخارقِ

فالشاعر دعبل يذم إبراهيم ويسـخر منه لكونه أراد الخلافة لنفسه، يقول: فتراه يقـول إن صلُحتْ له فهي تصلح أيضاً لـ"مُخَارق" ومُخارق هذا واحـد من ثلاثة مُغَنّين في ذلـك العصـر. والآخـران همـا "زَلـزَل" و"المارق"[٧١] وهو يُشـير بـطرف خفي الى واحـد من جماعة ابـراهيم لكون الأخير "كان معروفاً بـصنعة الغناء، حاذقاً بها"[٧٢].

ولما كان إبراهيم بن المهدي شاعراً فقـد اعتذر عما اقترفت يداه للمأمون قائلاً:ـ

إنْ أكـن مذنبـاً فحظي أخطـأ
تُ فـدع عـنـك كثـرة التأنيـب
قـلْ كمـا يوسف لبني يعـ
ـعقـوب ـ لما أتوه ـ: لاتثريب"[٧٣]

وقد يوظف الخطيب البغداديّ الشعر في سرد أحداث لاعلاقة للشاهد الشـعري فيها إلا أن يؤيد ذلك بـمدح الشاعر له. فبعد أن يُسهِب في ترجمة (عبـد الله بـن المبارك) الفقيه بأكثر من ست عشـرة صفحـة عن حياته وشيوخه ومولده واخلاقه وعدد كتبـه ووفاته، فانه لا يُزَيّن ترجمته إلا ببيتي شعر قالهما عمّار بـن الحسن يمدح فيهما ابن المبارك هما:ـ

"إذا سار عبد الله من مرو ليلة
فقد سـارَ منها نورُها وجمالُها
إذا ذُكـرَ الأخبارُ فـي كل بلدة
فهم أنجمٌ فيهـا وأنت هلالُها"[٧٤]

بالرغم من كون ابن المبـارك شـاعراً ذكر له نصاً وكرره مرتين في حديثه عن بغداد حيث يقول:

"أيها الناسكُ الذي لبس الصو
ف وأضحـى يُعَدّ في العبّاد
الـزم الثـغر والتعبد فيه
ليس بـغداد مسـكن الزهاد
إنّ بـغداد للمـلوك مَحلّ
ومناخ للقـارئ الصياد"[٧٥]

إلا انه لم يذكر شيئاً من شـعره في ترجمة الرجل، بالرغم من تعاطفه في سرد حياته ومكانته العلميّة.

٢ـ الشعرُ المجهولُ نسبتُهُ

ولنا فيه ثلاث وقـفات هي: صيغته وطرق عرضه وغرضه الذي يريد الخطيب البـغدادي أن يُوظِّفه في تراجمه.

الوقفة الاولى:ـ صيغته. ونقصد بها الفعل أو الاسم الذي يتكئ عليه المؤلف وهو يقدم النصّ الشعري بيتاً كان أو عدة أبيات.

أ. الفعل ونراه ماضياً أو مضارعاً.



١ــ الفعل الماضي المبني للمعلوم والمسند الى أحد الضمائر وأمثلته:ــ مع ضمير المتكلم(قرأت ٢/٣٦٧) أو(نا) ضمير المتكلم (أنشدنا ٩/٣٢٠) ويكون فاعله مفرداً أو مع ياء المتكلم (أنشدني ٨/٣٢٨) أو المسند الى الاسم الغائب (أنشد ٣/١٧٧) أو ذكره (هجت أمرأة ١٣/٩٩) أو مُسنداً الى واو الجماعة (كتبوا اليه ١٢/٤٢١) أو يكون ماضياً مبنياً للمجهول (قيل في ذلك ٤/٢٨٩).. الخ على سبيل التمثيل لا الحصر.

٢ــ الفعل المضارع المبني للمعلوم (ينشد ٥/٢٨) أو (يتغنى بهذه الأبيات ٩/٤٦٣) أو (يقول ١٣/٣٦٣) أو (يتمثل ٨/٤٢١).

ب. الاسم ويأتي عند الخطيب البغداديّ على انواع:ــ

١ــ النكرة مثاله (رجل يقول ٧/٢٤٩) أو بالاضافة (شاعر بباب مَعَن ١٣/٢٣٧) أو (أهل بغداد ٢/٢٢) أو اسم المفعول (مكتوب عليها ٤/٣١٦).

٢ــ بعض مضافة للاسم المُعَرّف (بعض أصدقائنا ٢/٣٨٢) أو الى الضمير (بعضهم ٤/١٥٣).. الخ.

٣ــ الضمير قوله: "وهُنّ يُغَنّينَ ١٣/٥٧" لجماعة الإناث وقد يقدم الشعر دون صيغة يذكرها مثاله "٨/٣٨٤"، "٩/٢١١".

والوقفة الثانية:ــ طرق عرضه، ونقصد المسند اليه عند تقديم المقول أو الانشاد سواء أكان بشراً أم غيره. ولنا في هذا الاسناد سبعة أنواع:ــ

١ــ الجنس. وفيه يُحمل رواية الشعر، رجلاً أو امرأةً، مفرداً أو جماعة ومثاله: "لرجل قاله في ١٢/٢١١"، و"رأيت أمرأةً كرّى تنعى، وهي تقول ٨/٤٦٩) أو "الاعرابي ١/٢٥١" أو "أعرابية ٦/١٧٩" أو "جارية" أو يقيم الصفة في الاشارة الى الموصوف "تقدم الثاني ٤/١٥٠" وإذا قصّرت يده عن البشر فإنه لا يتوانى من أن يُحمّل إبليس شعراً يرد فيه على شعر ينسبه لآدم "٥/١٢٨" أو على لسان "الجنّ ٦/١٢٢"

٢ــ المنامات والأحلام: وأمثلة ذلك: "رؤية في منام رابعة العدوية ٢/٤٠" أو "آت في منامي ١٤/٢٦٤" أو "رؤى معروف الكرخي ١٣/٢٠٧" أو "رأيت في المنام ٢٣٢/١١".

٣ــ السماع. ولنا فيه ثلاث إشارات دالة هي:ــ (أ) ــ الصوت البعيد مثاله: "هاتف يهتف بي ١٢/١٤٩".

(ب)ــ الفعل سمع مثاله "إنّه سمع هذا البيت.

(ج) ــ الغناء. "وإذا بمغنٍ يغني وهو يقول ٥/٢٦٦" أو يقول "يتغنى بهذه الأبيات ٩/٤٦٣".

٤ــ المكتوب والمقروء على الحائط. ومثاله: "مكتوب عليها في الجاهلية ٢/٣٥) أو "مكتوب بماء الذهب ٦/١٠٤" أو "قرأت على حائط ٢/٣٦٧".

٥ــ الحكاية: وهي كثيرة عند الخطيب البغدادي ومنها حكاية الفتى الذي يمدح نفسه برقعة يريد أن ترفع الى الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي (١٢/٣٣٧ ــ ٣٣٨) أو حكاية إبراهيم بن سعد الزهريّ مع الرشيد "٦/٨٤" الخ.

٦ــ الحوار الذي يعتمد لفظة (قال) فقد يتداخل الحوار مع الحكاية ولنا في (وقوف اعرابي على عمر بن الخطاب) (رض) مثال على ذلك "٤/٣١٢" في ترجمة (أحمد بن علي بن جبرويه). أو بلفظة (قال) (فأجابه)

كما في الشعر المنسوب الى آدم ورد ابليس عليه (١٢٨/٥) في ترجمة أحمد بن محمد المخرميّ. أو الردّ على (مساور الوراق) بقوله الخطيب (فأجابه بعضهم ٤٠٨/١٣)

٧ــ الإتكاء على أهل الأدب أو اللغة. ومثال الأول قول الخطيب البغدادي "بعض أصحاب المبرد ٣٨٢/٣" ومثال الثاني قوله "فقال القاضي أجدني كما قال سيبويه ٣١١/١٤".

الوقفة الثالثة: غرضه

يمكن أن ننظر الى أغراض الخطيب البغدادي من خلال عرضه للبيت أو الأبيات الشعرية في تراجم تأريخه من زاوية الشعر المجهول نسبته على وفق الآتي:

أ ــ التعريف بالمُترجَم له: ــ من ناحية اسمه أو كنيته أو لقبه.

(١) ـ **الاسم**: ولنا فيه مثالان: الأول الاسم الصريح اذ يقول الخطيب مترجماً لـ"هَيْلانة" من خلال حوض داود ابن الهندي مولى المهدي فيقول: "وقيل هو: داود نصير ونصير مولى المهدي. حوض هَيْلانة. قيل: إنها كانت قيّمة للمنصور حفرت هذا الحوض، ولها ربض بين الكرخ وبين باب المحول يُعرف بها. وقال قوم: هَيْلانة جارية الرشيد التي يقول فيها:

أُف للدنيا وللزينة فيها والأثاث

إذ حثا التراب على هيلان الحُفرة حاثٍ"[٦٦]

والثاني الاسم الذي ترقصه امه به فيقول الخطيب البغدادي في ترجمة (عبد الله بن الحارث) فقال: "قدم عبد الله بن الحارث حاجّاً، فأتى ابن عمر فسلم والقوم جلوس فلم يره بَشَّ به كما يفعل. فقال: يا أبا عبد الرحمن أما تعرفني؟

قال: بلى! ألست ببّة؟ قال: فشق ذلك عليه وتضاحك القوم، ففطن عبد الله بن عمر. فقال: إنّ الذي قلت لا بأس به، ليس يعيب الرجل: إنمّا كان غافلاً خادراً، وكانت امه تنزيه أو تنبزه تقول:

لأنكحنّ بَبَّه

جارية خِدَبَّه

مُكرمة مُحبّه

تحب أهل الكعبة"[٧٧]

(٢) ـ **الكنية** ولنا فيها مثال في ترجمة (القاسم بن عيسى أبو دلف العجلي) "قال المأمون يوماً ــ وهو مقطب ــ لأبي دلف: أنت الذي يقول فيك الشاعر:

إنما الدنيا أبو دلف	عند باديه ومحتضره
فإذا ولى أبو دلف	ولت الدنيا على أثره

فقال: يا أمير المؤمنين شهادة زور، وقول غرور، وملق معتف وطالب عرف واصدق منه ابن اخت لي حيث يقول:

دعني أجوبُ الأرضَ ألتمس الغنى

فلا الكرج الدنيا ولا الناس قاسم

فضحك المأمون وسكن غضبه."[٧٨]

(٣) ـ **اللقب**. ومثالنا عليه ماجاء في ترجمة (عمر بن شبّة النُميري) فقال الخطيب البغدادي: "وكان ثقة عالماً بالسِّير وأيام الناس. وله تصانيف كثيرة وكان قد نزل بسر مَنْ رأى في آخر عمره وبها توفي، وذكر عمر أن اسم أبيه زيد ولقبه شبة، قال: لقب شبة لأن



أمه كانت ترقصه وتقول: (١١/٢٠٨)

يــابــأبي وشَبّــا وعــاش حتــى دبّــا
شيخــا كبيــراً خَبّــا

ب. سيرته وأخباره. وأمثلة السـيرة كثيرة ففي ترجمة (محمد بــن ادريس الإمام الشــافعي) يقــول الخطيب البغداديّ "أنشدني علي بن محمد الجرجانيّ لبــعضهم:

مَثَلُ الشافعيّ في العلماء
مَثَلُ البدر في نجوم السماء"[79]

أو شدة صبر المُترجَم له وأمله في الخلاص نقرأ في ترجمة (يعقوب بن داود وزير المهدي): "حدثني عبد الله ابن يعقوب بن داود. قال أبي: حبسني المهدي في بــئر وبنيت علي قبة، فمكثت فيها خمس عشرة حجة، حتى مضى صدر من خلافة الرشــيد. وكان يدلى إلي في كل يوم رغيف وكوز من ماء، وأوذن بأوقات الصلاة، فلما كان في رأس ثلاث عشــرة حــجة أتاني آت في منامي فقال:

حنا على يوسفَ رَبٌ فأخرجه
من قعر جُبٌ وبــيت حــوله غمم

قال فحمدتُ اللــهَ وقــلت أتى الفرج. فمكثت حــولاً لا أرى شيئاً. فلما كان رأس الحول أتاني ذلك الآتي فقــال لي:

عسى فرج يأتي به اللــهُ إنه
له كل يومٍ في خليقــــته أمر

قال: ثم أقمت حولاً لا أرى شيئاً، ثم أتاني ذلك الآتي بعد الحول فقال:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه
يكون وراءه فرج قــــريب

فيأمن خائفٌ ويفــك عَــانٍ
ويأتي أهلَهُ النائــي الغريــبُ

قال فلما أصبحت نوديت، فظننت أنى أوذن بالصلاة، فدلي لي حبل أسود وقيل لي: أشدد به وسطك، ففعلت فأخرجوني، فلما قابــلت الضوء غشــى بَصَرِيٌ، فانطلقوا بي فأدخلت على الرشيد، فقيل سلّم على أمير المؤمنين.. الخ"[80] أو اظهار كرمه وجوده، ونلحــظ ذلك في ترجمة (معن بــن زائدة الشيبــاني) فكتب الخطيب البغداديّ قائلاً "حدثني صاحب شــرطة معن. قال: بينا أنا على رأس معن اذا هو براكب يوضع، قال فقال معن ما أحسب الرجل يريد غيري. قــال ثم قــال لحاجبه لا تحجبه، قال فجاء حتى مثل بين يديه، قــال فقال:

أصلحك الله قَــلّ مــابيدي
فمــا أطيــق العيــالَ إذ كثــروا
ألحّ دهرٌ رمــى بكلكلــه
فأرســلوني اليكَ وانتظروا

قال: فقال معن ــ وأخذته أريحية ــ: لا جرم والله لاعجلن أوبتك. ثم قــال ياغلام ناقــتي الفلانية والف دينار، فدفعها اليه وهو لا يعرفه."[81]

وقــد يظهر علمه وأدبــه الى جانب كونه شــاعراً ظريفاً كما صنع الخطيب البغداديّ في ترجمة (محــمد ابن داود الاصبهانيّ) صاحب الزهرة قائلاً "كتب بعض أهل الأدب الى أبي بكر بن داود الفقيه الاصبهانيّ:

يــا ابــن داود يافقيه العراق
أفتنا في قــواتل الأحــداق

هل عليها القصاص في القتل يوماً

أم حـــلال لها دم العشـــاق

فأجابه ابن داود:

عندي جواب مســـائل العشاق

أسمعه من قلق الحشا مشتاق

لما سألت عن الهوى أهل الهوى

أجـــريت دمعاً لم يكن بالراق

أخطأت في نفس السؤال وإن تصب

تك في الهوى شنقاً من الأشناق

لو أن معشوقاً يعذب عاشقاً

كان المُعذَّبُ أنعم العشـــاق؟[٨٦]

أو يُبْين قدرته على الجواب شـعراً فيقـول الخطيب البغداديّ: "وقف شاعر بباب (معن بـن زائدة) حولاً لا يصل اليه، وكان معن شديد الحـجاب فلما طال مقـامه سأل الحاجب أن يوصل له رقعة ـ وكان الحاجب حَدِباً عليه ـ فأوصل الرقعة فإذا فيها:

إذا كـان الجوادُ لـه حجابٌ

فما فضلُ الجواد على البـخيل؟

فالقى معن الرقعة الى كتابه وقال أجيبوه عن بيته، فخلطوا وأكثروا ولم يأتوا بمعنى، فأخذ الرقـعة وكتب فيها:

إذا كان الجواد قليلَ مـال

ولـم يعـذر تـعلل بـالحـجاب

فقال الشاعر: إنا لله أيؤيسني من معروفه! ثم ارتحـل. فسأل معن عنه فأخبر بانصرافه فأتبعه بعشـرة آلاف. وقال هي لك عندنا في كل زورة"[٨٧].

جـ. القول فيه: من ناحـيتي الثناء عليه أو الذم فيه في حياته أو بعد موته. ومثالنا في الثناء عليه ماذكره الخطيب البغداديّ من أبـيات مدح (محـمد بـن يزيد المبرد) في ترجمته فكتب قائلاً"... أنشـدني بـعض أصدقائنا يمدح المبرد:

رأيـت محمدَ بن يزيد يسمو

الـى العلـياء في جـاه وقدر

جليسَ خلائق وغَذِيّ مَلْك

وأعلَمَ من رأيت بـكل أمر"(الخ)[٨٨]

أو الذم فيه. ومثال ماذكره الخطيب البـغداديّ في ترجمة "شريك بن عبد الله القاضي" فقـال: "هجا رجلٌ شريكاً فقال في ذلك:ـ

"فهلا فـررت وهـلا اغتـر

بـت الى بـلد بـه المَحْشَر

كما فرّ سفيانُ من قومـه

الى بـلد الله والمشْعَر

فبخ بخ من مثلكم ياشريـ

ـك إذا ماعلوت على المنبر" الخ[٨٩]

وقد يعقد مقـارنة بـين علماء اللغة فيذكر الخطيب البغداديّ في ترجمة "أحمد بن يحيى ثعلب" أنّ أبا بـكر ابن السّراج سُئل "أي الرجلين أعلم، أثعلب أم المبرد؟ فقال: ما أقول في رجلين العالَم بينهما، قـال ولما مات المبرد وقف رجل على ثعلب فقال:

بيت من الآداب أصبح نصفه

خربا وسائر نصفه فسـيخربُ

مات المبرد وانقضت أيامُـه

ومع المبرد سوف يذهب ثعلبُ



وأرى لكم أن تكتبوا ألفاظَـهُ

إذ كـانت الألـفاظ ممـا يُكتبُ"[٨٦]

ويجد الخطيب البـغداديّ في الرثاء رؤية للحـياة تتجاوز الميت الى الأحياء من بعد فيذكر ابياتاً في ترجمة "الجنيد بـن محـمد الخزاز الصوفيّ" أنه كان في "جوار الجنيد رجل مصاب في خربـة، فلما مات الجنيد ورجعنا من جنازته تقدمنا ذلك المصاب.. وقـال: أتراني أرجع الى تلك الخربة وقد فقدت ذلك السيد، ثم أنشأ يقول:

وا أسفي مـن فـراق قـوم

هـم المصـابـيحُ والحـصونُ

والمدنُ والـمزنُ والرواسي

والخيـرُ والأمـنُ والسـكونُ

لـم تتغير لنـا الليـالي

حـتى تـوفتـهـم المـنونُ

فـكل جـمر لنـا قلـوبٌ

وكـل مـاء لنـا عيـونُ"[٨٧]

قد يحوّل الخطيب البغداديّ رثاء رجاله الى رثاء أماكنهم وهو لا يريد مكاناً بـعينه وإن أسـماه لكنه يندب حـياة الناس التي تذهب بعد حين، فيروي عن أحـدهم انه "مرّ بسويقة عبد الوهاب (من مواقـع بـغداد أيامها) وقـد خربت منازلها وعلى جدار منها مكتوب:ـ

هـذي منـازلُ أقـوام عهدتهُمُ

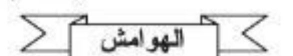
في رغد عيش رغيب ماله خطَرُ

صاحتْ بهم نائبات الدهر فانقلبوا

الى القبـور فلا عينٌ ولا أثرُ"[٨٨]

وفي ضوء ماتقدم فإنّ أصحـاب التراجم من القـدماء عندما اتخذوا الشـعر نصوصاً في مؤلفاتهم لم يفكروا أو يهتموا بما يتطلبه النصّ الشـعريّ من صحـة في المروي وسلامة في اللفظ فضلاً عن نسبـته، وكل ما فكروا فيه أن يكون الشعر حـليةً في تراجمهم يُبـعد الملل عن أسماع المتلقين ويؤيد حكايات حتى لو كانت أسطورية أو من نسج خيالهم. ولذا لم يتحروا الدقّـة في الرواية فجاءت اشـعارهم المدونة في السِّيرة أو الترجمة بعيدة عما نشهده في كتب أهل اللغة والأدب. أما مايراه هؤلاء فهو تقطيع سرديّ يُعطي استراحـة لهم من زحمة الاحـداث التي عاش فيها المُتَرجم له. ولذا اتخذوا من الاستطراد والتعليق والتكرير وتأريخ المكان فضلاً عن ألقاب الشعراء أو أسمائهم، طرقـاً لعرض الشعر. فإنْ وثقوا القـول الشـعريّ فإنّ هذا القول لا يخرج عن صيغ قال أو أنشد أو سـمع. وإذا احتاجوا الى الاسناد كما في رواية الحديث فإنّ أخبرني دليلهم اليه. فتراهم لا يحـاكمون النص أو قـائله إلا لحكاية أو طريقة تخلق متعة عند القـارئ. ولا تخرج توظيفات هؤلاء المترجمين عن تأييد وجهة نظرهم أو تزيين ترجماتهم حتى بلغ احد النصوص الشعرية التي استشهد بها الخطيب البغداديّ أربعة وخمسـين بـيتاً (١٣/٢٤١) مدحاً أو هجاءً، رثاءً أو تشـفياً بـموته وقـلّما يعرضون لمسـائل فكرية أو لغوية لأنهم غير معنيين بـها ـ كما يرون ـ ولأنها لا تخدم أغراضهم لاسـيما التي تتقـاطع مع السـلطة. فما يَهمُّ الخطيب البغداديّ هو أن يُعرّف بالمترجَم له ويعرض شيئاً من أخباره حتى لو كانت بعيدة عن الصحة ولذلك نلاحـظ

في ترجماته بُعداً عن العلميّة التي يتطلبها البحث ويظهر ذلك جلياً في الشعر المجهول نسبته لانه ساحة للوضع والانتحال تتلاءم وسرد التراجم. لكن ذلك لا يعني الغضّ من قيمة هذا المؤلَف الكبير الذي كتبه الخطيب البغداديّ الذي حفظ لنا هذا الكم من الشعر بلغ (٣٩٥١) بيتاً منه (٣٦٦٤) منسوباً لقائله والآخر عُدّ مجهول النسبة يفتح الباب أمام المحققين لمعرفة نسبته فضلاً عن ثمانية أشطر، ربما وضع المؤلف قسماً منها. ولا نحتاج الى أدلة حتى نبيّن قيمة هذا السِّفر العظيم الذي مثّل نقلة نوعية في كتابة التأريخ الذي كان حكراً على السياسيين، ليتحول بهذه التراجم الى معرفة حياة الناس العلميّة أو الدينية أو الثقافية.. الخ، حتى أننا عندما نتحدث عن بغداد فإنّ حديثنا لابُدّ أن يَمرّ بالخطيب البغداديّ وكتابه "تأريخ بغداد أو مدينة السلام".



الهوامش

١ـ ذيل تأريخ مدينة السلام بغداد / مقدمة المحقق ١/ ٩

٢ـ تأريخ الأدب العربي (بروكلمان) ٦/ ٥٧

٣ـ تأريخ بغداد أو مدينة السلام ٣/ ٢٧ وتنظر ترجمته في شذرات الذهب ٣/ ١٧

٤ـ ذيل تأريخ مدينة السلام (م. س.) ١/ ١٣

٥ـ تأريخ بغداد (م. س). ٣/ ١٣

٦ـ ذيل تأريخ مدينة السلام (م. س.) ١/ ١٣. وقد حقق مختصر تأريخ بغداد د. شاكر محمود عبد المنعم وندى نعمان/بغداد ٢٠٠٣م

٧ـ تأريخ الأدب لبروكلمان (م. س.) ٦/ ٦٣

٨ـ ذيل تأريخ مدينة السلام (م.س) ١/ ٥١

٩ـ حققه د. مصطفى جواد بثلاثة أجزاء، صدر الثالث بعد وفاته.

١٠ـ تأريخ الأدب لبروكلمان (م. س.) ٦/ ٥٩

١١ـ وفيات الأعيان ٣/ ٩٢

١٢ـ شذرات الذهب (م. س.)٣/ ٣١٢

١٣ـ تأريخ بروكلمان (م.س.) ٦/ ٥٦

١٤ـ معجم الأدباء ٤/ ١٣

١٥ـ معجم البلدان / (بغداد)

١٦ـ معجم الأدباء (م. س.) ٤/ ١٩

١٧ـ نبّه بروكلمان في تأريخه (٦/ ٥٦) على من ترجم له غير من ذكرناه د. ابن عساكر في تأريخ دمشق ١/ ٣٩٨ـ ٤٠١، تبيين كذب المفتري ٢٦٨ـ ٢٧١، السبكي في طبقات الشافعية ٣/ ١٢ـ ١٦، ابن تغري بردي/ ط. جونبول ٧٤٠، الذهبي في تأريخ الحفاظ (ط٢/ ٠) ٣/ ٣١٢ـ ٣٢١، بستان المحدثين لشاه عبد العزيز ٣/ ١٥١ (الترجمة العربية). طبقات الحفاظ للسيوطي ١٤/ ١٤" وزاد د. احسان عباس في (وفيات الاعيان ١/ ٩٢ هامش). العبر في اخبار من غبر ٣/ ٢٥٣، المنتظم ٨/ ٢٦٥."

١٨ـ معجم الأدباء (م.س) ٤/ ١٨

١٩ـ المصدر نفسه ٤/ ٢٢

٢٠ـ نفسه ٤/ ٢٧

٢١ـ تأريخ بغداد (م. س.) ١/ ٢١٣

٢٢ـ طبقات فحول الشعراء ١/ ٧ـ٨

٢٣ـ تنظر الصفحات ٥/ ١٢٨، ٦/ ١٢٢

٢٤ـ وفيات الاعيان (م.س.) ١/ ٩٢

٢٥ـ تأريخ بغداد (م.س.)٢/ ٥٦٥ـ ٢٦٢

٢٦ـ المصدر نفسه٥ ـ٣١٩ / ٣٢٠

٢٧ـ تأريخ بغداد (م.س.) ١ـ/٩٢ ٩٣

٢٨ـ المصدر نفسه ١ـ/٥٠ـ ٥٤

٢٩ـ نفسه ١/ ٤٢ — ٣٠ـ نفسه ١/٦ ، ٢١

٣١ـ نفسه ١/ ٣٢٧ — ٣٢ـ نفسه ٣٢٧/١٢

٣٣ـ نفسه ٦ / ٣١٨ — ٣٤ـ نفسه ١٨٥/٥

٣٥ـ نفسه ٢٧/١٣ — ٣٦ـ نفسه ٤٥/٧

٣٧ـ نفسه ٩١/٧ — ٣٨ـ نفسه ٦٨/١

٣٩ـ نفسه ٤٨٩/١٢ — ٤٠ـ نفسه ٢٠٣/٤

٤١ـ نفسه ٢١٧/٥

٤٢ـ البيان والتبيين ١/ ٧٦ وما ينبه عليه ابن رشيق القيرواني انه (اشتراك في المعنى) ـ ينظر العمدة في صناعة الشعر ٩٨/٢

٤٣ـ نقد الشعر /١٥٣

٤٤ـ خزانة الأدب ٨/١

٤٥ـ وقد شرحت ذلك تفصيلاً في كتابي((الرواية الثانية)) الفصل الاول / ٥٤ ـ ١٨٦

٤٦ـ تأريخ بغداد (م.س)٦. ٩٢/ ٩٣

٤٧ـ المصدر نفسه / تنظر الصفحات ٩، ٤٣٣/٢/ ٤٩١ على سبيل التمثيل.

٤٨ـ نفسه ١٠/١

٤٩ـ نفسه ١٧٥/١٢ ـ ١٧٦ واستغرقت الترجمة اثنتين وعشرين صفحة ١٦٦/١٢ ـ ١٨٨

٥٠ـ نفسه ١١/٦، وتنظر ١٠٧/١٤

٥١ـ ٦٣/١

٥٢ـ ٦٥/١ـ ٦٦

٥٣ـ نفسه ١٢٧/١٢

٥٤ـ نفسه ١٢/ ١٢٨ والأبيات الرائية الثلاثة في ديوان العباس بن الأحنف /ص١١٨ ـ ١١٩ من قصيدة بستة عشر بيتا باختلاف بعض الروي فضلاً عن الترتيب.

٥٥ـ نفسه ١٢٨/١٢ . والنص بستة أبيات في شرح ديوان صريع الغواني /٢٥٨ ـ ٢٥٩ باختلاف الرواية والترتيب.

٥٦ـ تأريخ بغداد (م.س.)١٢ / ١٢٩ والبيتان مع ثالث في ديوان العباس بن الأحنف /١١٩ ـ ١٢٠ باختلاف رواية البيت الثاني.

٥٧ـ المصدر نفسه ١٢٩/١٢

٥٨ـ نفسه ١٣٢/١٢ ـ ١٣٣ والبيتان من مقطعة بستة أبيات في ديوانه /٢٧٨ باختلاف الرواية.

٥٩ـ نفسه ١٢/ ١٣٠ والبيتان باختلاف الراوية من قصيدة بثلاثة وثلاثين بيتاً في ديوانه /١١٦

٦٠ـ نفسه ١٢/ ١٣١ والأبيات الثلاثة باختلاف الرواية من مقطعة في ديوانه / ١٢٨ ـ ١٢٩

٦١ـ نفسه ١٣٠/١٢

٦٢ـ نفسه ١٢٩/١٢

٦٣ـ ديوان العباس بن الأحنف / ٢٧٦ باختلاف الرواية.

٦٤ـ تأريخ بغداد (م.س.) ١٣٣/١٢ والبيتان من مقطعة بأربعة أبيات في ديوانه /٢٧٨

٦٥ـ المصدر نفسه ٤٠١/٥

٦٦ـ ديوان أبي الشيص الخزاعي واخباره / ٧٥ ـ ٧٩ عدد أبياتها سبعة وعشرون بيتا

٦٧ـ تأريخ بغداد (م.س.) ٤٠١/٥

٦٨ـ المصدر نفسه ٤٠١/٥ والأبيات في ديوانه باختلاف الرواية.

٦٩ـ نفسه ٥/ ٤٠٢ والأبيات في ديوانه / ١٠٤ نقلاً عن المصدر نفسه.

٧٠ـ نفسه ١٤٤/٦

٧١ـ ينظر وفيات الأعيان ٤٠/١

٧٢ـ تأريخ بغداد ١٤٤/٦

٧٣ـ المصدر نفسه ١٤٤/٦ وينظر ديوانه / ٣٠ نقلاً عن المصدر نفسه

٧٤ـ نفسه ١٦٣/١٠

٧٥ـ نفسه ١/ ٢١ وتنظر الصفحة ١/ ٦ ذكر منها بيتين.

٧٦ـ نفسه ١/ ٩٧ ٧٧ـ نفسه ١/ ٢١٢

٧٨ـ نفسه ١٢/ ٤٢١ـ ٤٢٢

٧٩ـ نفسه ٢/ ٦٩ ٨٠ـ نفسه ١٤/٢٦٤

٨١ـ نفسه ١٣/ ٢٣٦

٨٢ـ ٥/ ٢٥٧ والأبيات الأربعة التي أجاب بها محمد بن داود خلت منها طبعة د. نوري حمودي القيسي في "أوراق من ديوان أبي بكر محمد بن داود الأصبهاني" بالرغم من رجوعه اليه واشارته باختلاف روايتها إلا انه لم يدرجها.

٨٣ـ نفسه ١٣/ ٢٣٧ـ ٢٣٨

٨٤ـ تاريخ بغداد (م. س.) ٣/ ٣٨٢

٨٥ـ المصدر نفسه ٩/ ٢٨٦

٨٦ـ نفسه ٥/ ٢٠٩ ٨٧ـ نفسه ٧/ ٢٤٩

٨٨ـ ١/ ٨٦



١ـ أوراق من ديوان أبي بكر محمد بن داود الاصفهاني / دراسة وتحقيق د. نوري حمودي القيسي/ وزارة الاعلام / مديرية الثقافة العامة/ بغداد ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.

٢ـ البيان والتبيين/ الجاحظ/ تحق. وشرح عبد السلام محمد هارون / مكتبة الخانجي بالقاهرة/ ط٥/ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م/ ج١

٣ـ تأريخ الأدب العربي/ كارل بروكلمان / تر. د. السيد يعقوب بكر / مراجعة د. رمضان عبد التواب / دار المعارف بالقاهرة ـ ١٩٧٧م/ ج٦

٤ـ تأريخ بغداد او مدينة السلام للحافظ أبي بكر بن علي الخطيب البغدادي/ دار الكتاب العربي ـ بيروت د. ت/ بأربعة عشر مجلداً.

٥ـ خزانة الأدب ولب لسان العرب/ عبد القادر بن عمر البغدادي/ تحق. وشرح عبد السلام محمد هارون/ الهيئة المصرية العامة للكتاب / القاهرة ـ ١٩٧٩ ط٢/ج١

٦ـ ديوان أبي الشيص الخزاعي وأخباره / صنعة عبد الله الجبوري/ المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م. ط١.

٧ـ ديوان أبي العباس بن الأحنف /شرح وتحقيق د. عاتكة الخزرجي/ القاهرة/ مطبعة دار الكتاب المصرية / ط١/ ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م.

٨ـ ذيل تأريخ مدينة السلام/ للحافظ ابن الدبيثي / تحق د. بشار عواد معروف، دار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٩٧٤م، ١٣٩٤هـ/ج١ ـ ٢، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٧٩م

٩ـ الرواية الثانية دراسة تحقيق النصوص في مصادرها الثانوية / عبد العزيز إبراهيم، دار الشؤون الثقافية العامة/ بغداد / ط١/ ١٩٩٨م

١٠ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي/ دار الكتب العلمية بيروت د. ت. / ج٣ ـ ٤

١١ـ شرح ديوان صريع الغواني / تحق. وتعليق د. سامي الدهان/ دار العارف بمصر القاهرة / ط٢/ ١٩٧٠م

١٢ـ طبقات فحول الشعراء / لابن سلام الجُمَحي/ قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني/ القاهرة د. ت. / ج١

١٣ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده / تحق. محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل ـ بيروت ١٩٧٢م / ط٤ / ج٢

١٤ـ المختصر المحتاج اليه من تأريخ الحافظ ابن الدبيثي / انتقاء محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي/ تحق. د. مصطفى جواد / راجعه وقدم له د. ناجي معروف. مطبوعات المجمع العلمي العراقي ـ بغداد ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م/ ج٣

١٥ـ معجم الأدباء / لياقوت الحموي/ دار احياء التراث العربي ـ بيروت د. ت/ج٤

١٦ـ معجم البلدان / لياقوت الحموي/ دار احياء التراث العربي د. ت. /ج١

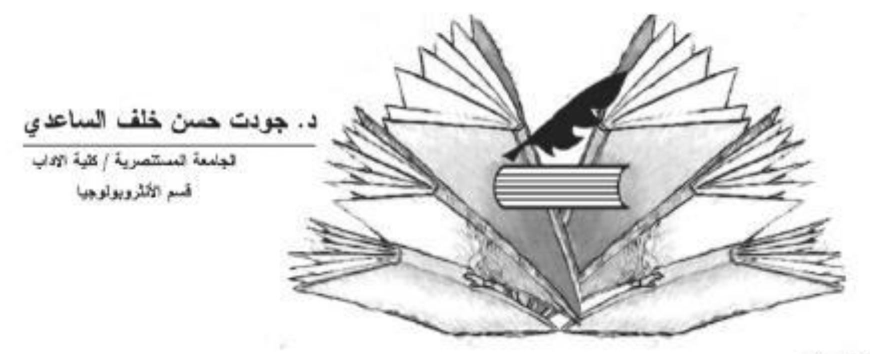
١٧ـ نقد الشعر / قدامة بن جعفر/ تحق. وتعليق د. محمد عبد المنعم خفاجي دار الكتب العلمية / بيروت د. ت.

١٨ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان/ لابن خلكان/ تحق. د. إحسان عباس. دار صادر بيروت د. ت. /ج١، ٣



اتجاهات تطور الثقافة العراقية

لترسيخ قيم المجتمع العراقي



د. جودت حسن خلف الساعدي
الجامعة المستنصرية / كلية الاداب
قسم الأنثروبولوجيا

المقدمة:-

يستهدف هذا البحث التعرف على مفهوم الثقافة العراقية ، واتجاهات تطور الثقافة لترسيخ القيم الانسانية الجيدة في المجتمع العراقي واظهار أهميتها في هذا المجال وتقويم مدى مواكبة الثقافة لمتطلبات التميز الجيد نحو البعد السلوكي الانساني ، وفي النهاية كيف تتحقق هذه المواكبة .

وتأصيل المفاهيم وايضاح بعض مصادر الثقافة العراقية والدور الذي تلعبه الاستعارة الثقافية في تكون السلوك الجيد في المجتمع ، مع تحديد سريع للعناصر التي تكون الثقافة .

وابراز العلاقة بين الثقافة والسلوك الانساني وترسيخ القيم وتثبيت هذه العلاقة ، بمعنى أن السلوك الانساني المتميز يحتاج الى ثقافة متميزة . فهل الثقافة العراقية ثقافة تميز ؟ يحاول البحث الاجابة عن هذا السؤال ويستعرض عددا من مظاهر عدم مواتاة الثقافة للتميز .



وهنا يتناول بعض مداخل التطور في الثقافة العراقية سواء كانت هذه المداخل مباشرة أم غير مباشـــرة وذلك من أجل دعم التميز في السلوك الانساني نحو الأفضل .

ورأينا أنه من الأفضل الاشـــارة الى اتجاهات تطوير الثقـــافة الانســـانية في علم الانسان/الأنثروبـــولوجي (Anthropology) بالرغم من عدم اختلافه كثيراً عن بقية العلوم الانسانية الســـلوكية في هذا المجال لكن مفهومها وتطورها نقـــول انه أنثروبـــولوجي أي أن كل جماعة أو مجتمع من البشر لهم ثقافة معينة في حـــجم الارث الحضاري البشري كما أن المشكلة الرئيســـة عند الفهم الاجتماعي والمتغيرات السريعة والشـــكل الجديد في المعرفة البشـــرية الاجتماعية ، والنتائج الايجابـــية العميقة حيثما تفاعل الافراد بعضهم مع بعض .

وربما نجد بعض الوقائع وثيقة الصلة في التأثير في حياة الانسان وثقافته وفكرة ، وأن اتجاهات الثقافة نتاج أحداث ومتغيرات ثقافية وتطور في أغلب المؤسســـات الثقافية البشرية تبـــنى على أســـاس قـــدرة الانســـان المعرفية والاجتماعية .

ماالثقافة؟ وماعناصرها ؟

تعريف مبدئي :-

الثقافة (education) والحـــضارة(culture) والمدنية (civilization) كلها مفاهيم تقع ضمن اطار واحـــد لكن لكل منها بـــدايات واهداف واتجاهات تنمو وتتطور في التراث البشـــري وينبـــغي أن تكون لصالح الانسان .

والثقافة هي الجزء المحـــيط بالانســـان الذي هو من صنع الانســـان، ويشـــمل الحـــصيلة الاجمالية لمعارفه ومعتقداته وفنونه واخلاقياته وتقاليده وعاداته وقيمه ، وأية قدرات وعادات اخرى يكتسبها الانسان كعضو في المجتمع بمعنى أن الثقافة هي طريقة الحـــياة لمجموعة معينة من البشـــــر أو لمجتمع معين وهي تميزهم عن غيرهم ، ومفهوم الثقـــافة إذن مفهوم أنثروبـــولوجي بـــمعنى أن كل جماعة من البشـــر لهم ثقـــافة تمثل في اجمالي الارث البشـــري الاجتماعي للانســـان في هذه الجماعة من البشر والثقافة مثلاً توجد في العراق ، وفي مصر ، وفي لندن ، وفي استراليا وفي لبنان وغيرها من مجتمعات العالم فكل مجتمع له ثقـــــــافة تميزه عن المجتمعات الاخرى ، أي تجعله مختلفاً عن الشـــــعوب الاخرى ، وان تشابه معها في بعض الوجوه فالثقـــافات يبنى بعضها من بعض .

يمكن النظر الى الثقـــافة باعتبـــارها تجميعاً لأفضل الحلول التي تعارف عليها المجتمع لحل مشـــكلاته ،ان الثقافة هي وسيلة الانسان في محاولته لتكييف ســـلوكه مع مكونات البيئة المحيطة به بـــايولوجية واجتماعية وسايكولوجية أو تاريخية بعض هذه الحلول ربما جاءت بـــطريق الصدفة البحـــتة ، كما أن بـــعضها جاء نتيجة للاختراع ، أما الباقي وهو الغالبـــية العظمى جاء نتيجة التعلم والاستعارة الثقـــافية من المجتمعات الاخرى ،أي من الثقافات الاخرى اذ أنه على الرغم من أن كل مجتمع له عدد من المواقف الثقافية الفريدة التي ينفرد بـــها إلا أن أغلب المشكلات التي تواجه المجتمعات متشابهة في طبيعتها ، مع تغير في الظروف بالنسبـــة لكل بـــيئة أو ثقافة وهذا هو مبدأ النسبية في كل العلوم الانسانية .

ولكي نفهم الثقافة يلزم فهم الطريقة التي نستعير بـــها



من الثقافات الاخرى ، فتلك الاستعارة لاهي عشوائية ولاهي كاملة ، وانما هي جهد منظم لنقل تلك الانماط أو الاساليب الثقافية التي يقدر أنها مفيدة في حل مشكلات مجتمع معين وبمجرد اتمام التكيف يصبح جزءاً من الارث الثقافي ، وبناء عليه فكل من الثقافات فريدة في ذاتها ولكنها ناتج جزئياً من الاستعارة من ثقافات اخرى

خذ على سبيل المثال الثقافة العراقية ، فنحن نجد العراقي من الطبقة الراقية قد استيقظ في الصباح على صوت المنبه الاجنبي الصيني مثلاً ، ويبدأ تناول الأفطار بطبق من الجبن والبيض والحليب المصنع في أوربا مع كوب شاي هندي مع افطاره المربى على الطريقة السويسرية ، ثم يخرج علبة السجاير الامريكية أو الاجنبية من دول اخرى وعلى نغمات الموسيقى المنبعثة من الراديو الانكليزي أو الاجنبي الصنع ثم يبدأ في قراءة أنباء الصباح أو سماعها من فضائيات أجنبية ، ثم ينظر الى ساعته اليابانية أو السويسرية وينهض مسرعاً شاكراً الله على أنه مازال عراقياً مائة في المائة .

وهو على حق في افتراض عراقيته مائة في المائة طالما أن ما استعاره من الثقافة الاخرى قد تم تكييفه وتعديله وصهره في العادات والأطعمة والتقاليد العراقية وبالتالي أصبح جزءاً من الثقافة العراقية .

فبصرف النظر عن مصدر الحل الذي نستخدمه لحل مشكلاتنا فانه بمجرد أن يتم قبول هذا الحل بشكل عام في المجتمع يصبح جزءاً من التراث الثقافي ويتم تعليمه للأجيال المتعاقبة القادمة .

هذا الارث الثقافي هو مايميز الانسان عن الحيوانات ، فالبشر يتوارثون حلول المشكلات ويعملون على تطويرها وتنميتها ، وأن علم الانسان الأنثروبولوجي لم يعد في بداياته الأولى يهتم بدراسة المجتمعات البدائية التقليدية المحلية برغم أنه لايزال يهتم بها اهتماماً خاصاً ، بل أصبح بالوقت الحاضر يقدم اسهامات في المعالجة والحلول للمشكلات الانسانية التي يعانيها الانسان في المجتمعات الكبيرة الحضرية الصناعية المتقدمة ثقافياً وتكنولوجياً أسوة بالعلوم الانسانية والسلوكية الاخرى ، وهذه المشكلات الثقافية تكاد تكون كثيرة ومتعددة الانواع حسب نوع ومستوى الثقافة والبيئة الانسانية والمتغيرات في محيط الانسان .

هذه الصورة يواجهها كل انسان في المجتمع ، إلا أنه اذا ما رجعنا الى واقع هذه المشكلات واثرها في الجوانب الحياتية للانسان، نجدها أول ماتصطدم به تلك المنظومة القيمية الانسانية (Humanityvalue) هذه المنظومة من القيم التي يكتسبها ويتعلمها عن طريق مايتوفر له من ادوات ومستلزمات تشكيل ثقافته .

وان مفهوم القيم الانسانية من المنظور المجتمعي بالعلاقة الترابطية بين الاحتياجات والحقوق الاساسية والضرورية للانسان وبين منظومة القيم التي يحملها الانسان ، تمثل مطلباً وظيفياً وبنائياً في النسق الاجتماعي والثقافي المتصل بالنشاط الانساني .

ان منظومة القيم الانسانية تعد هنا مطلبا حضاريا متصلا ومتفاعلا مع الخدمات الضرورية التي لها القدرة على ربط اجزاء عملية البناء الاجتماعي وتنسيق وظائفه للتناسق والتكامل بين الانشطة والعلاقات الانسانية المتبادلة بين افراد المجتمع وفي قواعد



السلوك الانساني التي يستند عليها تقويم السلوك في المجتمع .

ان القيم الاجتماعية الانسانية ظواهر واسعة من ظواهر عدة في المجتمع كما أن لكل ثقافة وحضارة عددا من القيم لدى الافراد في المجتمع وأن التمسك والمحافظة عليها وتنميتها وجعلها جيدة لانها تعد هي جوهر الحضارة ، اذ أنها تحكم حياتهم وتتخلل كل الانشطة الحياتية وتنظيم السلوك وأسلوب العلاقات بطرق متميزة وطابع خاص .

ان الخاصية في الثقافات التشابه مع الاختلاف في الوقت ذاته لها أهمية كبيرة في كسب القدرة على فهم وتقديم الثقافات والتعامل في ظلها .ان خاصية التشابه مع الاختلاف احياناً ماتحدث ارتباكاً في ذهن المثقف اذ يتخيل أن كل الثقافات متشابهة، وبالتالي فالحلول الناجحة في مجتمع معين يجب أن تنجح في مجتمع انساني اخر ، وهذا ربما يكون خطأ فادحا. فقد يتحدث الناس حتى لغة واحدة ولكن ثقافتهم تكون مختلفة، ولهذا يكون التعامل الناجح مع الانسان يتطلب مسالك مختلفة، وقد يعيش الناس في مجتمع واحد ولكن أهل المدن يختلفون في ثقافتهم وفي بعض جوانب حياتهم عن سكان البادية أو الارياف (الاهوار) فلهم ثقافتهم التي تختلف في عدة وجوه عن ثقافة أهل مراكز المدن– هناك تشابه وهناك اختلاف – اما عناصر الثقافة فهي كما ذكر تشمل كل جوانب الحياة من صنع الانسان ويمكن تحديد بعض عناصرها الرئيسية في الأتي:–

١ــ الثقافة المادية :– وتشمل التكنولوجيا (الطرق، والكهرباء ، ونظم البناء ، ونظم الاتصال والمواصلات ، .... الخ).

٢ــ الثقافة الأقتصادية:– وهي(طرق الانتاج ، الاستهلاك ، والتوزيع ، والتبادل، والربح والخسارة ، لخ).

٣ ــ ثقافة المؤسسات والهياكل الاجتماعية والانسانية :– وهي تتناول التنظيم الاجتماعي في كل الاشكال والمستويات (الاسرة ، الحكومة ، الجماعات الانسانية ، نظم التعليم والتربية ، والتدريب ، والقوانين ، العادات والتقاليد والقيم السائدة ، ونظم الزواج ، وانماط التعامل بين الناس ، الموروثات الحضارية ، .... الخ).

٤–الثقافة الفنية :– وتشمل (الفنون ، والفلكلور ، والموسيقى والدراما ، واللغة ، ... الخ) .

واقع الانثروبولوجيا الثقافية في المجتمع العراقي وعلاقتها بسلوك الانسان

هناك قول متداول في المجتمع وهو(طريقتك في السلوك بنت ثقافتك) وقد يدهش البعض لحديثي عن الثقافة ، وكأنه ترف أكاديمي لايتسع وقتنا له ، إذ تواجهنا تحديات كبيرة ومهام جليلة ، ويضيف البعض (دعنا نفكر في كيف نزيد الانتاج ، وكيف نحقق الارباح والامن والاطمئنان أولاً ، ثم نلتفت للحديث عن الثقافة).

ومشكلة هؤلاء أنهم لايدركون حقيقة زيادة الانتاج وتحقيق الاطمئنان والامن ، والعمل المستمر يتوقف على حسن السلوك والادارة الجيدة وهذا كله مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالثقافة ، لأن السلوك الاداري والانساني



نابع من ثقافة الانسان وطريقة تعامله مع الاخرين في المجتمع ..

ولهذا ان فهم الثقافة الانسانية شرط لحسن التعامل وادارة الافراد في المجتمع الامر الذي يتعين الانتباه اليه في أي وقت وأن يكون متفهماً وعارفاً لثقافته وقادراً على التكيف الفعال معها ..

الوالدان مثلاً : وصعوداً الى المعلمين والمدرسين في المدارس ، والمدير في دائرة حكومية ابتداءً عليهم التوجيه والاقناع بأهمية الثقافة السائدة وينبغي أن يحسها ويدركها الانسان ويتكيف معها . أي انسان يمكن بثقافته وعمله وأسلوب تعامله مع الاخرين أن يحدث التغيير التدريجي في الثقافة وإن كان بطيئاً ..

ان المثقف الذي يحسن التصرف في الحياة عليه دوران رئيسان هما :-

دور التكيف مع الثقافة،ودور امكانية تغيير الثقافة السلبية المرفوضة من قبل افراد المجتمع في الاجل القصير والبعيد،وهذا له كلام وحديث اخر في موضع اخر.

الانثروبولوجيا الثقافية في المجتمع العراقي يكاد يكون من الصعب جداً تنفيذها كما يجب ما لم تكن الثقافة السائدة هي ثقافة التميز وهذه تختلف بالتأكيد عن ثقافة الكسل والتواكل والتساهل وكل ماهو سلبي ، وبالتالي فإذا أردنا تحقيق الانثروبولوجيا الثقافية في المجتمع العراقي لابد أن نراجع ثقافتنا لنتأكد من أنها ممكنة التحقيق ، أو يكون لنا شأن اخر ، ان تطور الثقافة الانسانية ينبغي ان يكون معه مجموعة من القيم والاهداف والنظم التي تدعم هذه الثقافة ، لايمنع من تحقيق تأثيرها في السلوك الانساني لاظهار البعد الانساني في العلاقات الانسانية بين الافراد في المجتمع.

الثقافة الحقيقية لها علاقة مباشرة بسلوك ونشاط الانسان وتسعى دائماً الى تحويل هالة الحزن والحسرة والنكوص في السلوك والتفاعل بين الجميع ، والى استنهاض الهمم وتفعيل الجهود لرفع البعد السلوكي الانساني في جميع المجالات لتوفير الامن والاطمئنان لمواجهة ومعالجة المشكلات والصعوبات التي تعترض مسيرة الانسان وحياته .

ان المشهد الثقافي في العراق ينفرد بامتياز عال في الكم الهائل من المثقفين في عدة مجالات وعلى حساب النوعية الجيدة من الثقافة الانسانية وفق المعطيات الضرورية لتحقيق التوازن بين ماهو سلوك سوي ، وماهو مرفوض اجتماعيا وانسانيا لرسم ملامح ثقافية عراقية فكرية ونقدية تتطور نحو الافضل .

نجد الان في المجتمع أنواعا عدة من المفاهيم تسبقها كلمة (ثقافة) مثل:- ثقافة التسامح ، وثقافة التعاون، وثقافة الشفافية ، والبيئة الصحية ، العنف ، والتعصب والعدوان، وثقافة الازمات وغيرها.. كثيرة جداً المفاهيم التي تلصق بها أو توضع قبلها أو تتبعها كلمة الثقافة ..لكن مردوداتها الايجابية وفوائدها قليلة جداً أو تكاد تكون معدومة في بعض الاحيان لمعالجة واقع حال الانسان في المجتمع وهو غير مفيد في كثير من هذه الثقافة أو تلك ، وان الكثير من انواع الثقافة لاتمنح الانسان معنى للحضارة أو تدفعه الى العمل المنتج والانجاز والتفكير بالسلوك الجيد والتعامل

الحسن والاهتمام باحتياجات الاخرين .. أمثلة كثيرة ومتعددة يصعب حصرها ومنها ماهو معروف في حياتنا الاجتماعية وقيمنا السلوكية الانسانية العراقية ..

ـ هل يمكن أن نحقق انثروبولوجيا ثقافية في البيئة الاجتماعية العراقية ؟

ممكن ، ولكن الحياة الآن صعبة، وفيها من الصعوبات والمشكلات والمنغصات والجهد..المطلوب كبير ، ان التميز في داخل الثقافة العراقية طبيعي وتلقائي وسهل ، ولكنه غير طبيعي وغير تلقائي وصعب للغاية في الثقافة غير المواتية في التكنولوجيا والمعلومات المتطورة والمعاصرة ، خذ مثالاً على ذلك :-

ـ حتى على مستوى الفرد – الموظف الملتزم الذي يحافظ على مواعيده ويحترم عامل الزمن ، ولايتربح من وظيفته ويحرص على خدمة الناس ، هذا الموظف اذا وجد في مصلحة أو دائرة حكومية يسودها الفساد والرشوة وعدم الاهتمام بخدمة الناس، وعدم الحرص على الوقت، سيكون خطراً على الاخرين الذين سيجعلون حياته أصعب وهروبه أسهل من موقعه الوظيفي .

الباحث العلمي لايلجأ الى التعميم بدون سند وقد أوضحنا في كلام سابق أن الثقافات تتشابه وتختلف في الوقت ذاته، كما أنه في داخل المجتمع الواحد توجد اختلافات ثقافية يعتد بها ولايجوز تجاهلها وصحيح أن هناك تشابهات كثيرة ولكن هناك اختلافات أيضاً ، وبالتالي وهذا شيء ليس بمستغرب إذا كنا نتحدث عن ثقافة حقيقية علمية عراقية تحقق التوازن في سلوك الانسان في الانماط الحياتية السائدة في مجالات كبيرة من المجتمع ولانزعم أن هذا التوازن يتحقق ويوجد بنسبة (١٠٠%) في كل الاحوال وفي كل اجزاء المجتمع ..

في هذه الحالة ينبغي أن يكون المثقف الذي يحسن التصرف في الحياة حذراً من أن بعض الانماط السلوكية الظاهرة قد لاتكون شائعة بالقدر الذي يوحي بضررها في المجتمع ، فقد يكون الظهور نتيجة الاعلام والقنوات الفضائية أو نتيجة حقيقية عن المألوف ذاته ولكنها غير ضارة . وعليه نود أن نؤكد في بحثنا هذا أنه ليس هناك إدانة للثقافة ، كلا ، وانما فقط الاشارة الى أنه يوجد انواع كثيرة من الثقافة ليس في صالح الانسان ولاتتناول واقعه الاجتماعي والاقتصادي والنفسي مما يتطلب الضغط على الجهات التي تمتلك القرار ان تعمل بدرجة كافية وحقيقية ويحرص لتأمين حاجات الانسان الضرورية والاساسية وخلق موازنة بين حقوقه وواجباته لهذا نجد أنه من العناصر الثقافية غير المتوفرة مثلاً :- غياب روح العمل الثقافي كفريق في الكشف العلمي في كثير من الاعمال الثقافية وهذا قد يكون سبباً رئيساً لعدم الاخذ بالمنجز الثقافي ، وكذلك تجاهل وطمس الانجاز الثقافي الفردي، ومنها غياب المؤسسية في التفكير الاسري ، أو بريق النجم الاوحد، أو سيطرة الزعيم التاريخي (الكارزمة) كلها ظواهر تقلل فرص تميز الاتجاهات الثقافية الايجابية وتقلل حق فرص حشد الجهود وتعبئتها ، وتربط التميز بشخص واحد أو جماعة صغيرة في المجتمع ناهيك عن احتمالات الميل للاعتبارات الشخصية في السلوك الانساني على حساب الاعتبارات الموضوعية في الاتجاهات الثقافية ..



من الملاحظ في غياب المؤسسية أرتباط فكرة الحكام أو الاشخاص في السلطة أنهم لاينظرون الى أنفسهم مسؤولين اختارهم الشعب ويستطيع محاسبتهم بل يفضلون النظر اليهم باعتبارهم (كبير العائلة) أو (الاب الروحي) أو (الراعي دون الرعية) وهذه مسميات غير خاضعة للمساءلة ، وبالتالي يكون هذا ان حدث في المجتمع نتيجة للصدفة البحته وليس نتيجة لحسن الاختيار و آليات المسائلة ..

وتنزلق هذه الممارسات الى كثير من المواقع والوظائف الحكومية في الوزارات والدوائر والهيئات ، وبالتالي يتحول هؤلاء من طاقة تدفع الى التقدم والتطور الى ثقافة عدم المساءلة.. وهل يجوز أن تحاسب أباك ؟! وولي نعمتك المسؤول الكبير ؟! . وهكذا نرى ثقافة ارتكاب الاخطاء والتسيب في انتشار الاهمال والكوارث، والتجاوز وسرقة المال العام وعدم النزاهة المنتشرة في كل مفاصل الحياة والنتيجة الطبيعية لهذا السلوك غير السوي هي شيوع ثقافة عدم المحاسبة القانونية والاجتماعية في مختلف المستويات ، وكأن التسامح وعدم العقاب أصبح أولى من العدل وهذا يزيد الامر سوءاً والميل الى التمسك بالمواقع الوظيفية وتتبعها السياسية بشكل قد يدوم مدة طويلة من الزمن دون اتاحة الفرصة لتغيير الاشخاص المسنين وتداول السلطة بشكل طبيعي وكما ينبغي .

الثقافة الانسانية الحقيقية هي الحل لأزمات المجتمع العراقي

عندما تسعى الثقافة الى تعزيز وترسيخ قيم المجتمع العراقي ، تكون قد اتجهت الاتجاه الصحيح وأن تواصل الاجيال أمر محمود ومطلوب في المجتمع ولكن صراع الاجيال غير مطلوب بل هو يهدد الطاقات الانسانية بالهدر وبغير مردود ايجابي، بل يقضي على فرص الابداع، وربما يبذر بذور الكسل والخمول ويثير الهلع والخوف والارهاب وهذه سمات شائعة ، كما هو الحال في سمة اهدار الوقت والتراخي وعدم الاهتمام بالزمن واغلاق الابواب امام أي طاقة مبدعة تصبو الى التطور والتخطيط العلمي وتهيئة المناخ الملائم لأي طموح أو قدرات انسانية تحاول اثبات وجودها ..

ان عدم الدقة والاتقان في العمل في كل المجالات لاتؤكده الثقافة السائدة فقط بل حتى القبول بالمستويات المتدنية في كل المجالات .. وسأضرب بعض الامثلة من حياتنا اليومية :-

- هل شرطي المرور يتقن عمله في تنظيم المرور وضبط المخالفين ؟
- هل المعلمون يؤدون واجباتهم في كل الحصص لكل التلاميذ ؟
- هل الاطباء والممرضون دائماً يهتمون بالمرضى والحالة الصحية لهم ؟
- هل كل موظف حكومي يخدم المراجعين باحترام في كل الوقت ؟
- هل تفشي ثقافة عدم النزاهة يلقى أرتباطا بحسن السلوك ؟
- هل قيمة اتقان الوقت واحترام العمل الوظيفي متوفرة ؟
- هل تعامل وسائل الاعلام والفضائيات مع الانسان على أنه غيرمؤهل لاستقبال المعلومات والاخبار



الصحيحة والصادقة هو في صالح المجتمع ؟

ـ هـل الروتين والتأخيرة والتزويـر المتفشـــي في أغلب الدوائر والجهات والاجهزة الحـكومية يصب في صالح المجتمع ؟

-هل فرض الوصاية على الناس الى الحـد الذي يجعلهم يفقدون الثقة بقدراتهم وادائهم امر مقبول ؟

هذه الممارســات وغيرها ظهرت وتظهر مستقبـــلاً وتؤدي الى انحراف العلاقة بـين الانســان (المواطن) والسلطة ، وأن ماأقصده هنا هو أن الانســان في أغلب الاحيان نشأ في ثقــافة تهاب الحـكام وتخافهم الى حـد التقديس فأصبح الانسان يخشـى الحـكومة ثم أصبـح يخشـى الرؤســاء من كل نوع .. والنتيجة لاتمييز على الاطلاق لأن أحدا لايحاسب أحـداً .. موظف الحـكومة يهمل في أداء الواجب المكلف به ، والانسان يخشى هذا الموظف ، ويخاف من الشكوى عليه والمســؤول يظلم ويهمل واجباته ، والانسان في المجتمع يخاف ويرتعد ، وفي النتيجة يزداد الباغي ظلماً وتتدهور الاحوال وهكذا تكون غالبية الناس في حلقة مفرغة ..

هذه الثقافة غير الانسانية وغير السليمة لاتستطيع أن تعالج وتحـل الازمات في المجتمع العراقـي ، وهي ثقافة استسلامية تتناقض مع أي من حقــوق الانســان الأساسية والضرورية .. وتســتطيع تسـمية مثل هذه الثقــافة المنتشــرة بشــكل واســع بثقــافة التواكل .. والمقصود هنا هو غياب الثقافة الانسانية الحقيقية التي تواجه الأزمات والصعوبات والمشــكلات في قـطاعات كثيرة من المجتمع ، وبـدلاً من ذلك يشــيع الميل الى التسيب والتواكل والاعتماد على الحظ أو على (تساهيل ربنا ...) تسأل الشخص الفني كم من الوقت يحتاج مثلاً لإصلاح هذا العطل ، فيقول لك (ربنا يســهل ..) وتلح عليه لتحديد الوقت فيصر هو على أن (كل شيء بايد ربنا يأستاذ) ...

يترتب على ثقافة التواكل الأستسلامية بالتأكيد غياب الرؤية الصحيحة في حـركة المجتمع وغياب التخطيط الصحـيح في الانجاز دون مضمون حقيقــي ، وضياع أهداف الانسان ، وإذا تعين علينا الاشارة السريعة مثلاً : الى تخلف نظام التعليم والتربيـــــية وهذا لايفرز ولايعطينا الانسان (المواطن) الجيد الناجح المسؤول والقادر على النقد والبحـث والاكتشــاف ، ومن غير الدخول في تفاصيل العملية التعليمية والتربـوية ، فان هذا الانسان الذي لم يتعلم كما يجب سيكون عاجزا حقا عن المشـــاركة الفعالة والتفاعل الاجتماعي ومعرفة دوره الصحيح في الاداء بكل طاقاته ...

وهذا يترتب عليه ضعف الانتاج في العمل وعـدم الحرص على تطبــيق القــانون في كثير من المواقــع الوظيفية والعامة ، وغياب الضبـط الاجتماعي وعدم متانة العلاقات الانسانية ، وانتشار ثقافة التسيب أكثر من ثقافة الانسجام والتعاون والانضباط والانســان إذ يعمل في مثل هذه الثقافة غير المنضبــطة يصعب عليه ضبـط العمل واداء الواجبــات واحـــترام الاخرين ، ويصعب على الانسان إثابة المجد ومحاسبــة المهمل وتحقيق التوازن في الفعل الاجتماعي ...

الثقافة غير الجادة لصالح الانســان والرديئة في أغلب المجالات سبـــــب مهم في التأخر التكنولوجي والمعرفة والتطور ..



سوف أضرب مثلاً من الواقع الاجتماعي ، وهو وجود قطاعات كبيرة من المجتمع مازالت بعيدة جداً عن ملاحقة ومواكبة التطورات التكنولوجية وثورة المعلومات ومابعد الحداثة خصوصاً في النظام الاجتماعي والبحث والاتصال والمجالات الاقتصادية وأحياناً يكون تعامل الانسان مع التكنولوجيا تعاملاً مظهرياً أو طفولياً دون استفادة حقيقية من التكنولوجيا .. وكل واحد يأتي الى المسؤولية يبدأ من أول السطر ..

مثال: نجد الأن (حمى المحمول / النقال / الموبايل) تجاوزت نسبته الى مجموع الناس في المجتمع العراقي (٩٠٪) وهي نسبة عالية جداً في زمن لايتجاوز (٥) خمسة سنوات ، ولكن هل هذا يعني اسهاما حقيقيا في التقدم والتطور الحضاري ؟ ... ظني أن كثيرا ممن حمل الهاتف الموبايل لاعلاقة لهم بالتقدم والتطور ، بل عشرات الالوف من الناس(الاطفال، والصبية، والرجال، والنساء، ...) أصبحوا يزينون صدورهم بالموبايل وهم في المدارس وداخل الحصص ، وفي الدوائر الحكومية والاماكن العامة والاسواق بل أين مايكونون، أو أين ماذهبوا ...

العجيب أن أحداً لايسأل .. هل هذه هي الاستفادة المثلى من تكنولوجيا الاتصالات المتطورة .. ؟ .

أهمية تغيير تطور ديناميكية الثقافة:

من العيب أن الانسان لايستفيد من تجارب من سبقوه ولايبني على انجازاتهم ولايسترشد بالاراء الجيدة ،ان الانسان إذا قورن ببقية الحيوانات وجدناه أكثر ذكاءً كثيراً فالحيوانات لاتتعلم من التجربة ولاتستفيد منها إلا نادراً جداً وبعد الجهد والتدريب ، أما الانسان فيغير حتى أنه ليس أكثر ذكاء ، وليس أكثر أستفادة من التكنولوجيا المعاصرة والمتطورة والاستفادة من تجارب من سبقوه .

ان ماسبق يمثل بعضا من الجوانب الثقافية التي نعدها سلبية ومعوقة لتحقيق السلوك الانساني الجيد في مجالات الحياة ، وهذه المجالات تحتاج الى تطوير حقيقي وفهم ايجابي ومعرفة اضافة الى التغير الضروري في هذا التطور وديناميكية الثقافة ..

أن الثقافة تحدث طول الوقت بفعل احتكاك الثقافات فهي مكتسبة وليست وراثية يتعلمها الانسان ويكتسبها من البيئة أو المحيط الذي يعيش فيه ، فكل احتكاك يتولد عنه نقل أنماط ثقافية واستيعاب ودمج وتكيف – هذه هي ديناميكية الثقافة .. ومع ذلك فان كل تغيير في أنماط الحياة والسلوك ، يقابل ويصطدم بمقاومة ورفض أكثر من الترحيب القليل – فالانسان يحب التغيير ويقاومه ، وهذا الرفض وعدم القبول والترحيب قد يكون ناتجا من عدم الفهم والجمود والرتابة وغيرها . فالتغيير وعدم الوضوح والغموض في المتغيرات الاجتماعية الايجابية يهدد ويتعارض مع مبدأ المعرفة والتطور في الحياة وعدم ايقاف مسيرة المجتمع ..

فإذا أردنا معرفة الأسباب الحقيقية لرفض التغيير وعدم قبول الجديد والترويج له بشكله الايجابي نجدها مايلي :-

- حسب درجة الاهتمام بالموضوع .
- حسب تحدي الجديد للقديم .
- حسب نوع القيم والعادات والتقاليد والاعراف وعمقها ورسوخها في المجتمع .



في معجم الانثروبولوجيا (اعداد بيار بونت ، وميشال ايزار ، ٢٠٠٦ ،ط٢ ،المؤسسة الجامعية للدراسات ، ترجمة مصباح الصمد) – يذكر جميع الانثروبولوجيين تقريباً يوافقون وجهة النظر التي تشير الى أن :

ـ الانثروبولوجيا الثقافية عالم معرفة متميز ومفيد الى الانسان .. أكثر مما هي مصدر معرفة خاص .. فلكي تفرض الجديد والمهم والمفيد وتقدمه الى الانسان وامام جمهور واسع ، يكون من المناسب إذن ، في الاقل قول ماهو ايجابي وما ينبغي ان يعرفوه وكيفية ايصال المعرفة لهم ..

ـ وأن لغتهم تنتمي الى جهاز وظيفي مزدوج : وصفي ومفهومي .. يتصورون الواقع الاجتماعي الانساني ويحددون توجهات تفكيرهم عبر لغتهم وفق الاعراف والتقاليد الايجابية في المجتمع ...

ان الثقافة عندما تلتزم وتمارس الفعل الاجتماعي الحقيقي والتغيير والتطور يدرك الانسان مدى فائدتها له ويحاول الانسان بعد التعلم والمعرفة أن يطور في اتجاهات عدة .

الاختلاف في بعض مواقع الاختلاف لايغير من جوهر الحقيقة شيئا ، فهذا يُعد جهدا واجتهاداً ، وعندما يطرح المثقف فيما يرى له علاقة ترابطية بموضوع معين أو حالة اجتماعية أو سلوكية انسانية فانه يفترض في هذه الحالة أن يهدف الى تحقيق الفائدة الثقافية والاجتماعية للانسان عبر مفردات فكرية واراء في ثنايا ثقافته هو ، والتعارض الفكري لايفسد من الود قضية .

معاناة المثقف في مجتمعنا العراقي معاناة كبيرة ، لأن مجتمعنا من المجتمعات التي لاتفهم اسراره بسهوله، واسراره كثيرة عند فئة المثقفين الواعين وفئة الاميين وفئة الوسط ، واحداث التاريخ تعطينا شواهد كثيرة ومتعددة في مجتمعنا العراقي على سلوك الانسان المثقف والمتعلم في مستوى ثقافته وليس أن جميع المستويات الثقافية متساوية في النظرة الى أهمية التغيير والتطور في ديناميكية الثقافة وطبيعتها ومعرفة اسرار المجتمع الكبير وكذلك سلوك الانسان وتفسيره للظواهر والمشكلات الاجتماعية واسلوب تشخيصها والحالة النفسية للانسان وكيفية قياسها في المجتمع ..

ان هذا الاتجاه – المفهومي والواقعي – يتخطى أحياناً البديهيات المعرفية ويبين مختلف الوسائل التي تقدم من خلالها الفائدة الى الانسان في الجوانب الحياتية المتعددة .

أود أن الفت النظر الى شيء مهم وهو أن العلم شيء والعقل شيء اخر ، وكل منهما له منهج في الحياة يختلف عن منهج الاخر فالعقل قد يرى رأياً لايرضى به العلم والعكس صحيح ، إلا أن كلا منهما متمم للاخر فلا علم بدون عقل مدرك يفهم العلم ، وكذلك لايوجد عقل بدون علم يستفيد منه فهو لايكون في الفراغ ..

الاتجاهات المعاصرة أو الحديثة في تفسير طبيعة الثقافة وشخصية الانسان في الحياة كثيرة ومتعددة ، ومن هذه الاتجاهات ، ان الثقافة أولاً مهما كان نوعها ومستواها فهي ذات تأثير مباشر وكبير في تشكيل شخصية الانسان وعلاقاته الانسانية والبعد السلوكي في النجاح أو الفشل كمكونين أساسيين في حياة الانسان ، وأن شخصية الانسان هي نتاج ثقافته تدور



حول الأنا ، لايكاد يفتح عينيه للحـياة منذُ طفولته حـتى يبدأ شعوره بالأنا وهي تطغى عليه ، لكن تبقى الشخصية الانسانية لغزا من الالغاز لم يتوصل العلماء والمفكرون الى اكتشاف كنهها حتى الان بصورة كاملة . كما أن لكل مرحلة وكل زمان ومكان فلسـفتها التي تحـكم البـناء القيمي والاعداد الثقافي للانسان في المجتمع .

ليس هناك قوالب جاهزة الجوانب الحياتية الانسانية ، ففي الوراثة عوامل لاتحصى تؤثر في تشكيل شخصية الانسان وسلوكه في اتجاهات مفقودة، كما أن في البيئة الثقافية والاجتماعية عوامل لاتحصى ، لذا فان البشـر ينشأون من جراء تفاعل عوامل الوراثة والبـيئة ، وهذا هو الذي جعل شخصيات البشر تتشابه وتختلف بـعض الشيء .

ان الاهتمام بثقافة الانسـان وسـلوكه وتوجيهه الوجهة الصحيحة ليس بـالامر السـهل والمشـكلات والصعوبـات في الحـياة الانسـانية كثيرة ومتنوعة ومتشابكة وليس بينها حدود فاصلة .

أن الانسان عرضة للخطأ بطبـعه وهو ليس بـدرجة الكمال وليس هذا عيباً انما العيب هو الاصرار على الخطأ ، والاعتراف بالخطأ هو نقد ذاتي ومحاكمة منطقـية مع الذات ، كما أن المجتمعات جميعها هي نتـاج ظروفهـا الثقافية والاجتماعية والثقافية وهنا ينبغي على المثقف أن تكون لديه سـعة الاطلاع ونضوج المعرفة وحسـن التصرف في الحياة وتقوم على الموضوعية والحياد قدر الامكان .

يقول رسول الله محـمد (ص) : من اجتهد واخطأ فله حسـنة ، ومن اجتهد وأصاب فله حسـنتان ... وهناك سؤال قد يطرح نفسه وهو :-

هل يمكن تغيير مبدأ الثقافة الواحدة ، نعم ، والدليل حاسم على امكانية التغيير وعلى مسـتوى الافراد والجماعة والمجتمع، وذلك ممكن إذا نحـن وجهنا الاهتمام الكافي لحسن ادارة الافراد والتخطيط داخل ثقافة المجتمع وجعل الافراد المتميزين قدوة لغيرهم في الانماط السـلوكية التي يتحـلون بـها اضافة الى تطور نظم التعليم والتربـية والتدريب لتنمية القيم الانسانية الثقافية والدعوة المباشرة وغير المباشرة لنبذ الانماط السلوكية السلبية.. لقـد واجه المجتمع العراقي أزمة ثقافية بـعد ماسـادت في بـعض الاحيان ثقافة العنف والارهاب والاجرام، فأصبـح التعامل بحساسية مفرطة وتعصب وانحياز، وفي مثل هذه الحالة لابد من توفير لغة الحوار والاحترام للوصول الى قواسـم مشـتركة لتعزيز وتوطيد اواصر الاخوة والتعاون بـين جميع الناس في اطار الهوية الثقـافية الوطنية العراقـية التي هي البوصلة للحراك الاجتماعي وحـل الازمات على اساس الحق والعدل والانصاف ..

ان مهمة المثقف هـي بناء الفكـر والعلـم والجانب التربوي فـي المجتمع والتوجـه الى التطور في مجالات تكنولوجيا المعلومات والتنافس المشروع والعطاء العلمي هي المعايير المتبعة في عملية التقييم والتقويم .

ولذلك نجد أن دخول علم الانثروبولوجيا وخاصة في حقل الثقافية ومنها المجال الحضري والمجتمع الكبير، وظهور الايكولوجيا البشرية لدراسة النواحي الخاصة بالعلاقـات الانسانية وتعايش الكائنات البشرية مع نظمها الانسـانية المتبادلة والسائدة في بيئة الانسان الثقافية والاجتماعية ، افضل السبل في مجال دراسة العلاقات الانسانية في البيئة التي يوجد فيها ويتفاعل معها الانسان ، ومما أفرزه تأثير الحـضارة في السـلوك الانسـاني أننا نجد داخل ثقـافة

وشخصية كل انسان منا خواص معينة ، قد تتوافق أو تفترق مع الخواص الموجودة في ثقافات وشــخصيات الاخرين – ولهذا تنوعت وتعددت واختلفت الاراء لكنها سوف تستهدف جوهر الثقافة كأداة لتفسير الظواهر والمشكلات وآثارها في الانسان في المجتمع العام .

وان التحليل الثقافي المعرفي الحضاري لتفســير عملية التفاعل الاجتماعي وكيفية تأثيرها في تشكيل جوانب معينة في سلوك الانسان تعد مهمة المثقف وهدفاً له إذن فالثقافة أداة غنية بالمعلومات عميقــة الدلائل وذات قــيمة علمية أساسية في تفسير العمليات الاجتماعية ، لأنها تمثل طريقة وأسلوب عيش الانسان في المجتمع .

مصادر البحث

١ـ انظر د.علي الوردي ، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ، بغداد ، مطبعة العاني ، ١٩٦٧ .

٢ـ عالم المعرفة ، العولمة والثقافة تأليف د.جون توملينسون ، ترجمة د.ايهاب عبد الرحيم محمد ،٢٠٠٨ (تجربتنا الأجتماعية والثقافية عبر الزمان والمكان) .

٣ـ عالم المعرفة ،الثقافة والمعرفة البشرية ،تأليف ميشيل توماسيللو ،ترجمة شوقي جلال،٢٠٠٦ .

٤ـ معجم الأنثروبولوجيا ، اعداد بياربونت واخرون، ترجمة مصباح الصمد،المؤسسة الجامعية للدراسات بيروت،٢٠٠٦ .

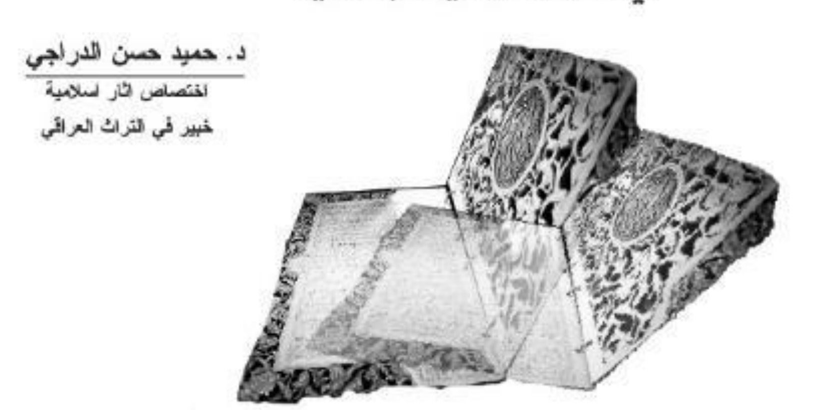


المورد
العدد الأول
لسنة/٢٠١٣



التكوينات الزخرفية على واجهات الخشب في العمارة التراثية البغدادية

د. حميد حسن الدراجي
اختصاص اثار اسلامية
خبير في التراث العراقي



جبل الانسان منذ القدم على تذوق فن الزخرفة والزينة في ملبسه ومسكنه واثاث بيته وحتى في تشكيل طعامه [١] فكان الانسان الذى سكن الكهوف يرسم على صخورها صورا لبعض الحيوانات التى كان يشاهدها في محيطه وكذالك صور بعض النباتات والاشجار وكان يستعمل ما يتوفر لديه من الاصباغ لتلوين تلك الرسوم اقرب الى لونها الطبيعى[٢] وقد امدتنا التنقيبات الاثرية بنماذج عما كشف عنه فى اقاليم مختلفة لان التقدم الحضاري الذى احرزه الانسان عبر السنين الطويلة قداسهمت فيه امم شتى وكان للعراق دوره الفاعل في هذا المجال والفن الاسلامى هو الحلقة الاخيرة من تلك السلسلة التى مرت بهذه البلاد [٣] .

ويستدل من طابع الزخرفة العباسية في بغداد ان مقوماتها وجذورها مستمدة من ماضيها [٤] وما نشاهده اليوم من حلية زخرفية في المبانى العربية والاسلامية التى ما زالت قائمة والتى يرجع معظمها الى الفترة العثمانية المتأخرة ما هى الا استمرارا للاساليب الفنية التى كانت سائدة فى العصر العباسى .

ومن المظاهر الهامة في المبانى التراثية والاهتمام بزخرفتها من الداخل والخارج على اختلاف انواعها واشكالها ، هو ما نراه ممثلا في المبانى التراثية وكما مبين ادناه :ـــ



١ــ الزخارف النباتية
٢ـ الزخارف الهندسية.
٣ـ الزخارف الكتابية.
٤ـ الزخارف الحيوانية.

والخشب مــن المواد الرئيسة التى استخدمت فى زخرفة الواجهات الخارجية والداخلية للمبــانى التراثية العراقية عامة والبغدادية بشــكل خاص، فقــد اعطاها تصاميم متنوعة ذات مواصفات خاصة ، وجعل واجهات المبانى المطلة على الازقة والشــوارع والدروب والتى اطلق عليها اسم (الشناشــيل) والواجهات المطلة على الساحة الوسطية (الفناء) نسيجا خشبيا غاية في الدقة والاتقان والجمال ، متضمنة تشكيلات زخرفية نبــاتية وهندسية واحيانا كتابة عبــارات دعائية واســماء الله الحسنى وفى البــيوت التى تعود ملكيتها الى النصارى واليهود استخدمت بعض الاشــكال الآدمية طبــيعية او محورة وهى نادرة وقليلة.

وبالاضافة الى استخدام الخشب في البيوت بكثافة فقد استخدم في الخانات والفنادق والحمامات والمقاهى واســتخدم في صناعة الابــواب والشبابــيك الداخلية والخارجية وبــمواصفات تقــنية وفنية عالية وطابــع متميزفي وحــداتها وتشــكيلاتها الفنية وسطوحـــــها اضافةالى اســتعمال المطارق الحــديدية والنحاســية والمسامير الحديدية الكبيرة ذات النهايات المحدبــة فى هذه الابواب وبخاصة القديمة منها ، فهى ذات مصراع واحد خال من الاطار مثبت قسمه الســفلي على صنارة حديدية او حــجرية وقســمه العلوى مثبــت فى الجدار بواسطة حلقة من الحديد .

تضمنت هذه الابواب تشكيلات هندسية مادتها مسامير الحديد الكبيرة المثبتة على الالواح الخشبــية بشــكل عمودي وافقي (شكل رقم ١)



(شكل رقم ١) باب قديم مزخرف بالمسامير الحديدية ذات النهايات المحدبة

وبالاضافة الى استخدام الحديد في تجميل الابــواب بالمسامير الحديد الا اننا نــرى استخدامه فــي عمل الابــواب والشبابــيك ، وقــد تجلت روعة اســتخدام المعادن في صناعة المطارق الحــديد والبــرونزعلى اشكال عدة منها ما كان مجردا ومنها ما كان على شكل اسد او حيوان خرافي او على شكل يد انســان اوطائر ناشر جناحيه واشكال اخرى كثيرة ، وكان لكل شــكل من هذه الاشكال دلالة خاصة . .

والابواب الاحدث تتألف من مصراعين مثبتين داخل اطارمن الخشــب مزين بــزخارف في الغالب نبــاتية احدهما ثابت والاخر متحــرك وقــد زين كل مصراع بتشكيلات نباتية بارزة وبعضها منفذ بالحــفر المائل



تمتد على طول كل مصراع وفي اطاره الخارجي (شكل ـ٢) ويزين المصراع الثابت من البـاب عند التقـائه بـالمصراع المتحـرك عمود قـائم من الخشـب هو الآخرمزين بزخارف نباتية مورقة يسـمى (القـائم) يعلوه تاج خشب مزين بزخارف نبـاتية او على شـكل طيور متقابلة في الاركان او على شـكل رؤوس طيور



(شكل رقم ٢) باب خشب ذو مصراعين

واحيانا على شكل مقرنص يتألف من عدة حـطات وفي بيوت اخرى يكون التاج بشكل كروي محـزز واحـيانا يشـغل كل ركن شـكل حـلزوني على هيئة الاعمدة الايوانية.



(شكل رقم ٣) باب مزين بالمسامير وخوخة

وتمتاز بعض البيوت التراثية الكبيرة ذات المصراع الواحد او المصراعين بـوجود بـاب صغيريتوسـط النصف السـفلي من البـاب ذي المصراع الواحـد اوالمصراع المتحرك من الباب ذي المصراعين وتسمى هذه البـاب الصغيرة (خوخه) كانت تسـتخدم للدخول والخروج في الايام الاعتيادية .(شكل ٣) .



(شكل رقم ٤) شناشيل وعلى جانبها كفشكانات (غرفة معلم)

وتقع على امتداد الباب الرئيسي الذى يقع في جانب من الواجهة مجموعة من من الشبابـيك الخشـب معظمها مجرد من الزخرفة باسـتثناء مجموعة من قضبان الحديد المدورة تمتد بشكل عمودي اوافقى كان



الغرض من وجودها حماية البيت ومنع حدوث السرقة ومن الداخل كانت تسد فتحاتها ابواب مصنوعة من الخشب تتألف من صف واحد او صفين من الخشب ويتوج كل شباك عقد نصف دائري او عقد مدبب واحيانا عقد نصف دائري ناقص (وتري) .

والبيوت التي كانت تشغل واجهتها شبابيك كبيرة في الغالب كانت مخصصة لسكن اليهود والنصارى ، اما بيوت المسلمين فكانت تفتقر الى مثل هذه الشبابيك منعا للشرفية وحفظا لحرمة البيت باستثناء وجودنوافذ صغيرة ذات مقطع دائري او مربع تسد فتحتها قضبان حديد مدورة مثبتة بشكلا مائل محدثة من تقاطعها اشكالا رباعية على شكل معينات .

اما الطابق العلوي فتبرز منه نحو الزقاق او الشارع واجهات من خشب قوامها سلسلة من الشبابيك المتحركة وهي ذات تصاميم متنوعة تمتد في بعض البيوت التراثية في جانب منها ومن منتصف ارتفاع الجدران تمتد واجهة من خشب مماثلة الا ان شبابيكها اصغر وهي تمثل واجهة لغرفة صغيرة معلقة في الطابق العلوي تسمى (كفشكان).

الشناشيل والغرف المعلقة يستند القسم البارز منها على اعمدة من خشب ذات نهايات متدرجة تسمى (كوابيل) وفي مدينة الموصل مادتها الحجراوالرخام تسمى (كبش) وقد اطلق البناؤن هذه التسميات حسب ما متعارف عليه عند البنائين وبخاصة الشناشيل التي اتخذت اشكالا عدة حسب المناطق الجغرافية وحسب البنائين الا انها تتشابه في مظهرها العام وطبيعة صناعتها ووظيفتها ،وعلى هذا يمكننا أن نقسمها الى ما يأتي : ــ

١-الشناشيل "المغلقة" المقبطة :

وهي عبارة عن سلسلة من الشبابيك الخشب متصلة في جوانبها ، وهي من النوع المتحرك في اغلبها تتقدم واجهات احدى الغرف المهمة والكبيرة في الطابق العلوي من الدار وهي ذات تصماميم متنوعة ، بعضها يبرز عن الجدار نحو ((٧٠ــ٨٠ سم)) ومن الداخل بمستوى الجداروفي هذا النوع من الشناشيل تتألف الواجهة من ثلاثة اقسام :

١ــ الاول وهو الاسفل قوامه الواح خشب رقيقة مثبتة على اعمدة من خشب بشكل عمودي او مائل واحيانا افقي ومن تثبيت الخشب استطاع النجار ان يستحدث اشكالا رباعية منها مربعات ومستطيلات واشكالا معينية احيانا ذات شكل شعاعي وهذا القسم يشكل القاعدة التي تجلس فوقها شبابيك الشناشيل اذ كان يتألف كل شباك من ثلاثة اقسام ويمد فتحة القسم الخارجي مشبك من الخشب يسمى حرفيا (القيم) ويمتاز هذا المشبك من الخشب بصغر فتحاته بحيث لا تسمح لمن في الخارج ان يرى من في الداخل ويسمح بمرور الضوء والهواء دون الحشرات الى غرفة الشناشيل (شكل ــ ٥)

وقد اتخذت هذه المشبكات لعدة اسباب وكما مبين





(شكل رقم ٥) شناشيل أبو البالكونات

ادناه :ـ

١ـالناحية المناخية.

٢ـالناحية الاجتماعية.

٣ـالناحية الجمالية.

وكانت معظم شبابيك الشناشيل من النوع المتحرك تفتح عند الرفع وتغلق عند الخفض . اما القسم الاوسط من الشباك فيتألف من شبابيك متحركة ايضا مغطاة بالزجاج الملون والشفاف بحيث عندما تكون مواجهة لاشعة الشمس تنعكس الوان الزجاج الملون الى داخل الغرفة على شكل اشرطة ملونة تعطي الغرفة جمالية خاصة اضافة الى جماليتها. واعلى الشبابيك في العقد بين اذرعه تمتد زخارف نباتية وهندسية على هيئة فروع نباتية مورقة تمتد بعدة اتجاهات او على شكل شعاعي واحيانا نجوم مثمنة وسداسية تحيط بها اشكال دائرية كما هو الحال في بيت نوري السعيد رئيس وزراء العراق في العهد الملكي الواقع في باب المعظم في بغداد . ويمتد خلف هذه الزخارف قطع من الزجاج الملون والشفاف . والقسم الثالث من هذه الواجهات وهو العلوي يماثل القسم السفلي واحيانا تزينه شبكة من الزخارف النباتية المورقة والزخارف الهندسية . وتبرز فوق هذه الشبكة من سقف الطابق العلوي طلعة خشبية مقعرة مزينة بزخارف هندسية قوامها اشكال رباعية منها مربعات ومستطيلات ومعينات تتقدمها بروزات على هيئة سهام مصوبة نحو الداخل الى البيت تسمى عند البنائين (صجغات) .وتتقدم بعض البيوت التراثية اسفل شبابيك الشناشيل محجرات قوامها قضبان حديد مدورة مؤطرة بالخشب لها وظيفة جمالية وعمارية .

الشناشيل ابو البالكون (الشرفة):

يتألف هذا النوع من شرفة تتقدم الواجهة في قسم منها او بأكملها وتتقدمها محجرات من الخشب المنحوت بأشكال مختلفة منها ذات المقطع الاسطواني والحلزوني او المربع اوالمثمن او الحلزوني والمزين بقنوات بارزة او غائرة . ويتوج المسافات المحصورة بين الاعمدة عقود ذات اشكال مختلفة ابرزها ، العقد المدبب والعقد نصف الدائرى والعقد الذى يكون على هيئة قطاع دائرة (وتري) والعقد المدبب المفصص الذى يسميه البناؤن (العقد الخليلى) الذى انتشر بكثرة في العمارة البغدادية في الثلاثينات والاربعينات من القرن التاسع عشر .وقد زينت واجهة العقود بزخارف نباتية مورقة وزخارف هندسية محفورة حفرا خفيفا واخرى بارزة يمتد فوقها على طول الواجهة شريط





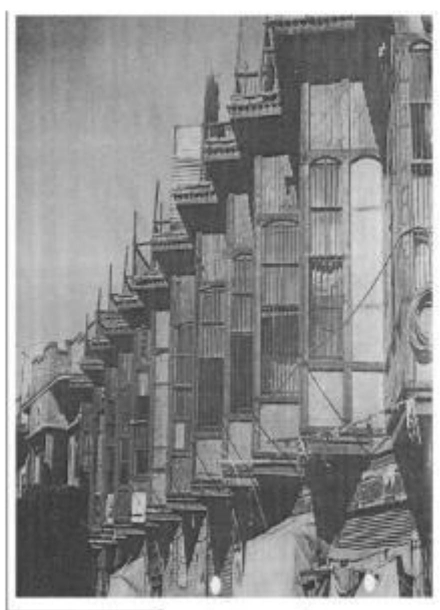
زخرفي تعلوه في الغالب طلعة من خشب مقعرة تسمى عند البنائين (هندى) .(شكل ــ ٥) .

٣ـ الشناشيل ابو الشمسية (المظللة):



(شكل رقم ٦) مضلات خشبية فوق الشبابيك

ان هذا النوع لا يختلف عن غيره من الشناشيل الاخرى في تركيبها وصناعتها والعناصر الزخرفية المنفذة عليها الا انها تمتاز بوجود مظلات مصنوعة من الخشب تمتد فوق الشبابيك بعضها مغلف بصفائح معدنية في قسمه العلوي وظيفتها حماية الشبابيك من المطر في فصل الشتاء والحرارة في فصل الصيف وقد زينت جوانب بعض منها بفتحات دائرية او نجمية (شكل ــ ٦) .



(شكل رقم ٧) شناشيل معرجة (مظلية)

٤ـ الشناشيل المتعرجة:

وهذا النوع لا يختلف عن غيره من الشناشيل من حيث وظيفته وتركيبه والعناصر الزخرفية التى تزينه، الا انها صممت بطريقة فنية وعمارية توخى المعمار منها تصحيح الطابق العلوى الذى يتكون من التواءات وبروزات غير متجانسة الى زوايا قائمة وبالتالي صممت غرف الطابق العلوي نفسه الى غرف ذات اضلاع متوازية ومتعامدة وهذا ما جعل بعضها ذا اشكال تشبه اسنان المنشار، وعلى هذا فإن استخدامها في المبانى التراثية يعد بحق من المعالجات



العمارية البارعة التى قام بها المهندس والمعمار وبالتعاون مع النجارمن اجل تقويم المبنى واظهاره بالشكل المطلوب الذى يبغيه المعمار وصاحب المبنى (شكل ـ ٧) .



(شكل رقم ٨)شناشيل ذوت الطابقين

٥ ـ الشناشيل ذات الأطواق:

يمتاز هذا النوع من الشناشيل بأنه يمتلك مواصفات خاصة جعلته قليل الاستعمال بالنسبة للانواع الاخرى وتنفرد به بعض البيوت وذلك لما يتصف به من مواصفات كانت لها اهميتها في العمارة التراثية وهى احتواؤه على مجموعة كبيرة من العقود المتتابعةالتى تزين الواجهة .ومن ابرز هذه العقود : العقد المدبب ، العقد نصف الدائري، العقد المقصوص (المدني) قطاع الدائرة العقد المفصص والعقد المدبب المفصص (الخليلى) وقد زين بعض من هذه العقود بزخارف نباتية مورقة واشكال هندسية بارزة يعلوها على طول الواجهة تشكيلة من الزخارف النباتية والهندسية ويعلو هذا الشريط الزخرفي اسفل السقف بروز يكون شكله في بعض البيوت مقعرا مزينا مساطر من خشب رفيعة على هيئة متوازيات ومستطيلات واشكال معينية . ويمتد اسفل العقود بين الاعمدة الحاملة لها (محجلات) قسم منها من الخشب المخروط والقسم الاخرمن الحديد الذى اتخذ اشكالا عدة (شكل ـ ٨) . وكان يسد للفتحات بين الاعمدة



(شكل رقم ٩) شناشيل مخلطة من الأجر والخشب

في بعض البيوت مشبكات خشب .

٦ ـ الشناشيل الخليط :

من خلال دراستنا للانواع السابقة من الشناشيل يمكننا اعتبار هذا النوع من الشناشيل المتأخرة نسبيا وقد انتشر بشكل واسع في الثلاثينات والاربعينات من القرن التاسع عشرويمتاز بأن عمارته خليط من



الخشب والآجر ، فقد كانت تستعمل اعمدة الخشب بشكل عمودي وافقي وتملأ الفراغات المحصورة بينها بالتناوب من الاجر ثم شبابيك من الخشب كانت تبرز امامها في بعض البيت شرفات مربعة او مستطيلة واحينا نصف دائرية او مضلعة تطل عليها ابواب وشبابيك بعض الغرف وهذا النوع يمتاز بكثافة الزخارف الاجرية وبخاصة النوع الذى يسمى حصيريا لانه يشبه نسيج الحصير ، واشكال هندسية وفي بعض الاحيان زخارف نباتية مورقة

الواجهات الداخلية :

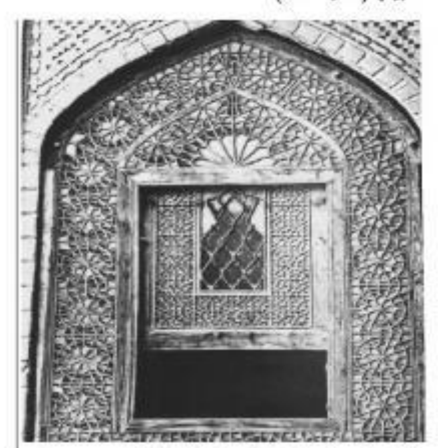
استخدم الخشب بكثافة في زخرفة الواجهات الداخلية للمباني التراثية لاعطائها تصاميم متنوعة ، فكانت عبارة عن نسيج زخرفي فى غاية الدقة والابداع تضمن تشكيلات زخرفية لاشكال نباتية وهندسية مع الزجاج الملون والشفاف وقطع المرايا الصغيرة اعطى الابواب والشبابيك والواجهات طابعا مميزا في وحداته التشكيلية وسطوحه وتكويناته النباتية والهندسية اذ تظهر على بعض الابواب اعمال الحفر والتطعيم بشكل واضح وجلي ..

والملاحظ في مدينة بغداد والبصرة استخدام الخشب بكثافة في الواجهات الداخلية والخارجية وهى تمثل نسيجا زخرفيا رائعا يمتاز بالدقة والابداع مادته الخشب متضمنا تشكيلات هندسية اساسها الاطباق النجمية والنجوم على اختلاف انواعها واشكالها وقطع المرايا الصغيرة والزجاج الملون والشفاف كما هو الحال في بيت الاسترابادى وبيت النواب في الكاظمية وبيت السيد عيسى في الرصافة ((شكل ١٠) .هذا فضلا عن بروز



(شكل رقم ١٠) واجهات خشبية داخلية

بعض العناصر الزخرفية المنفذة على اطراف الابواب والشبابيك قوامها اشكال رباعية وخماسية وسداسية عملت بطريقة التعشيق ولم يستعمل المسمار في تثبيتها(شكل ـ ١١)



(شكل رقم ١١) شباك خشب ذو زخارف هندسية قوامها دوائر ونجوم تتقاطع مع بعضها.



لقد وصلتنا نماذج كثيرة غاية في الدقة والاتقان والجمال من الاطباق النجمية على درجة كبيرة من النضوج موزعة في بيوت الاغنياء والمترفين والتجار والملاكين في عدد من المدن العراقية لاسيما مدينة بغداد

ان هذه الزخرفة تعتمد في اساسها على الدوائر واقطارها التي تقطعها خطوط اخرى مكونة من تقاطعها نجوما واشكالا هندسية متنوعة ، كان الفنان ينجزها بطريقة فنية سهلة اذ كان يرسم جزء من الوحدة الزخرفية كاملة ثم يكررها عدة مرات فتتكون له وحدة زخرفية كاملة ثم يكرر هذه الوحدة الزخرفية في المساحة التي يريد ملأها بالزخرفة ، ويطلق على هذه الوحدة الزخرفية اسم الربع الزخرفي وقد سمي باسماء مشتقة من النجمة او المضلع الهندسي الرئيسي فيه وهكذا اصبح الفنان يصب كل جهده من اجل ابتكار وحدات زخرفية اكثر تنوعا وتعقيدا .

ومن طبيعة واجهات الخشب انها لا تصمد امام العوامل الطبيعية صمود التحف المصنوعة من الخزف والحجر ، وقد يسارع اليها البلى والتحلل وقد تمتد اليها النيران لان الخشب سريع الاشتعال اذا ما تعرض للنار . واغلب الظن ان الدوافع الى ابتكار الحشوات الخشب يتلخص بما يأتي :ـ

١ـ جو العراق الذي يميل الى الحرارة صيفا

٢ ـ فقر العراق الى الانواع الجيدة من الاخشاب مما جعله يستغل كل قطعة مهما كانت صغيرة وتوظيفها في المكان المناسب ، ولقد ظهر في اسلوب الحشوات المجمعة المكونة للطبق النجمي انه لم يستخدم اية مادة لاصقة او مسمار في تثبيتها .

وكان يتقدم واجهات الخشب طارمات (مظلات) ذات سقوف من خشب جميلة تتقدمها اعمدة خشبية رقيقة ذات مقطع مثمن او اسطواني او مربع تعلوها تيجان مربعة او دائرية ، وفي كثير من الحالات كانت مزينة بعدة حطات من المقرنصات التي تشبه خلايا النحل كل حطة اصغر من التي تحتها والعمارة البغدادية تزخر بهذا النوع من التيجان .

ومن اشهر النماذج السائدة في العراق وبخاصة في مدينة بغداد الاعمدة ذات التيجان المربعة المقرنصة الجوانب تستقر عليها سقوف المظلات والاواوين متخذة اشكالا عديدة تتجانس وتتناغم بشكل جميل مع بقية العناصر الزخرفية في الواجهات والسقوف (شكل رقم ١٢)

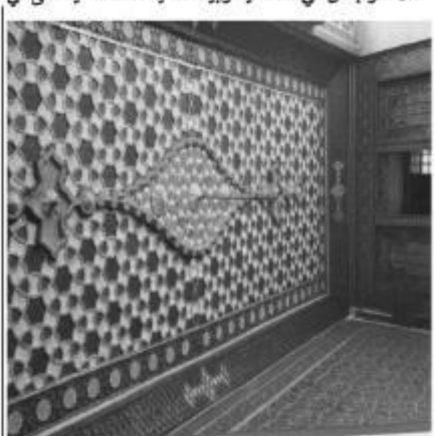


(شكل رقم ١٢) تاج عمود مزخرف مع سقف خشبي

ومن ابرز العناصر الزخرفية التي استخدمت في واجهات الابنية التراثية اضافة الى الاخشاب الزجاج الملون والشفاف وقطع المرائي الصغيرة ، نفذت بأساليب فنية لتكوين اشكال هندسية رائعة وعظيمة التعقيد واشكال نباتية مستمدة من الطبيعة واشكال على هيئة زهريات وشمعدانات.



والمرائي من العناصر التي استخدمت حديثا في العمارة التراثية قادمة من ايران في عهد الشاه محمد رضا بهلوي مستخدما اياها في العتبات المقدسة لاسيما في مدينة النجف الاشرف كما هو الحال في بيت عبيدة وبيت الاسترابادي في الكاظمية وبيت السيد احمد عيسى في الرصافة .



(شكل رقم ١٢ ب) سقف خشبي مزخرف بالزجاج الملون والشفاف وقطع المرائي

وتجمع بعض الشبابيك بين الزجاج الملون ذي الطابع الهندسي والزجاج الشفاف بحيث تحقق الاقسام الملونة والاطار المحيط بالزجاج الشفاف انسجاما رائعا بين الالوان ، فقد استخدم في السقوف لاكمال الزخرفة الهندسية سواء لملء الفراغات ام الرسم عليه بأشكال نباتية او هندسية متناظرة واعتمد الزجاج الشفاف قاعدة لرسم الاشكال النباتية والهندسية. وكذلك المرائي فقد ادخلت في تصميم الشبابيك المطلة على الفناء وفي الاورسي والشناشيل .

ومن العناصر الزخرفية التي استخدمت في تجميل اطر الشبابيك ودواخلها والمناطق المحصورة بين الشبابيك والسقف وهي تشغل جميع الواجهة على شكل صفحة كبيرة تمتاز بأنها ذات عناصر زخرفية مكثفة ومتجانسة بتناغم جميل مع الواجهة والاعمدة والسقوف .



الهوامش

١ ـ يوسف ، شريف/ الزخارف والزينة في العمارة الاسلامية ، مجلة الرواق، العدد ٥، السنة ١٩٧٩ ص٤ .

٢ ـ تشايلد ، جوردون/ ماذا حدث في التاريخ ، ترجمة جورج حداد ، الشركة العربية للطباعة والنشر والتوزيع ـ القاهرة ١٩٥٦ م ص٣٦ ـ ٣٧ .

٣ـ فرانكفورت ، هنرى/ فجر الحضارات في الشرق الادنى ترجمة ميخائيل خوري، منشورات دار مكتبة الحياة./ بيروت ـ ١٩٥٩ م ، ص ٣١ ـ ٣٢ .

٤ـ مرزوق ، محمد عبد العزيز ، العراق مهد الفن الاسلامي، وزارة الاعلام ـ مديرية الثقافة العامة ، السلسلة الفنية ، بغداد ـ ١٩٧١ م ص١١ .

٥ ـ مكية ، محمد /الدور البغدادية والتراث السكني ، بغداد عرض تاريخي مصور ، قامت بنشره نقابة المهندسين العراقية على نفقة مؤسسة كولنبكيان ، اخراج وطبع مؤسسة رمزي للطباعة ـ ١٩٦٩ م ص٢٣

٦ ـ العطية ، زهير/ جماليات النمط البغدادي في العمارة ، مجلة الرواق ، العدد ٣ تموز ـ آب ١٩٧٨ م ، ص.



لمحات بغدادية

في الشعر العباسي

أ.م.د.ثائر سمير حسن الشمري

جامعة بابل / كلية التربية الأساسية



توطئـــة:

كانت بغداد قرية صغيرة على ضفاف نهر دجلة قبل أنْ يفكر المنصور بـجعلها عاصمة للامبـــراطورية العباسية، ولكن بعد أنْ تم له الأمر ببـناء بـغداد على أفضل ما يكون في ذلك الوقت، أقصد في منتصف القرن الثاني الهجري، غدت بغداد قبـلة العالم من النواحـي جميعا، فقها وعلما وحضارة وأدباً، لاسيما الشـعر ، إذ توجّه إليها الشـعراء من الأمم كافة لغرض الشـهرة والثروة على حدٍّ سـواء، كونها موطنا لذوي الجاه والسلطان من الخلفاء والوزراء وسراة القـوم ومَنْ شاكلهم من الوجهاء منَ المسـتويات كافة، ومنذ ذلك الحين أصبحت بغداد أشهر مدينة عربية واسـلامية على الاطلاق ، وكانت مضرب الأمثال في جمالها على مختلف الصعد، حتّى قـيل :إنّ مَنْ لمْ يرَها كأنّما لم يرَ الدنيا، قال البغدادي: ((حدّثني عبد العزيز بـن علي الوراق قال : سمعت محمد بن أحـمد بـن يعقـوب



الجرجاني يقول: سمعت أحمد بن يوسف بن موسى يقول: سمعت يونس بن عبد الأعلى يقول : قال لي محمد بن ادريس : يايونس دخلت بغداد؟ قلت: لا . قال يا يونس ما رأيت الدنيا، ولا رأيت الناس))[1] .

وما يهمّنا من ذلك هو ذكر بغداد في الشعر العباسي من لدن كثير من الشعراء العباسيين، والقصد من ذلك تعرّف وجهات نظرهم فيما يتعلق ببغداد من مختلف الجوانب، وللوقوف على أسباب مدحهم لهذه المدينة التاريخية العريقة، أو رفضهم لها بدوافع مختلفة ، وما بين هذا وذاك من أمور مختلفة تطرّق لها الشعراء في قصائدهم ومقطوعاتهم .

ونجد أنّ من الضروري الاشارة الى أننا لم نقف عل كلّ ما قيل بخصوص بغداد من لدن الشعراء، وإنّما اكتفينا ببعض اللقطات التي رأينا أنها وافية لاعطاء صورة واضحة عن رؤية الشعراء لبغداد في تلك الحقبة الزمنية المهمة من تاريخنا العربي الاسلامي، لذا أسمينا البحث بـ (لمحات بغدادية) في اشارة صريحة الى عدم استقرائنا للمأثور الشعري كله في تلك الحقبة.

مدح بغداد:

حظيت بغداد باهتمام الشعراء العباسيين كثيرا،إذ خصّصوا حيّزا من دواوينهم للاشادة بها، وذكر ميزاتها،حبًّا لها، واعجابا بها، فهي- لدى بعضهم – حصنٌ للملوك تحميهم من الأعداء فيما لو أرادوا اقتحامها ،وسفك دماء أهلها:

بغدادُ حِصْنُ المُلوكِ تُؤمِنُهُمْ
مِن كلِّ باغٍ يُخْشى تَوَرُّدُهُ[2]

وبفضل جمال مدينة بغداد، نجد بعض الشعراء يبدعون في وصفها ، فالسلامي يشبّهها بالبحر الذي يكون ساحلاه عبارة عن جواهر، في الوقت الذي يشبّه فيه نهر دجلة بالحديقة التي لاتحتوي إلّا على أزهار الشقيق المعروفة بجمالها، وذلك في قوله:

وبغدادُ بحرٌ ساحلاه جواهر
ودجلةُ روضٌ طرّتاه شقيقُ[3]

وإنْ دلّ ذلك على شيء، فإنّما يدلّ على اريحية الحياة فيها، وعلى سعادة الذين يعيشون في كنفها، لاسيما الشعراء الذين قالوا مثل تلك الأبيات، وذلك ما أكّده فعلاً أحد الشعراء العباسيين حين قال:

وقالوا: طوى بغدادَ بغضاً وسلوةً
وبغدادُ مغنًى للحياة خَصيبُ[4]

لقد شكّل تفضيل بغداد على غيرها من المدن علامة فارقة في وصفها في الشعر العباسي، فكثيرا ما وجدنا الشعراء يتغنون بما تقدمه لهم بغداد من ملذات العيش وكل ما يشتهيه، فبعضهم يعشقها بسبب الحرية الكبيرة التي ينعم فيها أهلها فيما يتعلق بالخمور وشربها، فضلاً عن وسائل اللهو الأخر، كما فعل مطيع بن إياس حين صوّر يومه فيها تصويرا دقيقا بدءا من الصباح الباكر حتّى غروب الشمس، قائلاً:

ويوم ببغداد نَعِمْنا صباحَهُ
على وَجْهِ حوراء المدامعِ
تُطْربُ ببيت ترى فيه الزُّجاجَ كأنّهُ
نجومُ الدُّجى بين النّدامى تَقَلَّبُ
يُصرِّفُ ساقينا ويَقْطِبُ تارةً
فيا طيبها مَقْطوبةً حين يَقْطِبُ



علينا سحيقُ الزّعفرانِ وفوقَنا

أكاليلُ فيــــها الياسَمينُ الــمذهّبُ

فما زلتُ أُسقَى بين صنّجٍ ومِزْهرٍ

من الرّاحِ حتّى كادتِ الشّمْسُ تَغْربُ [٥]

وكان بعض الشعراء يعشقون بغداد عشقــا كبــيرا فيتحسّرون لفراقــها، ويذكرونها بــألم شــديد ؛ لأنها الحبيبة كما يصفها أحدهم في قوله:

لعمــرك للبيت الــذي لانــطُورُه

أحــبُ إلينا مــن بــلاد نَطُورُهــا

أقولُ لصحبي يومَ أشرفتُ واجماً

ونفسي قــد كان الهوى يستطيرُها

ألاَ حبّــذا دار الســلام وحــبّذا

أجــارع وعساء الــنقيّ فــدورُها

ومن مَرْقَب الزوراء أرضٌ حبيبةٌ

إلينــا محاني متنِهــا وظهورُهــا

وسقياً لأعلى الواديين وللرّحى

إذا مــا بــدا يومــاً لعينك نورُها [٦]

وتمتاز نصوص بعض الشعراء في تفضيل بــغداد بأنّ فيها ذكراً لأسباب ذلك التفضيل، فهي في بعضها – أي بــغداد – جنّة الأرض، فلا توجد دار مثلها، ويصفو العيش فيها، في الوقت الذي لايصفو في غيرها، وتطول أعمار ساكنيها . وتنام بــها عين الغريب، على العكس من غيرها من المدن، وما الى ذلك من الفضائل الأُخــر التي ذكرها الشاعر في مقطوعته:

أعاينتَ في طولٍ منَ الأرضِ أو عرْضِ

كــبغداد داراً إنّهــا جــنّةُ الأرضِ

صفا العيشُ في بغداد، والخضرّ عُودُهُ

وعيشُ سواها غير صافٍ ولا غضّ

تطولُ بها الأعمــارُ، إنّ غذاءهــا

مريء، وبعض الأرضِ أمرؤ من بعضِ

قضــى ربُّهــا ألّا يموت خليفــة

بهــا، إنّــه ما شاء في خلقه يقضي

تنامُ بها عينُ الغريبِ، ولــن ترى

غريباً بأرض الشام يطمع في غَمْضِ

فإنْ جزيت بغداد منهم بقرضهــا

فمــا أسلفت إلّا الجميل مــن القرضِ

وإنْ رميت بالهجر منهم وبالقِلى

فما أصبحت أهلاً لهجرٍ ولا بغض [٧]

ولمَ لا يفضّل الشعراء بــغداد على غيرها مع كل ما تتضمّنه من المزايا الجميلة التي تجعلهــا أهلاً لذلــك التفضيل ؟! فهي تحــتوي على عجائب الدين والدنيا معاً، ففيها أجمل أنواع الورد قاطبــــة، التي تجعل النفوس مرتاحــــة حــــين النظر الى جمال ألوانها وأشكالها المختلفة. فضلاً عن القصور الشاهقات التي تشتمل على الجمال الخارق.وفيما عدا ذلك نجد السفن المرتفعة التي يزخر بها نهر دجلة وما تبــثّه في نفس رائيها من المتعة بسبــب زخارفها الجميلة وألوانها البرّاقة:

ماذا ببغداد مــن طيب أفانين

ومــن عجــائب للدنيــا وللــدين

ما بين قطربل فــالكرخ نرجسة

تندى، ومنبت خيــري ونسريــن

تحيا النفوسُ إذا أرواحها نفحت
وحــرشت بين أوراق الريــاحين
سقياً لتلك القصور الشاهقات وما
تخفي مــن الــبقر الأنسية الــعينِ
تستن دجلة فيمــا بينهــا فترى
دهم السفين تعالا [كذا] كــالبراذين
منــاظر ذات أبــواب مفتحــة
أنيقــة بــزخــاريــف وتــزيين
فيها القصور التي تهوي بأجنحة
بــالزائرين الــى القوم المزوريــن
من كلّ حراقة يعلــو فقارتهــا
قصرٌ من الساج، عال ذو أساطين[٩]

وكان بعض الشعراء يتغنون بمحاسن بــغداد حــين يتركها بعض الخلفاء، ويقيمون في مدن غيرها لأسباب مختلفة، ومن ذلك ما كتبه العطوي من أبيات وأرســلها الى الخليفة المعتضد حين أقــام في (ســنجار)، مُغرياً إيّاه بــالعودة الى بــغداد، كونها خير بقــاع الأرض، فنسيمها مختلف كما أشجارها، فهي جنّة الدنيا، فضلاً عن توافر الجمال فيها، ورجــال العلــم والأدب الذيــن لايوجد في الأمصار الأُخَر رجال مثلهم، فيقول:

يا مَنْ أقــام على قِرى سنجار
واختارهــا داراً بخيــر قــرار
أتــركتَ بــغداد التي لنسيمها
أرج مــن الأنــوار والأشجــار
هي جنّةُ الدنيا فكيف تركهــا
وسكنــت داراً غيــر ذات قــرار
أوليس فيها ألف ألــف مئوم
فــي صحن غرّتــه سنــا الأقمار
وكذاك فيها ألف ألف خريدة
فــي وجههــا مــتنزه الأبصــار
أنظر بقلبك لا بعينك هل ترى
كــرجالهــا فــي سائــر الأمصار
مَنْ ذا تصاحبه هنــاك وعنده
نتــف مــنَ الأخبــار والأشعــار
ممزوجــة بخــلائــق أدبيــة
فــي رقّــة المــاء الــزلال الجاري
ولئن أقمت وبعتنا وجوارنــا
بقريــب عهــد أو حــديــث مــزار
فأنا أقولُ بفرط حرٌ في الحشا
وسعيــر نــار غيــــر ذات شــرار
لم تستحل دمــي وتعلم أنّــه
مــنْ يَستحل دمَ امــرئ في النار[٧]

أمّا ابن الرومي، فانه يعشق بــغداد ويفضّلُها على غيرها بسبب قضاء أجمل سني حياته فيها، وأقــصد بذلك سنوات صباه وشبابه، فيقول:

بلدٌ صَحِبْتُ به الشبيبةَ والصبّا
ولبستُ فيــه العَيْشَ وهْوَ جديدْ
فإذا تمثّل في الضمير رأيتُهُ
وعليــه أفنــان الشباب تميدُ[١٠]

وهو عندما يعود إليها من بــعض أســـفاره، نراه مفعماً بالسعادة، حتّى كأنه لم يرَ الراحــة في غيرها مطلقاً، فلا تصفو لذّته، ولا يطيب نعيمه إلّا فيها، لأنه

يعتقد أنّ نسيم بغداد يشفي داء السقيم، وذلك كلّه طبعاً ينبع من حبّه لها، وشدّة تعلّقه بها:

عـادَ عودي الـى ثراهُ القديـم
وصفَـتْ لـذّتي وطابَ نعيمـي
وتنسّمْتُ مـن مشـارق بغـدا
دَ نسيمـاً يشفي رداع السقيم[11]

وعلى الرغم من حبّ الشاعر ابن الهبارية لبغداد، لما فيها من المحاسن والمزايا، فإنّه كان يعاني الفقر فيها، ويعالج البؤس، ومع ذلك فقد ظلّ متمسكاً بها، راغباً عن مفارقتها. فنسمعه يقول مثلاً:

بـغدادُ دارٌ طيبُهـا آخـذٌ
نسيمـه منّـي بـأنفـاسـي
تصلـحُ للموسـرِ لا لامـرئ
يبيـتُ ذا فقـرٍ وإفـلاسِ
لو حلّهـا قـارونُ ربُّ الغنـى
أصبـح ذا هـمٍّ ووسـواسِ
هـي التـي تُـوعَـدُ لكنّهـا
عـاجلـةٌ للطـاعـمِ الكـاسـي
حُـورٌ وولدانٌ ومـن كُـلِّ مـا
تطلبُـه فيهـا، سـوى النـاسِ[12]

فبغداد من وجهة نظر الشاعر لاتصلح بوصفها سكنًا للفقراء، ولكن مع ذلك الرأي يرى أنّ مقامه فيها شرف له، إذ يقول في ذلك:

بـغدادُ دارٌ ريـاضُها أُنُفُ
والـغيثُ فـي عنفـوانهـا يَـكِفُ
ومع تصاريف طيب لذّتهـا
مُقـامُ مثلـي بمثلهـا شَـرَفُ
إذْ كلُّ مَنْ حلّهـا وأوطنَهـا
جـواهـرٌ عنـد كسـرهـا خَـزَفُ
وإنْ رأيـتَ الثيـابَ رائـقةً
فتلـكَ درٌّ فـي جوفهـا صَـدَفُ[13]

وهناك ملاحظة بارزة في نصوص الشاعر ابن الهبّارية التي تحدّث فيها عن بغداد، ألا وهي أنّه كان يعد كل ما في بغداد داراً له، ولعلّ في ذلك ما يوحي بأنّه كان شديد الارتباط بها، كما يعشق الانسان داره التي يسكنها فعلاً، فضلاً عن أنّه كان يعدّها دار الهوى والعشق التي لايفيق من حبّها، لما تتحلّى به تلك الدار من الجمال الطبيعي الذي اتّصفت بـه نسـاؤها ؛ ذلك الجمال الذي أصاب الشاعر بالسكر قبل الشراب على حدّ قوله واصفاً جمال نسائها وصفاً دقيقاً:

لَهفي على بغدادَ دارِ الهوى
فـإنّنـي مـن حبّهـا مـا أفـيقْ
وكُلُّ وجهٍ مثل شمسِ الضحى
فـوقَ قَـوامٍ مثـل غصـنٍ رشيقْ
وكُـلُّ ردفٍ وافـرٍ وارمٍ
يحملـه بـالـظلم خصـرٌ دقيـقْ
وكُـلُّ لـفظٍ طيّـبٍ ممتـعٍ
يُسكـرُ مـنْ قبلِ كؤوس الـرّحيقْ
ما شئتَ من دلٍّ ومـن منظرٍ
زاهٍ ومـن حُسْنٍ وطـيبٍ وضيـقْ[14]

الحنين إلى بغداد:

وكان كثير من الشعراء العباسـيين يعربـون في



قصائدهم عن تشوّقهم لهذه المدينة الجميلة حينما كانوا يفارقونها لبعض الوقت، سواء أكان ذلك الفراق بإرادتهم أم من دونها، فهم يتشوّقون لكلّ شيء فيها بألفاظ وعبارات يملؤها الحبُّ، ويغمرها الأسى، فهذا أشجع السلمي يحنّ الى أهل بغداد ويتشوق لهم، بل يذرف الدموع على فراقهم، وذلك حين قال:

ألا ليت حيًّا بالعراقِ عهدتهم
ذوي غبطةٍ في عيشِهم وليانِ

يرون دموعي حين يشتملُ الدجى
عليّ وما ألقى من الحدثانِ

إذن لرأوا جسماً أضرّبه الهوى
وعينٍ معنًّى جمة الهملانِ

أمن بئر ميمون يحنُّ صبابةً
الى أهل بغداد وتلك أماني

بعدت وبيت الله ممّن تحبّه
هواكَ عراقيّ وأنتَ يماني [15]

والعيد في بغداد غير العيد في مدينة سواها، وهذا ما يدعو بعض الشعراء الى ذكر ذلك في قصائدهم، أو أبياتهم المفردة إذا شئنا الدقة أكثر، فنرى أحدهم يبعث بالتهنئة لاخوانه في بغداد في الوقت الذي يكون عيده هو في مدينة غيرها نتيجة للحرب التي يشترك فيها، فيقول:

هنيئاً لاخواني ببغداد عيدُهم
وعيدي بحلوانٍ قراعُ الكتائبِ [16]

وفي بعض الأحيان يزداد الشوق الى بغداد أكثر من لدن بعض الشعراء، لاسيما إذا ما كان الأمر متعلقاً بالنساء واللهو معهنّ، فصعوبة التواصل مع الحبيبة في غير بغداد يدعو الشاعر الى تذكّر مدينته بغداد، وتذكّر عهده بالهوى مع مَنْ يحبّ فيها، فلم يكن يجد مانعاً فيها يمنعه من اللهو مع حبيبته، لذا فقد كان ذلك دافعاً رئيساً لإثارة شوقه لبغداد، وحافزاً يدفعه الى الدعاء لبغداد وأهلها في قوله:

نَسيمُ المدامِ وبَردُ السَّحَرْ
هُمَا هيّجا أبشوق [كذا] حتّى ظَهَرْ

تقول: لجتنبْ دارنا بالنهار
وزرنا اذا غاب القمر

فإنّ لنا حَرَساً إنْ رَأوكَ
نَدمتَ وأعطوا عليك الظَّفَرْ

وكم صنعَ اللّهُ من مَرّةٍ
عليهم وقد أمروا بالحذَرْ

سقى اللّهُ بغدادَ من بلدةٍ
وساكنَ بغداد صَوبَ المطَرْ

ونُبِّئْتُ أنْ جواري القصو
رِ صيّرنَ ذِكْري حديثَ السَّمَرْ

ألا رُبَّ سائلةٍ بالعرا
قِ عنّي وأخرى تُطيلُ الذِّكَرْ

تقولُ عهدتُنا أبا وائل
كظَبْي الفلاةِ المليحِ الحوَرْ

ليالي كنتُ أزورُ القيانَ
كأنّ ثيابي بَهارُ الشَّجَرْ [17]

وقد يختلط الحنين والتشوق الى بغداد بالفخر لدى بعضهم، فيزعم أنّه إذا شاء أنْ تغنّي المغنيات في



بغداد باسمه لفعل ذلك، وكذلك الحمام المطوق، وما ذلك الغناء إلّا للإشادة بشجاعته وفروسيته، فهو بطل مغوار يستحقّ أن تَرْفَعَ البنان صوبه:

إذا شئتُ غَنَّتني، بـبغدادَ قَيْنَةٌ
وإنْ شئتُ غنّاني الحَمامُ المطوّقُ
لباسي الحسامُ أو إزارٌ مُعصفَرٌ
ودرعُ حديـد أو قميصٌ مُخَلَّقُ [١٨]

إنّ حبّ بعض الشعراء غير الاعتيادي لمدينة بـغداد، جعلهم ينشدون أشعاراً تزخر بالحـنين الطاغي، وتعبّر عن لوعة حقيقية لدى أصحابها بسبب فراقـهم إيّاها ، فاسحاق الموصلي لم يبـتعد كثيراً عنها، وإنّما كان في مكان قريب منها مع الخليفة الواثق في الصالحية، ومع ذلك نراه يتألم لفراقها، الى الدرجة التي تدفعه الى عدم الوداع حين يغادرها ، فضلاً عن توجيه الخطاب لنفسه في أبياته المشحونة بدفقة عاطفية عالية لأنّه لم يفارق بغداد عن كره لها، وإنّما أُجْبِرَ على ذلك ، فيقول:

أتبكي على بغدادَ وهـي قريبـةٌ
فكيفَ إذا ما ازْددتَ منهـا غداً بُعدا
لعَمركَ ما فارقتُ بغدادَ عن قِلـىً
لَـوَ انّـا وجدنا عن فراقٍ لها بُدّا
كفى حَزَناً أنْ رُحْتُ لم أستطع لها
وَداعاً ولم أُحدثْ بساكنها عَهْدا [١٩]

وكذا الحال مع الشاعر نفسه حينما غادر بـغداد مع الخليفة الواثق الى سامراء، إذ نراه ينظم أبـياتاً نُدركُ الحنين من خلالها الى أهله فيها،كما نكاد نرى الحسرة على وجهه عن طريق الكلمات التي ضمّنها تلك الأبيات ويبدو أنّ تلك الرحـلة قـد طالت عليه، فغدا مشتاقـاً بـدرجة كبـيرة، وذلك واضح من لفظتي (الصبابـة والهوى) ، فضلاً عن الألفاظ الأُخر التي تذكّره ببغداد، مثل (من ريح الجنوب) و (برد الندا)، و (الجثجاث) و (البسبـاس) ، وما الى ذلك من الألفاظ المختلفة التي أثارت فيه الشوق لمدينته، يقول:

يـاحبّذا ريـحُ الجَنوبِ إذا بَـدَتْ
في الصُبْحِ وهي ضعيفةُ الأنفاسِ
وقد حُمِّلَتْ بَرْدَ الندى [كذا] وتحمَّلَتْ
عَبَقـاً مـن الجَثْجاثِ والبَسْباسِ
مـاذا تهيجُ مـنَ الصَبابةِ والـهوى
للصَبِّ بـعدَ ذهولـه والياسِ [٢٠]

ويأتي التشوّق الى بـغداد لدى بـعض الشـعراء مذكوراً بـاللفظ الصريح، وذلك ما فعله ابـن الرومي حـين ذهب مع الخليفة المعتضد بـالله الى (آمد) لفتحها، إذ نجد أنّه ذكر تشوّقه باللفظ (أحـنّ) للدلالة على شـدّة شوقـه لبـغداد، وهو –فضلاً عن ذلك– يعترف بـأنّه تركها قـصداً طائعاً الخليفة، ولكنه في الوقت نفسه يذكر أنّ قلبه قاصد بالهوى إليها بـدرجة كبيرة، ولكن الصحارى كانت تحول بينه وبـينها، لذا فانّ حنينه اليها كان حـاداً ؛ لأنّه يعلم أنّ العودة إليها تحتاج الى وقت طويل، لطول المسافة بينها وبين آمد:

أحـنُّ الى بغدادَ، والبيدُ دونهـا
حنيـنَ عميدِ القلـبِ حَرّانَ فـاقدِ
وأتركهـا قصداً لأمـدَ طائعـاً
وقلبي إليهـا بـالهوى جِدُّ قاصدِ [٢١]

وليحيى بن علي المنجم مقطوعة طريفة تتضمن قصة مفادها أنّه كان مع الخليفة المعتضد في بعض أسفاره فدعاه قائلاً له: قلبي ببغداد وإنْ كان جسمي هاهنا، فقُلْ عنّي شعراً في هذا المعنى أكتب به الى مَن أريد ببغداد فإني قد رُمتُ ذلك فلم يتّسق لي، فقال على لسانه متشوقاً الى بغداد ومَنْ فيها:

هاهنا جسمٌ مقيمٌ وببغدادَ فؤادي
وكذا كُلُّ مُحِبٍّ باعَ قُرباً ببعادِ
أملكُ الأرضَ ولكن تملكُ الخودُ قيادي
غَلَبَ الشوقُ اصطباري مثلَ غُلْبي للأعادي
فأنا أحتالُ أنْ يخفى بجهدي وهو بادي
ليس وادٍ لا أرى فيه حبيبي لي بوادِ[٢٢]

وإذا كانت المقطوعة هذه قد قالها الشاعر على لسان الخليفة، فانه في مناسبة أخرى، قال مقطوعة تشيد ببغداد وبالخليفة المكتفي بالله، وذلك حين أمر بإخلاء سبيله من منفاه في (قرقيسيا)، وفي المقطوعة هذه يبدو حبّه لبغداد واضحاً الى حدٍّ كبير، وعشقه لها لايحتاج الى دليل، إذ يقول فيها:

عادَ ليلي القصيرُ في كرخ بغدا
دَ بقرقيسيا عليَّ طويلا
أجميلاً أنْ تتركوني وتمضو
نَ، رهيناً بها غريباً ذليلا؟
مفرداً بالعقاب مشترك الذنـ
ـب فصيراً حسبي بربّي وكيلا
إنْ قضى اللهُ لي رجوعاً الى بغـ
ـدادَ لا هالكاً بغمّي قتيلا
وأرانـي الخليفة المكتفي بالله
وابنَ الخلائق المأمولا
كالذي قد عهدتُ لا مُعْرِضاً عنّـ
ـي ولا واجداً ولا مستحيلا
كُلُّ شيءٍ أسامُهُ هيّن عنـ
ـدي إذا الرأيُ منه كان جميلا[٢٣]

لقد ولّد الشوق الى بغداد لدى بعض الشعراء العباسيين شحنات عاطفية كبيرة جداً، ممّا أضفى على أبياتهم بريقاً مؤثراً من الناحية المعنوية، إذ عمدوا الى اختيار ألفاظ أو جمل تعكس ذلك الشوق الحاد الى المتلقي بصدق كبير، فالعباس بن الأحنف مثلاً حين طال المقام به خارج بغداد، تمنى العودة اليها سريعاً، عامداً الى اختيار لفظة (الاستبطاء) في بيته الذي أعلن فيه أمنيته تلك، كونها أكثر صدقاً في نقل احساسه وحقيقة شعوره الذي دفعه الى القول:

ليت شعري متى تَئُوبُ [كذا] الى بغـ
ـدادَ؟ إنّا مُستبطئون الإيابا[٢٤]

فقوله: (إنّا مستبطئون الإيابا) يحمل في طيّاته دلالة الشوق الكبير الى مدينته بغداد، إذ نقل تركيبه هذا شعوره الصادق بأمانة بالغة، ممّا جعل المتلقي ينفعل معه، ويمتزج إحساسه بإحساس الشاعر.

ويعمد في بيت آخر الى اختيار لفظة (التلفّت)، ليخبرنا من خلالها أنّه راغب عن فراق بغداد التي يعشقها كثيراً ويعشق مَنْ فيها، فلفظة (التلفّت) كانت ذات دلالة كبيرة في اختصار مراد الشاعر الذي من الممكن التعبير عنه بعشرات الكلمات لتوصيل الرسالة



التي تقول : إنّه لا يودّ مفارقة بغداد، كما أنّه يذرف الدموع حين يتجاوز حدودها:

كـمْ تلفْتُ حين جـاوزتُ بـغدا
دَ وأذريتُ من دُموعي غُروبا (٢٥)

في حين كان أشجع السلمي يعبّر عن شوقه لبغداد عن طريق التشبيه المؤلم، وذلك لأنه يعدّ ذكر بغداد أمامه بمثابة تحرك سنان الرمح في داخل قلبه، وهذا يعني أنّه يموت حين تُذكر بغداد له؛ كونه فارقها منذ زمن بعيد ، مع هيامه وشدّة تعلقه بها، وممّا لاشكّ فيه أنّ لجوءه الى التشبيه بالطريقة هذه يعلن تأزّم حال الشاعر نفسيّا بسبب فراقه المدينة التي يهواها كثيراً:

إذا ذُكرتْ بـغدادُ لـي فكأنّما
تَحَرّكَ فـي قلبـي شبـاةُ سنـان (٢٦)

ولم تبتعد رؤية اسحاق الموصلي عن رؤية أشجع السلمي، فهو الآخر تتقطع نفسه شوقاً حين يتذكر بغداد، أو يموت وجداً بها ، وذلك في قوله:

إذا ذَكرتْ بـغدادَ نفسي تَقَطّعَتْ
منَ الشّوقِ أو كادتْ تموتُ بها وجْدا (٢٧)

من خلال الأبيات السابقة، يمكننا تصوُّر المعاناة الكبيرة التي كان يشعر بها كثير من الشعراء العباسيين نتيجة فراقهم لبغداد، سواء أكانوا مجبرين على ذلك الفراق، أم كان بإرادة منهم، ففي المحصلة النهائية أنهم عانوا كثيراً لفراقها، والدليل على ذلك ما انتجوه من أشعار نستنشق من خلالها رائحة ذلك الألم عن طريق الألفاظ والتراكيب التي احتوتها ، وصوّرت بصدق عذابهم ذلك.

بغداد موطن الحبيبة:

ولأنّ بغداد موطن الحبيبة، فقد أكثر الشعراء من الحنين إليها لذلك السبب، بـل إنّ بـغداد لم تغدُ لدى بعضهم موطناً لولا وجود تلك الحبيبة، ولعل من أبرز أولئك الشعراء مطيع بن إياس الذي يصرّح في شعره عن رحيله من بغداد مع أصحابه الذين غادروها لولا تواجد حبيبته التي يعشقها فيها، قائلاً:

لـولا مكانُـكِ فـي مـدينَتِهـمْ
لَظَعَنْتُ فـي صَحْبي الأُلـى ظعَنُوا
أوْطَـنْتُ بـغداداً بحبِّكـمْ
وبغيرهـا لـولاكـمُ الـوَطَنُ (٢٨)

وكان العباس بن الأحنف يشتاق كثيراً الى بغداد،ويحنّ اليها باستمرار ، ولا عجب في ذلك ، فهي المدينة التي تسكنها حبيبته التي طالما تغزّل بها، وأعرب عن لوعته بغرامها، وأبان عن حسرته بالبعد عنها، لذا تراه مستثمراً كلّ فرصة من أجل ذكر بغداد، فحين يذكرها تتحرك مشاعره فتنتج قريحته بيتاً جميلاً يتضمّن طباقاً أجمل، يُعرب فيه الشاعر عن سهره خارج بغداد، في الوقت الذي تنام فيه مَنْ يهواها فيها، فيقول:

فـإنْ تَـكُ فـي بغدادَ نامتْ خَليّةً
فطرفي بظهر القادسيّةِ ساهرُ (٢٩)

وهو إنّما يفضّل بغداد لأنها حصن منيع له ولحبيبته فلا يتمكن الخوف منهما فيها، ولايخشيان عيون الحسّاد والوشاة، وبذلك يتمكنان من التواصل مع بعضهما من دون وجل:



حــبّذا الــملتقى بجانــب بــغدا
د ومِـــنْ دُونِ ما نَخافُ الحصونُ
حيثُ لا نرهبُ العُيُونَ ولا تَظْـــ
ـــهَرُ من جانبٍ علينا عُيُونُ[30]

وحين نُفيَ أبو العتاهية الى الكوفة، واضطر الى ترك بغداد بسبب ذكره (عتبة) في شعره، أخذ يتشوّق اليها، ويذكر حبيبــته فيها عن طريق مقـــطوعة جميلة في نسقــها وترتيبــها ، فضلاً عن امتيازها بالسلامـــة ووضوح التعبير، إذ أبانت عن شعور قــائلها بــمنتهى الصدق، فقد وجهها الى (عتبــة) مباشــرة ومن دون تسميتها باللفظ الصريح ، شــاكياً إليها أنّ مرضه إنّما كان بسبب حبّه لها، فهي روحه التي تسكن بــغداد، في الوقت الذي يســكن فيه جســمه في الكوفة مجرّداً من الروح، فيقول:

قُــلْ لــمَنْ لستُ أُسَمّي   بــأبي أنــت وأُمّـــي
بأبي أنت لــقدْ أصنـــ   ـبَحْتَ مـــنْ أكبرِ همّي
ولــقد قــلتُ لأهلـــي   إذْ أذابَ الــحُبُّ لــحْمي
وأرادوا لـــي طبيبـــاً   فــاكتَفوا منّي بــعِلْمي
مَــنْ يكُنْ يَجْهَــلْ مــا   ألْقَى فــإنّ الحُبَّ سُقْمي
إنْ رُوحـــي لـــببَغْدا   د وفي الكُوفَة جِسْمي[31]

وكان أبو تمام أشــدّ اختصاراً من أبــي العتاهية في الاعراب عن أنّ حبيبته في بغداد ، فهو يعلن أنّ أهله في الشام، في الوقت الذي يكون فيه هواه في بغداد ، قائلاً:

بالشام أهْلي وبغدادُ الهوى وأنا
بــالرَّقْتينِ وبالفُسطاطِ إخواني[32]

وهكذا كان بعض الشعراء العباسيين يتوالون في ذكر حبّهم لبغداد واشتياقهم لها، بسبب وجود معشوقاتهم فيها كما رأينا، ولم تبتعد نظرة الوزير المهلبـــي عن نظرات مَنْ سبقه من الشعراء، فقد أبان عن حنينه الى بغداد وشوقه بسبب الحبيبة التي تسكنها ، حين قال:

أحِـــنُّ الى بـــغدادَ شوقاً وإنّــما
أحِـــنُّ الى إلــفٍ بـــها لـــي شائق
مُقيمٌ بــأرضٍ غبتُ عنها وبِدْعَةٌ
إقــامةُ معشوقٍ ورحلــةُ عاشق[33]

كان حبُّ العباس بــن الأحــنف العفيف يدعوه في كثير من الأحيان الى الاســتعانة بــمظاهر الطبــيعة والافادة منها في نقل مشــاعره وآلامه وســلامه الى حبيبته،ومن ذلك إفادته من شــمس بــغداد، إذ أعرب عن عشقه وغرامه اللذين أوصلاه الى درجة غريبــة من الهيام، وذلك حين يخاطبها قائلاً لها:

يــاشمسَ بــغدادَ إنّني دَنِــفٌ
إذ مــاتَ منكِ الــودادُ واللُّطُفُ[34]

كما أنّه يطلب من الرّيح أنْ توصل ســلامه الى أهل بغداد، ومن ورائهم حبيبته قطعاً، إذ يقول:

بــلِّغي يــاريحُ عنّــا   أهــلَ بــغدادَ السّلاما[35]

وإذا كان العباس بــن الأحــنف يســتثمر مظاهر الطبيعة في نقل مشاعره الى حبيبته، وابلاغ ســلامه لها في بغداد، فان ابــن المعتز كان يســتثمرها لهدف آخر غير ذلك الهدف، فهو حــين يصف الثلج الذي سقط في بغداد، يتخذه مسوّغاً لشرب الخمرة في ذلك اليوم، ويدعو اللائمين الى عذره، لأنّ الجــوّ – مــن وجهة نظره– يساعد على الشرب، إذ نزل الثلج باكراً

واختفت الشمس في النهار، بسبب كثرة الغيوم، وسقطت الامطار مع الثلوج التي بدت وكأنها ورد أبيض نُثر على نواحي الأرض في بغداد، فيقول:

مَنْ لَامَنِي اليومَ في سُكْرٍ فلا عذرا
هاتِ الكبيرَ وغيري فاسقِ ما صغُرا
غَدَتْ مُبكِّرةً للمُزْنِ فاحتجبَتْ
شمسُ النهارِ ولم تَعْرِفْ لها خَبَرا
حتّى إذا أَثْقَلَتْ حَمْلاً وما بَقِيَتْ
أرضٌ بِبغدادَ إلّا ترتجي مَطَرا
واغرورقَتْ بالسكابِ الماءِ مُقلتُها
جاءتْ بثلجٍ كوردٍ أبيضٍ نُثِرا[٣٦]

بغداد موطن الممدوح:

وغدت بغداد جسراً لدى بعض الشعراء المتكسبين، ينتقلون من خلاله لمدح ممدوحيهم، وأكثر مَنْ لجأ الى هذا الأسلوب هو البحتري، فقد أفاد من بغداد في توجيه بعض المدائح التي لم تخلُ حتماً من المبالغة، غير أنّها كانت تجعل الممدوح مسروراً، فلولا ذلك لما لجأ الشعراء الى ذلك الاسلوب في المديح.

إنّ بغداد ترتدي أفضل ما لديها من الثياب حين يعود اليها الخليفة المتوكل بعد إقامته في دمشق مدة من الزمن، وهي في الوقت نفسه تتشرف برجوعه اليها:

وقدْ لَبِسَتْ بَغْدادُ أحسنَ زِيِّها
لإقبالِهِ، واستَشْرَفَتْ لِعُدُولِهِ[٣٧]

وتُضاءُ بغداد بالممدوح بعد ظلامها، فيعود وقت المساء فيها ضحى، وكذلك وقت الأصيل، في دلالة لازدهارها وزهوها بذلك الممدوح الذي أكسبها نوراً بوجوده فيها:

وأبيضُ منْ آلِ الحُسينِ تَرُدُّهُ
الى المَجْدِ أعْراقٌ مُهَذَّى دليلُها
أضاءَتْ له بغدادُ بعدَ ظلامِها
فعادَ ضُحَى إمْساؤُها وأصيلُها[٣٨]

وبوجود الممدوح في بغداد، يصيبها الغيث الذي تزدهر به البلاد، فلولا الممدوح لما نزل ذلك الغيث ولا ازدهرت به بغداد، وذلك كله مبالغة من الشاعر لاضفاء الصفات الايجابية على ممدوحه، يقول:

أُعيرَتْ بهِ بغدادُ سكْبَ غَمامَةٍ
تَعُلُّ البلادَ من نداها وتَنْهَلُ[٣٩]

لذا فان بغداد، نتيجة لذلك الغيث، تخصب بالممدوح بعد اصابتها بالجدب، فينالها الرخاء، والسبب في ذلك كله طبعاً هو الممدوح من وجهة نظر الشاعر:

خَصِبَتْ بهِ بغدادُ بعدَ جُدُوبِها
وتَلَبَّسَتْ منهُ ثيابَ رَخاءِ[٤٠]

إذن، كان ما مضى الكلام عليه يتعلق بالافادة من بغداد في توجيه بعض المدائح من لدن بعض الشعراء المتكسبين كما قلنا، والذين لم تخلُ مدائحهم من المبالغة غير المحبّذة في جعل الممدوح سبباً مباشراً في كل ما هو ايجابي في بغداد.

شعر المزاح:

وقد يرد ذكر بغداد من لدن بعض الشعراء على سبيل المزاح، وليس الكلام الجاد، فأسامة بن منقذ مثلاً كان متوجّهاً الى مكة لاداء فريضة الحج، فمرّ ببغداد في طريقه إليها، فسمع عن جمالها وأنّها من

أفضل البلدان، وتتماز بكرم أهلها، فضلاً عن الوجوه الحسنة لنسائها، فنظم في ذلك مقطوعة ظريفة، صوّر فيها كلّ ما سمعه فيها على سبيل الطرفة، ذاكراً أنّه لم يرَ فيها سوى امرأة عجوز اسمها (أمّ ظلوم)، ولم يرَ الصبايا اللواتي سمع عن جمالهنّ، بسبب انشغاله بالحجّ عنهنّ، فضلاً عن سنّه الذي بلغ السبعين، فأشار في مقطوعته الى أنه تحدث بالسمع من دون المشاهدة، قائلاً:

وَصَفُوا لي بـغدادَ حيناً، فلمّا
جئتُها، جئتُ أحسنَ البُلدانِ
منظرٌ مبهجٌ، وقومٌ سُراةٌ
قد تحلّوا بالحُسنِ والإحسانِ
ليس فيهم عيبٌ أنّ في كلْـ
ـلِ بنانٍ علاقةَ الميزانِ
وسمعنا، وما رأينا سوى أمْـ
ـمِ ظلومٍ فيها مِنَ النّسوانِ
وهي جِنّيّةٌ كأقبحِ ما شو
وهةٌ ربّنا مِنَ الغِيلانِ
إنّ فيها مِنَ الصبايا شُموساً
في غُصونٍ تهتزُّ في كُثبانِ
شَغَلَتْنا السّبْعُونَ والحجُّ عنهنْـ
ـنَ، فقلنا بالسّمعِ دُونَ العَيانِ [١١]

هجاء بغداد وساكنيها:

غير أنّ بغداد لم تكن تعجب بعض الشعراء في بعض الأحيان، لاسيما بعد الخراب الذي نالها أثناء الحرب التي دارت فيها بين الأخوين الأمين والمأمون، لذا نرى أبا تمام مصوّراً دمارها ذلك ومفضّلاً عليها سامراء، فالنار التي احترقت بها بغداد ودمّرت محاسنها جعلتها تغدو مثل العجوز التي ذهب شبابها وودّعها دون رجعة في نظر أبي تمام، إذ لا أمل في إصلاح ما تخرّب منها، ولهذا السبب فضّل الشاعر سامراء عليها، وذلك حين قال:

لقد أقامَ على بغداد ناعيها
فَلْيَبكِها لخرابِ الدّهرِ باكيها
كانت على ما بها والحَرْبُ مُوقَدَةٌ
والنّارُ تُطفأُ حُسناً في نَواحيها
تُرْجى لها عودةٌ في الدّهرِ صالحةٌ
فالآنَ أضمَرَ منها اليأسَ راجيها
مثْلَ العجُوزِ التي ولّتْ شَبِيبَتُها
وبانَ عنها كمالٌ كانَ يُحظيها
نـزَتْ بها ضَرّةٌ زَهراءُ واضحةٌ
كالشّمسِ أحسنُ منها عندَ رائيها [١٢]

وللحسين بن الضحّاك مقطوعة شعرية يفضل فيها سامراء على بغداد أيضاً، وكان تفضيله نابعاً من دوافع عدّة، كان أبرزها حدائقها الجميلة التي تزدهر بأنواع الورد المختلفة، فضلاً عن الأمور الأُخر التي ذكرها في مقطوعته هذه:

سُرّ مَنْ رَا أسرُّ مِنْ بغداد
فالْهُ عن بعضِ ذكرِها المُعتادِ
حبّذا مسرحٌ لها ليس يخلو
أبداً مِن طريدةٍ وطرادِ
ورياضٌ كأنّما نشرَ الزّهْـ
ـرُ عليها مُحبَّرَ الأبرادِ

وأذكر المُشرفَ المُطلّ من التـ
ـلّ علـى الصادرين والورّاد
وإذا روّح الـرِّعـاءُ فـلا تنـ
ـسَ رواعي فراقد الأولاد(٦٣)

كما أنّ له مقـطوعة أخرى في المضمون نفسـه، وأعني في تفضيل سـامراء على بـغداد، وفيها يجعل بغداد فداء لسامراء، إلّا أنّ السبـب لم يكن مدعاة لنظم قوله هذا في هجاء بغداد بالمسـتوى الذي صوّره فيها، إذ لم يكن سوى سبب شخصي، ألا وهو حـرارة جوّها التي لم يستطع الشاعر تحمّلها، فذلك واضح في قوله:

على (سُرَّ مَنْ رأى) والمصيف تحيّةٌ
مُجلّلـةٌ مـن مُغرَمٍ بهـواهُمـا
ألا هـل لمشتاقٍ بـبغداد رجعـةٌ
تُقرّبُ مـن ظلّيهمـا وذراهمـا
مَحلّان لقّى اللـهُ خيـر عبـاده
عزيمةَ رُشدٍ فيهمـا فاصطَفاهُمـا
وقـولا لـبغداد إذا ما تنسّمَـتَ
علـى أهـل بـغداد جُعِلْت فداهُما
أفي بعض يوم شفَّ عينيَّ بالقذا
حَـرُورُكِ حتّى رابني ناظراهُما(٦٤)

وإذا كان أبـو تمام والحسـين بـن الضحّاك فضّلا سامراء على بغداد في نصوصهما السابقـة لأسبـاب ساذجة لم تكن بغداد مسؤولة عنها، فإن بعض الشعراء العباسـيين نالوا منها بشـدّة، وذلك من خلال هجائها هجاءً تتراوح حدّته من شاعر الى آخر، فيحيى بن زياد الحارثي أبان عن رغبته عنها حين جاورها، وأعرب عن بغضه لها بنواحيها كافة، حـتّى أنّه لم يتوافق مع أي شخص فيها، يقول:

لـقد جـاورْتُ بـغداذا	فمـا أحـبَبْتُ بـغداذا
ولا أحببتُ كـرْخـايـا	ولا أحببتُ كَـلْواذى
ولا وافقتُـي فيهـا	أخـي ذاك ولا هذا(٦٥)

أمّا مطيع بن إياس، فقد كان ذمه لبغداد ينبع أصلاً من شدّة فقره وسوء حاله، لاسيما حين حـلّ بـغداد، فلمّا نزلها ازداد شرًّا وعسراً حسب قوله، وفضلاً عن ذلك فانه يرى أنّ بـغداد تعصف بـالتراب على أهلها كالمطر الغزير، وهو يعتقد بأنّ اللّه تعالى سـيدمّرها عاجلاً كما دمّر سابقاتها من المدن عقوبة لأهلها:

حـبّذا عيشُنـا الـذي زالَ عنّـا
حـبّذا ذاك حـين لاحـبّذا ذا
أيـن هـذا مـن ذاك؟ سَقْياً لهذا
ك ولسـنا نـقولُ سَقْياً لـهذا
زادَ هذا الزّمـانُ شـرًّا وعُسرًا
عنـدنـا إذْ أحلّنـا بـغداذا
بَلْدةٌ تُمْطِـرُ الـترابَ على الـقو
م كمـا تُـمطِرُ الشّمالُ الـرّذاذا
وإذا مـا أعـاذَ ربّـي بـلادًا
مـن خراب كبعض مـا قد أعاذا
خَرِبَتْ عاجلاً كما خَرَّبَ اللـ
ـهُ بأعمال أهلهـا كَلْوَاذى(٦٦)

ويرى ابـن المعتزّ أنه لافائدة تُرتجى من إقـامته



ببغداد، وذلك من خلال تشبيهه لاقـامته فيها بـالعنين الذي تعانقه عجوز، في دلالة مؤكدة على يأسه وفقـده لأي أمل فيها، إذ طال همّه حين أقام فيها، وفي الوقـت الذي يرى فيه الشاعر أنّ أيّ مسافر قد يشقى في سفره أو يفوز، فإنه لايرى فوزاً أبداً من نزوله بـغداد، وذلك واضح في بيتيه اللذين يقول فيهما:

أطال الدّهرُ فـي بغداد همّـي
وقـد يَشقى المسـافرُ أو يـفوزُ
ظللتُ بها على كُرهي مُقيمـاً
كـعنّين تُـعانـقُهُ عـجوزُ[٣٧]

ووصل الأمر ببعض الشـعراء العباسـيين الى عدم الاقتصار على هجاء بـغداد فحسـب، وإنّما الى هجاء أهلها، ويبدو أنهم كانوا ينطلقون من مواقف شـخصية لايمكن تعميمها على أهل بغداد جميعهم، فأبو الشمقمق لايجد شخصاً في بغداد يتحلّى بـالمروءة، فضلاً عن أنّ وجهاءها يريدون المديح بلا ثمن أو جائزة، ولعلّه كان يقصد بذلك الخلفاء العباسيين ، قائلاً:

ليـس فيهـا مـروّةٌ لشريف
غيرَ هـذا القنـاع بـالطيلسان
وبقينـا في عُصبَةٍ مـن قُريش
يشتهُون المديـحَ بـالمجّان[٣٨]

وأكّد الشاعر عُمارة بن عقيل بـخل الممدوحـين في بـغداد وأنهم ليسـوا أهلاً للمديح، لأنّهم لايتمكنون من اكرام الشعراء بما يتناسب وقيمة قـصائدهم فيهم، لذا فهو ينصح الآخرين بالرّحيل عن بغداد، لأن الذي يبقى فيها لن ينال طائلاً من أهلها، فالأموال فيها لا تُغدقُ من الملوك إلّا على أهلها كما يرى، لذا فانه لايسـتغرب إصابة يد الكرم فيها بالشـلل ؛ لأنّ أصحـاب الأموال فيها على النحـو ذاك، وذلك كلّه ذكره الشـاعر في مقطوعة تفوح منها رائحة اليأس ، فضلاً عن الفشل الذي شعر به ناظمها من إقامته في بغداد يقول :

تَرَحّـلْ، فمـا بـغداد دار إقامة
وما عند مَن أضحى ببغداد طائل
مـحلّ ملوكٍ سمتهم فـي أديمهم
وكلّهم عـن حلية المجد عـاطل
فلا غرو إنْ شلّت يد المجد والعلى [كذا]
وقـلّ سماح مـن رجـال ونائل
إذا غضغض البحر الغطامط ماؤه
فليس عظيمـاً أنْ تغيظ الجداول [٣٩]

وكان بعض الشعراء يدعون الآخرين الى البحـث عن الناس الأشراف في بغداد، قاصدين من وراء ذلك الى خلوّها منهم ، فقد غدا خيرُ بغداد شرّاً لدى أحدهم ، فلا يرى فيها حرّاً ولا حرّة في قوله:

بـغدادُ قـد صار خيرُهـا شـرّا
صَيّرَهـا اللـهُ مثـل سـامرّا
اطلبْ وفتّشْ واحرصْ فلستَ ترَى
فـي أهلهـا حُـرّةً ولاحُرّا[٤٠]

ولايحتاج الباحث الى دليل لاثبات حجم المبالغة في هجاء أهل بغداد في البيتين السابقـين ،وربـما يكون الشاعر متألماً من موقف شـخصي سلبـي من لدن بعض الذين احتكّ بهم في بـغداد وتعامل معهم، فعمّمَ تجربته على أهلها جميعاً ،وذلك بفعل العامل النفسـي



المتأزّم لديه.

وهذا ما حصل فعلاً مع الشريف الرضي، حين استفهم مستنكراً عن عدم رحيله من بغداد التي يكثر فيها حسّاده، علماً أنّه ابن بغداد، وليس كغيره من الشعراء الذين كانوا يقدمون اليها طلباً للشهرة والمال، وهو فضلاً عن ذلك يرى أنّ الرزق لايقتصر عليها، كما أنّ المعالي التي يروم الشاعر تحقيقها لاترتبط بها فقط، بل بامكانه تحقيقها في مكان آخر، فيقول:

مالي لا أرغبُ عن بَلْدةٍ
تَرْغَبُ في كثرةِ حُسّادي
ما الرّزقُ بالكَرْخِ مُقيمٌ ،ولا
طوقُ العُلى [كذا] في جيد بغداد[51]

رثاء بغداد:

وكانت الفتنة التي أصابت بغداد في زمن الأمين والمأمون، والدمار الذي لحقها نتيجة لذلك، محطّ اهتمام من الشعراء، لاسيما (الخريمي) الذي كتب قصيدة تبلغ مائة وخمسة وثلاثين بيتاً، تحدث فيها عن ماضي بغداد وما آلت اليه بعد الفتنة [52]، وبيّن فيها جمال بغداد قبل النزاع الذي دار بين الأخوين، مشبّهاً إيّاها بالعروس، فضلاً عن وصفها بجنة الخلد، وذلك في قوله:

قالوا: ولم يلعبِ الزمانُ بـ (بغـ
ـداد) وتعثُرْ بها عواثرُها
إذ هي مثل العروس، باطنُها
مشوّق للفتى وظاهرها
جنّةُ خلدٍ ودارُ مَغْبَطَةٍ
قلّ من النائبات واترها
درّتْ خُلوفُ الدنيا لساكنها
وقلّ معسورها وعاسرها
وانفرجت بالنعيم وانتجعت
فيها بلذّاتها حواضرها
فالقومُ منها في روضةٍ أُنُفٍ
أشرق غِبَّ القطار زاهرها
مَنْ غرّهُ العيش في بُلَهنيةٍ
لوانُ دنيا يدومُ عامرها
دارُ ملوكٍ رَسَتْ قواعدها
فيها، وقرّتْ بها منابرها
أهل العُلا والندى [كذا] وأندية الـ
ـفخر إذا عددتْ مفاخرها
أفراخُ نعمى في ارث مملكة
شدّ عراها لها أكابرها[53]

ثمّ يتكلم الشاعر بعد مديحه بغداد على الفتنة التي نالتها كلاماً طويلاً، فيرى أنّ أهلها تفرّقوا شيَعاً وتقطّعت أواصرهم، قائلاً:

فلم يزل، والزمانُ ذو غِيَرٍ
يقدحُ في ملكها أصاغرها
حتّى تساقت كأساً مثمّلةً
من فتنة لايُقال عاثرها
وافترقت بعد أُلفة شيعاً
مقطوعةً بينهما أواصرها[54]

ويتذكر ما كانت عليه بغداد قبل تلك المعركة، من الازدهار والعمران والقصور الجميلة والأحياء العامرة، ويبكي ذلك كله بدموع غزار، ثم يرى أنّ تلك

الفتنة كانت عقاباً لأهل بغداد لأنهم ابتعدوا عن قيم الدين الحقيقية، فأذاقهم الله تعالى لباس الخوف، وأوقع فيهم الحريق:

يــابــــؤسَ بــغداد دار مملكــة
دارت على أهلهــا دوائــرهـــا
أمهلهــا اللّــهُ ثــمَّ عاقبهـــا
لمّــا أحــاطت بهــا كبائــرهــا
بالخسف والقذف والحريق وبالــ
ــحرب التي أصبحت تساورهــا
كم قد رأينا من المعاصي ببغدا
دَ، فهــل ذو الجــلالِ غــافــرهــا
حَــلّتْ بــبغدادَ وهــي آمــنةٌ
داهيةٌ لــم تــكن تحــاذرهـــا
طالعهــا السوءُ مــن مطالعــه
وأدركت أهلَهــا جــرائــرهـــا
رَقَّ بها الدينُ واستخفَّ بذي الــ
ــفضل، وعزَّ النسّاكَ فاجرهــا
وخــطِمَ الــعبدُ أنــفَ سَــيِّده
بــالرغم، واستُعبِدَتْ حرائرهــا
وصــارَ ربُّ الجيرانِ فاسقُهم
وابتزَّ أمرَ الدروب ذاعرهـــا[٤٥]

ويسترسل الشاعر في الحديث عن مجريات الأحداث التي أصابت بغداد في اثناء الحــرب الدائرة فيها الى أنْ يتوصّل الى مدح الخليفة المأمون في نهاية قــصيدته الطويلة[٤٦].

ولم يستطع بعض الشعراء تمالك أنفســهم، وكفكفة دموعهم في اثناء الحديث عن بــغداد وما جرى فيها من الحرق والنهب والقتل، فكلّما تذكّروا ذلك انهمرت دموعهم، ومن أولئك الشــعراء (العطوي) ، الذي يتساءل بحزن عميق عمّا جرى لبغداد، موجّهاً السؤال لها عن الذي أصابها بالحســد، وأوصلها الى النتيجة المؤلمة هذه، بعد أنْ كانت قرّة العين، قائلاً:

مَــنْ ذا أصابكِ يابغداد بــالعين
ألَمْ تكونــي زمــانــاً قرّةَ العينِ
ألَمْ يكن فيكِ قوم كــان مسكنهم
وكــان قربهم زينــاً مــنَ الزينِ
استودع اللّــهُ قومــاً ما ذكرتهم
إلاّ تــرقرق ماء العين من عيني
كــانوا ففرّقهم دهــرٌ وصدعهم
والدهرُ يصدع ما بين الفريقين[٤٧]

وعندما دارت رحى الحرب في بــغداد بــين جيوش الأمين وجيوش المأمون، نظم الحسين بــن الضحّاك مقطوعة وصف فيها الخراب الذي أصاب بغداد، فضلاً عن الوحشة التي أصبحت فيها بسبــب حــصارها ، ورأى أنّ الهدم لمبانيها ، والحرق الذي أباد أهلها كان عقوبة لهم، يقول:

أتُسْرِعُ الــرحلــةَ إغــذاذا
عــن جانبَيْ بــــــغدادَ أم ماذا
أما ترى الفتنةَ قــد ألّــفتْ
الــى أولـــي الــفتنــةِ شُذّاذا
وانتقضتْ بغدادُ عُمرانــها
عـــن رأي لاذاكَ ولا هـــــذا



هدْماً وحَرْقــاً قــد أبــاد أهلَهــا
عقوبــــةً لاذت بـــــمَنْ لاذا
ما أخشَنَ الحالاتِ إنْ لم تَعُدْ
بــــغداذُ فـــي القلّةِ بـــغداذا(٢٦)

وفي الختام لابدّ لنا من القول إنّنا حــاولنا في البحــث المتواضع هذا اعطاء صورة واضحة عن رؤية بــغداد من لدن الشعراء العباســيين، وكيف تعاملوا معها من مختلف الجوانب، مدحاً أو هجاءً، إعجابا أو ذمًا، كما حاولنا رصد الأسباب التي دعت الشــعراء للرغبــة فيها، أو للرغبة عنها، فضلاً عن الوقوف على ما قيل بخصوص الفتنة التي حــلّت بــها في زمن الأخوين الأمين

الهوامش

١ـ تاريخ بغداد أو مدينة السلام ١/ ٦٩، وينظر ، ١/ ٣٣.
٢ـ أبو بكر الصولي حياته وادبه — ديوانه / ٤٦٦.
٣ـ شعر السلامي / ٨٣.
٤ـ ديوان مهيار الديلمي ١/ ١١٠.
٥ـ مطيع بن إياس وما تبقى من شعره/ ٣٧.
٦ـ شعر الحسين بن مطير الأسدي / ٥٠ ، نحطورها: نقربها.
٧ـ ديوان عمارة بن عقيل / ٩٧.
٨ـ م. ن/ ١٠٧ـ ١٠٨ ، قطربل ، قرية بين بغداد وعكبرا ، ينسب اليها الخمر، الحراقة سفينة خفيفة المر، ويعلو فقارتها، اي يرتفع على ظهرها. ونسبت القصيدة الى الشاعر منصور النمري في قصة مفادها((أن الرشيد كان بالرقة، وكان يستحسنها ويستطيبها، فيقيم بها، وأطال المقام بها مرة، فقالت زبيدة للشعراء: من وصف مدينة السلام وطيبها في أبيات يشوق أمير المؤمنين إليها أغنيته. فقال في ذلك جماعة، منهم النمري قال أبياتاً أولها:
مـاذا ببغداد مـن طيب أفانيـن
ومـن عجائب للدنيا وللدين
إذا الصبا نفحت والليل معتكر
فحرشت بين أغصان الريـاحين
فوقعت أبياته من بين جميع ما قالوا ، وانحدر الرشيد الى بغداد. فوهبت زبيدة للنمري جوهرة. ثم دست إليه من اشتراها بثلاثمائة الف درهم)). طبقات الشعراء/ ٢٤٦.
٩ـ العطوي / ٣١ـ٣٢.
١٠ـ ديوان ابن الرومي ٢/ ٧٦٦.
١١ـ م. ن ٦/ ٢٤١٧.
١٢ـ شعر ابن الهبارية/ ١١٠ـ١١١.
١٣ـ م.ن / ١٤٦ـ١٤٧/ الأنف: الجديد، وروضة أنف: لم ترع من قبل، ووكف الماء: سال وقطر قليلاً قليلاً.
١٤ـ م.ن / ١٦٠.
١٥ـ أشجع السلمي حياته وشعره / ٢٦٧.
١٦ـ بكر بن النطاح / ٢٥٠.
١٧ـ م.ن / ٢٦٣، أيشوق: الصواب: الشوق، أبو وائل، كنية الشاعر بكر بن النطاح.
١٨ـ م.ن/ ٢٦٨.
١٩ـ ديوان اسحاق الموصلي / ١١٦.
٢٠ـ م.ن / ١٤٤، الجثجاث: نبــت صيفي أخضر، زهوره صفراء ذات رائحة طيبة، البسباس، نبت ذو رائحة طيبة وطعم كطعم الجزر.
٢١ـ ديوان ابن الرومي ٢/ ٧٨٩.
٢٢ـ يحيى بن علي المنجم حياته وشعره/ ٢٠٦.
٢٣ـ م.ن / ٢١٢ـ٢١٣.
٢٤ـ ديوان العباس بن الأحنف/ ٣٤.
٢٥ـ م.ن / ٤٩.
٢٦ـ أشجع السلمي حياته وشعره/ ٢٦٧.

٢٧ـ ديوان اسحاق الموصلي / ١١٦.
٢٨ـ مطيع بن إياس وما تبقى من شعره/ ٦٨.
٢٩ـ ديوان العباس بن الأحنف/ ١٤٤.
٣٠ـ م.ن / ٢٦٠.
٣١ـ أبو العتاهية أشعاره وأخباره/ ٦٤٠.
٣٢ـ ديوان أبي تمام ٣/ ٣٠٩.
٣٣ـ شعر الوزير المهلبي/ ١٥٧.
٣٤ـ ديوان العباس بن الأحنف / ١٨٨.
٣٥ـ م.ن / ٢٣٨.
٣٦ـ شعر ابن المعتز ٢/ ٥٧٥.
٣٧ـ ديوان البحتري ٣/ ١٦٣٤.
٣٨ـ م.ن ٣/ ١٧٧٦.
٣٩ـ م.ن ٣/ ١٧٩٤.
٤٠ـ أبو بكر الصولي حياته وأدبه – ديوانه / ٤٥٧.
٤١ـ ديوان أسامة بن منقذ / ١٦١، أم ظلوم :عجوز كانت في الدار التي نزلها ببغداد قبيحة المنظر.
٤٢ـ ديوان أبي تمام ٤ / ٤٣٨، لزّت ، أي غدت سرّ من رأى ملاصقة لها لاتدعها.
٤٣ـ أشعار الخليع الحسين بن الضحاك/ ٤٢.
٤٤ـ م.ن / ١٠٦ـ١٠٧، الثرى : فناء الدار ونواحيها وكل ما استترت به.
٤٥ـ يحيى بن زياد الحارثي ، حياته وشعره/ ٦٣ ، كرخايا: نهركان ببغداد يأخذ من نهر عيسى تحت المحول حتى يمر ببراثا، كلواذى : اسم مكان ببغداد، ويقال إنها التي تدعى اليوم الكرادة.
٤٦ـ مطيع بن إياس وما تبقى من شعره/ ٤٨.
٤٧ـ شعر ابن المعتز ٢ / ٦٠٣.
٤٨ـ أبو الشمقمق وما تبقى من شعره/ ١٥٠ – ١٥١.
٤٩ـ ديوان عمارة بن عقيل / ١٠١، غضغض: نقص.
٥٠ـ ديوان الخالديين / ١٢٧.
٥١ـ ديوان الشريف الرضي ١/ ٢٩٥.
٥٢ـ ينظر الشعر في الحاضرة العباسية / ٨٣ـ٨٤.
٥٣ـ ديوان الخريمي / ٢٧ـ٢٨.
٥٤ـ م.ن / ٢٨.
٥٥ـ م.ن / ٣١، عزّ : غلب.
٥٦ـ تنظر القصيدة في ديوان الخريمي / ٢٧ـ٣٧.
٥٧ـ العطوي / ٦٥.
٥٨ـ أشعار الخليع الحسين بن الضحاك/ ٥١، القلة، أعلى كل شيء والجماعة من الناس.

المصادر

-أبو بكر الصولي (٢٥٥ – ٣٣٦هـ) حياته وأدبه – ديوانه ، الدكتور أحمد جمال العمري، طبع بمطابع دار المعارف- القاهرة ، د.ت.
-أبو الشمقمق وما تبقى من شعره، ضمن: شعراء عباسيون ، دراسات ونصوص شعرية ، غوستاف فون غرنباوم، ترجمها وأعاد تحقيقها: الدكتور محمد يوسف نجم، راجعها: الدكتور احسان عباس، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت، مطبعة عيتاني، ١٩٥٩.
-أبو العتاهية أشعاره وأخباره، عني بتحقيقها ، الدكتور شكري فيصل، طبعة محققة على مخطوطتين ونصوص لم تنشر من قبل، مطبعة جامعة دمشق، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٥م.
-أشجع السلمي حياته وشعره، الدكتور خليل بنيان الحسون، ساعدت جامعة بغداد على نشر هذا الكتاب، دار المسيرة ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١م.
-أشعار الخليع الحسين بن الضحاك ، جمعها وحققها: عبد الستار أحمد فراج، دار الثقافة – بيروت، طبع في دار مجلة شعر، بيروت – لبنان، ١٩٦٠.
-بكر بن النطاح، ضمن ، عشرة شعراء مقلون، صنعة الأستاذ الدكتور حاتم صالح الضامن ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر، الموصل، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠م.
-تاريخ بغداد أو مدينة السلام، تأليف ، الامام الحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي المتوفى ٤٦٣ هـ ، دراسة وتحقيق، مصطفى عبد القادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية ،

بيروت. لبنان، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

-ديوان ابن الرومي، أبي الحسن علي بن العباس بن جريج، تحقيق، الدكتور حسين نصار، طبعة ثالثة منقحة، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، شارك في تحقيق الجزء الثاني :د. سيدة حامد، د. محمد عادل خلف، زينب القوصي، منير المدني، وشارك في تحقيق الجزء السادس ، وفاء محمود الأعصر، سيدة حامد عبد العال، منير محمد علي المدني.

-ديوان أبي تمام ، بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف بمصر، ج٣، ط٢، ١٩٧٠، ج٤، ١٩٦٥.

-ديوان أسامة بن منقذ، حققه وقدم له: الدكتور أحمد بدوي، حامد عبد المجيد، عالم الكتب، د.ت.

-ديوان اسحاق الموصلي، جمعه وحققه ، ماجد أحمد العزي، ساعد المجمع العلمي العراقي على نشره، مطبعة الايمان- بغداد، ط١، ١٩٧٠.

-ديوان البحتري ، عني بتحقيقه والتعليق عليه، حسن كامل الصيرفي، دار المعارف بمصر، ١٩٦٥.

-ديوان الخالديين، أبي بكر محمد وأبي عثمان سعيد ابني هاشم الخالدي، جمعه وحققه ، الدكتور سامي الدهان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، دمشق، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م.

-ديوان الخريمي، أبي يعقوب اسحاق بن حسان بن قوهي المتوفى سنة ٢١٤ هـ ، جمعه وحققه، علي جواد الطاهر، محمد جبار المعيبد، دار الكتاب الجديد، بيروت. لبنان، مطابع الأمان ، درعون – لبنان، ط١، ١٩٧١.

-ديوان الشريف الرضي، دار صادر – بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م.

-ديوان العباس بن الأحنف، شرح وتحقيق: عاتكة الخزرجي، مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة ، ط١، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.

-ديوان عمارة بن عقيل، جمعه وحققه، شاكر العاشور، ساعدت وزارة الاعلام على نشره، مطبعة البصرة، ط١، ١٩٧٣.

-ديوان مهيار الديلمي، منشورات الشريف الرضي، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ط١، ١٣٤٤هـ - ١٩٢٥م.

-شعر ابن المعتز ، صنعة، أبي بكر محمد يحيى الصولي، دراسة وتحقيق، الدكتور يونس أحمد السامرائي، منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة. بغداد، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

- شعر ابن الهبارية، جمعه وحققه، الدكتور محمد فائز سنكري طرابيشي، تقديم، الدكتور محمد حموية، طبع في مطابع وزارة الثقافة ، احياء التراث العربي، دمشق، ١٩٩٧.

-شعر الحسين بن مطير الأسدي، جمعه وحققه ، الدكتور محسن غياض، وزارة الاعلام، مديرية الثقافة العامة، دار الحرية للطباعة، مطبعة الحكومة. بغداد، ١٣٩١ هـ - ١٩٧١م.

-شعر السلامي، أبي الحسن محمد بن عبد الله بن محمد المخزومي السلامي البغدادي، جمع وتحقيق، صبيح رديف، مطبعة الايمان – بغداد، ط١، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

-الشعر في الحاضرة العباسية، الدكتورة وديعة طه نجم، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ، الصفاة- الكويت ، ط١، ١٩٧٧.

-شعر الوزير المهلبي، صنعة ، جابر عبد الحميد الخاقاني، مجلة المورد ، مجلة تراثية فصلية، تصدرها وزارة الاعلام. الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة- بغداد ،م٣، ع٢، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

-طبقات الشعراء ، ابن المعتز، تحقيق ، عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، ط٤، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م ﴿ تاريخ مقدمة المحقق﴾ .

-العطوي، ضمن، شعراء بصريون من القرن الثالث الهجري، دراسة ونصوص، العطوي، الجاحظ، الحمدوي، تأليف : محمد جبار المعيبد، مطبعة الارشاد – بغداد، ١٩٧٧.

-مطيع بن إياس وما تبقى من شعره، ضمن: شعراء عباسيون، دراسات ونصوص شعرية، غوستاف فون غرنباوم، ترجمها وأعاد تحقيقها: الدكتور محمد يوسف نجم، راجعها: الدكتور إحسان عباس، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت، مطبعة عيتاني، ١٩٥٩.

-يحيى بن زياد الحارثي، حياته وشعره، ضمن ، شعراء عباسيون، الدكتور يونس أحمد السامرائي، ج٣، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م.

- يحيى بن علي المنجم ، حياته وشعره، دراسة وتحقيق، هلال ناجي، ضمن، أربعة شعراء عباسيون، الدكتور نوري حمودي القيسي، الأستاذ هلال ناجي، دار الغرب الاسلامي، بيروت. لبنان، ط١، ١٩٩٤

بين يدي كتاب:

((الأمثال والكتابات في شعر ابن الحجاج))



عبد الحميد الرشودي

باحث / العراق

كان المحقق الفاضل الأستاذ السيد عبود الشالجي قد كلف بشعر ابن الحجاج ودار في فلك أخباره ونوادره وملحه وقد أنفق عشر سنوات وهو دائب في جمع شعره من مختلف مكتبات العالم وبعد جهد جهيد حصل على نسخ مصورة من بعض أجزاء الديوان وحين تعذر عليه الحصول على الديوان كاملاً ارتأى أنْ يستخلص مما توفّر لديه من شعر ابن الحجاج الأمثال والكنايات ذلك أن شعر ابن الحجاج طافح بها فاستقامت لديه طائفة كبيرة من الامثال والكنايات فتعهدها بالشرح والتعليق ورتبها على حروف المعجم من الألف إلى الياء. وهي وإنْ كانت لا تجزئ عن الديوان ولا تغني غَناه إلا أن فيها ما يمسك الرمق ويبل الصدى. وما لا يدرك كله لا يترك جله.



وسبيل التعبير بالكناية عند البلاغيين: أن تنظر إلى المعنى الذي تريد أداءه فلا تعبّر عنه بـــاللفظ الدال عليه لغةً بل تقصد الى لازم لهذا المعنى فتعبّر عنه وتفهم بـــه ما أردت، قال الشاعر:

أكلتُ دماً إنْ لم أرعك بضرة
بعيدة مهْوى القُرط طيّبة النّشر

فقـد كنى بقـــوله: "أكلت دماً" عن الدية، وأكلها من الامور القبيحـة التي تأنف منها العرب. وكنى بقـوله: ((بعيدة مهوى القرط)) عن طول رقبتها وهو مســتملح عندهم بل يعتبر الغاية في الجمال وكمال الخَلْق.

وليس ثمة ريب أن التعبــير بـــالكناية ينطوي على فوائد جمة ففي المعاريض ــ كما تقــــول العرب في أمثالها ــ مندوحة عن الكذب كما ان فيها سعةً عن قصد الكذب وتعمده الذي يخلّ بـــالمروءة ويحــطّ من كرامة صاحبه فمن تلك الفوائد وهي كثيرة:

١ــ التحرّز عن ذكر الفواحـش الســخيفة بـــالكنايات اللطيفة والمعدول عما يفحش ذكره في الأسماع الى مالا تنبو عليه الطباع ولا تنفر منه الاســماع. قــال تعالى: ((وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراما)) أي كنوا عن لفظه ولم يوردوه فإنهم أكرموا أنفسهم عن التلفظ به، كما يروى عن بنت أعرابي صرخت صرخة عظيمة فقال لها ابوها: مالك؟ قالت لدغني عقرب، قال أين؟ قالت: في الموضع الذي لا يضع فيه الراقي أنفه وكانت اللدغة في إحــدى سوأتيها فتنزّهت بذكرها عن لفظها.

٢ــ ترك اللفظ المتطير من ذكره الى مـــا هــو أجمــل وألطف ولفظها كقولهم: لحق فلان بإصبعه، واســتوفى أكله ولحق بـــاللطيف الخبــير يكنون بـــه عن الموت فعدلوا إلى هذه الألفاظ تطيّراً من ذكره بلفظه.

٣ــ ألقصد إلى الذم بلفظ ظاهره المدح كقولهم: أرانيه اللهُ أغرُ محجلا أي مقيّداً.

٤ــ الكناية عن الصناعة الخسيسة بذكر منافعها كما قيل للحائك ما صناعتك؟ فقال: زينة الأحــياء وجهاز الموتى.

٥ــ ما يجري بين الأدبــاء والبــلغاء ومداعبــاتهم بمعاريض الكلام. حكي أن رجلاً من تميم قال لشــريك النمري ما في هذه الجوارح أحب اليك من البازي؟ قال نعم إذا كان يصيد القطا. وكل منهما قــصد متقــصداً فهمه الآخر. ولقد حفل القرآن الكريم والآثار النبوية بالكنايات فقد كنى القرآن الكريم عن الفروج بالجلود في قوله تعالى:

((وقالوا لجلودهم لمَ شــهدتم علينا)) كما كنى عن الجماع بالملامســة في قــوله تعالى: ((أو لا ممســتم النساء فلم تجدوا ماء)) وقــد كنى النبــي (ص) عن الدخول بقــوله: ((من كشــف قــناع امرأة وجب لها المهر)) وقوله: مَنْ أرخى ستراً او أغلق بابـــاً وجب المهر))[1] وصفوة القول أن الكناية هي فرار من ذكر ما يقبح ويخجل الى ما يحسن ويجمل ذكره.

***

بــعد هذه الإلمامة اليســيرة لا معدى لنا أن نعرج على حياة ابن الحجاج وطبيعة عصره ومذهبــه في شعر السخف والمجون والملح.

على الرغم من ان القرن الرابع الهجري قد شـــهد



ضعف الخلافة الإسلامية وضمور سلطانها السياسي وظهور دويلات وطوائف مستقلة عن مركز الخلافة بغداد، فقد استولى آل بويه على بلاد فارس وما جاورها وبسط آل حمدان سلطانهم على الموصل والجزيرة وحلب وهيمن الفاطميون على بلاد المغرب وآل طغج على مصر والشام وبنو أمية على الأندلس ــ رغم كل هذا ــ فقد انتعشت الحركة العلمية والفلسفية والأدبية في هذا القرن حتى عُدّ ــ بحقّ ــ العصر الذهبي للحضارة الإسلامية وقد تنافس الامراء في جذب العلماء وجلب الأدباء والشعراء الى إماراتهم وأجروا لهم الجرايات السخية ومنحوهم الجوائز السنية طمعاً في الرفعة وحسن السمعة وجميل الأحدوثة.

ولا نكران أن الوهن الذي أصاب الخلافة وما أعقبه من قيام دويلات الطوائف واستئثارها بموارد البلاد الواقعة تحت سلطانها قد حرم بيت المال من الموارد التي كانت تجبى اليه وقد أعقب ذلك ظهور الفاقة وأحياناً المجاعة مما انعكس أثره على الحياة الأدبية فبرز شعراء الكُدية المعروفون بأساليبهم الخاصة وحيلهم ومكرهم في ابتزاز المال عن طريق التحايل والرقاعة كما برز إلى جانبهم الشطار والعيارون والدُّعار وطائفة أخرى نحلت نفسها اسم الساسانيين الذين ابتدعوا في التسول والاستجداء أفانين كانت بينهم مواضعات ومصطلحات عرفوا بها وقد كان ابن الحجاج وابن سكّرة خير مثالين لشعراء الخلاعة والمجون والسخف حتى نفقت سوق الأدب العاري من الاحتشام والحياء بسبب ضعف الوازع الديني والخلقي وعدم تعفف الأمراء والوزراء من سماع المجون والعبث والسخف على الرغم مما في ذلك من قذر ووضر ابتغاء تزجية الوقت وترويح النفس وتسرية همومها زد على ذلك أن مزاج العصر كان يتسع لضروب الهزل والعبث كما اتسع للجد والعمل إنه عصر الأضداد، عصر الزهاد والعباد والذعار والفجار عصر طلع في افقه المتنبي وابو فراس وابن خالويه وابن جني والتوحيدي كما ظهر فيه ابن الحجاج وابن سكرة اللذان اتصل بينهما الهجاء والبذاء حتى اعاد الى الاذهان نقائض جرير والفرزدق.

لقد سكتت المصادر ــ على كثرتها ــ عن ذكر زمان ومكان ولادته الا أن هناك اشارة في شعره تدل على انه نشأ في محلة ((سوق يحيى)) فقد ذكر ياقوت في معجم البلدان ٣/ ٢٨٥ ــ عند كلامه على ((سوق يحيى) أنها محلة ابن الحجاج الشاعر وقد ذكرها في أكثر شعره فمن ذلك قوله:

خليلي أقطعا رسني وحلاّ
زياري وانزعا عني شكالي
إلى وطني القديم بسوق يحيى
فقلبي عن هواه غير سالي
وقولا للسحاب إذا مرتك الـ
جنوبُ وعُدت منحلَّ العزالي
فَجُدْ في دارِ عرفانٍ إلى أن
ترويها من الماءِ الزلال
على تلك الرسوم ألا ومَنْ لي
بشمِّ ثَرى معالمِها البوالي



وقد ذكر أبو الحسن هلال بن المحسّن بن إبراهيم الكاتب أنّ ابن الحجاج من أولاد العمال وأنه كان أول أمره مرتسماً بالكتابة وأنه كتب بين يدي جده أبي إسحق مدة أيام حداثته ثم عدل عن ذلك إلى الشعر وعوّل عليه وكان أكسب له مما كان متشاغلاً به وأنّ أمره لم يزل يتزايد حتى حصل الأموال وعقد الأملاك وصار محذور الجانب متقى اللسان مخشيّ الغضب مقضيّ الحاجة مقبول الشفاعة حتى ان صاحب مصر حمل اليه الف دينار (مغربية) عن مديح مدحه به على سبيل الصلة[1].

وعلى الرغم مما اشتهر به ابن الحجاج من المجون والخلاعة والرقاعة فقد تولى منصب ((المحتسب)) ببغداد في عهد بختيار البويهي (٣٥٦هـ ــ ٣٦٧ هـ) وقد ذكر المستشرق مارگوليوث: أن ابن الحجاج كان منقطعاً إلى الفحش حتى أن أحد القراء كتب على ديوانه المختصر المحفوظ في باريس تحت قصيدته التي يحضّ فيهاعلى الفسق،هذا السؤال:((أهذا عمل المحتسب؟!))[2]

لقد اختار ابن الحجاج مذهب السخف والمجون والتهتك عامداً ليكون وسيلة الى السلاطين والأمراء والوزراء الذين كانوا يستمرئون هذا اللون من الشعر ويجيزون عليه الجوائز السنية.

قال ابن الحجاج يصف شعره على سبيل الهزل والسخرية:

بالله يا أحمد بن عمرو
تعرف للناس مثل شعري؟
شعر يفيض الكنيف منه
من جانبي خاطري ونحري
نسيمه منتن المعاني
كأنه فلتة بجحر
لو جدّ شعري رأيت فيه
كواكب الليل كيف تسري
وإنما هزله مجون
يمشي به في المعاش أمري

كان ابن الحجاج يشترك في المزايدة على ضمان الضياع العائدة الى بيت المال فإذا مارست عليه ادّى عشر الضمان وعند حلول أجل القسط التالي يمتنع عن الدفع ويماطل ثم يعمد الى مدح الوزير بقصيدة فيضطر الوزير الى اعفائه من بقية الاقساط خوفاً من لسانه ورهباً من هجائه وكذلك اذا طولب بتسديد نفقات الحفر والكري وإصلاح النهر تراه يتظلم ويشكو حاله وحال صبيته الجياع العراة فلا يجد الوزير مناصاً من إعفائه ولم يقف الأمر بابن الحجاج عند هذا الحد بل نراه اذا اراد ختان احد صبيانه يطلب مدّ يد المساعدة وحين يريد تزويج أحد أبنائه لا يتورع ان يطلب نفقات العرس من ممدوحيه بل حتى اذا جاعت دابته يطلب التبن والشعير لها والويل والثبور لمن لا يلبي طلبات ابن الحجاج .فلا غرو أن يبرز الجانب الذاتي في شعره بصورة جلية فحديثه إما عن نفسه وإما عن اولاده واهل بيته او مزارعه ودوابه مما له مساس به. وقد جرّت عليه هذه السيرة غير المحمودة متاعب جمة تجرع غصصها واوصابها



ومن ذلك ما اورده ابـو الحسـن الصابـي في كتابـه ((الوزراء)) من ١٣٧ [١] قال:

((كنت بحضرة ابي الحسـن بـن الفرات في وزارته الأولى وهو جالس يعمل، اذ رفع رأسه، وترك العمل من يده وقال: أريد رجلاً لا يؤمن بـالله ولا بـاليوم الآخر يطيعني حقّ الطاعة فأنفذه في مهمّ لي، فإذا بـلغ فيه ما أرسمه له أحسـنت إليه إحسـاناً يظهر عليه وأغنيته فأمسك مَنْ حضر، ووثب رجل يكنى بأبـي منصور أخ لابن أبي شبيب حاجب ابن الفرات فقال: أنا أيها الوزير. قال وتفعل؟ قال أفعل وأزيد. قال كم ترزق؟ قـال أرتزق منة وعشرين ديناراً قال وقّعوا له بالضعف. وقال سـل حوائجك فسأله أشياء اجابه إليها. فلما فرغ من ذلك قال خذ توقـيعي وامضِ الى ديوان الخراج وأوصله الى كاتبيْ الجماعة وطالبهما بإخراج ما على محـمد بـن جعفر بن الحجاج وطالبـه بـأداء المال وأتلفه الى أن يستخرج جميعه ولا تسمع له حـجة ولا تمهله البـتة. فخرج وأخذ من رجّالة البـاب ثلاثين رجلاً، فقـلت لأخرجن وأمضين إلى الديوان حـتى أنظر ما يؤول إليه الحـال فخرجت وصرت إلى الديوان وهو في الدار المعروفة بفتح القلانسي ـ فدخل ابـو منصور هذا الى الصقر بن محمد وعبيد الله بن محـمد الكلواذاني وهما صاحبـا المسـجد شـركة، فلم يجد الكلواذاني ووجد الصقربن محمد فأوصل إليه التوقيع وقـال له أخرج ما على ابن الحجاج فقال: عليه من بـاب واحـد ألف ألف درهم فطالبه بذلك إلى أن تفرّغ بالعمل بسـائر ما يلزمه ـ يريد بذلك الدلائل والبـيانات المثبـتة لهذا المال ـ وكان محمد بن جعفر من عمّال أبي الحسن عليّ بـن عيسى ـ قـال: فأحضر ابـن الحـجاج وشـتمه وافترى عليه، وابن الحجاج يستعطفه ويخضع له ثم أمر بتجريده وإيقاع المكروه به فأوقـع، وهو في ذلك كله يقول: يكفي الله، ثم أمر أبو منصور بنصب دقّل [٢] فنصب، وجعل في رأسه بكرة فيها حبل، وشُدّت فيه يد ابن الحجاج، ورفع إلى أعلى الدقـل، وهو يسـتغيث ويقول: يكفي الله. فما زال معلّقاً وأبو منصور يقـول له: المالَ المالَ، وهو يسـأله حـطّه وإنظاره إلى أن يوافق الكُتّاب على ما أخرج عليه، وهو لا يسمع منه، وقد قعد تحت الدقـل واختلط وغضب من غير غضب اعتماداً لأن يبلغ ابن الفرات فعله. فلما ضجر قال لمن يمسك الحبال: أرسـلوا ابـن الفاعلة ـ وعنده أنهم يتوقفون ولا يفعلون ـ فأرسـلوه لما رأوه عليه من الحدة والغضب، ووافى ابـن الحـجاج إلى الأرض، وكان بديناً سميناً، فوقع على عُنُق ابي منصور فدقّها، وخرّ على وجهه، وسقط ابن الحجاج مغشـياً عليه. فحُمل ابـو منصور إلى منزله في محـمل فمات في الطريق وردّ ابن الحجاج الى محبسه وقد تخلّص من التلف)) وبعد هذه الحـادثة التي وقـعت بـالصورة المتقدمة سارعت (عرفان) زوج ابـن الحـجاج الى موسى بن خلف الذي اوصلها الى ابن الفرات فقرّرت امره على منة الف دينار منها ما هو معجل ومنها مـا هو منجم وعند ذلك أُطلق ابن الحجاج من محبسه.

كانت وفاة ابن الحجاج يوم الثلاثاء لسبع بقين من جمادى الآخرة سنة إحدى وتسعين وثلاث منة بالنيل

على ما اورده الخطيب البغدادي[٦] رواية عن هلال بن المحسّن الكاتب وهو عائد منها وورد تابوته الى بغداد يوم الخميس وقد اوصى ان يدفن في مشهد الأمام موسى بن جعفر وان يكون قبره عند رجليه وأن يكتب على شاهد قبره الآية ١٨ من سورة الكهف: ((وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد)).

وقد عني الشريف الرضي بشعر ابن الحجاج واصطفى منه مجموعة نحلها عنوان: ((الحسَن من شعر الحُسَين)) ورثاه بقصيدة على البديهة بلغت عدة ابياتها (٢١) بيتاً جاء فيها:

نعوه على ضنّ قلبي به
فلله ماذا نعى الناعيان
رضيع ولاء له شعبة
من القلب فوق رضيع اللبان
بكيتك للشرد السائرا
ت تعبق الفاظها بالمعاني
وما كنت أحسب أنّ المنون
تفلّ مضارب ذاك اللسان
ليبك الزمان طويلاً عليك
فقد كنت خفة روح الزمان[٧]

إصلاح ما وقع من اوهام في ترجمة ابن الحجاج:

ليس ثمة ريب أن المصادر التي عرضت لترجمة ابن الحجاج كثيرة متعددة ولكنها على الرغم من كثرتها كانت شحيحة بمعلوماتها فهي لم تقدم شيئاً ذا بال عن حياته الأولى ونشأته بل أغفلت زمان ومكان ولادته على حين انها كانت سخية في ايراد نماذج من شعره وقد وقع في بعض تلك المصادر بعض الأوهام التي وجدنا البحث يتقاضانا التنبيه عليها:

١ـ ذكر ابن شهر آشوب[٨] أن ابن الحجاج قرأ على ابن الروحي وأنه كان من بلاد العجم وهو قول مدفوع ذلك لأن ابن الرومي توفي سنة ٢٨٣هـ وعند المكثرين سنة ٢٨٤هـ وان الثابت المحقق في وفاة ابن الحجاج هو سنة ٣٩١ هـ فأنى له ان يتلمذ له وهو في تلك السن الصغيرة وأما قوله: إنه من بلاد العجم فهو قول لا تقوم به حجة فربما يكون ولد فيها او يكون ثقفياً بالولاء[٩]. زد على ذلك ان ماورد في شعره يفصح عن انه ثقفي ومن ذرية الحجاج بن يوسف الثقفي فقد قال مفتخراً:

شرفت وجدي الحجاج قبلي
به شرفت قبيلته ثقيف

وقال ايضاً في مثل هذا المعنى:

لمَ ذا لأنّ الحجاج جدي
أحسن منْ جاء من ثقيف

ذكر ابن خلكان[١٠] في سياق ترجمته لابن الحجاج أنه عزل بأبي سعيد الأصطخري الفقيه الشافعي وقد انبرى ابن كثير معقباً على ذلك فقال[١١]: وقول ابن خلكان قول ضعيف لا يسامح بمثله فإن أبا سعيد (الأصطخري) توفي سنة ٣٢٨هـ. فكيف يعزل به ابن الحجاج وهو لايمكن ادعاء ان يلي الحسبة بعده ابو سعيد الاصطخري وابن خلكان قد أرّخ وفاة الشاعر بهذه السنة (٣٩١هـ) ووفاة الاصطخري بما تقدم.



٣ــ جاء في تاريخ الادب العربي[١١]: ان وفاة ابن الحجاج كانت يوم ٢٧ جمادى الأول (كذا) على حين ان جميع المصادر القديمة اجمعت على ان وفاته كانت في جمادى الآخرة.

* * *

بعد هذه الالمامة اليسيرة بابن الحجاج ومذهبه في شعر السخف والمجون حري بنا ان نقف وقفة اخرى عند مؤلف هذا الكتاب فنلم بشيء من سيرته ونتاجه الادبي في التحقيق والتأليف بما يفصح عن طول باعه وسعة اطلاعه.

ولد عبود بن مهدي بن احمد الشالجي في بغداد صباح يوم الخميس اول ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلاث مئة والف[١٣] وهي تطابق اليوم الثاني من شهر آذار سنة ١٩١١.

كان أجداده من المزارعين ونسبتهم الى مدينة (شلج)[١٤] إحدى المدن الواقعة على نهر الدجيل وقد نزح جماعة منهم الى بغداد وتديروا مناطق مختلفة في الكاظمية والاعظمية ومناطق مختلفة من بغداد فأما اسرته فقد اتخذت محلة (عمار سبع ابكار) مستقراً لاقامتها ومشى خطوته الأولى في طلب المعرفة حين توجه الى المدرسة الابتدائية وبعد تخرجه فيها اكمل دراسته المتوسطة في مدرسة الجعفرية ومن اساتذته الذين انتفع بهم في هذه المدرسة الأستاذ صادق الملائكة وبعد تخرجه في هذه المدرسة انتمى الى المدرسة الثانوية الرسمية وهو يذكر بالخير الاستاذ السيد طه الراوي مدرس الادب واللغة العربية في هذه المدرسة والذي شاءت الاقدار ان يزامله في مجلس الامة حين عين الشالجي كاتباً في مجلس النواب وكان استاذه الراوي يشغل وظيفة سكرتير مجلس الأعيان وكان المجلس يومئذيشغل بناية مستشفى الكرخ قبل نقله الى بناية جامعة آل البيت في الأعظمية فجدد الطالب عهده باستاذه الشيخ الجليل.

وبعد تخرج الشالجي في الثانوية انتسب الى كلية الحقوق في السنة الدراسية ١٩٢٦/ ١٩٢٧ وتخرج فيها في السنة ١٩٢٩/ ١٩٣٠.

وقد ذكر الشالجي أنه كان ممن دونوا خطبة المرحوم عبد المحسن السعدون رئيس الوزراء الذي انتحر مساء الثالث عشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٩.

وبعد تخرجه في كلية الحقوق أراد ان يفيد من دراسته القانونية فعين بوظيفة (كاتب ضبط) في المحاكم المدنية وهو يذكر أنه كان كاتب ضبط في قضية المكاتيب السرية التي اتهم بها السيد مزاحم الباجه جي وجماعة آخرون.

وبعد أن قرن الى دراسته الخبرة والتجربة عيّن حاكما في المحاكم المدنية وتنقل في اصقاع مختلفة في العراق من جنوبه الى شماله ثم استقال سنة ١٩٤٠ من وظيفته اثر خلاف وقع له مع وزير العدلية فانصرف الى المحاماة فاستطاع بكفايته وذكائه ان يكون في مقدمة كبار المحامين وحين آنس في نفسه رغبة للراحة استقال من نقابة المحامين سنة ١٩٦٩ مؤثراً الانتقال الى لبنان حيث صرف همته الى



التحقيق والتأليف فانجز خمسة وعشرين مجلداً منها (١٤) تحقيقاً و (١١)تأليفاً وقد تم طبعها في لبنان وهذه تفاصيلها:

١ــ نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة للتنوخي/ ٨ مجلدات (تحقيق)

٢ــ الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي ايضاً/ ٥ مجلدات (تحقيق)

٣ــ الرسالة البغدادية لابي حيّان التوحيدي/ مجلد واحد (تحقيق)

٤ــ الكنايات العامية البغدادية/ مجلد واحد (تأليف)

٥ــ موسوعة الكنايات العامية البغدادية/ ثلاثة مجلدات (تأليف)

٦ــ موسوعة العذاب/سبعة مجلدات (تأليف)

هذا غير مسودات مؤلفات كاملة أحرقت في غزوة بحمدون وقد ذكر ان بعض هذه الكتب كانت قد صُفّت حروفه وأعدّ للطبع وقد بلغت هذه الكتب (١٣) مجلداً واليك تفصيلها:

١ــ ألرواتب في الأسلام جــ ١
٢ــ ألمائدة في الأسلام جــ ١
٣ــ الأثمان في الأسلام جزءان
٤ــ ألصداق في الأسلام جــ ١
٥ــ تطور الطب والجراحة في الأسلام جــ ١
٦ــ الألقاب جــ ١
٧ــ الخبر بين صاحب الخبر وصاحب البريد جــ ١
٨ــ طرائف في ثلاثة مجلدات:
١ــ ما عاينت جــ١
٢ــ ما سمعت جــ١
٣ــ ما قرأت جــ ١
٩ــ آخر ما قالوا جــ ١
١٠ــ كيف ماتوا جــ ١

واخيراً وليس آخراً كتاب ((الامثال والكنايات في شعر ابن الحجاج)) الماثل بين يديك فقد كان فرغ من وضعه قبل بضع سنوات وقدمه اليّ وهو في المسودة طالباً أن اعيد نسخة في المبيضة فاستجبت لطلبه وحين فرغت منه اعدته اليه فعكف على مراجعته إلاّ أنه توقّف عند الكناية المرقمة (٥٨٣) فقد أعجله المرض المفاجئ الى التماس العلاج والسفر الى خارج العراق وكان المأمول ان يعود الى الوطن ويستأنف ما بدأ به إلاّ ان مدة العلاج قد طالت وطال معها مكثه فقد تسلمت منه رسالة تحمل تاريخ ٢٣/ آب/ ١٩٩٣ يطلب اليّ فيها ان اتولى مراجعة الكتاب وتدقيقه وكتابة مقدمة له وتهيئته للطبع كذلك وكل بي مراجعة ما جمعه من ديوان ابن الحجاج ــ وان كان ناقصاً ــ وقد حاولت الاعتذار عن ذلك ولكن معاذيري ذهبت ادراج الرياح امام اصرار وتصميم الصديق الكريم الاستاذ عبود الشالجي فلم اجد ندحة عن امتثال طلبه وتحقيق رغبته فعكفت على مراجعة الكتاب وانا اشعر بثقل الامانة وعظم التبعة وافرغت في ذلك وسعي وبذلت اقصى طاقتي والله المستعان في البدء والختام.

الخميس ٢٨ تموز ٩٤ لندن

حضرة الاخ العزيز الاستاذ الجليل عبد الحميد



الرشودي المحترم السلام عليك يا ابا محمد ورحمة الله وبركاته اسأله تعالى ان يطيل بقاءك وبقــاء من يتعلق بك في سلامة بدن واطمئنان بال.

تسلّمت كتابــك المؤرخ في ١٢ حــزيران ١٩٩٤ وحمدت الله على سلامتك اسأله تعالى ان يمتعك وذويك بالعافية والسلامة والصحة التامة.

انجازك كتاب ((الامثال والكنايات في شــعر ابـــن الحجاج)) ملأ قلبي سروراً فاشكرك اجزل الشكر واثني عليك اطيب الثناء وحق لمن اعتمد عليك واطمأن اليك ان يصل الى ما أمّل.

اما طلبك ان اكتب اليك شيئاً من ملاحظاتي ومنهجي فان عزيزاً عليّ ان لا استطيع تلبية طلبك فان القــراءة اصبحت تعييني والكتابة تعذّبني.

اما نسختا الديوان فان الاعتماد على النســخة التي بخطي، وقد طبعت عنها النسخة الاخرى خشية ان افقد صفحة او اكثر من النسخة التي بخطي فتقوم النســخة الأخرى مقامها.

اما الاحــالات والتعليقــات المكتوبــة على جانبــي الصفحات فاســألك ان ترقــمها وان تجعل لها مكاناً في اسفل الصفحة.

ان ديوان ابن الحــجاج وان كان كالبحــر المتلاطم فانك في عظيم ذكائك وغزير فضلك لا أخشى عليك فيه من الغرق ولا من الزلق وفقــك الله واعانك على ما انت بصدده.

بقي عليّ شيء واحد احببت ان اخبرك بــه وهو ان امي رحــمها الله اخبــرتني بــانني ولدت صبــاح يوم الخميس اول ربيع الاول سنة تسع وعشرين وثلثمائة والف وكنت قــد راجعت كتاب التوفيقــات الالهامية فظهر لي ان ذلك التاريخ يطابق اليوم الثاني من شهر آذار سنة ١٩١١ فارجو منك ان تعيد المطابقة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

من المخلص

عبود الشالجي

نماذج من كتاب الامثال والكنايات في شعر ابن الحجاج

١ــ ابعد الأمر ادناه من الفرج: كناية عن قــرب زوال المصاعب. قال ابن الحجاج من قصيدة في مدح بهاء الدولة وقد ورد عليه من بعض النواحي خبــر شــغل قلبه:

إشرب ولا تك في ريب ولا حرج
ولا تغص في بحار الفكر واللجج
وثق بربك يا من دون مهجته
تلاعب الموت بالارواح والمهج
ولا تبت ليلة في الدهر واحدة
معلق القلب فيها غير مبتهج
فأصعب الخطب يا مولاي اسهله
وأبــعد الأمر ادناه من الفرج

٢ــ ابو الحارث: كناية عن الأسد وهي كنيته

قال ابن الحجاج وكان واقــفاً على بروســن دار الملك عضد الدولة وقد طرح في الماء طيّار جديد فرغ منه ذلك اليوم واجتاز في دجلة بالدار المحروسة فقال وهو يمدح عضد الدولة البويهي ويذكر فرار ابي تغلب



الحمداني منه:

يا ملكاً ليس لأعدائـــــه
من بأســـــه حـــــرز ولا جُنّه
ومن اذا خالفه مســـــلم
فانما قـــــد خالف الســـــنه
شبّهت طيارك في دجلـــة
بـــــجعفر الطيار في الجنه
فيا ابن حمدان الذي حينـــه
حـــــسَّن في الخلف له ظنّه
اهرب فما فيك لما رمتـــه
لا حــــيلة ترجى ولا منه
ان ابا الحارث في غابـــه
اذا مشــــى فرّ أبــــو زنه

حاشية: البغدايون الآن يكنون الاسـد ويكنون عنه وابو خميس (موسوعةالكنايات العامية البـغدادية ١/ ٥٤) وابو زنة كنية القرد.

نقل من طلعة المعلم يوم السبت: كناية عن الثقـيل البغيض قال ابن الحجاج يشكو الحجاب:

وكـل يـوم اغدو الى امـل
ملتمـس النجـح فيـك مطلـوب
فـأتثني والحجاب يصحبني
ذل محــــلاً وخزي محــــجوب
اصلف من يوسف واكذب من
اولاد يعقوبـــــه على الذيب
اثقل من طلعة المعلم في الـــ
بـــت على صبـــية الكتاتيب

حاشية: المحلأ: المطرود يقـال حـلأه عن الماء طرده ومنعه.

٤ـ احتجم عند ابن سابور: كناية عمن وقـع تحـت العذاب وابن سابور: هو ابو العبـاس المسـتخرج. وكان يعذب الناس عند المطالبة ومات تحـت العذاب في السنة ٣٧٥هـ.

قال ابن الحجاج:

هذا ومن عاداك من احمق
محـــــيّن في الرأي مغرور
قوم مدابير ولن يحسد الـ
مقـتبّل كالقـوم المدابـــير
امسى دم استصفاعهم ثائراً
فاجتمعوا عند ابــن سابـــور

وجاء في ذيل تجارب الأمم ص ١١٨:

وفي السنة ٣٧٥ قتل بالعذاب ابو العبـاس بـن سابور المسـتخرج أي الذي يقـوم بـتعذيب الناس لاستخراج ما يتقرر عليهم على سبيل المصادرة. فقيل انه عرضت فتوى على ابي بـكر الخوارزمي الفقـيه مضمونها: ما يقول الشيخ في رجل مطالب معاقب، قد ترددت عليه مكاره هونت عليه الموت، هل فسحة في قتل نفسه واراحتها مما تلاقيه؟ فكتب في الجواب: انه لا يجوز ولا يجوز له فعل والصبـــر على ما هو فيه ادعى الى تضاعف ثوابـه وتمحـيص ذنوبـه فلما انصرف حاملها. قال بعض الحاضرين لزهير بن ابي بكر: هذه رقعة ابن سابور: فقال ابو بكر: قـل له: ان قتلت نفسك او ابقيت عليها فعاقبـتك الى الخسـارة



ومصيرك الى النار. (ذيل تجارب الامم ص ١١٨)

احلى من سكر التماثيل: كناية عن الحلاوة في العين والفم.

قال ابن الحجاج في وصف فتاته وتعلّقه بها:

وانت أحلى عندي وأحـــ
ســن في عين من سكر التماثيل

يريد بسكر التماثيل: تماثيل تصنع من السكر على هيأة الانسان والحيوان والمباني والقصور تزين بها موائد الطاعمين في القرن الرابع الهجري وما بعده، فاذا استوفى الطاعمون طعامهم عمدوا الى التماثيل فكسروها واكلوا منها وحملوا الباقي معهم.

(راجع الفقرة (جمال من شكر) في موسوعة الكنايات العامية البغدادية ج٢ ص ٥١٤ ــ ٥١٧)

٦ــ إدبار البقال في صلح القط والفار: كناية عن اتفاق حصل بين قوم على غلته فانتهبوها.

قال ابن الحجاج:

من اجل هذا يا ابا طاهـــر
تشغّبـــت في ضيعتي الغاره
ووقع الصلح على غلتـــي
فاقتســموها كارة كاره
لا يدبـــر البقال إلا اذا
تصالح الســنور والفاره

٧ــ اضيع ما يكون الدين عنده اذا طولب باليمين: كناية عن الفاسق المجاهر باليمين الكاذبة.

قال ابن الحجاج يشكو حاله ويذكر كثرة دائنيه وخراب داره.

وذاك لانها لا دار دنيـــا
اســر بهـــا ولا هي دار دين
خلت من كل شيء غير بيع الشيـ
ـاب وغير تعليق الرهـــون
وباب لي عليـــه كل يـــوم
حـروب بـين اصحـاب الديون
شيوخ كالتيوس بألف قـــرن
اذا نحـن اجتمعنا ينطحـــوني
اذا هم لازموني بـــاب داري
تفارقـنا مفارقـة الســجون
يغيظوني فأشتمهم واربـــي
عليهم في المقـــال فيلعنوني
وادعوهم الى القاضي عساهم
اذا وقـع الجحـــود يحـــلفوني
واضيع ما يكون الدين عندي
اذا عـزم الغريـم علـى يمينـي

راجع موسوعته عن الكنايات العامية البغدادية الفقرة بشر امك صارت بديانه، ج ١ ص ٣٥١.



الهوامش

(١) المنتخب للقاضي احمد بن محمد الجرجاني. طبعة بيروت المصورة، والمطول على التلخيص للسعد التفتازاني. اسلامبول سنة ١٣٣٠هـ.

٢. تاريخ ابي الحسين هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابي نشر ملحقاً بذيل كتاب الوزير ابي شجاع لكونه كالتكملة للجزء الرابع وقد اعتنى بتصحيحه هـ. ف. امد روز وبعده مرجليوث. القاهرة سنة ١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م.

٣. دائرة المعارف الاسلامية ١/ ٢٤٩.

٤. الوزراء او تحفة الامراء في تاريخ الوزراء لأبي الحسن الهلال بن المحسن الصابي تحقيق عبد الستار فراج. دار احياء الكتب العربية/ القاهرة ١٩٥٨م.

٥. الدقل خشبة وسط السفينة وينشر عليها الشراع ويرى محقق الكتاب المراد هنا ان تصب هذه الخشبة في البر لا في السفينة.

٦. تاريخ بغداد، ٨/ ١٤ وقد حرفت فيه (النيل) الى الفيل سهواً.

٧. ديوان الشريف الرضي ٢/ ٨٦٤ المطبعة الأدبية في بيروت سنة ١٣٠٩هـ/ ١٨٩١م.

٨. معالم العلماء ص ١٤٩/ منشورات المطبعة الحيدرية. النجف الاشرف ١٣٨٠/ ١٩٦١.

٩. السيد محسن العاملي: اعيان الشيعة:

أ. الطبعة الأولى. مطبعة الاتقان دمشق ١٩٤٧، ٢٥/ ٨٣. ٨٤.

١٠. الطبعة الثانية بتحقيق نجله السيد حسن الأمين: ٥/ ٤٢٧. ٤٢٨.

وفيات الأعيان: تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ١/ ٤٢٦ مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٤٨.

١١. البداية والنهاية: ١١/ ٣٢٩. طبعة مصورة. عن طبعته القاهرة. دار ابن كثير بيروت. لبنان (غفل من التاريخ).

١٢. كارل بروكلمان ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ٢/ ٦٠. دار المعارف بمصر ١٩٦١.

١٣. قال ياقوت في معجم البلدان ٣/ ٣٥٨، شلج: بكسر اوله وسكون ثانية: قرية قرب عكبرا...... وهي على شاطئ دجلة.....

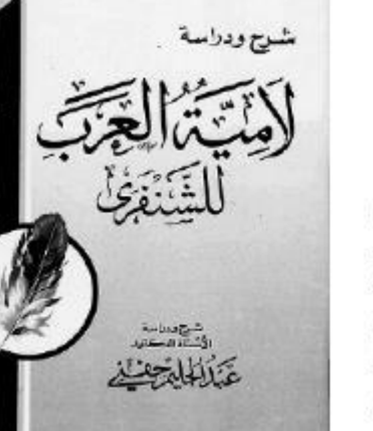
١٤. ذكر لي الاستاذ عبود الشالجي في رسالة مؤرخة في ٢٨/ تموز/ ١٩٩٤، ان امه رحمها الله اخبرته بأنه ولد صباح يوم الخميس اول ربيع الأول ١٣٢٩ وانه كان راجع كتاب ((التوفيقات الالهامية)) فوجده يطابق اليوم الثاني من شهر آذار ١٩١١ وطلب مني ان اعيد المطابقة فرجعت الى الكتاب المذكور فوجدته مطابقاً للتاريخ الذي ذكره الاستاذ الشالجي.

قراءة في بحث ((لامية العرب بين الشنفرى وخلف الأحمر))

أ.د.عبداللطيف حمودي الطائي
جامعة بغداد - كلية الآداب

كتب الزميل الدكتور باسم ادريس بحثا حمل عنوان ((لامية العرب بين الشنفرى وخلف الأحمر))؛ نشره في مجلة التربيـة والعلم؛ (مجلة كلية التربيـة -جامعة الموصل)؛ المجلد ١٨؛ العدد الأول؛ لسـنة ٢٠١١م؛ ورجح فيه أنّ القصيدة اللامية هي لخلف الأحمر ونحلها الشنفرى؛ والحقيقة تقول : إنّ ذلك غير صحيح؛ وذلك بموجب الردود الآتية :

قبل الرد على ما جاء في البحـث؛ وتفنيد ما فيه من أوهام ومغالطات؛ أقـول : إنّ لامية العرب تـُعدّ من غـُرر القصائد الجاهلية؛ والتي صورت حياة الإنسـان العربـي في صحـراء مترامية الأطراف؛ قـلّ ماؤها وعشـبُها؛ وعانى سـكانها شـظف العيش وضنكه؛ والقصيدة أشهر من علمٍ في رأسه نار؛ وهي من بـنات أفكار الشـاعـر الصعلوك الشـنفرى الأزدي نظمه؛ اختلفت المصادر في نسبـتها؛ وظلت تتأرجح بـين الشنفرى وخلف الأحمر؛ وذلك لأسبـاب كثيرة لا يمكن



حصرها في هذا البحث؛ ولعل أهمها؛ هو عدم انصياع الراوية خلف الأحـمر لرغبـات الخلفاء العباسـيين وأمرائهم؛ ورفضه مدحهم وحضور مجالسهم؛ شأنه شأن معاصره الخليل بن أحمد الفراهيدي؛ الذي رفض الرضوخ لرغبات العباسيين؛ وبسبـب هذا الرفض؛ تصدى الرواة من ذوي النفوس المريضة؛ وأصحاب الضمائر الضعيفة والميتة؛ ممن يلهثون وراء المـال

والشهرة الزائفة وإرضاء الحكام؛ وأخذوا على عاتقهم تشويه سمعة خلف الأحمر ومكانته؛ وتصويره وتقديمه للجمهور على خلاف حقيقته؛ فوضعوا على لسانه ما لم يصح قـوله من مثل[١] : (كنت آخذ من حـمّاد الراوية الصحيح من أشعار العرب وأعطيه المنحول فيقبل ذلك مني ويدخله في أشـعارها) هذه الرواية سـاذجة ومتكلفة، والوضع فيها مكشـوف يكاد يصرخ بـوجه قارئه قائلاً : لا تصدق، فكيف يأخذ الصحيح من الأشعار ويعطيه المنحول ؟ وكيف يقبـل الرواة بـعد ذلك الأخذ بـمروياته، إذا علمنا أنّ خلفا هو معلمهم، فإذا كان المعلم هكذا ! فما بالك بـتلاميذه من الرواة؛ فهم أيضا وضاعون، وليسوا بثقة، والواقع يشير إلى خلاف ذلك، فرواة البصرة؛ هم أكثر الرواة توثيقا؛ ثُمّ هل يعقـل أنّ رجلاً صاحب بضاعة يقول للناس : بـضاعتي سـيئة ورديئة فلا تشتروها؛ وهذا يعني أنّ الرواية موضوعة، وليست صحيحة؛ وهذا هو معنى القول المنسوب لخلف الأحمر؛ ولست هنا بصدد تبرئة خلف الأحمر؛ ولكنّـي كتبت بحـثاً نشـرته في مجلة آفاق الثقـافة والتراث الإماراتية[٢] برأ خلفا مما ألصق به من تهمٍ زائفة .

وعودة لبحث الزميل د.باسم؛ أقـول في البـدء إنّ البحث من البحوث التي اتبعت المنهج العلمي الصحيح؛ ولكنّ البحث لم يواصل طريقهُ القـويم؛ فانحـرف عن مساره الصحيح؛ وكُرِس لنفي القصيدة عن شـاعرها ومبدعها؛ لتنسب إلى غيره؛ وهذا ما دعاني لكتابة هذا البحث لتوضيح الوهم والخلط الذي وقـع في البحـث المذكور؛ وسينحـصر عملي في تصويب الأوهام التي حرفت نسبة هذه القصيدة الجميلة؛ من الشـنفرى إلى خلف الأحمر إفتراءً وبهتانا؛ وهو براء من ذلك .

أولاً – قال د.باسـم ادريس في الصفحـة الثالثة من بحـثه : ((أنّ الظهور الأول للقـصيدة واشـتهارها وانتشارها في القرن الرابع الهجري؛ فقـد نصّ على نحلها ابن دريد (ت٣٢١هـ) لتلميذه أبي علي القـالي (ت٣٥٦هـ) في معرض مدح القـالي لخلف الأحـمر وعلمه الغزير بالشعر وتمكنه منه وإعجابه به)) .

ليَ عدة ملاحظات على ذلك تتمثل فيما يأتي :

١ــ أقولُ الحقّ والحقُ أقولُ : لو اطلع د. باسـم على ديوان الشـنفرى الذي كتب مخطوطتهُ وصنعهُ العالم الراوية؛أبـو فـيد مُؤرج بـن عمـرو السدوسـي (ت١٩٥هـ)؛ لعرف أنّ اللامية كانت قـيد التداول ويتناقـلها الـرواة منذ العصـر الجاهلي إلـى عصر التدوين؛ وقد حقق الأسـتاذ الدكتور علي ناصر غالب الديوان المخطوط تحقيقا علميا ممتازا؛ وتبنتْ نشرهُ دار اليمامة في الرياض؛ في المملكة العربية السعودية سنة ١٩٩٨م؛ وتمتْ فهرسـتهُ في مكتبـة الملك فهد الوطنية؛ وقبل طباعته النهائية؛ أوكلتْ مهمة مراجعتهُ إلى أ.د عبـدالعزيز بـن ناصر المانع؛ أسـتاذ الأدب العربي الجاهلي في كلية الآداب بجامعة الملك سعود؛ وكتب مقدمتهُ الأولى شيخ المحققين المرحوم الأستاذ حـمد الجاسـر؛ الذي أكد في مقـدمته؛ ومن خلال دراساته؛ أنّ اللامية للشـنفرى؛ وقـد استشـهد في المقدمة بعدة أبيات منها؛ فضلاً عما سبق؛ فقد نسبها العالم اللغوي والنحوي ابـن جني إلى الشـنفرى في

رواية مقروءة على شيخه أبي علي الفارسي [٣]؛ ومعنى مقروءة؛ أنّها كانت مكتوبة؛ ولو كانت شفوية لقالوا : أنشدها؛ لأنّ القراءة للرواية المكتوبة؛ والإنشاد للرواية الشفوية؛ وبذلك بطُلتْ بدعة ظهورها أول مرة في القرن الرابع الهجري .

٢ـ أما قوله ((فقد نصّ على نحلها ابن دريد ...)) فابن دريد لم ينص على ذلك والرواية مفتراة عليه متجناة كاذبة؛ فابن دريد كان ممن يجلون خلفا الأحمر ويحترمون شخصه وعلمه؛ وذلك على لسان القالي نفسه فقد كان يقول ويكرر [٤]: (كنت أنا كثير التعطف للأصمعي فكنتُ أسأل أبا بكر بن دريد كثيرا عن خلف والأصمعي أيهما أعلم ؟ فيقول لي : خلف، فلما أكثرت عليه انتهرني وقال : أين الثماد من البحور) الذي يقرأ النص بتمعن وتجرد، يشعر أنّ أبا علي وعلى الرغم من معرفته بأنّ خلفا الأحمر كان أعلم من الأصمعي، إلا أنّه كان يلحّ بإصرار على إعادة السؤال على شيخه أبي بكر بن دريد، لعله يسمع جوابا مخالفا للإجابات السابقة، فيثبته ويسقط الإجابات الأخرى، ولما كان ابن دريد يمتلك عقلية علمية فذة، أحسَ أنّ القالي يريد تحريف الحقيقة، فزجره وانتهره قائلا : إنّ علم خلف الأحمر، غزير مثل البحر البعيد القرار، فيما يكون علم الأصمعي ثمادا، أي قليلاً ضحلاً قياسا إلى علم خلف الأحمر، ومن هنا نفهم التحامل الذي يحملهُ أبو علي القالي على خلف الأحمر؛ ولو على حساب تحريف الحقائق؛ علما أنّ أبا علي القالي لم يطعن على حصاد الراوية بشكل مباشر ولكنه كان يتخفى وراء قناع؛ وجعل مصدر روايته ابن دريد؛ لعله يزيد التهمة قوة وقبولاً عند الدارسين والباحثين؛ وكان ابن دريد يدرك مرامي القالي؛ لذلك كان يزجره وينهاه؛ وأرجح أنّ القالي صنع هذه الرواية بعد وفاة ابن دريد؛ إن صحت الرواية؛ ولم تكن موضوعة على القالي .

٣ـ أبو علي القالي نفسه يدحض رواية النحل ويؤكد أنّ اللامية هي للشنفرى رواية عن شيخه ابن دريد؛ وذلك في كتابه النوادر [٥] الذي كتبه بعد كتاب الأمالي؛ ومن هنا أقول إنّ رأيَ أبي علي القالي المعول عليه هو الأخير؛ وليس الأول ؛ وبذلك يكون خبر الأمالي موضوعا عليه؛ علما أنّ الأمالي هو من كتابة تلامذته؛ والنوادر كتبهُ بخط يده؛ وما يُؤخذُ من الرجل من فمه؛ وبطريق مباشر أصدقْ؛ مما يُؤخذُ من غيره؛ وبطريق غير مباشر؛ أو أنّهُ حدثتْ صحوة ضمير عند القالي في أواخر عُمره؛ فصحح ما أملاهُ سابقا؛ فنسب اللامية للشنفرى؛ ولم يقل صنعها خلف الأحمر

٤ـ قال د.باسم في الصفحة الثالثة نفسها ((ومما يعضد ذلك قول أبي رياش (ت٣٤٩هـ) : هذه القصيدة لا تصح للشنفرى وهي من الشواذ التي لا يعرف أصحابها)) . الخبر يدحض نفسه بنفسه فالذي جاء في مختارات شعراء العرب لابن الشجري في المتن أنّ القصيدة للشنفرى؛ ولكن محقق الكتاب الأستاذ علي محمد البجاوي وجد هذا الكلام مكتوبا على حاشية المخطوطة ؛ فكتبه في الهامش من باب الأمانة العلمية؛ وهو حقا لا علاقة له برأي ابن

الشجري الذي عزا القصيدة إلى الشنفرى [٦]؛ واللافت للنظر هو تطابق رواية ابن الشجري مع رواية أبي فيد مؤرج بن عمرو السدوسي؛ وهذا ما يدحض الرأي القائل أنها ظهرت في القرن الرابع الهجري .

٥ – أما أبو المنذر سلمة بن مُسلم العوتبي الصحاري؛ صاحب كتاب الأنساب؛ ((وهو كتاب مخطوط لم يحقق بعد))؛ وقف عليه د.علي ناصر غالب عند تحقيقه الديوان؛ فقد أكد الصحاري صحة نسبة اللامية للشنفرى؛ واستشهد باثني عشر بيتاً وهي الأولى منها [٧] .

ثانياً – في الصفحة الرابعة نقل الباحث عن الحافظ اليغموري أنّهُ ((روى المرزباني : قال الأصمعي: كنت بين يدي الرشيد في يوم قُرٍّ؛ إذ دخل سعيد بن سَلم؛ فقال : يا سعيد أنشدني في البرد فأنشدهُ .... فقال أريد أبلغ من هذا فأنشدتهُ :

وليلة قُرٍّ يصطلي القوسَ ربها
وأقدُحهُ اللاتي بها يتنبّلُ

فقال : يا أصمعي حسبك ما بعد هذا شيء !)) .

وعلق الباحث على ذلك قائلاً : ((والأصمعي والمرزباني في النص لا ينسبان بيت اللامية الأخير للشنفرى؛ ولكن لو كان الأصمعي واثق النسبة من اللامية أنّها للشنفرى .... لكان ذكرها واختارها في أصمعياته وكتبه ولكنه لم يفعل .))

الأصمعي وفي حضرة الرشيد العباسي؛ لا يريد أنْ تظهر روايته محدودة؛ فاتكأ على رواية خلف الأحمر؛ ولكنهُ غيَّب اسم الشاعر والراوي خوفا من الرشيد؛ لأن راوي اللامية ممن يتعارضون عقائديا مع الدولة العباسية والمناهضين لهم؛ فلا يسمح الرشيد ولا غيره لكائن من يكون؛ ذكر أسماء وأشعار من يعارضونهم؛ فضلاً عن الأصمعي نفسه يقاطع الأحمر عقائديا؛ لذلك فهو لا يروي شعره؛ ولما كان خلف الاحمر علوي الهوى؛ فهو إذن من الذين لا يسمح برواية أشعارهم؛ ورواياتهم الإخبارية ؛ والباحث فطن إلى هذه الحقيقة؛ فاستدرك على نفسه قائلاً : ((ومن المحتمل أنّ الرواية موضوعة)) وواقع الحال يقول صحيحة وليست موضوعة؛ ولكنّ التقاطع العقائدي هو السبب في تغييب اسم الشاعر والراوية .

ثالثاً – ذكر الباحث في الصفحتين الخامسة والسادسة من البحث جملة من كبار العلماء الرواة؛ ممن نقلوا لنا أشعار العرب؛ الجاهلية والإسلامية ؛ وهم جميعاً يؤكدون صحة نسبة اللامية للشنفرى وهم كل من : ((الشمشاطي في الأنوار ومحاسن الأشعار؛ وأبو أحمد العسكري في المصون في الأدب؛ وابن جني في كتبه النحوية (المنصف؛ والمحتسب)؛ وأبو هلال العسكري في كتاب الصناعتين؛ والمرزوقي في شرحه لديوان الحماسة؛ والشريف المرتضى في أماليه؛ والمعري في رسالة الغفران؛ وأبو عُبيد البكري في معجم ما استعجم؛ والقاضي التنوخي في القوافي؛ والتبريزي في شرح ديوان الحماسة؛ والزمخشري في شرحه أعجب العجب في شرح لامية العرب؛ وابن الشجري في مختارات أشعار العرب؛ وأسامة بن منقذ في المنازل والديار؛ والعكبري في شرحه للامية؛ ثم

توالت الشروح والاستشهادات بها في كتب النحو والأدب منسوبة للشنفرى؛ حتى العصر الحديث)) أقول بعد كلِّ هؤلاء العلماء الرواة؛ هل يمكن لأحد أنْ ينسب اللامية لغير الشنفرى؛ وهل كلُّ هؤلاء العلماء الرواة مغفلون حتى يقبلوا رواية قصيدة منحولة ويذيعوها بين الناس؛ بالطبع لا يقبلون ذلك؛ فهي إذن من إبداع الشنفرى وليس خلف الأحمر .

رابعاً – المستشرقون المؤيدون والمعارضون لصحة نسبة القصيدة للشنفرى : قال الباحث في الصفحة السادسة والسابعة : ((فمن المحققين لنسبتها المستشرق الألماني جورج ياكوب الذي أسماها نشيد الصحراء ... وأيد ياكوب جابريللي وبروكلمان وغيرهما))؛ و أضاف قائلاً : ((ومن المستشرقين الشاكين بنسبتها الألماني كرنكو ... وأيده على نحلها وإنكار نسبها المستشرق الفرنسي بلاشير)) المستشرقون المؤيدون هم من العلماء المنصفين؛ أما الشاكون فهم ممن المتحاملين على الإسلام ولغته العربية؛ وهدفهم الطعن في كل ما هو عربي إسلامي خدمة لمآربهم الضيقة؛ فالمستشرق الألماني تيودور نولدكه الذي كتب بالألمانية تاريخ القرآن، وحياة محمد، ودراسات في شعر العرب القدماء، قد أساء إلى القرآن الكريم وعدّهُ من بنات أفكار الرسول محمد؛ وكذلك أساء إلى رمز الإسلام وقدوة المسلمين النبي محمد (صلى عليه وآله وصحبه وسلم) لذا يجب التعامل مع أفكار كرنكو الهدامة بحذر شديد؛ فالذي يطعن بالقران ويشكك بنزوله من الله وينتقص من شخصية الرسول؛ ألا يطعن بالأدب ! فهو إذن ينفث سموم الحقد والكراهية في جسم الأدب العربي[٥]؛ أما المستشرق الفرنسي بلاشير فقد قال[٦]: ((لا يسعنا إلا مشاطرة الدكتور طه حسين حكمه القاسي على هؤلاء المخبرين تاركين جانبا تملقهم وبراعتهم التطفلية)). أراد بلاشير بالمخبرين العلماء من رواة الشعر العربي، إذن بلاشير وباعترافه هو يتفق مع د.طه حسين بالتشكيك بنزاهة العلماء من رواة الشعر العربي، وبذلك ينضم بلاشير إلى د. طه حسين في محاولاته اليائسة لنسف التراث الأدبي للعرب وإنكاره؛ ومحاولة استئصال جذوره؛ فبلاشير جيءَ به لتحقيق ما عجز عن تحقيقه سلفه السيئ الصيت مارجليوث، والعمل على بث الشك والريبة؛ فضلاً عن زعزعة ثقة القارئ العربي بتراثه العربي؛ وذلك من أجل تمزيق وحدة المجتمع العربي الإسلامي؛ فوجد كرنكو وبلاشير ضالتهما في لامية العرب فانضما لقائمة المشككين بصحتها .

فهل بعد مواقف المستشرقين المتشنجة من النبي العظيم؛ والقران الكريم؛ والتراث العربي؛ نعولُ في أحكامنا على ما يقول كرنكو وبلاشير ؟ فلبئس المسلمون نحنُ إذن .

خامساً – في الصفحات ٧ – ٩ من البحث ذكر الباحث – على نسق المستشرقين – ثلاثة من أساتذة الأدب المعاصرين؛ يرفضون صحة نسبة القصيدة للشنفرى وهم : ((مصطفى صادق الرافعي في كتابه تاريخ آداب العرب؛ ومحمد مهدي البصير في كتابه

عصر القران؛ ويوسف خليف في كتابه الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي)) فقد سار هؤلاء الأساتذة على خطى أسلافهم الرافضين لصحة نسبة القصيدة للشنفرى؛ فالرافعي حكم على القصيدة بلا حجة ودليل؛ ونحن نقول له : البينة على من ادعى ... فما هي بينتك يا رافعي ؟ أما ما قاله البصير من أنَّ ((القصيدة تسيءُ إلى سمعة العرب وتصفهم باللصوصية وقتل النساء وتيتيم الأطفال ...))؛ فالسؤال هنا موجه للجميع؛ ألم يكن العرب قبل الإسلام يعيشون في الظلمات ؟ وجاء الإسلام لينقلهم إلى النور؛ ومن تلك الظلمات الصعلكة والفتك؛ وأما قتل النساء؛ أ لم يكن العرب يئدون البنات وهو قتلها؟ ويقومون بالغارات المتبادلة فيما بينهم؛ وما يترتب عليها من قاتل ومقتول؛ وثأر وطلب للثأر؛ وما ينجم عن ذلك من أيتام وأرامل ومعوقين؛ فهل كان المجتمع العربي قبل الإسلام مثاليا ؟ فإن كان كذلك؛ فلِمَ بعث الله تعالى نبيه الكريم محمدا ليخرجهم من الظلمات إلى النور؛ وأما يوسف خليف فعذره أنه درس الشعراء الصعاليك فاجتهد ورأى؛ وهذا رأيه؛ ونحن نحترم رأيه وإن كان خاطئا .

سادساً – ذكر الباحث في الصفحات ٩ – ١١ ستة باحثين محدثين مؤيدين لصحة نسبة القصيدة للشنفرى وهم : ((د. محمد بديع شريف في تحقيقه لكتاب لامية العرب أو نشيد الصحراء؛ ود.عبدالمعين ملوحي في كتابه اللاميتان – لامية العرب ولامية العجم؛ ود. محمود العامودي في تحقيقه شرح لامية العرب للنقجواني؛ ود.يوسف اليوسف في كتابه مقالات في الشعر الجاهلي؛ ود.محمد خير الحلواني في تحقيقه لشرح اللامية للعكبري؛ ود.عبداللطيف الطائي في كتابه إشكالية الرواية والرواة)) وفاته أنْ يذكر د.علي ناصر غالب في تحقيقه لديوان الشنفرى؛ ود. عبد العزيز بن ناصر المانع في مراجعته لديوان الشنفرى المحقق؛ وشيخ المحققين المرحوم حمد جاسر في كتابته لمقدمة ديوان الشنفرى المحقق؛ فالمجموع يكون تسعة أساتذة محدثين مؤيدين؛ وثلاثة رافضين بالنسبة للعرب؛ وأما المستشرقون فهم أكثر من ثلاثة يؤيدون صحة النسبة؛ وإثنان فقط هما الرافضان؛ والحكم لأصحاب الإنصاف والعدل؛ هل الكثرة من العلماء القدامى والمحدثين فضلاً عن المستشرقين على الصواب ؟ أم القلة القليلة صاحبة الرأي الضعيف والمتذبذب؛ هم على الصواب ؟ الجواب متروك للقارئ الكريم .

سابعاً – وأما ما توصل إليه من استنتاجات؛ جاءت في الصفحات ١٢ –٥٥ لا يمكن الأطمئنان إليها وقبولها؛ لأنْ ما بُنيَ على خطأ؛ تكون نتائجه خاطئة وغير صحيحة؛وسأقف أنموذجا واحدا من استنتاجاته ليطلع القارئ الكريم على تحميل النصوص فوق طاقتها؛ ولي عنق الحقيقة لصالح غرض معين! والنموذج هو:جاء الباحث في الصفحة الثالثة عشرة بالشاهد الآتي :

وفي الأرضِ منأىً للكريمِ عن الأذى
وفيها لمن خافَ القلى مُعتـزَلُ

وعلق على البيت قائلاً: فيها معنى قوله تعالى في

المستضعفين : { ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها } (النساء : ٩٧) وقوله تعالى: {وضاقت عليكم الأرض بما رحبت }(التوبة : ٢٥)

تعليق الباحث لا ينسجم مع الشاهد؛ بل يدخل ضمن تناص الشعر الجاهلي مع القران الكريم [10]؛ وذلك لأنَّ العرب لم يكونوا وثنيين بالمعنى المطلق فهم يعرفون اللـه والرسل والديانات السابقة من مثل الحنيفية واليهودية والنصرانية؛ والشعر الجاهلي حافل بالكثير من هذه الشواهد ؛ وسأورد مثالاً واحداً على ذلك هو قول حاتم الطائي [11] :

أمَا والذي لا يعلم الغيبَ غيرُهُ

ويُحيي العظامَ البيضَ وَهيَ رَميمُ

عندما ندقق النظر في قول حاتم الطائي؛ سيتأكد لنا بما لا يقبل الشك أنَّ الرجلَ لم يكنْ مشركاً؛ ولا وثنياً؛ بل كان من الموحدين الأحناف الذين يؤمنون بالله وحده؛ لا شريك له، والأحنافُ هم بقايا دين النبي إبراهيم الخليل (عليه السلام)؛ وهم يؤمنون بأنَّهُ لا يعلم الغيبَ إلا اللـه وحده؛ وأنَّهُ هو وحدهُ يُحيي ويُميت؛ شأنهم في ذلك شأنُ أصحاب الديانات السماوية الأخرى؛ والقرآن الكريم أكدَ هذا التناص في علم الغيب مع ما قاله حاتم الطائي ؛ وصدّقهُ في قوله تعالى [12] : { عالمُ الغيْبِ فلا يُظهِرُ على غيبِه أحدا}؛ ولكن اللافت للنظر هو الشطر الثاني من قول حاتم الطائي الذي يتناص مع القرآن الكريم؛ ويتطابق معه تماماً؛ فبعد أنْ نحذفَ كلمة ((البيض)) من الشطر؛ يصبحُ آيةً كريمةً [13]:{... قالَ منْ يُحيي العظامَ وهيَ رَميمٌ }؛ فذاك التطابق المطلق يؤكد أنَّ العربَ يعرفون الديانات السماوية ويؤمنُ بها كثيرٌ منهم؛ وحاتم نفسهُ يقسمُ بالله قسما جازما، وكأنَّهُ مسلمٌ؛ سمعَ القرآنَ الكريم؛ وآمنَ بهِ؛ علماً أنَّ حاتما الطائي مات قبل الإسلام بأكثر من سبعين عاماً تقريبا؛ وهذا زُهير بن أبي سلمى شاعرُ الحكمة والسلام؛ وهو الآخر لم يدرك الإسلام؛ يؤكد صحة ما قالهُ حاتم الطائي؛ ويؤمن به؛ وذلك بعدَ ما مرَّ على شجرةِ عضاة مُخضرة؛ وكان قد رآها قبل ذلك يابسةً ؛ فخاطبها قائلاً [14]: (لولا أنْ تسبَني العربُ؛ لآمنتُ أنْ الذي أحياكِ بعدَ يبْسٍ؛ سيُحْيي العظامَ وهيَ رميمُ)؛ والسين التي جاءت في ((سيُحْيي)) هي لما يُستقبل من الزمان؛ سواء كان قريباً أم بعيدا؛ ومنها نفهم أنَّ زُهيرَ بن أبي سلمى يؤمنُ بالبعثِ والنشور وإحياء الموتى والحساب؛ ومصداق ذلك قوله :

يُؤخرْ فيُوضعْ في كتابٍ فيُدخرْ

ليومِ الحسابِ أوْ يُعجلْ فينقمِ

وبذلك وجدنا حاتما الطائي؛ ومن بعده زُهير بن أبي سلمى يؤمنان بأنَّ اللـه سبحانه وتعالى؛ يُحيي الموتى يوم الحساب؛ وقد أكد زُهير هذه الرؤية مرة أخرى في قوله مخاطبا بنيه [15]: (لولا أنْ تفندون؛ لسجدتُ للذي يُحيي الأرضَ بعد موتِها) .

ثامناً – بعد كل ما جاء في البحث أقول لأخي وزميلي د.باسم ادريس إنَّ الدراسات الإنسانية تقبل اختلاف الآراء وتقاطعها؛ ولكل امرئ ما اجتهد؛ وهذا لا يفسد للأخوة الصحيحة مودة ومحبة .

الهوامش

١ -الأغاني : ٩٢/٦
٢ -مجلة آفاق الثقافة والتراث الإماراتية؛ العدد ٤٩ لسنة ٢٠٠٥م .
٣ -ديوان الشنفرى : ٣١-٣٣
٤ -معجم الأدباء : ١٨ / ١٢٨
٥ -نوادر أبي علي القالي : ٢٠٣ - ٢٠٦
٦ -مختارات أشعار العرب : ٧٢
٧ -مخطوطة كتاب الأنساب للصحاري
٨ -الأعلام : ٢ / ٧٩
٩ - تاريخ الأدب العربي (بلاشير) : ١ / ١٣٠
١٠ - تناص الشعر الجاهلي مع القران الكريم؛ بحث ألقيتُهُ في المؤتمر العلمي لكلية الآداب - جامعة تكريت لسنة ٢٠١١م .
١١ - ديوان حاتم الطائي : ١٨٤
١٢ - سورة الجن : الآية ٢٦
١٣ - سورة يس : الآية ٧٨
١٤ -بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب : ٢٧٧/٢
١٥ - جمهرة أشعار العرب : ١ /٧٠

المصادر والمراجع

-القرآن الكريم .
-الأعلام - خير الدين الزركلي؛ ط٣؛ ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .
الأغاني - لأبي الفرج الأصفهاني ؛ مصورة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة العربية العامة للتأليف والترجمة والطبع والنشر، القاهرة.
ـ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب - محمود شكري الآلوسي؛ شرح وتصحيح محمد بهجة الأثري؛ ط٣؛ (د.ت؛ د. م) .
ـ تاريخ الأدب العربي - د.ريجيس بلاشير. تعريب د.إبراهيم الكيلاني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ت .
ـ تناص الشعر الجاهلي مع القران الكريم؛ بحث ألقيته في المؤتمر العلمي لكلية الآداب - جامعة تكريت لسنة ٢٠١١م؛ وسينشر ضمن بحوث المؤتمر إن شاء الله
ـ جمهرة أشعار العرب - لأبي زيد القرشي؛ شرحه وقدم له علي فاعور؛ ط١؛ دار الكتب العلمية؛ ١٩٨٦م؛ بيروت
ـ ديوان شعر حاتم بن عبدالله الطائي وأخباره - صنعة صالح بن مدرك الطائي، رواية هشام بن محمد الكلبي، دراسة وتحقيق د. عادل سليمان جمال، مطبعة المدني، القاهرة، د.ت .
ـ ديوان الشنفرى الأزدي - برواية أبي فيد مؤرج بن عمرو السدوسي، تحقيق د.علي ناصر غالب، نشرته مجلة العرب السعودية، ط١، ١٩٩٨م، الرياض .
-مجلة آفاق الثقافة والتراث - دولة الإمارات العربية؛ العدد ٤٩ لسنة ٢٠٠٥م.
ـ مختارات أشعار العرب - ابن الشجري، تحقيق محمد علي البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة .
ـ مخطوطة كتاب الأنساب - لأبي المنذر سلمة بن مسلم العَوتبي الصحاري؛ وهي مخطوطة دار الكتب المصرية تحت الرقم ١٦٤٢ تاريخ؛ نقلاً عن ديوان الشنفرى تحقيق د. علي ناصر غالب .
ـ معجم الأدباء والمؤلفين - لياقوت الحموي، دار الفكر، ط٣، ١٩٨٠م، القاهرة.
ـ النوادر - لأبي علي القالي؛ ط٢، بيروت، ١٩٨٧م

المورد
العدد الاول
لسنة/٢٠١٣

تعقيب على تحقيق كتاب شرح
تصريف العزي

د. احمد ابراهيم صاعد
باحث / العراق



بين يدي الكتاب

ورد عنوان الكتاب في المخطوطة الايرانية (شرح التصريف) وورد في مطبوعة المحقق (شرح مختصر التصفيف العزي في فن الصرف) واسم المؤلف في المخطوط والمطبوع هو مسعود بن عمر سعد الدين التفتازاني يتكون الكتاب في طبعته الثانية من:-

اولا- مقدمة المحقق من ص٧-ص١٧، وتتالف المقدمة من نبذة عن حياة الزنجاني مؤلف تصريف العزي ومؤلفاته هي:

أ- الهادي وشرحه في التصريف
ب- تصحيح المقياس في تفسير القسطاس
ج- تصريف العزي، وهو من اهم كتبه
ثانيا- بيان من اين جاءت كلمة (العزي) والتعريف بالتصريف .
ثالثا- بـيان من سبقـــه من المؤلفين في التصريف، فاشار الى (تصريف المازني) وشرحه لابن جني (ت ٣٩٢هـ). وذكر كتاب (الملوكي في التصريف) لابن جني، وشرحه لابن يعيش (ت٦٤٣هـ) .
رابعا- بيان اهمية التصريف. بـانه من اجل العلوم العربية واشرفها ، وحاجة النحوي اليه ضرورية.
ثم بين اهمية الشرح، انلقي شهرة واسعة، واقبال الطلاب عليه وكذلك اقبـل عليه العلماء بالشـــرح والتحليل لالفاظه وتراكيبه .
خامسا- نشر الكتاب: بين ان الكتاب ترجم الى اللغة اللاتينية وطبع في روما ١٦١٠م ، واحال القارئ الى نسـخة المطبـوعة والمخطوطة الى فهرس مكتبـة الازهر المجلد الرابع ص٦٥وص٦٦
سادسا- شروح تصريف العزي: بين سبـب الشـروح بقـــوله: (ولما كان كتاب تصريف العزي موجزا في تأليفه ، مختصرا في الفاظه مضغوطا في تراكيبــه ، محكما في عباراته احـتاج الى من يبسـط عبـاراته ، ويحلل تراكيبه، ويشرح ما غمض من الفاظه) ص ١٠
ثم احال الى حاجي خليفة في بـيان الشـروح التي وضعت لهذا المختصر. وذكر منها سبعة شروح:
اولا- شـرح سـراج الدين محـمد بـن عمر الحلبـي (ت ٨٥٠هـ)
ثانيا- شرح عماد الدين ابـي الفداء اسـماعيل بـن ابراهيم بن جماعة (ت ٨٦١هـ)
ثالثا- المولى مصطفى بن يوسف (٨٩٣هـ)
رابـعا- شرح شمس الدين محمد بن الشيخ زين الدين قاسم بن علي النفري (ت٩١٨هـ)
خامسا- شرح الشيخ محمد الشربيني (ت٩٧٣هـ)
سادسا- شرح احمد محمد المعروف بابن الملا الحلبي المتوفي في حدود (٩٩٠هـ)
سابـعا- شـرح العلامة سـعد الدين محـمود عمر التفتازاني
بين ولادة ابن عمر قال: (ولد سـنه اثنتي عشـرة وسبعمائة) ثم بين شيوخه وشهرته ومؤلفاته ووفاته (سنة احدى وتسعين وسبعمائة) واهمية الشرح، بأنه من اجل الشروح .
ثم بين الحواشي والتعليقات على شرح مسعود بن عمر ذكر منها اربع حواش وهي :
أ- حاشية السيوطي (ت٩١١هـ)
ب- حاشية شـمس الدين محـمد بـن علي الحلبـي (ت٩٣٣هـ)
ج- حاشـية الشـيخ ناصر الدين ابـي عبـد الله محـمد (ت٩٥٨هـ)
د- حاشـية الشــيخ ناصر الدين ابــراهيم اللقــاني (ت١٠٤١هـ)
ثامنا- مخطوطات الشرح
ذكر عشر مخطوطات

تاسعا. طبعات الشرح، ذكر ست طبعات للكتاب

عاشرا. النسخة المطبوعة التي رجع اليها

هي النسخة المطبوعة سنة ١٩٥٤م، طبعة الحلبي وهي النسخة التي وقعت في يده كما قال وهي الطبعة الاخيرة .

الحادي عشر. عمله في التحقيق :

ذكر انه (قابل نصوص النسخة المطبوعة .. مع ثلاث نسخ مخطوطة!

١ ــ النسخة الظاهرية .وقد صورت من المكتبة الظاهرية

٢ــ نسخة اخرى صورت من بغداد .

٣ ــ نسخة مخطوطة حصل عليها من ايران .

ولم يثبت الخلاف بين النسخ معللا ذلك بقوله: (لانه عمل غير مثمر في مجال هذا الكتاب صغير الحجم من الناحية، ولان كتب الصرف تقوم على الصيغ ، وهي صيغ معروفة ومألوفة ولاتحتاج الى بيان اوجه الخلاف بين النسخ من الناحية الاخرى مكتفيا بسلامة النص وكمال الضبط) ص ١٦

واكتفى بتفسير الكلمات وتخريج الشواهد وتصويب تحريفات الصيغ والالفاظ، ترقيم الآيات القرآنية والعناية بعلامات الترقيم والاحتفاظ بالاصل

ثانيا. مقدمة الكتاب

ثالثا. موضوعات الكتاب

ويتالف الكتاب من (٢١١) صفحة ماعدا الفهارس .

اما المحقق فهو أ- د .عبد العال سالم مكرم سبق ان حقق من امهات الكتب منها:شرح الرضي على كافية ابن الحاجب ،وكتاب همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ،وكتاب الاشباه والنظائر في النحو للسيوطي وكتاب الدرر الدوامع على همع الهوامع مع شرح جمع الجوامع للشنقيطي .

فالمحقق استاذ متمرس في فن التحقيق، ولكني وجدت تحقيقه لكتاب شرح التصريف العزي يشوبه كثير من النقص وقد تبين ذلك من خلال الموازنة بين مطبوعته والمخطوطة الايرانية .

ومن الامثلة على ذلك:

١ ـ في اوجه الاعراب: ورد في المطبوع (حمد) وورد في المخطوط (حمدا) وانت تعلم الفرق بين النصب والرفع

٢ ـ من جهة الزيادة والنقصان: ورد في المطبوع (وبعد) وورد في المخطوط (اما بعد)

٣ ـ من اوجه الحذف، وردت جملة ساقطة او عبارة او كلمة ومن ذلك: ورد في المخطوط: (على مابين في النحو) وقد سقطت هذه العبارة من المطبوع.

وسيجد الدارس الكثير من هذه الامثلة في الموازنة.

وساتبع ذلك بدراسة وتحليل لما وقع في المخطوط والمطبوع ان شاء الله.

ما ورد في المطبوع:	ما ورد في المخطوط:
اروي/٢٣	اروى/١٢٠
حمد اللـــه/٢٣	حمدا لله/١٢٠
سبحانه وتعالى/٢٣	تعالى سبحانه/١٢٠
المتوافرة المتظاهرة /٢٣	المتوافرة المتكاثرة/١٢٠
وبعد/٢٣	اما بعد/١٢٠
الفاصل العالم العامل/٢٣	الفاصل العالم الكامل/١٢٠
رحمة اللـــه عليه/٢٣	رحمه الله/١٢٠
ويستخرج سر حلوه من حامضه/٢٤	ويستخرج سر حلوه وحامضه/١٢٠
بعون اللـــه القادر/٢٤	بعون اللـــه الملك القادر/١٢٠
مختصرا/٢٤	منحصرا/١٢١
وكفي/٢٤	وكفى بها/١٢١
بدا المصنف رحمة اللـــه/٢٤	بدا المصنف/١٢١
الموضوعة للمعاني/٢٥	الموضوعة/١٢١
لغا/٢٥	لغى/١٢١
برة وبرى/٢٥	برة وبرى وقد جاء لغات ايضا/١٢١
وهي الكلم/٢٥	وهي الكلمة/١٢١
باعتبار الهيئات التي تعرض لها/٢٥	باعتبار هيأة تعرض لها/١٢١
باختلاف الهيئات/٢٥	باختلاف الهيئة/١٢١
حصول معان/٢٥	حصول معاني/١٢١
ليحصل المعنى المقصود/٢٦	ليحصل المعاني المقصودة/١٢١
النقل من موضوع الى موضوع آخر وحوله فتحول/٢٦	النقل من موضع الى اخر حولته فتحول/١٢١
يدور معه في الاعلال وجود في: يعد عدة وعدا في وجل يوجل وجلا او مداريته تدل على اصالته/٢٧	العبارة ساقطة/١٢١
والجواب بانه لا يلزم من فرعيته في الاعلال/٢٧	اجيب عنه بانه لايلزم من فرعيته في الاعلال/١٢٢
المصدر المجرد/٢٧	المصدر الثلاثي المجرد/١٢٢

في حروف ومعناه/٢٧
كالامر واسم الفاعل/٢٧
وهذا اقرب/٢٨
فان قيل/٢٨
العبارة ساقطة/٢٨
بحثه في بيان الفعل/٢٨
لئلا يؤدي الخماسي الى الثقل والثاني عن الضعف عن
قبول ما يتطرق اليه من التغيرات/٢٨
من غير نظر الى كونه على ثلاثة احف او اربعة /٢٩
والثاني المزيد فيه/٢٩
لو خلت اصوله /٢٩
فصارت الاقسام /٢٩
وسوس توسوس/٢٩
المضاعف من الثلاثي المجرد والمزيد فيه ما كانت
عينه ولامه من حيز واحد ومن الرباعي:
ما كانت فاؤه ولامه الأولى من جنس واحد وكذلك عينه
ولامة الثانية/٣٠
لكن ينبغي ان يستثنى الزايد الذي للتضعيف اوللالحاق
والى ان الميزان هو الفاء والعين واللام،لانه اعم
الافعال معنى /٣٠
واللام مفتوحة /٣١
ان شاء الله/٣١
والعين لاتكون الامتحركة/٣١
وهذه جارية في كل اسم وفعل/ ٣١
واشترط هذا/٣٢
ليقاوم حرف الحلق فتحة العين /٣٢

بحروه ومعناه /١٢٢
كالامر واسم الفاعل والنهي /١٢٢
وهذا اقرب الى الضبط/١٢٢
فان قلت/١٢٢
على ما بين في النحو /١٢٢
بحثه عن الفعل /١٢٢
لئلا يؤدي الخماسي الى الثقل والثاني عن الضعف
عند قبول ما يتطرق اليه من التغيرات الكثيرة /١٢٢
من غير نظر الى كونه ثلاثه احرف او اربعة /١٢٢
والثاني مزيد فيه /١٢٢
ان خلت اصوله /١٢٢
فصار الاقسام /١٢٢
العبارة ساقطة /١٢٢
العبارة ساقطة/١٢٣

لكن ينبغي ان يستثنى الزائد للتضعيف نحو فرخ او
للألحاق نحو جلبب والى ان الميزان هو الفاء والعين
واللام اعني فعل لانه اعم من الافعال معنى /١٢٣
واللام مفتوح/١٢٣
العبارة ساقطة/١٢٣
والعين لايكون الامتحركا/١٢٣
وهذه القاعدة جارية في كل اسم وفعل /١٢٣
وانما اشترط هذا /١٢٣
لتقاوم ثقل حروف الحلق فتحته العين /١٢٣

لايقال: ان ابي يابي لامه حرف حلق لهذا فتح عينه لانا نقول: لانسلم انها من حروف الحلق ولئنا سلمنا من انها حروف الحلق لكن لا يجوز ان يكون الفتح لاجلها للزم الدور ،لان وجود الالف موقوف على الفتح ،لانه في الاصل يائي قبلت الياء الفا لتحركها وانفتاح ما قبلها فلو كان الفتح بسببها لزم الدور لتوقف الفتح عليها وتوقفها عليه ، فهو مفتوح العين في الاصل /٣٣

قلى يقلي/٣٣

وبقع يبقى بالفتح لغة طيء... وهذا قياس عندهم/٣٣

ساقطة/ ٣٤

ساقطة/ ٣٤

ويكون لافعال الطبائع/٣٤

واما الرباعي المجرد فهو باب واحد: فعلل.. /٣٥

كدحرج يدحرج يقال: دحرج فلان الشيء- اذا دوره.دحرجة، ودحراجا/٣٥

وسكنوا العين/٣٥

ويلحق به نحو ../٣٥

وبيطر وهرول وشريف وبيقر /٣٥

وهو للتعدية/٣٦

ولغير ذلك /٣٧

وفاعل بزيادة الالف نحو قاتل مقاتلة وقتالا وقيتالا ومن قال:- كذب كذابا قال: قاتل قيتالا وروي ما ريته مراء وقاتلته قتالا/٣٧

ساقطة/ ٣٨

والثاني: اي والقسم الثاني من الاقسام الثلاثة /٣٨

تنازعناه/ ٣٩

ولايقال ان ابى يابى، لانه حرف الحلق لكن لا يجوز الفتح لاجلها، للزوم الدور ولان وجود الالف موقوف على الفتح ،لانه في الاصل يائي، قبلت الفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، فلو كانت الفتح بسببها لزم الدور ولتوقف الفتح عليها وتوقفها عليه ،فهو مفتوح العين في الاصل /١٢٤

غلى يغلي /١٢٤

وبقى يبقى لغة طيء... وهذا قياس عندهم مطرد/١٢٤

ووسيع يسع / ١٢٤

نحو كرم يكرم/١٢٤

فيكون لافعال الطبائع /١٢٤

واما الرباعي المجرد فهو فعلل كدحرج فلان الشيء - اي دوره -دحرجة ودحراجا /١٢٤

فسكنوا العين /١٢٤

ويلحق به في نحو /١٢٤

وبيطر وبيقر وهرول وشريف/١٢٤

وهو للتعدي/١٢٤

ولغير ذلك نحو: قدم بمعنى: تقدم /١٢٥

وفاعل بزيادة الالف نحو قاتل مقاتلة وقتالا، ومن قال:كذب كذابا، قال قيتالا وروي ما رأيته مراء وقاتلته قتالا/١٢٥

واقع وقع/١٢٥

والقسم الثاني من الاقسام الثلاثة /١٢٥

تنازعته/١٢٥

نحو احمر يحمر احمرارا /٣٩	احمر احمرارا /١٢٥
يحرنجم احرنجاما /٤٣	احرنجاما/١٢٦
وقدم الماضي لان زمان الماضي قبل زمان المستقبل والحال؛ ولانه اصل بالنسبة الى المضارع ،لانه يحصل بالزيادة على الماضي، ولاشك في فرعية ماحصل بالزيادة، واصالة ما حصل هو منه واشتق منه/٤٧	وقدم الماضي؛ لان زمان قبل زمان المستقبل والحال، ولانه اصل بالنسبة الى المضارع لانه يحصل بالزيادة على الماضي، ولاشك في فرعية ماحصل بالزيادة، واصالة ما حصل هو منه/١٢٧
فان لم نقلت /٤٧	فان لم تنقل/١٢٧
المستفيد /٤٩	المبتدىءالمستفيد /١٢٨
للمخاطبة الواحدة /٤٩	للواحد المخاطب /١٢٨
فلو ان الاطباء كان حولي وكان من الاباء الشفاء /٥٠	فلو ان الاطباء كان حولي فكان مع الاطباء الشفاء /١٢٨
لان الضم /٥٠	لان الضم اقوى الحركات /١٢٨
والمتكلم مقدم فاخذه/٥٠	والمتكلم مقدم في الرتبة لانه اعرف فاخذه /١٢٨
افعل وفعل، وفاعل وفعلل وتفعلل وافتعل وافعنلل واستفعل وافعلل /٥١	افعل: فاعل فعل فعلل تفعلل وافتعلل انفعل استفعل وافعلل /١٢٩
نحو: اقشعر/اقشعراواقشعرواقشعرت اقشعرتااقشعررن اقشعررت اقشعررتما اقشعرتم اقشعررت اقشروررتما اقشعروتن اقشعرو اقشعررنا/٥١	نحو: اقشعر اقشعرا اقشعروا /١٢٩
وافعوعل نحو: اعشوشب اعشوبنا اعشوشبوا اعشوشبت اعشوشبتا اعشوشبن الى اخره /٥١	نحو: اعشوشب الخ/١٢٩
لانه لما ذكر من المثال واحدا /٥١	لانه لما ذكر واحدا /١٢٩
فالفهم الذكي يدرك بنظر واحد /٥١	فالفهم الذكي يدرك بالنظر الواحد /١٢٩
ويقال لها الالف/٥١	ويقال له الالف /١٢٩
فان الغرض المهم /٥٢	فان غرض المهم /١٢٩
مضمومة /٥٣	مضموما /١٢٩
وجاء فزدله بسكون للزاي والاصل قصد له اسكن	وجاء فزدله بسكون الزاء والاصل فصدله اسكن الصاد

الصاد وابدل زايا /٥٤	وابدل بالزاء/١٣٠
جن شل زكم حم جبل قند عل وعك /٥٥	جن سل زكم حم قيد عل /١٣٠
في موضع التفخيم /٥٦	في موضع التعظيم والتفخيم /١٣٠
ومثنى ومجموعا /٥٦	او مثنى او مجموعا /١٣٠
في هذه الامثلة /٥٦	في هذه الامثلة الثلاثة/ ١٣٠
نحو: تنصرين تنصران تنصرن /٥٦	ساقطة /١٣٠
لكثرة دورها /٥٦	لكثرة دورانها /١٣٠
اما بنفسها /٥٦	اما بانفسها /١٣٠
او بعضها /٥٦	او بابعاضها /١٣٠
والهمزة ايظا مخرجها مقدم على مخرج غيرها لكونها	والهمزة ايضا مخرجها مقـدم على مخرجيهما لكونها
من اقصى الحلق /٥٧	من اقصى الحلق /١٣١
وووجل /٥٧	ووجل /١٣١
زيدا وعمرا /٥٨	زيدا وعمرا او خالدا او غيرهم /١٣١
والحكمة في ذلك للعرف لاغير /٥٨	والحكم في ذلك هو العرف لاغير /١٣١
كزازة /٥٨	حزازا /١٣١
منقوص/٥٨	منقوصة /١٣١
ينصر ينصران ينصرون تنصر تنصران ينصرن تنصر تنصران تنصرون تنصرين تنصران تنصـرن انصـر تنصر /٦٢	ينصر ينصران ينصرون /١٣٢
فان تزجران يا ابن عفان انزجروان تدعاني احم عرضا	فان تزجران يا ابـن عفان انزجر فان تدعيان احـم
ممنعا /٦٢	عرضا ممنعا /١٣٢
ساقطة /٦٢	ويتدحرج /١٣٢ /ويجلوذ/١٣٢
ويتدحرج /٦٢	ساقطة /١٣٢
ادنى لب وتمييز /٦٢	ادنى تامل وتمييز /١٣٢
ابقي عليه /٦٣	بقي عليه /١٣٣
يكرم ويفرح ويقاتل ويستخرج /٦٣	يكرم يقاتل ،يفرح ،يستخرج /١٣٣

يفعل يفعلل يفعال /٦٣

يقدر الاصل وهو يفعلل ويفعلل ويفعالل /٦٣

وام يذكر المنصف غير المعتدي/٦٣

اذا صلح قبلها كي/٦٣

لاينصرون /٦٣

رجح جانب الفعل /٦٤

لم ينصره، لم ينصرا، لم ينصروا، تنصره، لم تنصرا، لم تنصروا لم تنصر لم تنصرا لم تنصروا لم تنصري لـم تنصرا لم تنصرن لم انصر لم تنصر /٦٥

والبواقي فرع عليها /٦٥

ان يقول من الرفع الى النصب /٦٥

لن ينصروا الى لن انصر لن تنصر /٦٥

كقوله عليه السلام /٦٧

اي: لتفد /٦٨

لينصر لينصرا لينصروا لتنصر لتنصرا لتنصرن /٦٨

وفي المبـــني للمجهول لتنصر انت لتنصرا لتنصروا لتنصري لتنصرا لتنصرن لانصر لننصر وقــس على هذا: ليضرب وليعلم وليدخل وليدحـــرج وغيرها من نحو: ليكرم وليقاتل وليفرح ولينكسر وليتباعد وليقطع وليجتمع الى اخر الامثلة على قياس المجزوم /٦٨

ونقـيضها من جهة ان اللام لطلب الفعل وهي لطلب ترك فنقول في نهي الغائب: لاتنصر لاينصرا لاينصروا لاينصرن وفي نهي الحـــــاضر: لاتنصر لاتنصرا لاتنصروا لاتنصري لاتنصـرا لاتنصـروا لاتنصـري لاتنصرا لاتنصرن وهكذا قياس سائر الامثلة من نحـو

يفعل يفعال ،يفعلل /١٣٣

بتقدير الاصل وهو يفعلل ويفعالل ويفعلال بفتح ما قبل الاخر /١٣٣

ولم يذكر المصنف غير المتعدي /١٣٣

اذا صلح ما قبلها 'كي' /١٣٣

ساقطة /١٣٣

فرجح جانب الفعل /١٣٣

لم ينصر لم ينصرا لم ينصروا /١٣٣

والبواقي فرع عليه /١٣٣

ان يقول من الرفع النصب/١٣٤

لن ينصروا /١٣٤

كقول محمد صلى اللــه عليه وسلم /١٣٤

اي: لتفدو نفسك /١٣٤

لينصر لينصرا لينصروا /١٣٤

وفي المجهول: لتنصر لتنصرا لينصرن وكذلك ليضرب وليعلم وليدحرج وغيرها نحو: ليكرم وليقاتل وليكسر وليتباعد وليقطع وليجمع وليفرح الى اخر الامثلة على قياس المجزوم /١٣٤

او نقـيضها من جهة ان اللام لطلب الفعل وهي لطلب تركه، ونقـــول في نهي الغائب: لاينصر لاينصرا لاينصروا الخ وفي النهي الحـاضر: لاتنصر لاتنصرا لاتنصروا، وهكذا قـياس سـائر الامثلة من نحـو: لايضرب ولايعلم ولا يدحـرج الى غير ذلك كما مر في

لايضرب لايعلم لايدحرج الى غير ذلك /٦٨	المجزوم.
كما مر في الجوازم وقد جاء في المتكلم قليلا كلام الامر/ ٦٩	وقد جاء في المتكم قليلا كلام الامر /١٣٥
سمي بذلك /٦٩	يسمى بذلك /١٣٥
واما اجزاؤه فجرى المجزوم /٧٠	واما الاجراء مجرى المجزوم /١٣٥
محذوف نون جماعة المؤنث /٧٠	لم يحذف نون الجماعة المؤنث /١٣٥
وفي هذا اللفظ كزازة /٧٠	وفي هذا اللفظ حزازة /١٣٥
في موضع التفخيم /٧٠	في موضع التعظيم والتفخيم /١٣٥
مجوزما /٧١	مجزوما /١٣٥
فانه اهل لان يؤكرما /٧٢	فانه اهل لان يؤكرما شيخا على كرسيه معما /١٣٧
والبحر يضطرب ،اي يموج بعضه بعضا /٧٤	يقال: البحر يضطرب، اي يموج بعضها بعضا/١٣٧
اي: يعم الثقيلة والخفيفة /٧٩	اي لايعم الثقيلة والخفيفة /١٣٨
حروف اللين اعم من حروف المد /٨٢	لان حروف اللين اعم من حروف المد /١٣٩
كما تقدم في ابى يابى /٨٣	كما تقدم في دخل يدخل /١٣٩
من حيث اجاز /٨٣	من حيث ان اجاز /١٣٩
لطيف /٨٤	لطيف دقيق /١٣٩
ثقلت الكلمة فيه واستطالت /٨٤	ثقلت الكلمة واستطالت /١٤٠
لانه في كلمتين الفعل ونون التاكيد /٨٤	لانه يكون في الكلمتين والفعل ونون التاكيد /١٤٠
لكونه اخاه /٨٥	لكونه اخته /١٤٠
منصور، منصوران، منصورون، منصورة، منصورتان، منصورات، مناصر /٨٨	منصور، منصوران، منصورون /١٤١
الصفة المشبهة باسم الفاعل /٨٩	الصفة المشبة اسم الفاعل /١٤١
الذي يتعدى بحرف الجر لااسم المفعول /٨٩	الذي يتعدى بحرف الجر الاسم المفعول مطرد/١٤١
وفعيل قد يجيء بمعى الفاعل كالرحيم بمعنى الراحم للمبالغة /٨٩	وفعيل قد يجيء بمعنى الفاعل كالرحيم بمعنى الراحم مع المبالغة /١٤٢
اسهب، اي: اطنب /٩٠	اشهب، اي: اطنب /١٤٢

كمحاب، ومحاب /٩٠
ومنجاب،اي:منقطع، في اسم الفاعل/ ومنجاب عنه في اسم المفعول /٩٠
فان لفظ اسم الفاعل والمفعول في هذه الامثلة مستو/٩٠
فلما زالت الحركة /٩٠
وكون حروفه كحروف الصحيح /٩١
بقيت مفتوحة على حالها /٩٤
وهذه اللغة من شواذ التخفيف /٩٥
وجعل من غير السالم مثلها /٩٦
كما يحقان /٩٦
لا يلحقان حروفه الاصلية /٩٦
ادخلته في فيه /٩٦
ادغمت الحرف /٩٧
واعتد يعتد وانقد ينقد /٩٨
من باب الافعلال /٩٨
وليس من المضاعف/٩٨
وتماد يتماد /٩٩
فان اكثر المتحققين /٩٩
وخالفهم الاخفش وقس على هذا والباقي /١٠١
كما ياتي ان شاء اللـــه /١٠١

وسكن ما قبلها دلالة على ذلك /١٠١
فلو حرك لزال الغرض /١٠١
ولفظ المصنف رحمه الله/١٠٢
لا يندرج في لفظ الواحد الواحدة فهو في حكم المستثنى /١٠٢

كمحاب، ومتحاب /١٤٢
ومنجاب، اي: منقطع، منكشــف، في اســم الفاعل، ومنجاب عنه في اسم المفعول /١٤٢
فان لفظ اسم الفاعل في هذه الامثلة مستويان /١٤٢
فلما زال الحركة /١٤٢
وكون حروفه حروف الصحيح/١٤٢
بقيت مفتوحة بحالها /١٤٣
وهذا من الشواذ للتخفيف /١٤٣
وجعل من غير سالم مثلها /١٤٤
كما يلحقان /١٤٤
لا يلحقان حروف الاصلية /١٤٤
ادخلت في فيه /١٤٤
ادغمت الحروف /١٤٤
وانقد ينقد واعتد يعتد /١٤٤
من باب الافعال /١٤٤
ليس من المضاعف /١٤٤
وتمود يتماد /١٤٥
فان المحققين /١٤٥
وخالفهم الاخفش يقــول هذه الياء للخطاب وفا عليها مستتر، وقس على هذه البواقي /١٤٥
كما ياتي /١٤٥
وسكون ماقبلها دالة على ذلك /١٤٦
فلو حرك لزال ذلك الغرض /١٤٦
ولفظ المصنف/١٤٦
فهو في حكم المثنى /١٤٦

احواوى يحواوي: اذا اسمرت شفته/١٠٢

ولا تنس ما تقــدم من انه يجب اذا اتصل بـــالفعل الف

الضمير او واوه او ياؤه/١٠٣

ممتنع في الحجازيين/١٠٤

رده بـــالضم على الافصح روي روده بالكســـــر، وهو

ضعيف/١٠٤

فليعتبره الناظر/١٠٤

فصل في المعتل/١٠٥

والامر عد والنهي لاتعد في امر المخاطب بحذف الواو

/١٠٥

ويمكن ان يدفع بالغاية/١١٠

يكسرون جميع حروف المضارعة/١١١

والأمر منه ايجل/١١١

فان قلت: كسر العين مع حرف الحــلق كثير في الكلام

/١١٢

قال/١١٢

فاجاب بقوله/١١٢

بشهادة الوجدان/١١٥

حمل جار الله/١١٥

وايتصلت بمثل ضوء الفرقد/١١٦

موقف على النقل منهم/١١٦

وحينئذ يلزم تغير القاعدة والله اعلم/١١٧

ويقال له الاجوف لخلو ما هو له كالجوف له من الصحة

/١١٧

احواوي يحواوي/ ١٤٦

ولاتنس ما تقدم انه يجب الادغام اذا اتصل بالفعل الف

الضمير او واوه او ياؤه/١٤٦

ممتنع عند الحجازيين/١٤٦

ورادها بالضم على الافصح وروي ردها بالكسر، وهو

ضعيف/١٤٧

فليعتبره الناظر اليه/١٤٧

فصل المعتل/١٤٧

عدفي امر المخاطب يحذف الواو/١٤٨

ويمكن ان يدفع بالعناية/١٤٩

يكسرون جميع حرف المضارعة/١٤٩

ايجل امر من توجل والاصل اوجل بكسر الهمزة/١٤٩

فان قلت: كسرة العين مع حروف الحلق كثيرة/١٥٠

وقال/١٥٠

فاجاب عنه بقوله/١٥٠

بشهادة الذوق والوجدان/١٥٠

حمل جار اللـــه العلامة/١٥١

قامت بـــه تنشـــد كل منشـــد وايتصلت بـــمثل ضوء

الفرقد/١٥١

موقوف على النقل منهم والتامل منك/١٥١

وحـــينئذ يلزم تغييران وتغيير الكلمة من وصفها جدا

واللـــه اعلم/١٥١

ويقـــــــال له الاجوف لخلو ما هو كالجوف له من

الصحيحة/١٥١

وان كان حجملة فعلية /١١٧
تقول: صان، صائل، صائوا، صائت صائتا صن/١٢٠
والاصل: صونن نقل فعل الواوي الى فعل مضموم العين ١٢٠/
وكذلك بقـية: صنت صنتما صنتم صنت صنتما صنتن صنت صنتا /١٢٠
بالخفيفة صونن/١٢٣
اذا لم تكن الحروف التي قبل ضمير الفاعل /١٢٤
ثم حذفت لالتقاء الساكنين /١٢٦
وعوضت عنها تاء /١٢٦
لم يعلوا نحو: عور ،وسود من الالوان والعيون /١٢٧
كما لم يعلوا اعور واسود /١٢٧
واحوش، واطول، واحول /١٢٧
وعند دخول الجازم اذا سكن ما بعده ونحو ذلك /١٣٠
اجيبا واجيبوا /١٣٠
لا حاجة لاعادته /١٣٠
لالتقاء الساكنين من الالف والتنوين /١٣٦
والمنقلبة عن الياء تكون بصورة الياء فيها فرقا بـينها
وبين المنقلبة من الواو /١٣٦
احترازا من نحو /١٣٦
احترازا عن نحو /١٣٧
واما في نحو ارضين /١٣٧
اعتمادا على امثلته /١٣٧
واسم المفعول منه كالمعطي ايضا كذلك ولما ذكرنا من ان الالف في الجميع منقلبة عن الياء /١٣٨
واوا كان اللام ام ياء /١٣٨

وان كانت جملة /١٥٢
صان صانا صانوا /١٥٢
الاصل: صون ،نقل فعل مفتوح العين الواوي الى فعل مضموم العين /١٥٢
وكذلك بعينه: صنت صنتما /١٥٣
هذه العبارة ساقطة /١٥٤
اذا لم يكن الحرف التي قبل ضمير الفاعل /١٥٤
ثم حذفت الالف لالتقاء الساكنين /١٥٥
فعوضت منها تاء /١٥٥

لم يعلوا نحو: اعور واسود من الالوان والعيون /١٥٥
كما لم يعلوا عور وسود /١٥٥
واحوشت واطولت واحولت /١٥٥
وعند دخول الجازم ،وحذف العين اذا سكن ما بعده /١٥٦
اجيبا واجبن /١٥٦
لاحاجة الى اعادته /١٥٦
لالتقاء الساكنين بين الالف والتنوين /١٥٨
المنقلبة من الياء تكتب بصورة الياء فيها فرقا بـينها
وبين المنقلبة من الواو/١٥٨
احتزازا عن نحو /١٥٨
احتزازا من نحو /١٥٨
واما نحو ارضين/١٥٨
اعتمادا على الامثلة /١٥٨
واسـم المفعول من المزيد فيه كالمعطي ايضا كذلك لما ذكرنا، ولما كان الالف في جميع منقلبة عن الياء /١٥٨
واوا كان اللام او الياء /١٥٩

مجردا كان الفعل او مزيدا فيه /١٣٨	مجردا كان او مزيدا فيه /١٥٩
لثقلهما على اللام /١٣٩	لثقلها على اللام /١٥٩
اي: اذاتصلت بالفعل الماضي /١٣٩	اي: اذا اتصلت بالماضي /١٥٩
كفزت، وفزنا، ورمت ورمنا /١٣٩	كفزت وغزونا ورمت ورمنا/١٥٩
وليس بوجه /١٣٩	وليس بالوجه /١٥٩
غزت، غزتا، غزونـا، غـزوت، غزوتمـا، غزوتـم، غزوت، غزوتا، غزوتن، غزوت، غزونا/١٣٩	هذه الامثلة محذوفة /١٥٩
ويائيا رمي، رميت، رميتما، رميتن، رميـت، رمينـا /١٣٩	وفيه يائيا رمى ورميا ،رموا /١٥٩س
وفي فعل مكســـور العين: رضي، رضيا، رضوا، رضيت، رضيتا، رضين، رضيتما، رضيت، رضيتمـا، رضيتن، رضيت، رضينا(١٣٩، ١٤٠)	وفي مكسور العين: رضي ،رضوا/١٥٩
وهو ســـواء كان واويا او يائيا، لامه الياء لان الواو تقلب ياء لتطرفها، وانكســار ما قبـلها كرضي اصله رضيو بدليل رضوان /١٤٠	وهو على سواء كان واويا او يائيا قلبـت لامه ياء لان الواو تقلب ياء لتطرفها وانكسار ما قبلها كرضي اصله رضو ،بدليل رضوان، وبهذا صرح في الصحاح /١٥٩
وكذلك تقول: سرو، اي: صار سيدا سروا، ســروا الخ سرت، سروتا، سرونـا، سروت، ســروتما، ســروتم، سروت، سروتما، سروتن، سروت، سرونا /١٤٠	وكذلك تقول: سرا، سروا ســرت، ســرتا وســرونا الخ/١٥٩
بقي ما قبلها على الفتحة /١٤٠	بقي ما قبلها على الفتح /١٥٩
لايخلوعن كزازة /١٤٠	لايخلو عن خزازة /١٥٩
بان يقال، المراد بقوله: ان كسرا اوضم ان تنقـل ضمة اللام اليه؛ اذ لامنافاة /١٤١	بان يقال، المراد بقوله: ان كسر ضم وان ينقـل ضمة الام اليه /١٦٠
فصح انه ضم، فاندفع به الاعتراضات الثلاث /١٤١	فصح انه ضم فاندفع الاعتراضات الثلاث /١٦٠
واما المضارع فتســكن الواو والياء ،والالف منه في الرفع نحو /١٤١	واما المضارع فتســكن الواو والياء والالف اي: اللام منه في الرفع نحو /١٦٠
لبون بني زياد /١٤٢	لبون بنو زياد /١٦٠
وتثبت الالف ساكنة بحالها /١٤٢	وتثبت الالف ساكنة بحالها في الواحد /١٦٠

فان الالف تقتضي فتح ما قبــلها ولو تقــلب الياء الفا، وتحذف لادى الى الالتباس حال النصب نحو: لن يرضى /١٤٤	فان الالف تقتضي فتح ما قبله ولم يقلب الياء اذ لو قلب او حذف لادى الى الالتباس حال النصب /١٦٠
واذا تقرر هذا فتقول /١٤٤	واذا تقرر ذلك فتقول /١٦١
تغزو، تغزوان، تغزون، تغــزو، تغــزوان، تغــزون، تغزين، تغزوان، اغزو، تغزو/١٤٥	هذه الامثلة محذوفة /١٦١
اي المضارع /١٤٥	اي في المضارع /١٦١
فلانك تقــول: الرجال يغزون، والنســاء يغزون، لكون التقدير مختلف/١٤٥	فلانك تقــول: هم يغزون ،وهن يغزون لكن التقــدير مختلف /١٦١
كما ذكره من ان الاصل /١٤٥	لما ذكرنا من ان الاصل /١٦١
واصل يرمون /١٤٥	اصل يرمون /١٦١
وخصه بالذكر /١٤٥	وخصصه بالذكر /١٦١
في عدم ابقاء عينه على حركته /١٤٥	في عدم بقاء عينه على حركته /١٦١
ويناجي ويرتجي /١٤٥	ويرتجي ويناجي /١٦١
وينبري، اي: ينقرض/١٤٦	وينبري ،اي: يعترض /١٦١
هذا من باب الافعال /١٤٦	هذا من باب الافعلال /١٦١
مثل احمر احمرارا /١٤٦	هذه الامثلة محذوفة /١٦١
وههنا ليست حركة متحركة فلا تقلب /١٤٧	وههنا ليست بمتحركة فلا تقلب/١٦٢
اي: جمع المؤنث في الخطاب /١٤٨	اي: لفظ جمع المؤنث في الخطاب /١٦٢
ومن يرضى تفعين بفتح العين واللام محذوفة كما تقدم /١٤٨	ومن يرضى تفعين /١٦٢
ووزن الجمع المؤنث من ترمي تفعلن بالكســـر، ومن يرضى تفعلن بالفتح باثبات اللام وعلى هذ ١٤٨/١	بالفتح باثبات اللام ...وعلى هذا القياس /١٦٢
فاذا دخلت عليه /١٤٩	واذا دخلت عليه /١٦٢
بـــاعادة الالف وردها الى الاصل وهو الياء ضرورة تحركها /١٤٩	بـــاعادة الالف وردها الى الاصل وهو الياء ضرورة لتحركها /١٦٢

ولغة طي على ما حكى عنهم الفراء حذف الياء /١٤٩	ولغة طي على ما حكى عنهم الفراء بحذف الياء /١٦٢
غواز/١٥٠	غواز، وقلبت الواو ياء ثم اعل اعلال جوار /١٦٢
فحذفت ضمة الجمع استثقالاً/١٥٠	محذوفة ضمة الجميع استثقالا /١٦٢
والتنوين صحيح /١٥٠	والتنوين حرف صحيح /١٦٢
فان زال التنوين /١٥٠	فان زالت التنوين /١٦٢
رحمة الله عليه /١٥٠	محذوفة /١٦٣
المكسور ما قبلها /١٥٠	المكسورة ما قبلها /١٦٣
محذوفة /١٥٠	وكذا كل واو يتطرف وما قبله مكسور نحـو: شقـي، غشي، وهما من الشقاوة، والغشاوة /١٦٣
وقبيلة طي يقلبون الكسـرة من المبـني للمفعول من المعتل اللام فتحة واللام الفا فيقولون/١٥٠	وقبيلة طي يقلبون الكسرة فتحة في المبـني المفعول من المعتل واللام الفا يقولون /١٦٣
رحمة اللـه /١٥٠	محذوفة /١٦٣
لان قلب الواو غير المتطرفة /١٥١	لان قلب غير المتطرفة /١٦٣
كما في المصادر نحو قام قياما،والاصل قـواما او على المفرد؛ كما في الجمع نحو: ديم والاصل دومه /١٥١	كما في المصادر او على المفرد ،كما فـي المجمـوع /١٦٣
فلم لم تعتبر التاء /١٥١	فلو لم تعتبر التاء /١٦٣
اعل اعلال غاز /١٥٢	اعل اعلال قاض /١٦٣
واشترط سـكون الاولى ليدغم في الثاني واختير الياء لخفتها /١٥٢	واشترط سكون الاولى فيدغم واختير الياء لخفتها /١٦٣
في الاعلال نحو حيوة /١٥٣	وفي الاعلال نحو حيوة /١٦٣
فاذا اجتمعتا /١٥٤	واذا اجتمعتا /١٦٤
على وجه يصدق كلية /١٥٤	على وجه تصدق كلية /١٦٤
كراهة اجتماع الواوين /١٥٤	لكراهة اجتماع الواوين /١٦٤
عتي، وجلي، وغبي، وخصي /١٥٤	غني وجثي /١٦٤
(ولم اك بغيا) مريم /١٥٤	محذوفة /١٦٤
لئلا يلزم في المضارع يقاي بياء مضمومة /١٥٩	لئلا يلزم في المضارع ان يقال يقاي بياء مضمومة /١٦٥

و عليك الاتعل العين اصلا /١٥٩

بخمس ياءات المنقلبة عن الواو ، ولام الفعل والمنقلبة عن الف التانيث وعلامة التثنية وياء المتكلم /١٥٩

وأروى كاعطى /١٥٩

فاني لو اشتغل في تفصيل ذلك /١٦٠

لان اسم الفاعل /١٦١

عيوا بامرهم كما عيت ببيضتها الحمامة /١٦١

ويجوز فيه، اي: فعل جماعة الذكور من حيي بلا ادغام، فهم احـياء في جمع حـــي ويجوز فيه، اي: في فعل جماعة الذكور حيوا بالتخفيف كرضوا من حــيي بــلا ادغام والاصل حييوا كرضيوا (١٦١،١٦٢).

وتقول في استفعل استحيا يستحـــي استحـــياء، وذلك مستحيا. لم يستحي، لا تستحي استحي، لاتستحي

كاسترشى بعينه/١٦٣

ومنهم اي: من العرب /١٦٣

بكسر الحاء /١٦٣

ولم يجئ الاعن ضرب يضرب ومن علم يعلم، وحســـب يحسب /١٦٦

واما حال الوصل فتقول قه يا رجل /١٦٧

ووي ،وييي/١٦٩

الى لخره /١٦٩

وتركيب الياء من الياءات باتفاق /١٦٩

وقال الاخفش: ان الف الواو منقلبة عن الواو ،وقيل عن الياء /١٦٩

وعليك الاتعل العين /١٦٥

بخمس ياءات: الاولى المنقلبـــة عن الواو والثاني لام الفعل والثالث المنقلبة عن الف التانيث الرابـــع علامة التانيث الخامس ياء المتكلم /١٦٦

وأروى كاعطى يعطي /١٦٦

في لو اشتعل بتفصيل ذلك /١٦٦

لان الاسم الفاعل /١٦٦

عيوا بامرهم كما عيت ببيضها الحـــمامة وضعت لها عودين من نشم وعودا من الثمامة /١٦٦

فهم احـــياء، في جمع حـــــي، ويجوز في فعل جماعة الذكور حيوا كرضوا بـــالتخفيف من حـــي بـــالادغام والاصل: حييوا كرضيوا /١٦٦

وفي استفعل استحي استحاء استحي في الأمر فهو مستحي وذلك مستحي ليستح استح لا يستح لم يستح لايستح استحي

كاسترشى بعينه/١٦٧

ومنهم اي: ومن العرب /١٦٧

بكسر الحاء ومده /١٦٧

ولم يجئ الا من باب ضرب يضرب وعلم يعلم وحسب يحسب /١٦٧

واما حال الوصل فتقول ق يارجل /١٦٧

ووي /١٦٨

الى الاخر /١٦٨

وتركيب الياء من الياءات الثلاث باتفاق /١٦٨

وقال الاخفش: الف الواو منقلبة من الواو وقيـــل من الياء /١٦٨

و اللــــه تعالى اعلم /١٦٩
ولفظ المهموز يشعر بذلك /١٦٩
ويسمى مهموز العين و الاوسط و الوسط /١٦٩
الخلي من التضعيف /١٦٩
اذا تقرر حكمه حكم الصحيح فيقول /١٧٤
تصريف امر /١٧١
روما للتخفيف /١٧١
فان كانت حركة ما قبلها فتحة، تقــلب بحــرف الفتحــة، وهو الالف، كأمن اصله امن قلبت الثانية الفا وان كانت ضمة تقلب بحرف الضمة وهو الواو نحو: اومن مجهول امن اصله: اومن بهمزتين، وان كانت كسرة تقلب بحرف الكســرة. وهي الياء نحو ايمانا مصدر امن و الاصل الممانا /(١٧١،١٧٢)
لايجب قلبها بجنس حركة ماقبلها /١٧٢
وحذفت الهمزة /١٧٣
والامر من تازر: ايزر، الاصل: ائزر قلبــت الثانية ياء كما في ايمان وخصه بالقلب لما فيه من قــلب ليس في اهنا /١٧٤

لانه ليس مثل صائن وبائع /١٧٦
ساقطة /١٧٨
ولا اظنها تخفى عليك /١٧٨
وفي عبارته كزازة /١٨٠
فهو كراع /١٨٠
نقلت وحذفت /١٨١
وعوضت تاء التانيث /١٨١
التزم التعويض /١٨١

ساقطة /١٦٩
ولفظ المهموز مشعر بذلك /١٦٩
ويسمى مهموز العين والاوسط /١٦٩
الخالي عن التضعيف /١٦٩
واذاتقرر حكمه حكم الصحيح فتقول /١٦٩
تصريف امل /١٦٩
للتخفيف /١٦٩
فان كانت حركة ما قبلها فتحة تقــلب بحــرف الضمة وهو الواو ونحو اومر مجهول اصله أأمر بهمزة وان كانت كسرة تقلب بحرف الكسرة وهو الياء نحو ايمانا مصدر امن، والاصل المانا /١٦٩

لايجب قلبها بحرف حركة ما قبلها /١٦٩
حذفت الهمزة /١٧٠
وازر، اي: عاون ،يازر؛ وهنا يهنا كضرب يضــرب فــلا فرق، والتخفيف على القــــياس المذكور، والأمر من تازر ايزر كاضرب، واصله: ائزر، قبــلت الثانية كما في ايمان، وخصصه بالذكر، لما فيه من قلب ليس في اهنا /١٧٠
لانه ليس مثل بائع /١٧١
واناء /١٧١
ولا اظنها من ان تخفى عليك /١٧١
وفي عبارته حزازة /١٧٢
وهو كراع /١٧٢
نقلت حركة الهمزة الى الراء وحذفت الهمزة /١٧٣
وعوضت التاء /١٧٣
التزموا التعويض /١٧٣

مريان مرون اصل مريان: مرنيان و اصل مرون: مرنيون /١٨٢

محذوفة /١٨٢

ومررت يمر بالحذف ،ورايت مريا بالاثبات لخفة الفتحة /١٨٢

لبقاء العدلة ،اعني الحركة و انفتاح ما قبلها /١٨٢

و اما اتخذ فليس من اخذ بل من اتخذ /١٨٤

و هو من الالفاظ المشتركة /١٨٤

ويرجح الفتح على الكسر لخفته /١٨٤

في اصلاح المنطق /١٨٥

اسم المفعول خف /١٨٧

قال الشاعر: محذوفة /١٨٧

ومبطخة، اي: كثيرة البطيخ /١٨٨

ووجدت في بعض النسخ مطبخة بتقديم الطاء على البـــاء، وهو سهو ولكن توجيهها من الطبخ، والطبيخ في البـــطيخ، قال في ديوان الادب: والطبيخ لغة في البـــطيخ هي لغة اهل الحجاز. وفي حديث عائشـــة رضي اللـــه عنها ان النبـــي صلى اللـــه عليه وسلم كان ياكل الطبيخ بالرطب / ١٨٨

كثيرة الثعلب والعصفور /١٨٨

وهو اي: الالة /١٨٨

لانه يدخل القدم وامثاله وليس باسم الالة في الاصطلاح/١٨٩

فيجي جواب اما اسم الالة /١٨٩

اراد المكان /١٨٩

اي: مكان الرقي /١٨٩

من حيث ان الراقي /١٨٩

والقتلة للحالة التي قتل عليها /١٩٢

والميتة للحلة التي اميت عليها /١٩٢

واما في غيره فالنوع منه كالمرة بـــــلا فرق في اللفظ والفارق القرائن الخارجية /١٩٢

والله اعلم بالصواب واليه المرجع والماب /١٩٢

مريان اصله: مرنيان ،مرون اصله: مرنيون /١٧٣

وتقول في اسم الفاعل حالة الصرف /١٧٣

رأيت مرى باثبات ،ومررت يمر بالحذف لخفة الفتحة /١٧٣

لبقاء العلة، اعني التحرك وانفتاح مل قبلها /١٧٣

و اما اتخذ فليس من اخذ بل من اتخذ /١٧٤

وهو الالفاظ المشتركة /١٧٤

ويرجح الفتح على الكسر للخفة /١٧٤

في اصطلاح المنطق /١٧٤

اسم المفعول اضف /١٧٥

قال الشاعر: محرنجم الجامل والنوي /١٧٥

ومطبخة، اي: كثيرة البطيخ /١٧٥

ووجد في بعض النسخ مبطخة بتقديم الياء على الطاء، وهو سهو، لكن توجيهها ان يكون من البطيخ قال في ديوان الادب البـــطيخ لغة في الطبـــيخ وهي لغة اهل الحجاز وفي حديث عائشة ان رســـول اللـــه كان ياكل البطيخ في الرطب /١٧٥

كثير الثعلب والعصفور /١٧٥

وهي اي:الالة /١٧٥

لانه يدخل القدوم وامثاله وليس باسم الالة في الاصطلاح /١٧٥

فيجئ جوابا اما اي اما اسم الالة /١٧٥

اراد بها المكان /١٧٦

اي مكان الوقى /١٧٦

من حيث ان الواقي /١٧٦

والقتلة للحالة /١٧٧

التي مات عليها /١٧٧

واما غيره فالنوع منه كالمـــرة للفـــرق فـــي اللفـــظ، والفارق القرائن الخارجية /١٧٧

محذوفة /١٧٧

مجلس المخزومي يضيف الاكاديمي والشاعر الدكتور نوفل ابو رغيف

ويناقش (أسئلة الثقافة العراقية)

غزوان جليل ابراهيم

استمراراً في تأكيد جسور التواصل بين المؤسسة الثقافية الرسمية والمؤسسات المدنية وفي مقدمتها المجالس والمنتديات الادبية والثقافية في العراق أقام مجلس المخزومي الثقافي أمسية احتفائية ومحاضرة بعنوان (أسئلة الثقافة العراقية / قراءة ميدانية) ضيف فيها الشاعر والاعلامي والناقد والاكاديمي الدكتور نوفل أبو رغيف بوصفه أحد رموز الحياة الثقافية العراقية وأحد أصواتها البارزة فضلاً عن كونه صاحب مشروع ثقافي تحققت نتائجه من خلال الانجازات الكبيرة التي حققها في خطابه الثقافي عموماً وعمله الاعلامي منذ بداية التحول الديمقراطي وكذلك في مؤسسة دار الشؤون الثقافية العامة بروح مثابرة تنم عن تخطيط منهجي ورؤية ستراتيجية متوازنة ومشروع ثقافي قائم على ما يتبناه د. نوفل أبو رغيف دوماً من أن هذه الاعمال والفعاليات هي نتائج (القلق النبيل) الذي ينبغي أن يعيشه جميع المعنيين بالثقافة من أجل النهوض بواقع الثقافة العراقية وإعادة إنتاجها وفق مفهوم الانفتاح والمشاركة الفعلية والوصول بهذه الثقافة الى أبعد نقطة ممكنة ، بهذه الكلمات قدم الاستاذ محمد الجابري الشاعر الدكتور نوفل أبو رغيف الذي إبتدأ حديثه قائلاً:

(لا أجد ما يسعفني في هذه المساحة التي تتيحها هذه



الشاعر نوفل أبو رغيف يكرم رئيس جامعة الاورال في روسيا الاتحادية على هامش الندوة التي أقامها له مجلس المخزومي الثقافي

الامسية سوى أن أتقدم بالشكر الجزيل والعرفان لكل من بذل جهداً استثنائيا باسم وزارة الثقافة أو باسم المؤسسات الدنية، وأن أنقل شكر المعنيين في وزارة الثقافة الى اصحاب هذا المجلس الثقافي الكريم، الذي بات معهداً ثقافيا يعيد انتاج الثقافة العراقية الرصينة، وأخص بالذكر في هذا المقام الدكتور عادل المخزومي صاحب هذا المجلس والدكتورة جليلة عبد الله والأديب محمد الجابري والحاضرين من أساتذتي وزملائي وأخص الدكتور إحسان القرشي رئيس جامعة الديوانية والدكتور جواد الموسوي رئيس جامعة واسط والملحق الثقافي في هولندا واللغوي الكبير عبد الحميد الرشودي والشاعر عبد الله العزاوي والشاعر المحامي جليل شعبان والدكتور المؤرخ سالم الألوسي والشاعر علي الحيدري، راجيا قبول إعتذاري إذا ما فاتني أن أذكر اي اسم من الاسماء الحاضرة وكلهم معارف و المعرفة لا تحتاج الى تعريف، ولا يفوتني أن أشكر وسائل الاعلام الحاضرة في ظل هذا الالتباس السياسي والاصرار على المضي بمشوار الثقافة ، ونحن هنا سنحاول أن نستقبل (أسئلة الثقافة وهواجسها)مما يمكن اقتراحه او استدعاؤه هنا لنتمكن من اقتراح إجابات محتملة لتلك التساؤلات بعيداً عن المشهد السياسي والاداري، الذي قد نقف منه عند منطقة يمكن أن نسميها (منطقة الاعراف)، بوصفها منطقة وسطية لاتلغي أحداً مثلما لا تتبنى لوناً ضيقاً أو تياراً بعينه واترك الحديث للسيد رئيس الجلسة لطرح رؤيته وما يدور في الشارع الثقافي من تداعيات حول الغموض والالتباس الذي يكشف عن واقع الثقافة العراقية.

وقد دعا مدير الجلسة الشاعروالصحفي منذر عبد الحر للحديث عن تجربته مع الشاعر نوفل أبو رغيف ومواكبته له منذ عقدين، التي ابتدأها الشاعر منذر عبد الحر بتقديم الشكر الى رواد مجلس المخزومي، الذي يعد من الاضاءات المهمة في المشهد الثقافي، قائلاً: قد لااقدم معلومة جديدة عن تجربة الشاعر نوفل ابو رغيف لكني سوف أقدم اضاءات مركزة عن مشروعه الثقافي الذي انشغل به وثبته بثقة، وهو يقدم رؤية جديدة بطريقة علمية أكاديمية في انتاج ثقافة عراقية بملامح جديدة، فقد تشرفت أن أكون معه ضمن الوفد الثقافي المشارك في معرض لندن الدولي للكتاب لدورتين، وكان في كل مكان نذهب اليه حتى الجلسات الشخصية يحولها بطريقته المعهودة الى جلسات ثقافية ويوجه الحاضرين الى أن تكون هناك رؤية ثقافية في الجوهر وفي الأبعاد، حاملاً قلقه النبيل وحرصه الدائم على انضاج المشروع الثقافي والتواصل مع كل اشكاله وتفاعلاته في الخارج والداخل، وفي جلسة خصصت للشاعر نوفل أبو رغيف على قاعة (آرك) في لندن بتاريخ ٢٠١٢/٤/٩.. كان قد تحدث فيها عن هموم الثقافة العراقية وعن مجموعة الاشكالات والأزمات التي تحيط بالمشهد الثقافي بطريقة جريئة وضع فيها النقاط على الحروف، وهو يواصل حرص الشاعر والمثقف المسؤول وقربه من المثقفين وهمومهم على الرغم من الانشغالات الكثيرة والالتزامات والواجبات المتصلة فهو يقف على رأس الهرم في ادارة أهم مفاصل الثقافة العراقية وقد حقق تغييراً كبيراً وجذريا في المؤسسة التي يديرها بشهادة المثقفين المعنيين المنصفين من المتابعين للمشهد الثقافي،والبعيدين قبل القريبين فقد حول المؤسسة الثقافية التي كانت تعاني الاهمال والتراجع في كل أقسامها وكانت تعاني إبتعاد المثقفين والمتخصصين عنها الى ورشة ثقافية يجتمع فيها المثقفون بكل مشاربهم وتوجهاتهم الايدلوجية



محمد الجابري مدير الجلسة والشاعرنوفل أبو رغيف مدير عام دار الشؤون الثقافية العامة

والفكرية وتمكن من النهوض بواقـــع المؤسســـة من خلال مشـروع ثقافي متكامل ورؤية منهجية اتضحـت من خلال تجربته الشخصية، بوصفه شاعراً وناقداً واكاديمياً وباحثاً خبره الوسط الثقافي أو من خلال الجماعات التي تنشط فيها مثل (جماعة تغير)و (اتحاد ادباء بغداد) وجماعة مشـروع (قـصيدة شـعر) وهو يحمل رؤية ابـداعية جمعت بـين التجربة الشعرية والقدرة النقدية على انضاج هذا المشروع المتكامل في رؤيته المتحدة وفي أسلوبه وخصوصيته، واليوم نحن نتحدث عن (أسئلة الثقافة العراقية) وفي هذا المجلس المعروف بخصوصيته وتاريخه العريق فربما يكون من أهم التساؤلات التي تثيرها محاضرة الدكتور ابـو رغيف، هل نسـتطيع أن نتجاوز المشـاكل التي تعوق عودة الثقـافة العربية الى حاضنتها الاولى باعتماد بغداد عاصمة الثقافة العراقية في ٢٠١٣ ، لما يعانيه هذا المشروع من مشاكل قد تهدد بـتأجيل المشـروع أو إلغائه كما اشـار ابـو رغيف في مطلع ندوته المخصصة لهذا الموضوع.

ثم عاد الحديث الى مدير الجلســة الاســتاذ محمد الجابــري الذي أشــار الى أهمية مشــاركة دار الشــؤون الثقـافية العامة في المعارض الدولية وحـضور الثقـافة العراقـية التي أزاحـت من ذاكراتنا هموم تأجيل النجف عاصمة الثقـافة الاسـلامية، لنقـف من جديد أمام تحد جديد هو تحقـيق مشـروع بـغداد (عاصمة الثقـافة العربية) وبعدها ترك الحديث للشاعر الدكتور نوفل ابو رغيف فكان أبرز ما جاء في حديثه: قد لا تكفي المحاضرة من حـيث الوقـت لاشبـاع كل التسـاؤلات الايجابـية أو السلبـية بحثاً ومعالجة، ولكني اعتقـد أن من واجبـنا كمثقـفين أو معنيين بشـؤون الثقـافة أن نحرص على تحقيق الاشتباك الايجابي الذي يحفز على إنضاج المشروع الثقافي ويصل بـه الى مزيد من التفاعل والمراجعة وفض الاشتباك السلبي الذي يلغي الآخر ولا يقبل به، أعتقد أن الوقت المتبقي كاف اذا تضافرت الجهود المخلصة لتجاوز

الصعاب والتخلي عن عقدها الثقافية .

وربما يحتاج الحديث عن هذا الموضوع الى ـ إضاءات مركزة لخلفية هذه الجوانب مدار الندوة ، لأن كل مشروع في حياتنا بحاجة الى مقومات منطقية بموازاة عوامل ثانوية لانجاحه ، وقد يكون الحديث عن الميزانية والتخصيصات هو الأساس الذي ننطلق منه الى وضع الخطط والستراتيجيات الناجعة للتحول الحقيقي المنشود، والتساؤل الاول الذي يمكن أن نضعه في هذا المقام هو؛

ـ ماهي خارطة الثقافة العراقية والى أين تتجه بوصلتها ؟ في كل ما تنطوي عليه الثقافة من تحولات أو تراجعات، وهل ثمة في الافق ما يشير الى وجود إجابة كافية عن هذا التساؤل الدئم؟

ـ وما مدى ما يتم طرحه من مشاريع ثقافية تسهم في انجاح عقد قمة بغداد الثقافية القادمة عبر عاصمة الثقافة العربية ٢٠١٣؟ اذا ما أردنا ان نتحدث. عن الثقافة في ظل اشكال العولمة وهيمنتها وما أحدثته من تطور هائل في ثقافات العالم ومناهجها، وكيف لنا أن نطبقها في أوساطنا الثقافية والاكاديمية، وهذا ما يؤكد لنا أن التساؤلين يكادان يكونا ن مترابطين ومتلازمين.

ـ السؤال الآخر يتمحور في ما الذي نريد بثه في فضاء الثقافة العراقية؟ ولعله يتمثل في، ماهو تعريفنا الحاسم للثقافة؟ وماهي هوية الثقافة العراقية؟

فهل نمتلك اجابة كافية ووافية لهذا التساؤل المفتوح؟ ويبقى السؤال الجوهري الرئيس من هو المثقف؟ وللاجابة الشافية أعتقد أننا متفقون على عدم وجود تعريف محدد بشكل نهائي للثقافة، وأعتقد أن الكثير منا لا يمتلكون إجابات حاسمة ونهائية اذ أن هناك أكثر من مائة تعريف للثقافة حتى الان، بعد أن تجاوزنا التعريف السائد الذي يتخذ من البلاغة والادب والعمل في حقلهما النقطة التي تحدد هوية المثقف. لذا فنحن نؤكد مازال الوقت مبكراً للحديث عن وجود هوية ثقافية عراقية قارة الكلامح على الرغم من كل التجاذبات والتضادات التي يعيش فيها المشهد الثقافي، وبالرغم من كل هذه الحقبة الزمنية ونحن نقف على مشارف السنة العاشرة، لذا بامكاننا أن نتحدث عن ملامح الثقافة العراقية بصرف النظر عن إعطاء هوية ضيقة أو نهائية للثقافة العراقية.

-وهل استطعنا أن نتجاوز مشاكل الثقافة العراقية خلال عقد من التحول الديمقراطي؟ أعتقد أننا قد تجاوزنا كثيراً من الاثار السلبية لبعض الثنائيات التي جاء قسم منها من الخارج، وحمل القسم الأخر أجندات ضيقة هدفها الحصول على بعض المكاسب والامتيازات، واذا أردنا أن نتحدث عن الانجازات فلاشك في أن الايجابي أكثر من السلبي، ولكن مانعني به هو أن نتحدث عن السلبي وأن نجد الحلول الميدانية والمعقولة.

ومن بين الثنائيات التي تراجعت دون القدرة على الاستمرار هي ثنائية (مثقفو الخارج ومثقفو الداخل) وهي ثنائيات مستوردة وربما ساعد البعض على انضاجها بسبب ايديولوجيات محددة.

-وثنائية (الثقافي والسلطوي)، والثقافي والسلطة، والمثقف والسياسي . وأعتقد أنها ثنائيات قلقة اخذت حيزا كبيراً لكنها تراجعت كثيراً وبدأت تأخذ صورة واضحة. علينا أن نمتلك الشجاعة وان نفصل ما بين ما هو ثقافي وما هو سياسي، فلاينبغي أن تكون لدينا ارتباطات سياسية أو ايديولوجية قسرية على حساب الثقافة ومن الخجل أن ندخل موجهات الثقافة الحرة في منطقة حزبية، أو أن تسير من خلال قناة واحدة من دون أن تمتلك رئة نقية يتنفس منها الجميع.

ومن ثم من هو المسؤول عن العقد الثقافيةالمتنامية؟

هل هو السياسي أم المثقف؟ ولنعترف أن كثيراً من اشكاليات الثقافة العراقية سببها عنت وعناد وأحادية المثقف نفسه.

فهل دور المثقف يجب أن يكون دوراً شتائمياً أم انعزالياً أم نكوصياً؟ ولكي تكون مثقفاً هل لا بد أن تشتم الدولة ؟ وهل على المثقف أن يستمر بالانشغال بمراقبة اخفاقات المؤسسة الحكومية الثقافية ؟ أو اخفاقات المشهد السياسي دون أن يقدم شيئاً والجواب هو لا هذا ولا ذاك، ولكن لابد أن ننظر الى الاشياء بموضوعية، وأن لا ننكر الايجابيات وأن نتحدث عن السلبيات بهدف معالجتها وأن نرضى بالحلول الوسطية ونحن بحاجة الى مراجعة قناعتنا القلقة في مسألة قبول الآخر وحسن الظن وأن نتعود(ثقافة الحب)، والحديث هنا عن ثقافة بلدوليس عن ثقافة اشخاص ومؤسسات، وهذا يتطلب منا الحديث عما هوايجابي وأن نحدد المشكلة ونعطي الحلول لها ؟

-اذن ما الذي ينبغي أن يقدمه المثقف ؟ وهل يمكن أن نحصر الثقافة في المؤسسة الرسمية؟ ام المدنية ؟ وما هي المؤسسة الثقافية ؟ هل هي المجالس الثقافية ؟ أم هي الاتحادات والنقابات المعنية ؟ هل هي المؤسسة التي تمتلك دعماً خارجياً وتمثل أجندات حزبية ؟وسوى ذلك من عشرات الاسئلة التي تتردد في يومياتنا.

كل هذه التساؤلات ستبدو استنكارية، وهي بذلك تقدم نصف الاجابة وتعني عدم رضى المتحدث عن الأثر السالب لهذه الاشكاليات. أعتقد أننا لا نمتلك اجابة شافية لعدم وجود مشروع ثقافي متكامل في بعض المؤسسات يمكن من خلاله انضاج الثقافة وتطويرها كما اننا لانشعر بالرضا عن واقعنا الثقافي لأننا لا نحظى بأشخاص لديهم همّ ثقافي عميق في هذه المؤسسات، إذلابد أن يكون العمل في صناعة الثقافة جزءاً من الممارسة اليومية،وعلينا أن ندخل كل ممارسات الحياة في سلوكنا الثقافي وأن تكون الثقافة العولمية حاضرة بكل تفاصيلها وتقنياتها في تطوير ثقافتنا، وهذا لا يعني أن نتخلى عن ثقافتنا البلاغية ومنابعها الأم لانها تمثل حضورنا وتواجدنا. وهنا يحق لي أن أدعو مخلصاً الى نظرة متوازنة تحقق مفهوم (الوسطية) و نتجاوز لوثة الحسد ولوثة النيل من الآخر، علينا أن نبدأ من حيث انتهى الآخر في تواصل حميم واختلاف مشروع.

وفي ختام الجلسة وزع الشاعر نوفل أبو رغيف دروعاً تكريمية باسم مجلس المخزومي الثقافي الى أعضاء الوفد الروسي الذي حضر الجلسة وإلى المستشار الثقافي العراقي في روسيا الاتحادية وهم كل من: الدكتور الكسندر - رئيس جامعة الاورال - والدكتورة ساشا - رئيسة جامعة الطاقة والعلوم والتكنلوجيا، والدكتورة ماركريت - مديرة دائرة العلاقات الخارجية في وزارة التعليم الروسية، والدكتورة نتنيا - رئيسة جامعة العلوم ، والدكتورة أبريتا - مديرة معهد العلاقات الدولية للغة الروسية، والدكتور أيفانوفيتج - رئيس قسم هندسة الكيمياء.

وعلى هامش الجلسة تم افتتاح معرض للكتاب العراقي أقامته دار الشؤون الثقافية العامة بهذه المناسبة كنوع من أنساق التواصل الثقافي بين المؤسسة الثقافية الادبية ، تم فيه عرض اخر انجازات الثقافة العراقية ونتاجاتها وتفاعلاتها مع ثقافات المنطقة والعالم.



من اصدارات دار الشؤون الثقافية العامة بمناسبة بغداد عاصمة للثقافة العربية

